المحتويات



مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين... وبعد.

لما كان القرآن هو دستور رسالة الإسلام ومصدرها الأول، فهو حُجَّة الله على خَلْقه، ومعجزة النبي ﷺ في رسالته، وإليه المرجع عند الاختلاف، فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا، وهو الذي تحدَّى الله به الأجيال كلها أن يأتوا بمثله، قال ﷻ: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ (الإسراء). نقول: لما كان ذلك كله؛ فقد عَلِم أعداء الإسلام - على مختلف صُوَرهم وأشكالهم - أنه لا سبيل إلى تَقْويض الإسلام إلا بتقويض دعامته وطَمْس ينبوعه ومصدره، وقد علموا أنه القرآن.

فمنذ أن نزل القرآن على النبي ﷺ، وأعداء الإسلام لا ينتهون عن أن يُلْحِقوا به كل نقيصة: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ (الصف)، ويجادلون في الله بغير علم ليضلوا عن سبيله، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾ (الحج)، ولكن القرآن - ذلك الأساس الراسخ الشامخ الصامد - باقٍ بحفظ الله وفضله وحده لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

إن أعداء الإسلام يُحْدِقون بنا، ويكيدون لنا، ويمطرون القرآن بتُرَّهاتٍ[1] وأكاذيبَ مُخْتَلَقةٍ باطلة؛ فأنكروا إلهية النص القرآني جملة وتفصيلًا، وأرجعوه إلى تأليف الرسول وبعض الصحابة، ونعتوه بأنه كتاب استوحى البيئة العربية، فجاء عاكسًا لها بما فيها من حسنات وسيئات، ووصفوه بالتخليط والتناقض، والزيادة والنقصان، والاضطراب والتعارض، شكلًا ومضمونًا، هادفين من وراء ذلك كله إلى نقض أحكامه، وتشويه أسلوبه، والنيل من إعجازه، والطعن في سلامته؛ سعيًا إلى تشكيكنا - نحن المسلمين - في صحة كتابنا المنزل.

وأول ما نلحظه هنا هو أن هذه التهم والأباطيل غدت معروفة مكررة، وما ذلك إلا نتيجة للاتفاق المبيت والتدبير المحكم بين أعداء الإسلام، وكأنهم أمام متَّهم لا بد أن يدينوه، وتلك النية المبيتة في الحكم من شأنها أن تفضي إلى نتائج تكاد تكون واحدة، ومع هذا فإن ثمة حقيقة تزداد جلاء مع الزمن، هي: أن القرآن لم يضق صدره ولم ينقص قدره يومًا بناقد ولا بحاقد، وأنه كان على مر العصور مثلًا حيًّا لسعة الصدر واتساع الأفق.

ومن ثم - ونحن أمام هذه الحملة الشعواء - كان لزامًا علينا أن نتتبع سائر الشبهات والأوهام والافتراضات الباطلة التي يحاول أن يلحقها بعضهم بكتاب الله ﷻ، واضعين إياها تحت مجهر النظر العلمي، مصغين - بتجرد - إلى ما

١. التُّرَّهات: الأباطيل، واحدتها: تُرَّهة.

يقرره العلم والمنطق بشأنها، ولسوف تتحول هذه الشبهات على أعقاب ذلك إلى أدلة ناطقة بالحق،شاهدة على صدق القرآن، فاضحة أكاذيب المختلقين لها.

وقد جاءت معالجتنا لشبهات هذا الجزء منتظمة في المحاور الخمسة الآتية:

المحور الأول: ونعالج فيه الشبهات التي أثيرت حول مصدر القرآن ونفي كونه من عند الله ونسبته إلى النبي ﷺ، وكذلك شبهاتهم حول جمع القرآن وتدوينه، وما عسى أن يكون قد أصابه أثناء هذا التدوين الجمع وذاك من خلل في الترتيب أو خطأ في الرسم، وما يكتنف ذلك كله من خلط أو زيادة أو نقصان.

المحور الثاني: ونعالج فيه الشبهات التي أثيرت حول الناسخ والمنسوخ في القرآن، وكذلك شبهاتهم حول تعدد القراءات والأحرف السبعة التي نزل بها، وخلطهم بينها وبين القراءات السبعة.

المحور الثالث: ونعالج فيه شبهاتهم حول القصص القرآني، ووصمهم إياه بالتشويه والتشويش والاضطراب تارة، وأنه قصص فني غير واقعي تارة أخرى.

المحور الرابع: ونعالج فيه الشبهات التي أثيرت حول مكي القرآن ومدنيِّه، ودعواهم اختلاف المكي عن المدني، واستنكارهم وجود بعض الآيات المكية في السور المدنية والعكس، وزعمهم خلو القرآن المكي من التشريعات ومن الأدلة والبراهين على عكس القرآن المدني، وأن ذلك كله دليل على تأثر الرسول ﷺ بالبيئة من ناحية، وعلى عدم وحدة القرآن واتساقه من ناحية أخرى.

المحور الخامس: ونعالج فيه ما أثير حول تشابه مضامين القرآن مع الكتب المقدسة، وما يستتبع ذلك من تجريد للإسلام ومبادئه من كل أصالة ذاتية.

وعلى كلٍّ، فقد اتشحت مناقشتنا بالحوار الذي ربانا ديننا على تقديسه وعدم الفرار منه، وأن نتخذه السلّم الذي لا بديل عنه للصعود إلى الحقائق، والتعالي عن الزيف، مُتَّسقين في هذا كله مع الشعار القرآني القائل: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (سبأ).

وقد خلصنا من هذا الحوار وتلك المناقشة إلى مجموعة من الثوابت التي لا مفر من التسليم بها، وهي:

١. من المحال أن يكون النبي ﷺ مصدرًا للقرآن وذلك للآتي:

- أن أسلوب القرآن يخالف أسلوب كلام النبي ﷺ مخالفة تامة، فلو رجعنا إلى كتب الحديث التي جمعت أقوال النبي ﷺ وقارناها بالقرآن؛ لرأينا الفرق الواضح والتغاير الظاهر بين أسلوب كل منهما.
- أنه عند قراءة كتب الحديث يستشعر القارئ شخصية بشرية تعتريها الخشية والضعف أمام الله، بخلاف القرآن الذي يتراءى للقارئ من خلال آياته ذاتية جبارة عادلة حكيمة، رحيمة لا تضعف حتى في مواطن الرحمة.
- أن محمدًا ﷺ أُمِّي: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت) وما درس ولا تعلم ولا تتلمذ، فهل يُعْقَل أنه أتى بهذا الإعجاز التشريعي المتكامل دون أي تناقض.

- أن نظرة القرآن الشاملة المتناسقة للكون والحياة والفكر والمعاملات والحروب والزواج والعبادات والاقتصاد... لو كانت من صنع محمد ﷺ، لما كان بشرًا.
- أية مصلحة أو أية غاية لمحمد ﷺ في أن يؤلف القرآن ـ وهو عمل جبار معجز ـ وينسبه لغيره؟
- في القرآن أخبار الأولين بما يغاير أخبارهم في الكتب المتداولة أيام محمد ﷺ، وفيه إعجاز علمي في الكون والحياة والطب والرياضيات... فهل يُعْقَل أن هذا النبي الأمي قد وضعها؟!
- في القرآن عتاب ولوم في مواضع عديدة، فهل يُعقل أن يؤلف محمد ﷺ القرآن ثم يوجه العتب إلى نفسه؟!

٢. من المحال أن يكون قد أصاب القرآن شيء من التحريف أثناء جمعه وتدوينه؛ إذ إن التاريخ في عمره الطويل لم يعرف كتابًا أحيط بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عُرِف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عُرِفَ ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا سلم من التحريف والتبديل غير القرآن الكريم.

٣. توافرت الأدلة العقلية والنقلية على وقوع النسخ في القرآن الكريم، فالمنطق السليم يُجَوِّز وقوع النسخ عقلًا؛ لأنه لا يترتب على وقوعه محال.

٤. تعدد القراءات وحي من الله تعالى علمها النبي ﷺ أصحابه متفرقين، فلما اختلفوا فيما بينهم بشأنها؛ أقرها النبي ﷺ ولم ينكر على أصحابه القراءة بأيٍّ منها، فهي رخصة من الله لهم، وليس صحيحًا ما زعموه من أن تعددها نوع من الاختلاف؛ فهو لا يشمل إلا كلمات وألفاظًا محصورة فقط في بعض الآيات، كما أنه لا يمس أصلًا ولا فرعًا من التشريع، فالقراءات لم تحرم حلالًا ولم تحل حرامًا، ولا تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات.

٥. الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبعة ـ وإنْ أوهم التوافق العددي الوحدة بينهما ـ إنما هي جزء من الأحرف السبعة؛ فقد كانت القراءات أكثر من ذلك بكثير، لكن اشتهرت السبعة لتوافر حملتها وناقلوها ولشهرة أئمتها في الدين والعلم.

٦. القصة في القرآن حقيقة، ليس للخيال وللأساطير منها نصيب، فكل ما ورد في القرآن الكريم من قصص إنما هو حقائق لا شك فيها، وصدقه لا يستطيع الناس أن يجدوا فيه مطعنًا، ناهيك عما يتسم به من إحكام وتكرار هادف معجز ـ حسبما يقتضيه السياق ـ مما يزيده سموًّا ورفعة.

٧. انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن على هذا النمط الذي نراه اليوم في المصاحف، كان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله ﷻ، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه؛ فقد كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها.

٨. الأسلوب الأمثل في بناء الحضارات هو التدرج، والانتقال من الأصول والعقائد إلى الفروع والأحكام شيء منطقي يتفق مع طبيعة الأشياء؛ ولذا جاء القرآن المكي يتحدث عن عقيدة التوحيد ونبذ الوثنية، ثم انتقل المكيّون

إلى المدينة بعد الهجرة، متزامنًا هذا الحدث مع نزول التشريعات والأحكام والتفصيلات والمعاملات وغيرها، لبناء مجتمع أخلاقي سليم، فكان هذا للمكيين والمدنيين وللمسلمين عامة.

٩. إن نقل النبي ﷺ كثيرًا من الكلمات والآيات من كتب السابقين يستدعي معرفته باللغات السابقة كتابة وقراءة، وهذا ما اجتمعت المصادر على نفيه؛ لأن النبي ﷺ كان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، أضف إلى هذا أن الكلمات التي يُعتقد أن بينها وبين آيات التوراة والإنجيل تشابهًا ـ تختلف في معناها عن معاني تلك التي جاءت في كتبهم.

وبعد، نرجو أن نكون قد أصبنا الهدف، وحصلنا الغاية، وقمنا بواجب الدفاع عن القرآن الحكيم، ذلك القرآن الذي: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ (فصلت).



المحور الأول

شبهات حول مصدر القرآن وجمعه

الشبهة الأولى

ادِّعاء أن القرآن الكريم من وضع البشر (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن القرآن من صنع البشر، وليس من عند الله، وأنه خلاصة ثقافات وديانات سابقة؛ مُعَلِّلين ذلك بما يزعمونه من أن محمدًا ﷺ تعلم كثيرًا من الأَحْبار والرُّهْبان، فاستطاع أن ينقل منهم بعض الأخبار أو يصوغها بنفسه، وأنه أخذ كثيرًا من الثقافات الهندية واليونانية والرومانية، واقتبس كثيرًا من الشعر الجاهلي. ثم إن ما كان يَنْتَابه أحيانًا ليس وَحْيًا، ولكنه مَحْض هَوَس أصابه من كثرة اختلائه بنفسه، ولا يبعد أن يكون محمد قد استغلَّ مناخ هذه الخلوة - التي اعتادها - بما فيها من هدوء في تلخيص ما أفاد منه وما تعلمه من سابقيه ومعاصريه في نظم القرآن، ويستدلون على هذا بـ:

- نزول القرآن مُنَجَّمًا[1] لا جملة واحدة.
- نزول القرآن بقراءات متعددة.
- إمكانية الإتيان بمثل سور القرآن؛ إذ لا وجه للإعجاز، أو للإلهية فيه.
- ما نصت عليه بعض آيات القرآن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠)﴾ (الحاقة).

ويرمون من وراء هذا كله إلى الطعن في إلهية القرآن والتشكيك في مصدره؛ إيذانًا للتشكيك في سلامته وعصمته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) للمفسرين في تحديد المراد بـ "الرسول" في الآية - مناط الاستدلال - قولان؛ أحدهما: قول جبريل، والثاني: قول محمد ﷺ، ولو افترضنا أن القول الثاني هو الأرجح فإن هذا لا يعني أكثر من كونه ﷺ مبلِّغه لا مُنْشِئَه.

٢) لقد زامن نزول القرآن دهشة معاصريه من مصدره، ولو علم هؤلاء المشركون أن النبي ﷺ أخذ القرآن من اليهود أو النصارى؛ لأشاعوا ذلك، واتخذوه مطعنًا في الإسلام عامة وفي القرآن خاصة، وهذا ما لم يحدث.

٣) إننا لو سلمنا لهؤلاء بأن في القرآن بعض الألفاظ اليونانية والرومانية، فلن نسلم لهم بذلك فيما يتعلق بالثقافة الهندية؛ ذاك أنه لم يرد أي لفظ هندي في القرآن، على أن ما ورد فيه من الثقافات إنما هو من قبيل الألفاظ التي عُرِّبت، ولا تَقِلُّ فصاحة بعد تعريبها واستخدام النص القرآني إياها عن تلك التي اشتملها القرآن من ألفاظ العرب أنفسهم - شعرًا ونثرًا - ولا يعني اشتمال القرآن على الألفاظ الأعجمية أنه مُقْتَبس من غيره.

٤) كثير من آيات القرآن نزلت مرتبطة بوقائع وأحداث معروفة، وهذه الأحداث كانت تالية لفترة تحنث النبي ﷺ في غار حراء، فكيف نَظَمَ محمد ﷺ هذه الأحداث قرآنًا قبل وقوعها أصلًا؟!

(*) هل القرآن معصوم، عبدالله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

١. المُنَجَّم: المفرَّق.

٥) لم يثبت عن النبي ﷺ ـ قبل البعثة أو بعدها ـ أنه كان من ذوي الوساوس، فكيف يُسمَّى ما كان يحدث له أثناء نزول القرآن عليه هَوَسًا لا وَحْيًا؟!

٦) لقد نزل القرآن منجمًا، وليس في هذا ما يدل على بشريته، بل كان تَنْجِيمه لِحِكَمٍ متعددة؛ منها: التَّدرُّج، وتثبيت الإيمان، ومجاراة الحوادث، وإثبات إعجاز القرآن.

٧) لو جِيء حقًّا بسورة أو أكثر من مثل القرآن الكريم؛ لوصلت إلينا، ولذاعت بين الناس، وهذا ما لم يحدث وما ينبغي له أن يحدث.

٨) القراءات القرآنية توقيفية خاصة بكلمات محدَّدة، وتعدُّدها لا يعني تضارب المعاني، وتناقض الأحكام، بل هو في الغالب اختلاف صوتي، وتنوع في طرق الأداء ـ بقراءة الكلمة القرآنية على وجهين أو أكثر ـ بما يُثْري المعنى، ويوسع الدلالة، وييسِّر على العرب، ولا يَمَسّ من التشريع أصلًا ولا فرعًا.

٩) نجد فيما اشتملت عليه آيات القرآن من وجوه الإعجاز ـ العلمي والبياني والتشريعي ـ من جهة، وما أخبر به من غيبيات ـ الماضي والمستقبل ـ من جهة أخرى ـ ما يشهد بإلهيته في مقابل ما ادَّعاه بعضهم من القول ببشريته.

التفصيل:

أولا. المقصود بالرسول في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ (الحاقة):

إذا تأملنا الآية في سياقها القرآني ـ في محاولة مِنَّا للوقوف على مدلولها بشيء من الموضوعية ـ وجدناها مُصَدَّرة بالتأكيد بـ إنَّ واللام " للرد على من كذَّبوا بأن يكون القرآن من كلام الله ونسبوه إلى غير ذلك"[1].

"ولقد كان ممَّا تقوَّل به المشركون على القرآن وعلى رسول الله ﷺ قولهم: إنه شاعر أو كاهن؛ متأثرين في هذا بشُبْهَة سطحيَّة، منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على كلام البشر"[2]، فلما كان اعتقادهم أن لأحد هذين الاحتمالين اللذين نسبوا الرسول ﷺ لهما ـ الشعر والكهانة ـ ما يمدُّه بالقول الفائق على كلام البشر بما فيهما من اتصال بالجِنِّ وخلافه؛ جاءت الآية الكريمة في مقام نفي تلك الشبهة عنه ﷺ.

وإذا استقر في أذهاننا ما قرَّرنا من كون الآية ـ مناط الاستدلال ـ واردة في سياق نفي بشرية القرآن وإثبات إلهيته في مقابل ما حاول المشركون ادعاءه نقول: إذا استقر في أذهاننا هذا إلى ـ جانب ما هو معهود من منطقية الحِجَاج في القرآن الكريم عامة بما اتسم به من قوة ومُحاجَّة واتساق ـ تساءلنا: هل يعقل أن يذهب القرآن الكريم لينفي بشرية مصدره فينسبه للنبي ﷺ مؤكدًا ذلك بأداتي توكيد في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ (الحاقة)، فضلًا عن كون الجملة الاسمية تفيد التوكيد؟!

إن هذا مما لا يستقيم عقلًا ولا منطقًا، ونحن نشهد أن في القرآن نماذج أكثر من أن تحصى تندرج تحت قائمة الحجة بالحجة، وتقرع الوهم والزعم بالدليل والمنطق، وقرآن هذا دأبه وذاك منواله وتلك سجيته لا يحسن بكم أيها المشككون أن تقطعوا منه دليلًا على خلاف ما

١. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مجلد١٤، ج٢٩، ص١٤١.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٦، ص ٣٦٨٦.

أكد عليه في غير ما موضع من إثبات إلهيته ونفي بشريته.

وكان من الجدير بهم أن يتلمَّسوا لهم دليلًا - ولن يجدوا - في غير هذا الموضع من القرآن بما فيه من إثبات خلاف دعواهم، ناسين أن في التماس الدليل - مما لا يعد دليلًا، فضلًا عن أن يكون دليلًا على خلاف الدعوى - ضربًا من فقدان المرجعية وبُطْلان الحُجَّة؛ وبالتالي وَهَن الدعوى.

أما وقد وقع القوم فيما استحسنا لهم ألا يقعوا فيه؛ فإنه يجدر بنا - نحن الآخرين - أن نقف بهم على طبيعة المعنى الذي جهلوه - أو تجاهلوه - في الآية مناط الاستدلال؛ إبطالًا لدعواهم من جهة، وتفصيلًا للمعنى وإيضاحًا للسياق من جهة ثانية.

والمفسرون في تفسير هذه الآية على قولين:

الأول: أن المراد بالرسول في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ (الحاقة) جبريل ، ودليلهم قوله ﷻ في موضع آخر: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ (التكوير).

الثاني: أن الرسول في الآية هو محمد ﷺ؛ لقوله ﷻ بعدها: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الحاقة)[1].

ويقول ابن عاشور: فالمراد بالرسول الكريم: محمد ﷺ كما يقتضيه قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ (الحاقة). وهذا كما وصف موسى بـ "رسول كريم" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (الدخان)[2].

على أن ما ينبغي أن نُلمِحَ إليه أن كون الرسول في الآية هو محمد ﷺ - إن أخذنا بقول الفريق الثاني من المفسرين - لا يعني أن يكون القرآن من تأليفه ولا أن يكون صادرًا عنه - كما يزعمون -؛ بل المعنى: أنه ليس "قولَ الرسول ﷺ، إنما هو من قول الله ﷻ، وإنما نُسب إلى الرسول ﷺ لأنه تاليه ومبلغه والعامل به، كقولنا: هذا قول مالك"[3] فلا يعني هذا بالضرورة أن مُنْشِئَه في الأساس مالك، وإنما يكفي مسوغًا لتلك النسبة أن يكون مالك من أتباع هذا القول العاملين بمقتضاه الناقلين له، وهذه كتلك.

ولمزيد من الإيضاح نقول: " إن إضافة " قول" إلى "رسول" ما جاءت إلا لأنه ﷺ هو الذي بلغه فهو قائله، والإضافة هنا لأدنى ملابسة، وإلا فالقرآن كلام الله ﷻ أنزله وأجراه على لسان النبي ﷺ، كما صدر من جبريل بإيحائه بواسطته قال ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ (مريم).

وأيًّا ما كان من أمر فإن ثمَّة شيئًا تجدر الإشارة إليه في تفسير الآية الكريمة، ذاك أن كلمة "رسول" نفسها دالة على خلاف ما زعموا، حتى لو افترضنا أن إضافة القول له على سبيل الملكية، سواء كان المراد محمدًا ﷺ أم جبريل ، فما زالت دلالة كلمة "رسول" واقفة بها عند مجرد حمل الرسالة وتبليغها، أيًّا كان المبلِّغ في الآية

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١٨، ص٢٧٤.

٢. التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مرجع سابق، مجلد ١٤، ج٢٩، ص١٤١.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٨، ص٢٧٤.

محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام، فإن قوله ﷻ في السورة نفسها: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٣)﴾ (الحاقة) فيه تصريح بعد كناية، فلما وُصف القرآن بأنه ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ ونُفي عنه أن يكون قول شاعر أو قول كاهن، ترقَّب السامع معرفة كُنْهه، فَبُيِّن أنه مُنَزَّل من رب العالمين على الرسول ﷺ، ليقوله للناس ويتلوه عليهم.

وتأسيسًا على ما سبق يمكننا إجمال ما أسلفنا تفصيله، انطلاقًا من كون الإضافة في الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠)﴾ بمعنى: "من" ـ نقول: إن إضافة القول ـ القرآن ـ إلى النبي ﷺ إضافة أداء، وليست إضافة إنشاء، أيًّا كان المراد من المضاف إليه، والتقدير: إنه لقول من رسول كريم؛ ومعلوم أن للإضافة معانيَ كثيرة غير الملكية، من ذلك قولنا: باب حديد، فلا يمكن أن تكون الإضافة هنا للملكية، وإنما التقدير: باب من حديد، ناهيك عما تحمله كلمة "رسول" ذاتها ـ أيًّا كان المراد منها ـ من دلالة التبليغ وتحمُّل الرسالة، فضلًا عن أن الآية واردة في سياق نفي بشرية القرآن، فلا يعقل أن تثبت الآية نسبة القرآن للنبي ﷺ في سياق نفي بشريته وإثبات كونه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٨٠)﴾ (الواقعة)!

ثانيًا. كيف يتلقى النبي ﷺ القرآن ـ الذي تحيَّر المشركون في إدراك مصدره ـ عن اليهود والنصارى ثم يسكت المشركون عن هذا؟!

لو أن النبي ﷺ أخذ عن اليهود والنصارى حقًّا، لما سكت عنه المشركون ولأشاعوا ذلك، واتخذوه مطعنًا في الإسلام وفي القرآن، لكن هذا لم يحدث. كما أن أحبار اليهود، ورهبان النصارى ـ أنفسهم ـ لم يدَّعوا ذلك.

وفي قصة إسلام الحَبْر اليهودي عبد الله بن سلام ما يؤيد صِدْق النبي ﷺ وأنه يوحىَ إليه من ربه؛ حيث أراد عبد الله بن سلام أن يختبر النبي ﷺ بأسئلته التي لا يعرفها إلَّا نبي، فلما أجاب عنها النبي ﷺ سلَّم له الحبر اليهودي بالعلم وصِدْق الدعوة، وجمع قومه وأشهدهم على صدقه ﷺ فيما جاء به، ثم أعلن إسلامه واتّباعه للنبي ﷺ فراحوا يطعنون فيه.

وإن من العجب بمكان أن يزعم هؤلاء أن القرآن خلاصة تلك الديانات، وهو الكتاب المُتَمِّم الذي خالف ما حرَّفوه من معتقدات وكشف حقيقة أمرهم؛ ومن أمثلة ذلك قوله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠)﴾ (التوبة). وذلك في سياق ردِّه على المعتقد الشركي القديم المتأصل عند اليهود: أن عزيرًا ابن الله، وعند النصارى: أن عيسى ابن الله[1].

ولا يخفى علينا ما في القرآن من مخالفة بينة لمعتقدات النصارى، وخلافه معهم في عقائد التثليث وما شابه ذلك من أمور ـ هي من الجوهر ـ منذ اللحظة الأولى للبعثة، وهذا أدلُّ دليل على إلهية مصدره وتفرده عن كل محرف من الكتب والديانات الأخرى.

هذا بالإضافة لما في القرآن الكريم من العبادات والشعائر التي جاء بها على نَسَقٍ لم يُعْهد في غيره من

---

١. مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٢٢٥.

الكتب الأخرى بهذه الطريقة ولا تلك التفاصيل، فكيف إذن يَتَسَنَّى لهؤلاء هذا القول بالاقتباس؟ ولماذا ـ لو صح ما زعموا ـ لم نجد في القرآن صدى موافقته عقائد مثل: التثليث، والصلب، والخطيئة، وألوهية المسيح؟! وإذا كان القرآن من عند النصارى فلماذا كل هذا الخلاف وكل ذاك البون بينهما[1]؟!

ومما يحسن ذكره في هذا المقام، ما عرض له الكثيرون بالتشكيك تارة، والتقول والزعم تارة أخرى بشأن سَفَر النبي ﷺ للشام، وما يُذْكر تحت هذا الباب من كون النبي ﷺ تعلم القرآن عن بحيرا أو عن نَسْطورا أو غيرهما، وخروجًا عن تلك الأقاويل التي لا تستند إلى دليل نورد ـ مجملًا ـ أسباب بطلان تلك الدعوى فيما يأتي:

نحن لا ننكر سفر النبي ﷺ للشام مطلقًا، لكننا في الوقت ذاته نحيط هؤلاء علمًا بأنه ﷺ لم يسافر للشام إلا مرتين فقط على مدار عشرة أعوام في زيارتين عابرتين، ولم يكن بشكل فردي بل كان ضمن جماعة ـ جمعتهم قوافل التجارة ـ، فأنى له ﷺ أن يتعلم في هذه الظروف وفي تلك المدة؟

ولو افترضنا جدلًا أن النبي ﷺ تلقى بالفعل عن هذين الراهبين أو عن أحدهما، فلماذا ضيع فترة الشباب ـ وفيها من القوة والثورة ما فيها ـ ليعلن عن نبوته بعد ثلاثين سنة من اللقاء الأول تقريبًا، وبعد خمسة عشر عامًا من اللقاء الثاني؟!

لو سلمنا لهؤلاء بأن لبعض رهبان النصارى من العلم ما يصحُّ ـ منطلقًا ـ أن يُفْرز مثل هذ القرآن؛ نتساءل: لماذا علموه النبي ﷺ وكان أولى بهم أن ينسبوه لأنفسهم أصالة لعلمهم بما لهذا النبي من الشرف؟! أَوَلَيس أحدهم أولى بهذا الشرف وتلك المكْرُمة من تلميذه؟!

على أننا لو تجاوزنا كل ما سبق وجدنا أنفسنا أمام حصن منيع لا نكاد نجد منه ملاذًا ولا عنه محيدًا، ذاك ما عُرف من أميته ﷺ من جهة، وعبرانية تلك الكتب من جهة أخرى، فلو تجوزنا في الأولى ـ نعني الأمية ـ ونفيناها جدلًا فأنَّى لنا أن ننسب له ﷺ قراءة واقتباسًا وتلفيقًا من مُسطَّر بغير العربية[2]؟!

لم يعاصر بحيرا أو نَسْطورا الحوادث الواردة في القرآن الكريم، فأين هما من سؤال يُسأله النبي ﷺ فنرى الإجابة تواتيه في أول وَحْي ينزل عليه؟!

ولو قلنا معهم بأن لبعض هؤلاء الرُّهبان من القرآن نصيبًا؛ تساءلنا: أين نجد أنفسنا أمام قرآن مُتَّحِد الأسلوب مُوَحَّد النَّسَق؟ ثم أنَّى لبحيرا أو لغيره أن يدرك من الأمور مالم يشاهده بعينه؟! إن هذا لا يكون ولا يستقيم.

ومما يهدم هذه الشبهة من أساسها حقيقة ملموسة فيما يتعلق بمسألة تعلم القرآن هذه، مؤداها أن اسم هذا المعلم المُدَّعي كان يتغير باختلاف المصدر الذي تُثار فيه هذه الفِرْيَة؛ فإن كان المصدر أو المرجع مسيحيًّا فالراهب هو سرجيوس أو بحيرا أو نسطورا أو ورقة، وإذا كان المصدر أو المرجع يهوديًّا، فصاحب القرآن

---

١. الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد علي، مطابع الولاء الحديثة، مصر، ٢٠٠٦م، ص٩١.

٢. القرآن والرسول ومقولات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٤ بتصرف.

حاخام إسرائيلي مجهول الاسم، وأمام هذا الاضطراب والاختلاف نتساءل: أليس هذا الاختلاف - في حد ذاته - دليلًا قويًّا يكفي لرد هذه الفرية من أساسها[1]؟!

على أنه من البدهي - ونحن نثبت ما انفرد به القرآن عن سابقيه من الكتب موازاة لما اختص به الإسلام عامة عن غيره من الديانات - أن تقرَّ حقيقة واقعة بالفعل، تتمثل في التقاء القرآن الكريم مع الكتب السابقة في قصصها العام باعتبار أن المشكاة التي خرجت منها و احدة، ولكن تفاصيل القصة في القرآن الكريم قد فضحت أهل الكتاب، وافتراءاتهم على الله ورسله.

ويحسن بنا أن نذكر كلمة للدكتور نظمي لوقا - وهو من الباحثين المنصفين من غير المسلمين - في حق النبي ﷺ وبحيرا حيث يقول: "محمد بغير ذلك اللقاء في عَرْض الفَلَاة - يعني لقاءه ببحيرا - كان حَرِيًّا أن يغدو بقضّه وقضيضه، وفضله وعقله وهداه، أما بحيرا بغير هذا اللقاء فكان حريًّا به أن يذهب في التاريخ نسيًا مَنْسِيًّا - كغيره من النُّسَّاك، فأدخله لقاؤه بالنبي ﷺ دولة التاريخ وأحدث له ذكرًا باقيًا"!

إن الباحث يريد أن يقول بعبارة أخرى: إن بحيرا لم يكن سقراط عصره، ولا فيلسوف زمانه، ولم يُعْرَف له ذِكْر قبل هذا اللقاء ولا بعده، فمن بحيرا هذا حتى ينسب القرآن له؟!

1. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٣٣ بتصرف.

يقول أحد المستشرقين ردًّا على فِرْيَة تعلُّم النبي ﷺ من بحيرا: "لا تسمح النصوص العربية التي عُثِرَ عليها ونُشرت وبُحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المُسْنَد إلى هذا الراهب النَّسْطُوري إلا مجرد نَسْج خيال"[2] ®.

ثالثًا. القرآن والثقافات الأخرى:

نحن لا ننكر أن في القرآن الكريم ألفاظًا في أصلها يونانية ورومانية وفارسية مثل: القِسْطاس[3]، الفِرْدَوس[4]، قَطِران[5]، قَسْوَرة[6] ... وغيرها، لكن اشتمال القرآن الكريم على هذه الألفاظ لا يُعَدُّ تأثرًا بتلك الثقافات ولا اقتباسًا منها؛ لأن مثل هذه الألفاظ قد عُرِّبت واندمجت في لغة العرب، وأَجْرَوْها على قواعدهم، فأصبحت - بذلك - جزءًا من لغتهم التي نزل القرآن بها، وقد وردت هذه الألفاظ كثيرًا في الشعر العربي قبل الإسلام.

2. الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد، مرجع سابق، ص ٨٩ بتصرف.

® في **"نفي أخذ النبي عن أهل الكتاب"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد). وفي **"عدم ادعاء أهل الكتاب زمن النبي أنه يأخذ عنهم، ودلالة ذلك"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

3. القِسطاس: الميزان.

4. الفِرْدَوس: البستان.

5. القَطِران: هو عُصارة بعض الأشجار مثل الأَرْز، وفي التنزيل: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ (إبراهيم:٥٠)؛ لأنه شديد الاشتعال، وهو مادة سوداء لَزِجة تُستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف، تستعمل لحفظ الخشب من التسوس، والحديد من الصدأ.

6. القَسْوَر والقسورة: الأسد. قال تعالى: ﴿ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾ (المدثر)، ويُقال: هم الرُّماة من الصيادين.

وهذا شأن كل لغة حية تتأثر بغيرها وتؤثر في غيرها، فليس ثمة لغة خالصة، ولو وُجِدَت لدل ذلك على انعزال أهلها عن العلم وتقوقعهم على أنفسهم وبعدهم عن الحضارة.

هذا بشأن الثقافتين اليونانية والرومانية، أما قبول مثل هذا الكلام فيما يتعلق بالثقافة الهندية، ففيه كثير من التَّجوُّز المرفوض والتحامل غير المسوَّغ؛ ذاك أنه ليست في القرآن الكريم إشارة واحدة إلى الهند، ولا إلى ثقافتها، وإنما جاءت هذه الثقافة إلى بلاد العرب بعد الفتوحات الإسلامية، والاتصال الواسع مع العالم شرقه وغربه، وهذا نوع من التلاقح الثقافي بين الأمم والشعوب، أما نزول القرآن فقد كان أسبق من تلك المرحلة بكثير؛ وعليه فلا يستقيم أن نرده لتلك الثقافة خاصة أو لغيرها عامة®.

وقريب من هذا ـ في تحامل الدعوى ورفض قبولها ـ أن يُنسب القرآن للشعر الجاهلي بحجة ما بينهما من تلاقٍ في الألفاظ، وإذا أحطنا هؤلاء علمًا بأن القرآن إنما أنزل بلغة العرب: مفردات، وأساليب، وتراكيب؛ جاز لنا أن نسأل ما وجه الاعتراض في ذلك ما دام القرآن نفسه مُنَزَّل بِلُغَتهم تلك؟! ثم أَوَلَيس مردُّ القرآن والشعر إلى تلك اللغة العربية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل من المنطق أن نتجاهل الأصل المستقَى منه ونتهم أحد أشكاله بأنه فرع عن شكل آخر مستقى من نفس الأصل؟!

ويندرج تحت هذا الباب أيضًا ما يُثار من أن أشعار الحُنَفاء[1] عامة، وأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت خاصة ألهمت محمدًا ﷺ القرآن بما فيها من تَنَكُّر لعبادة الأصنام ونقد للمجتمع الجاهلي، لكننا لا نعمِّم الكلام على الحنفاء جُمْلة، فمنهم من أسلم ثم تنصَّر ـ كعبيد الله بن جَحْش ـ، ومنهم من قَدِم على قيصر وتَنَصَّر ـ كعثمان بن الحويرث ـ، حتى إن أمية نفسه لم يُسْلِم؛ حَنَقًا على النبي ﷺ بعدما شهد له بأنه على الحق، ورَثَى قَتْلَى بدر من المشركين، وأخذ يهجو الإسلام، ولا ندري من أي شعر أمية اقتبس النبي ﷺ القرآن؟! أمن شعر الحنيفية الذي كتبه قبل البعثة؟! فلو كان لما سكت أمية على ذلك وهو الحانق على نبوته ﷺ الحاسد له، ولم لا وقد قال: " إنما كنت أرجو أن أكونه"[2]، أم من هجائه للإسلام ونبيِّه وأصحابه، ونصرته المشركين ورثائه قتلاهم؟! ونعتقد أن موازنة يسيرة بين القرآن وتلك الأشعار خاصة تُغنينا عن مزيد تفصيل وفضل بيان.

رابعًا. هل من شأن الخلوة ـ في حِراء أو غيره ـ أن تُفْرِز قرآنًا؟

وإذا علمنا أن كثيرًا من آيات القرآن الكريم نزلت مرتبطة بوقائع وأحداث معروفة، وأن هذه الأحداث

® في "الكلام الأعجمي والغريب في القرآن الكريم" طالع: الشبهة الحادية والأربعين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

١. الحُنَفاء: جمع حنيف، والحنيف: صحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه. وقيل: هو المائل إلى الاستقامة. وقيل: المسلم. وقيل: الحنيف هو المخلص. وقيل: من كان على دين إبراهيم عليه السلام في استقبال قبلة البيت الحرام وسُنَّة الاختتان. وقال الزجاج: الحنيف في الجاهلية: من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن، فلما جاء الإسلام كان الحنيف: المسلم؛ لعدوله عن الشرك.

٢. محمد ﷺ أعظم البشر، حمزة النشرتي، وعبد الحفيظ فرغلي، دار النشرتي، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٤٨: ٥٤ بتصرف.

وتلك الوقائع وقعت بعد زمن من خلوته ﷺ في غار حراء؛ نتساءل: كيف نظم النبي محمد ﷺ هذه الأحداث وتلك الوقائع في خلوته قرآنا قبل وقوعها أصلًا؟!

كما أن الاختلاء بالنفس قد يتولد عنه خواطر وتأملات. أما أن يتولد عنه دستور ينظِّم حياة الناس تنظيمًا أبديًّا فلا، ولنا أن نسأل هؤلاء: إذا كان محمد ﷺ قد ألف القرآن في فترة تعبّده واختلائه في غار حراء، فلماذا انتظر كل هذا الوقت حتى يُعْلِن أنه مُرسَل من ربه؟ ثم أليس ثمة تناقض بين ما يستلزمه ادعاؤهم من خروج النبي ﷺ على قومه بالقرآن جملة واحدة، وبين ما استدلوا به على بشرية القرآن في مضمون هذه الشبهة من نزوله مُنجَّما؟!

ويحسن بنا - بعد الوقوف على ما وقع فيه أولئك من خلط واضطراب - أن نقرر جملة حقائق مشفوعة بتساؤلات تحتاج إلى إجابة شافية من قبل هؤلاء الأدعياء المتقوّلين، ومن تلك الحقائق ما يأتي:

- كانت خَلْوَة النبي ﷺ وتحنثه[1] في غار حراء من جملة ما منَّ به الله ﷻ على نبيه ﷺ حين حبَّب - له دون غيره من قومه - تلك الخلوة؛ هروبًا به ﷺ مما كانوا عليه من عبادة الأصنام؛ ليتناسى بذلك المألوف من عاداتهم، ويستمر على هجران ما لا يُحْمَد من أخلاقهم، وألزمه شعار التقوى وأقامه في مقام العبودية بين يديه، فيخشع قلبه، وتلين عَرِيكَته لورود الوحي[2]، وهنا نتساءل: ألم يكن من الإنصاف أن يُسْتَدلَّ بتلك الخلوة على نبوته ﷺ - إذ هي من إرهاصاتها - وبالتالي إلهية رسالته ﷺ؟! ثم، أمن المنطق أن يؤلف النبي ﷺ القرآن في غار حراء، ثم يخرج على قومه مدَّعيًا النبوة من المكان ذاته؟! ألم يكن من الأولى - لو كان كما قالوا - أن ينفي خلوته أو يخفيها، وحينما يؤلّف قرآنها الدال على نبوته يخرج عليهم به من مكان غيره؟!

- يشهد التاريخ أن النبي ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل في اعتزاله مساوئ قومه، وتجنبه منكراتهم ومفاسدهم، وخلوته للتأمل في بديع صنع الله ﷻ؛ ومن هؤلاء زكريا عليه السلام ومريم الصِّدِّيقة[3]، وإذا ثبت هذا، فلماذا غضَّ أولئك الطَّرْف عن هاتين العُزْلَتين ونالوا من خلوته ﷺ؟

- إذا علمنا أن غار حراء هذا اكتنف في جنباته قبل النبي ﷺ جدَّه عبد المطلب، وبعض قريش؛ تساءلنا: لماذا لم يخرج إلينا أحد هؤلاء بما جاء به النبي ﷺ أو بقريب منه، إن كان للخلوة أن تصنع نبوة أو تفرز قرآنا؟!

خامسًا. القرآن الكريم وحي من قِبَل الله ﷻ وليس هوسًا ولا صرعًا:

إن الوحي[4] ليس نوعًا من الهوس، وإنما هو ظاهرة روحية خصَّ الله بها من اصطفاهم للنبوة، وبه يكون

1. تَحَنَّثَ: تعبَّد واعتزل الأصنام مثل تحنَّف. وتحنَّث من كذا: أي تأثَّم منه.
2. افتراءات المستشرقين على الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٧ بتصرف.
3. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٣١٩ بتصرف.
4. الوحي: ما يلقيه الله تعالى على قلب نبي من الأنبياء بواسطة ملك أو بغير واسطة ملك، وقد يُطلق الوحي على جبريل عليه السلام باعتباره الواسطة.

اتصالهم بالله من غير حلول ولا اتحاد؛ ليكلِّفهم[1] إبلاغ تعاليمه للناس.

وليس ما كان يحدث لسيدنا محمد ﷺ إلهامًا فائضًا من استعداد النفس العالية، حتى يمكن القول بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولَّدت له إلهامًا فاض من عقله الباطن أو نفسه الروحانية على مخيلته، ثم انعكس اعتقاده على بصره، فرأى المَلَك ماثلًا له أو على سمعه، فوعى ما حدَّثه به المَلَك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الوحي أنواع مختلفة؛ فمنه ما يكون منامًا، بأن يرى النبي ﷺ في منامه رؤيا؛ فتتحقق بَعْدُ في اليقظة كما رآها في نومه تمامًا، ومن هنا قال ﷺ: "إنَّ رُؤْيا الأنبياء وَحْي"[2]. ومن الوحي ما يكون إلهامًا يُلْقيه الله في قلب نبيه؛ فيجد من نفسه علمًا ضروريًّا بأن هذا من عند الله ﷻ... ومنه ما يكون تكليمًا من الله لنبيه بكلام يسمعه ويدرك معناه، مع يقينه بأنه كلام الله وليس كلام أحد سواه، كما حدث لموسى، وآخر صور الوحي ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل ؑ، وهذا أغلب أنواع الوحي لرسولنا محمد ﷺ وغيره من الرسل، والقرآن كله من هذا القبيل[3].

نخلص من هذا إلى أن ما كان يصيب النبي ﷺ حال تلقيه الوحي ليس هَوَسًا ولا صَرَعًا وما ينبغي له أن يكون كذلك، ومعلوم أن الوحي كان يأتيه ﷺ مثل صلصلة الجرس، وأحيانًا يأتيه جبريل في صورته الملائكية، وأحيانًا أخرى كان يتشكل في صورة بشرية[4].

فالوحي من خارج نفسه ﷺ وليس نابعًا من داخله كما يزعمون، إضافةً إلى أن رؤى النائم أو المضطرب ذهنيًّا - بصرع أو هوس أو غيره - لا يمكن أن تبلغ هذه الدرجة العالية من الدِّقة والنظاميَّة والتناسق البديع الذي نجده في القرآن الكريم®.

سادسًا. الحِكَم الربَّانية من نزول القرآن مُنَجَّمًا:

لعل في تلك الحكم - لو فطنها هؤلاء - ما يدلُّ على إلهية القرآن لا على بشريته المزعومة، ومن تلك الحكم ما يأتي:

- تثبيت فؤاد النبي ﷺ وهو ما أشار إليه الحق ﷻ في ردِّه على المكذبين في قوله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الفرقان).
- التدرُّج في تربية الأُمة دينيًّا، وخلقيًّا، واجتماعيًّا، وعقائديًّا، وعلميًّا، وعمليًّا، وهذه الحكمة هي التي أشار إليها ﷻ بقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ (الإسراء).
- مجاراة الحوادث والنوازل والأحوال والملابسات - في تتابعها وتجددها - وهذا ما نلمحه في

1. التكليف لغة: إلزام ما فيه كُلْفَة، أي مشقة، وشرعًا: إلزام مقتضى خطاب الشرع، وعلى هذا تكون الإباحة تكليفًا؛ لأنها من مقتضيات الخطاب المذكور.
2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء (١٣٨)، وفي موضع آخر.
3. الوحي والقرآن الكريم، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٧، ٨ بتصرف.
4. النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٧٥: ١٧٧ باختصار.

® في "الفرق بين الوحي والصرع" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

قوله ﷺ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الفرقان).

- إثبات إعجاز القرآن على أبلغ وجه؛ لأنه لو نزل جملةً واحدة؛ لقال المشككون: "شيء جاءنا مرة واحدة، فلا نستطيع أن نعارضه، ولو أنه جاءنا قِطَعًا قطعًا لعارضناه". فالقرآن بنزوله مفرَّقًا، على تباعد أزمان النزول جاء في سلسلة ذهبية مترابطة الحلقات منسجمة الشكل، لا تنبو كلمة عن كلمة، أوتنفر آية من آية، بل كله غايةٌ في الفصاحة، والبلاغة، والإعجاز، والإحكام[®].

سابعًا. تحدِّي القرآن أرباب الفصاحة والبيان:

معلوم أن القرآن الكريم تحدَّى فُصَحاء العرب وبُلَغاءهم أن يأتوا بمثل هذا الكلام الذي نزل بلغتهم في غير ما موضع، متَّبعًا التدريج العددي في التحدِّي بدءًا من التحدي بالقرآن الكريم كله ومرورًا بعشر سور وانتهاء بسورة واحدة - إنها قمة التحدي وغاية الاستنفار وذِرْوة التعجيز - والأكثر من هذا أن القرآن الكريم قَرَن ذاك التحدي بالجزم بفشلهم فيه؛ ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء).

فإذا عُلِمَ أن فصحاء العرب قاطبة فشلوا في ذاك التحدِّي مع شدة حاجتهم للنجاح فيه، مع ما لهم من الفصاحة والبيان؛ علم بذلك أن غيرهم بذاك الفشل أولى. ولو ثبت أنه قد جِيء بسورة من مثله - كما يدَّعون -؛ لوصلت إلينا، ولذاعت بين الناس، بل لو عرف المكَذِّبون المعاندون أنهم سينجحون في الإتيان بمثل ما تحدَّاهم به القرآن؛ لحسموا الأمر مع النبي ﷺ من البداية، ولما لجئوا للحرب، وفيها فناء الأنفس وضياع الأموال، لو كانوا يملكون ما يُوَفِّر عليهم ذلك كله - وهو الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه، وما أيسرها لو استطاعوا -.

على أن جميع ما أُثر من محاولات في القديم والحديث - إن هي إلا محاولات فاشلة مضحكة؛ لأنها مجرد محاكاةٍ شكلية هزيلة لبعض ألفاظ القرآن الحق، مجردة من مضمون القرآن، ومن أقلِّ صور الإعجاز التي يحملها.

وفي التاريخ الغابر أناس كثيرون زعموا أن بوسعهم أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، فإذا ما بحثنا وفتَّشنا في طوايا التاريخ؛ لن نجد وراء دعواهم شيئًا. وما أكثر الدعاوى التي من هذا القبيل، على أنها جميعًا تفتقد شاهد صِدْق واحد عليها.

ولعل سبب ذلك - كما يشير المعرِّي - أن أحد أولئك الأدعياء يستنجد بما يملك من البيان؛ ليأتي بشيء من مثل القرآن، فتخونه سليقته العربية، وتغيب عنه ملكته، فلا يأتي إلا بمرذول الكلام وسخيفه؛ فيتكتم على عمله ويطويه عن فكره؛ حذرًا من التشنيع عليه، وتضاحك الناس منه، أو يلصقه بأديب ذاع صيته، ليجعل من ذلك أحدوثة المجالس، ومادة فكاهة لهم فيها.

على أن باب التحدِّي لمن يريد أن ينكر سمة الإعجاز في القرآن - ما يزال مفتوحًا لكل من آنس من

® في **"الحكمة من نزول القرآن مُنجَّمًا"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). وفي **"جواب القرآن عمن سأل نزول القرآن جملة واحدة"** طالع: الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

نفسه قدرة على كسر طوق هذا المتحدَّى بـه ـ القـرآن ـ، وهل في الناس من يملك أن يغلق باب التحدي بعد أن فتحه الله على مصراعيه؛ دليلًا على إعجاز القرآن وخلوده؟! إن هذا الإعجاز وذاك الخلود الإلهي للقرآن باقيان طالما بقي باب التحدي مفتوحًا، يعجز عن وَصْده الأدعياء[1] ®.

ثامنًا. القراءات القرآنية توقيفية أغلب اختلافها صوتي يُثْري المعنى ولا يُبَدِّل الأحكام:

نُقِرُّ في البدء بأن القرآن نزل بقراءات متعددة، لكننا في الوقت ذاته نُقِرُّ بحقيقة أخرى تتمثل في أن هذا التعدد لا يشمل القرآن كله، وإنما هو مقتصر على كلمات محدَّدة، ثم إنَّ هذا التعدد في القراءات أمر توقيفي قليلًا كان أو كثيرًا؟!

ولعل حقيقة ربانية القراءات القرآنية ـ وأنها وحي لا يختلف عن جملة القرآن ـ تدفعنا لمحاولة الوقوف على حكمة اختلاف تلك القراءات وما يقتضيه ذاك التنوع في طرق أداء القرآن ـ بقراءة الكلمة القرآنية على وجهين أو أكثر ـ من إثراء المعنى، وتوسيع الدلالة، والتيسير على الأمة العربية ذات اللهجات المتعددة والألسنة المتباينة؛ كي لا يشق عليها التزام وجه واحد في القراءة.

نضيف إلى كل ما سبق أن أغلب اختلاف القراءات في القرآن صوتي لا يُوقِعُ المعاني في تضادٍّ، ولا المدلولات في تناقض، ولا الأحكام في تضارب؛ إذ إنها لا تمسُّ من التشريع أصلًا ولا فرعًا، ولا تحلل حرامًا، ولا تحرم حلالًا.

وعليه فليس معنى نزول القرآن بقراءات متعددة أن فيه اضطرابًا، وأن اختلاف القراءات فيه بمعنى تناقض الأحكام وتدافع معانيه وتعاليمه؛ بل هي ـ كما أشرنا ـ من قبيل إثراء المعنى، وتوسيع الدلالة، والتيسير.

ويؤكد هذا المعنى أحاديث عدَّة؛ منها ما جاء عن أُبَي أن النبي ﷺ كان عند أَضَاة بني غِفَار، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: "إن الله يأمرك أن تُقْرِئ أُمَّتك القرآن على حرف"، قال: "أسأل الله معافاته ومغفرته، إن أُمَّتي لا تطيق ذلك"، ثم أتاه ثانية فذكر نحو هذا حتى بلغ سبعة أحرف، قال: "إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك على سبعة أحرف، وأيما حرف قرءوا عليه فقد أصابوا"[2].

وكان نزول القرآن على قراءات متعددة ـ أيضًا ـ لإثبات إعجازه للفطرة اللغوية عند العرب قاطبة، فتعدَّدت مناحي التنزيل للقرآن تعددًا يكافئ الفروع اللسانية التي عليها فطرة اللغة في العرب، حتى يستطيع كل عربي أن يُوَقِّع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه، ومع بقاء الإعجاز الذي تحدَّى به الرسول ﷺ العرب، ومع اليأس من معارضته لا يكون القرآن إعجازًا للسانٍ دون آخر، وإنما يكون إعجازًا للفطرة اللغوية نفسها عند العرب ®.

---

1. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1428هـ/ 2007م، ص223: 225 بتصرف.

® في **"إعجاز القرآن عن الإتيان بمثله"** طالع: الشبهة التاسعة والخمسين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم). وفي **"ردّ القرآن على من زعم الإتيان بمثله"** طالع: الشبهة السابعة والعشرين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

2. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (1943).

® في **"الحكمة من تعدد قراءات القرآن الكريم"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء.

تاسعًا. وجوه إعجاز القرآن الدالة على ربانيته:

إن المتأمل في القرآن يقف على كثير من الأمثلة الدالة والمؤكدة على تلك الوجوه، من ذلك: الإخبار بالغيب ـ من ماضٍ ومستقبل وكشف خفايا النفوس ـ والإعجاز العلمي، والبياني، والتشريعي. ولمزيد من الإيضاح نفصِّل كل جانب من تلك الجوانب بما يشكل في النهاية حقيقة الإقرار بربانية المصدر المشتمل على تلك الجوانب جميعها، وبيان ذلك على التفصيل الآتي:

١. **إخبار القرآن الكريم بالغيب:**

وهذا من أدل الوجوه على أن القرآن كلام الله وليس من صنع بشر، ولما كان الغيب لله وحده مستأثر به دون سائر خلقه، لا يطلع أحد منهم ـ حتى الأنبياء والرسل والملائكة ـ على شيء منه إلا إذا أطلعه الله عليه، وصَدَق القرآن فيما أخبر به من ذاك ـ عُلِم يقينًا أن هذا القرآن إنما هو من عند الله الذي أخبر فيه ـ بما صدقه الواقع وشاهده الناس ـ بما لا علم لأحد به إلا هو ﷻ ومن صور الإخبار بالغيب ما يأتي:

- **الإخبار عن الغيوب الماضية:** ومن ذلك ما ورد في القرآن من أخبار القرون كقصة هود وصالح ونوح وشعيب وغير ذلك من الأخبار الماضية التي لم يكن لرسول الله ﷺ علم بها، لا هو ولا قومه من قبل أن ينزل بها القرآن الكريم.

- **الإخبار عن الغيوب المستقبلية:** وقد أخبر القرآن بأخبار لم تكن وقعت بعد، ثم وقعت في المستقبل طبقًا لما أخبر، من ذلك:

  ○ **الإخبار بغلبة الروم على الفرس:** وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ (الروم).

  ○ **الإخبار بهزيمة قريش:** في قوله ﷻ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ (القمر)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ (ص)، وهذا ما وقع في بدر.

  ○ **الإخبار بدخول النبي ﷺ وصحابته الكرام البيت الحرام:** في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (الفتح: ٢٧). وهو ما كان في فتح مكة.

  ○ **الإخبار بموت أبي لهب والوليد بن المغيرة على الكفر:** فقال تبارك وتعالى في شأن أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ (المسد)، وقال في شأن الوليد: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ (المدثر)، ولم يسلما، وهذا دليل على كونه من لدن حكيم خبير.

والأمثلة في هذا الجانب في القرآن كثيرة تَنِدُّ عن الحصر في مثل هذا المقام[1].

- **كشف خفايا النفوس:** وهو أمر ليس بمقدور البشر، إلا إذا حدَّث به صاحبه وكشف عما يُخالِج نفسه، فإذا أخبر القرآن عن هذا الجانب بما لم ينكره أولئك الذين كشف طواياهم عُلِم بذلك أنه كلام خارج

---

١. انظر: الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١٦٦: ١٨٠ بتصرف.

مضمونه عن مقدور البشر، فلو لم يكن وحيًا إلهيًّا لما كان لأحد سبيل إلى معرفته، ومن ذلك نذكر ما يأتي:

- **كشف حقيقة المنافقين وموالاتهم لليهود؛ وذلك** في قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢)﴾ (الحشر).

وهذا ما أكده عبد الله بن أُبَي حين لم يخرج مع يهود بني النضير لما أجلاهم النبي ﷺ من ديارهم.

- **الكشف عما أراده المنافقون يوم الأحزاب وذلك** في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ (الممتحنة)، وهو ما وقع من الصحابي حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

- **إعلام محمد ﷺ بأن زوجته أفشت سره؛ وذلك** في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)﴾ (التحريم).

وهذا قليل من كثير من الأمثلة الواردة في القرآن، والتي تتضمن نماذج بينة تؤكد أن هذا القرآن الإلهي معجزة حية ناطقة أبد الدهر[1].

٢. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

وهذا الجانب من جوانب الإعجاز لا يقبل مجالًا للشك من قِبَل أعداء الإسلام؛ فمَنْ مِنَ البشر بوسعه أن يحيط علمًا بكل الحقائق العلمية التي وردت في القرآن في هذا الوقت المبكر من تاريخ البشرية؟ هذه الحقائق التي لم يدرك الإنسان بعضها إلا منذ عهدٍ قريب جدًّا بعد أن فتح الله عليه ببعض العلم، ولا يزال القرآن عامرًا بالأسرار والمعجزات التي لم يعرفها الإنسان بعد، وسنكتفي بضرب الأمثلة عليه فيما يأتي:

- ذكر القرآن أن الفضاء الخارجي مظلم تمامًا، وأن من يريد الصعود لهذا الفضاء لا بد أن يصعد في خطوط متعرجة لا في خط مستقيم، وهذا ما نقرؤه في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥)﴾ (الحجر)، وهذا لم يعرفه العلم الحديث إلا بعد انطلاق رحلات الفضاء الخارجي، فجاء رواد الفضاء الذين اشتركوا في هذه الرحلات ليؤكدوا هذه الحقيقة التي أقرَّها القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.

- تحدث القرآن الكريم عن نشأة السماوات والأرض فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ (الأنبياء). إن السماوات والأرض كانتا رتقًا، أي: متلاصقتين، ففتقهما الله ﷻ، أي: فصلهما عن بعضهما، وهذا ما توصلت إليه الأبحاث العلمية الحديثة.

- قال الله تعالى عن الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)﴾ (النازعات)، وقد

---

١. المرجع السابق، ص١٨٠: ١٨٦ بتصرف.

أثبت العلم الحديث - فيما ذكره د. زغلول النجار تعليقًا على هذه الآية - أن الثورات البركانية وما ألقته حول الأرض من غازات وأبخرة، وعلى سطحها من حِمَم ورماد بركاني، قد لعبت دورًا أساسيًّا في بناء اليابسة، وفي تكوّن كل من الغلافين الغازي والمائي للأرض.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن غالبية ما يتصاعد من فُوَّهات البراكين أثناء ثورانها هو بخار الماء؛ إذ يتصاعد بنسبة ٧٠٪، ويليه أكسيد الكربون، وبعض الغازات الأخرى، وأن البخار المتصاعد من فُوَّهات البراكين سرعان ما يتكثَّف ويعود إلى الأرض مطرًا، وقد أدى ذلك إلى إثبات أن جميع الماء على سطح الأرض وفي غلافها الغازي قد أُخْرج أصلًا من داخلها مع ثورات البراكين، وهذه حقيقة لم يعرفها الإنسان إلا منذ سنوات قليلة.

كذلك أدرك العلماء أن "ثاني أكسيد الكربون" يلعب دورًا مهمًّا في عملية التمثيل الضوئي التي يقوم النبات بها من أجل تمثيل غذائه وتحويله إلى المواد البانية لخلاياه والمنتجة لثماره وأعشابه وأوراقه، والتي بغيرها لا يمكن للأرض أن تنبت.

فخروج الماء من داخل الأرض هو تعبير عن حقيقة واقعة، مؤداها: أن كل ماء الأرض - على كثرته - قد أخرج أصلًا من داخلها، وأن ثاني أكسيد الكربون اللازم لحياة كل نبات يقوم بعملية التمثيل الضوئي وإنتاج المادة الخضراء فيه (اليخضور) قد أُخْرج أيضًا من داخل الأرض[1].

- نقرأ في القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ (الرحمن)، فالآيتان تتحدثان عن البحرين اللذين لا يختلطان ببعضهما، وهذه الظاهرة لم يتمكَّن العلماء من معرفة سببها إلا مؤخرًا، ويرجع سبب عدم الاختلاط بين البحرين إلى قوة تسمى "الانشداد السطحي" تلك القوة التي تمنع اختلاط مياه البحار المتجاورة كما لو كان بينها جدار عازل، فالبحار رغم ما فيها من مد وجزر وأمواج وأعاصير وغير ذلك لا تتغير نسبة ملوحتها ولا حرارتها ولا كثافتها من مجاورتها لبحر آخر، ومثال ذلك البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي، فكلا البحرين له كثافته وحرارته و ملوحته على الرغم من اتصالهما عن طريق مضيق جبل طارق.

ونحن في هذا الصَّدد لا نستطيع أن نحصر كل الحقائق العلمية التي أثبتها الله ﷻ في القرآن الكريم من انشطار القمر، وظلمات البحار، ومراحل نمو الطفل، وطبقات الغلاف الجوي، ونسبية الزمن، ودوران الأفلاك، وغير ذلك من الآيات الكونية التي أقرها القرآن قديمًا، ثم جاء العلم الحديث ليؤكد ما أثبته القرآن من تلك المعجزات الكونية، ودلالة هذا في إثبات إلهية القرآن قوية على مستويين:

أحدهما: أن اكتشافها إنما جاء مؤخرًا على أيدي الغربيين خاصة.

ثانيهما: أن تلك المعجزات خاضعة للبحث العلمي والتجربة والملاحظة ومنضوية تحت سيطرة العقل الذي لا يؤمن أعداء الإسلام بغيره في الوقت الحاضر.

وفي ضوء هذين المستويين نتساءل: أنَّى لبشر - كائنًا

1. الدر المنقوش في الرد علي جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٩٤، ١٩٥.

من كان - أن يدرك كل تلك الحقائق التي لم يدركها العلم إلا مؤخرًا؟

وإذا أخذنا في اعتبارنا التطور العلمي الكبير الذي حدث للبشرية، وافترضنا أن هذا التطور لم يحدث بعد، الواقع أن هذا الافتراض من شأنه أن يؤدي إلى أن يتأخر وقتُ إدراك الناس تلك الحقائق رَدَحًا من الزمن. والحق أن هذا الجانب - العلمي - في القرآن الكريم خير شاهد على إلهيته؛ لثبوت هذه الحقائق علميًّا من جهة، واستحالة قدرة النبي ﷺ على الإتيان بها من جهة ثانية.

٣. الإعجاز البياني في القرآن الكريم:

من أكبر الأدلة على وجود الإعجاز البياني في القرآن: أن الله تعالى تحدى العرب في أن يأتوا بسورة واحدة منه، وفي كل مرة من هذا التحدي كان العرب يقفون عاجزين لا يستطيعون أن يحاكوا النص القرآني ولو بآية واحدة، على الرغم من نزوله بألسنتهم ولغتهم التي تميزوا فيها، فمن المعروف أن العرب كانوا أصحاب بلاغة وفصاحة، وعلى الرغم من ذلك فإنهم سقطوا في هذا التحدي.

إن القرآن الكريم عبارة عن منظومة بيانية، بحيث لا تستطيع أن تضع كلمة مكان أخرى فيه، وحسبنا أن نمثل على ذلك بما يأتي:

- قال الله تبارك وتعالى ردًّا على سيدنا زكريا عليه السلام عندما طلب من الله الولد: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ (آل عمران)، وقال في موضع آخر ردًّا على مريم - عليها السلام - عندما تعجبت من أن تلد من غير زوج: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ (آل عمران)؛ ففي الآية الأولى جاء لفظ "يفعل" بالنسبة لمولد يحيى عليه السلام؛ لأن أسباب الفعل موجودة وهي أن سيدنا زكريا له زوجة فأصلحها الله عز وجل فجاء الولد، وفي الآية الثانية قال عز وجل: "يخلق" بالنسبة لمولد عيسى عليه السلام؛ لأن أسباب الفعل غير موجودة، فليس هناك زوج لمريم حتى تستطيع أن تنجب، فجاء لفظ الخلق؛ لأنه إيجاد من العدم فيتناسب معه الخلق، أما يحيى فيتناسب معه الفعل؛ لأنه إيجاد بسبب. فانظر إلى أي مدى بلغت دقة الألفاظ القرآنية.

- عندما تحدث القرآن الكريم عن تفجُّر الاثنتي عشرة عينًا لبني إسرائيل عندما ضرب موسى عليه السلام الحجر بعصاه، جاء الحديث عن هذا في موضعين:

  - قوله عز وجل: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (البقرة).

  - وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ (الأعراف). ففي الآية الأولى جاء لفظ "انفجرت"؛ لأن موسى عليه السلام طلب السقاية من ربه تبارك وتعالى؛ فخرج الماء بانفجار وكثرة، أما في الآية الثانية فقد جاء لفظ "انبجست"؛ إذ إن بني إسرائيل هم الذين طلبوا السقاية من موسى عليه السلام، وكانوا ظالمين؛

فخرج الماء انبجاسًا، والانبجاس أقل من الانفجار، ففي هذا وصف قرآني محكم.

- وفي حديث القرآن عن الأشياء التي استأثر الله تبارك وتعالى بعلمها نقرأ قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ (لقمان: ٣٤)، فقال الله ﷻ: "ما" ولم يقل: "مَنْ"؛ لأن كلمة "ما" أشمل من "من"؛ فـ "من" تختص بنوع الجنين هل هو ذكر أو أنثى فقط، أما "ما" فهي تشمل نوع الجنين وعمره ورزقه وحياته وشقي هو أم سعيد... إلخ. وهذا هو ما قصد له التعبير القرآني قصدًا.

وأخيرًا... نخلص من جانب الإعجاز البياني في القرآن ببيان سمة تفرَّد بها نَظْمه بشكل واضح، تلك التي أسماها د. البوطي: " مظهر جلال الربوبية في القرآن " ويتجسد هذا الجلال في صفات الألوهية المتواترة في القرآن من خلق وإعدام وقدرة وجبروت وإحاطة... وغير ذلك.

إن بشرًا بالغًا من التَّجبُّر والتَّكبُّر ما بلغ - ليس في ذَرْعِه أن يتحدث بكلام فيه من الجلال مثل ما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾ (طه)، ولا مثل قوله ﷻ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾ (الحجر)، ولا مثل قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ١٨٦)، ولا مثل قوله: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ (يس) ... إلى آخر تلك النماذج التي لا يدل تفرد القرآن بها إلا على ربانية مصدره وتفرد قائله ﷻ.

وجدير بالذكر في هذا المقام أن نلمح إلى أن فرعون حين طغى وادَّعى لنفسه الألوهية جاء كلامه دليلًا على تكذيب ربوبيته الزائفة؛ إذ فرضت بشريته نفسها على كلامه، وهذا ما صوره القرآن الكريم خير تصوير، حيث قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨)﴾ (القصص).

إن خلُوّ صفات الله الحق تعالى في القرآن من مثل تلك العبارة الدالة على بشرية قائلها - بما تنضوي عليه من العجز وقلة الحيلة - في قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾، وقوله: ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي﴾، وقوله تعالى: ﴿لَأَظُنُّهُ﴾.

نقول إن خلو صفات الله المتجسدة في القرآن مما وقع فيه مدعو الألوهية من البشر - فرعون - من العجز والاستعانة ببشر مثله، والاستعانة بالطين وأسبابه، والرجاء في ﴿لَّعَلِّي﴾، والظن وهو منزلة مثله، خير دليل على إلهية قائله سبحانه وتنزيهه عن أن يكون من تقوُّل بشر حتى لو كان ذاك البشر هو النبي ﷺ[1].

٤. الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم:

إن الشريعة الربانية التي نزل بها القرآن وأرسى قواعدها في كثير من آياته خير دليل على إلهيته، وتلك التشريعات بحق أعظم الأدلة على ذلك، فلا يمكن بحال من الأحوال أن تكون تلك التشريعات من تأليف بشر بما اتسمت به من شمولية الإصلاح،

١. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٢٢٥: ٢٣١.

ومخالفة ما كان سائدًا قبلها من قوانين وشرائع جاهلية، والاستقلال عمَّا سبقها من شرائع سماوية والهيمنة عليها. وارتفاع سماتها المتميزة عن مستوى عقول البشر وأعرافهم وقوانينهم.

ولعل نظرة متأملة منصفة في آيات القرآن تغنينا عن مزيد بيان يضيق عنه المقام، فلا يكاد ينكر منصف ما بشريعة القرآن الكريم من شمولية وكمال، لم يتركا جانبًا من جوانب الحياة البشرية إلا وضعا له النظام الأكمل والدستور الأمثل، ولا يكاد ينكر - أيضًا - ما فيها من أسس كلية ثابتة تتسم بالمرونة والملاءمة لمختلف الأجواء والبيئات في مختلف العصور بما لها من صلاحية للتطبيق في كل زمان ومكان.

فشريعة القرآن الكريم نظّمت صلة المخلوقين بالخالق سبحانه وتعالى، وأقامتها على أسس فكرية بعيدة عن الخرافات والأباطيل، كما نظَّمت صلة الحاكم بالرعية وجعلت له حقًّا وعليه واجبًا، فعاش الجميع آمنين تحت الراية التي رفعها القرآن في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩). إلى آخر تلك الجوانب.

وموازنة سريعة بين ما اتسمت به شريعة القرآن الربانية - من شمولية وعالمية وتمام وثبات ومرونة - وبين ما وُصِمت به النظم والقوانين الوضعية بما فيها من عجز واضعيها من البشر وقصورهم - تؤكد بما لا يدع مجالًا لأدنى شك إلهية القرآن الكريم[1].

وبعد... فليس في الكلام فضل بيان نثبت به إلهية القرآن، وحسبنا منه ما فصَّلنا؛ ففيه لمن أراد الحجة قوي دليل، ولمن أراد التثبُّت خير شاهد®.

الخلاصة:

- المقصود بالرسول في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ (الحاقة) إما ملك الوحي جبريل عليه السلام، وإما محمد ﷺ، على أن القول بأنه ﷺ المقصود بالرسول في الآية لا يعني أكثر من كونه مبلغ الوحي لا منشئه.
- لو علم المشركون وغيرهم أن النبي ﷺ أخذ القرآن من اليهود والنصارى؛ لأشاعوا ذلك، ولاتخذوه مطعنًا في الإسلام والقرآن، فضلًا عن أن أحبار اليهود ورهبان النصارى - أنفسهم - لم يدَّعوا ذلك.
- اشتمال القرآن الكريم على ألفاظ يونانية، ورومانية، وغيرها لا يُعدُّ تأثُّرًا بها، ولا اقتباسًا من الثقافات المنتسبة لها؛ لأن هذه الألفاظ قد عُرِّبت واندمجت في لغة العرب، وأجروها على قواعدهم فجرى عليها ما يجري على العربية التي نزل القرآن بها.
- إن موازنة سريعة بين القرآن وبين شعر أمية بن أبي الصلت؛ تجعلنا نتساءل: من أي شعر أمية اقتبس النبي القرآن؟ أمن شعر الحنيفية الذي كتبه قبل البعثة؟ أم من هجائه للإسلام ونبيه وأصحابه ونصرته المشركين ورثائه قتلاهم؟! وهذا ما لا صوت له في القرآن ولا صدى!
- ليس من شأن الخلوة - في حراء أو غيره - أن تفرز قرآنًا، ثم إن كثيرًا من آيات القرآن نزلت مرتبطة بوقائع

---

1. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص ١٥٧: ١٦١ بتصرف.

® في "وجوه إعجاز القرآن الكريم" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

وأحداث معروفة، وهذه الوقائع وتلك الأحداث كانت تالية لفترة غار حراء، فكيف نظم محمد ﷺ هذه الأحداث قبل وقوعها؟! وإذا كان ألَّف القرآن في فترة تعبده واختلائه بنفسه في غار حراء، فلماذا انتظر كل هذا الوقت حتى بلغ الأربعين، ليُعلن أنه نبي مرسَل؟! ثم أليس ثمة تناقض بين ما يقتضيه هذا الادعاء - من خروج النبي بالقرآن دفعة واحدة عليهم، وبين ما استدلوا به على بشرية القرآن من نزوله منجما؟!

- الوحي ليس هوسًا ولا صرعًا، فالمضطرب ذهنيًّا بصرع أو هوس أو غيره، لا تبلغ رؤياه هذه الدرجة من الدقة والنظاميّة والتناسق البديع الذي نجده في القرآن الكريم.

- لقد نزل القرآن الكريم منجمًا ولا يعد هذا عيبًا فيه، ولا انتقاصًا منه، بل كان لهذا حِكَمٌ ربانية عدَّة؛ منها: تثبيت فؤاد النبي ﷺ، والتدرج في تربية الأمة دينيًّا واجتماعيًّا وعقديًّا، ومجاراة الأحداث والنوازل والأحوال في تفرُّقها وتجددها.

- لقد تحدَّى القرآن أرباب الفصاحة والبيان أن يأتوا بمثله؛ فعجزوا عن ذلك ولو ثبت أن القرآن الكريم قد جيء بسورة مثله أو أكثر، لوصلت إلينا، ولذاعت بين الناس. وكل ما أُثر من محاولات في القديم والحديث، إنْ هي إلا محاولات فاشلة مضحكة؛ لأنها محاكاة شكلية هزيلة لبعض ألفاظ القرآن، أما تراكيبها فشيء خالٍ من المضمون، ومن أدنى صور الإعجاز، وفي هذا ما يؤكد إلهية القرآن وينفي بشريته.

- تعدد القراءات القرآنية لا يشمل القرآن كله، وإنما هو خاص بكلمات محدَّدة، ثم إنه توقيفي، له من الحكم الربانية - من إثراء المعنى، وتوسيع الدلالة، والتيسير على العرب - ما جهله هؤلاء؛ فتناسوا كونه اختلافًا صوتيًّا - في الأغلب - وتوهموه دليلًا على بشرية القرآن وليس الأمر كذلك؛ إذ إنه لا يمسُّ من التشريع أصلًا ولا فرعًا، ولا يحلل حرامًا، ولا يحرم حلالًا.

- إن في القرآن من وجوه الإعجاز ما يقطع بربانيته؛ لخروج تلك الوجوه الإعجازية عن المستوى البشري؛ ومنها:

  - الإخبار بالغيب الماضي والمستقبل وما تُخفي النفوس وتكن الضمائر.
  - الإعجاز العلمي الذي أكَّدت صحته الأبحاث والدراسات العلمية حديثًا.
  - الإعجاز البياني وما فيه من مظاهر جلال الربوبية في السياق القرآني.
  - الإعجاز التشريعي بما فيه من ثبات ومرونة، وشمولية وكمال، وصلاحية للتطبيق في كل زمان ومكان.

الشبهة الثانية

دعوى كون القرآن وسوسة ألقاها الشيطان إلى محمد ﷺ (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتقولين أن القرآن الكريم محض وسوسة ألقاها الشيطان إلى النبي محمد ﷺ؛ ويستدلون على ذلك بما يزعمونه من أن النبي ﷺ ردَّد قول الشيطان

(*) لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق.

أثناء قراءة سورة النجم: "تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهنّ لترتجى"، وهو ما يعرف بقصة الغرانيق. هادفين من هذا إلى التشكيك في إلهية القرآن بنسبته لوساوس الشيطان.

وجها إبطال الشبهة:

١) الوسوسة حديث مؤقت سرعان ما يزول، وهذا ما لا ينطبق على القرآن الكريم الثابت الخالد الذي لا يزول، ثم إن الإنسان كثيرًا ما يوسوس لنفسه خيرًا أو شرًّا، لكنه لا يُطْلِع الآخرين على ما قد يُنْقِص قدره عندهم، أو يحملهم على الاستخفاف به، وإذا كان القرآن الكريم وسوسة شيطانية كما يدَّعون، فكيف يَذُمُّ الشيطانُ نفسَه في القرآن، ويُحذِّر الناس منه؟!

٢) إن ما استدلوا به على زعمهم من قصة الغرانيق دليل باطل على زعم باطل؛ ذاك أن تلك القصة باطلة لا أصل لها، وإنما أذاعها من له مصلحة في ذيوعها، ثم إن الأمة مُجْمِعة على عصمة النبي ﷺ؛ فليس للشيطان عليه سبيل، لا في جسمه بالأذى، ولا على خاطره بالوساس.

التفصيل:

أولا. الوسوسة حديث نفسي زائل والقرآن رسالة خالدة:

تُعرف الوسوسة بأنها حديث الصدور، ولا تأخذ جانبًا محسوسًا، وهي مؤقتة سرعان ما تزول، وهذا لا ينطبق على القرآن الكريم: رسالة الله الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان، ولماذا لم يكمل مسلسل الوسوسة - لو كان الأمر كما زعموا - بعد انقطاع الوحي؟ فالشيطان موجود، والمتهم "إنسان" موجود، فَلِمَ توقفت الوسوسة؟ ولم يقدر إنس، ولا جن حتى الآن على تحدي القرآن، ومحاكاة بلاغته وإعجازه، ولن يستطيعوه أبد الدهر. ثم إن الإنسان يوسوس لنفسه خيرًا أو شرًّا، ولكنه لا يبلغ الناس تلك الوساوس، لأن في ذلك ما قد يُعرِّضه للانتقاص.

وإذا تأملنا طبيعة الرسالة الخاتمة التي تدور أوامر القرآن ونواهيه حولها، ووقفنا على خيريتها وقصدها الإصلاحي؛ استبعدنا تمامًا أن يكون مثل هذا السمو في العرض. والإصلاح في الغاية، وتحبيب الناس في الهداية من وحي قائد الضالين المضلين إبليس اللَّعين! فأنَّى لمن جرد نفسه للغواية أن يدعو للهداية؟! وهذا ما أثبته القرآن الكريم، والآيات البينات في ذلك أكثر من أن تحصى أو تحصر - في هذا المقام - ومنها قول الله تبارك وتعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (ص)، وقوله تعالى حكاية عنه: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الأعراف). وقوله أيضًا حكاية عنه: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ (النساء).

بل هل يُعقل أن يذم الشيطان نفسه لو كان من وسوسته كما ورد في القرآن الكريم؟ من ذلك الآيات: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (الأعراف)، ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (النساء)، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ (النساء)، ﴿ وَمَن

يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)﴾ (النساء)، ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)﴾ (النساء). ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ (المائدة:٩١)، ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ (إبراهيم)، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ (٦)﴾ (فاطر).

هل يدَّعي عاقل - بعد هذا - أن مثل هذه الآيات السابقة من وسوسة الشيطان؟!

ثانيًا. قصة الغرانيق[1] ادّعاء مردود:

وقولهم: إن الرسول ﷺ كان يُصَلِّي بالناس بسورة النجم، فلما بلغ قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠)﴾ (النجم) سجد النبي ﷺ ومَن خلفه، وسجد المشركون، وقالوا: ما ذُكِرَت آلهتنا بخير قبل اليوم، زاعمين أن الرسول ﷺ قال حينئذ: "تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى" - نقول: هذا قول باطل، لا أصل له، وقد أذاع هذه القصة الطاعنون.

وهذا الأمر من قبيل ما اتفق عليه كل العلماء، بل كل الأمة، ونسبة هذه الرؤية أو هذا الرأي إلى الرازي وحده من قبيل التخصيص بغير مقتضٍ.

١. الغرانيق: الأصنام، وكان المشركون يسمونها بذلك تشبيهًا لها بالطيور البِيْض التي ترتفع في السماء.

كما نفى الإمام البيهقي ورودها في السنَّة؛ فقد جاء عن ابن عباس: "أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم فسجد، وسجد من خلفه المسلمون والمشركون، والإنس والجن."[2] وليس فيها حديث الغرانيق، هذا من جانب الرواية نفسها.

أما عن مقتضاها وما تستلزمه من نفي عصمة النبي بالضرورة، وهو ما لم يكن، وثبوت عصمته من الجن عامة وإبليس خاصة خير دليل - إضافة لبطلان الرواية وعدم ثبوتها - على بطلان قصة الغرانيق[3].

وحول عصمة النبي محمد ﷺ يقول القاضي عياض: "واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه. لا في جسمه بأنواع الأذى - كالجنون والإغماء - ولا على خاطره بالوساوس"[4] وإذا كان رسول الله ﷺ معصومًا من الجن على نحو ما أسلفنا؛ فكيف يتلقى القرآن الكريم عن الشيطان؟! وكيف يؤمن به نفر منهم؟! وهو ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١)﴾ (الجن).

بل كيف يَدْعُون قومهم للإيمان بما تزعمون أنه وحي من عندهم، فهل يُعقل أن يكفر موحٍ بما أوحاه ويدبر عنه؟! يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب سجود القرآن، باب سجود المسلمين مع المشركين والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٢١)، وفي موضع آخر.

٣. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص١١٧.

٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، دار الصحيفة، المنصورة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٧٠.

﴿ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأحقاف)، فكيف يوحون إلى النبي محمد ﷺ القرآن الكريم ثم يتعجبون منه ويؤمنون به ويدعون قومهم إليه®؟!

الخلاصة:

- الوسوسة حديث الصدور وسرعان ما تزول، فكيف يُشبَّه بها القرآن الكريم الخالد الذي لا يزول؟! لا شك أنه محض افتراء.
- لا يعقل أن يكون القرآن الكريم وسوسة شيطان، وفيه ما فيه من الآيات الكريمة التي تذمه، وتبين حقيقة أمره ورغبته في غواية بني آدم وعداوته الأزلية لهم، وتدعو إلى الاحتراس منه.
- إن طبيعة الرسالة الإصلاحية التي دارت حولها أوامر القرآن ونواهيه، وما فيها من خيرية ودعوة جادة حثيثة لهداية الناس - تجزم باستحالة أن يكون هذا الكلام صادرًا عن زعيم الضالين وقائد الغاوين إبليس اللعين، وأنَّى لمن جرَّد نفسه وجنده للغواية أن يدعو لهداية؟!
- قصة الغرانيق باطلة لا وجه لها من الصحة - سندًا ومتنًا -؛ أما سندها وثبوتها في الأحاديث فلا ذكر له عن الثقات الأثبات، وقد رفضها العلماء قديمًا وحديثًا، ولم يذكرها البخاري في الرواية. وأما معناها وما تستلزمه فمرفوض؛ لأنها تنفي ما أجمعت الأمة على إثباته من عصمة النبي محمد ﷺ وكفايته من الشيطان في بدنه بالأذى وخاطره بالوساوس.

® في "**عصمة النبي في تبليغ الوحي**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). والوجه الثاني، من الشبهة السادسة والثمانين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي "**خلوّ القرآن الكريم من أيات تمدح الغرانيق**" طالع: الشبهة الثانية والثلاثين. وفي "**عصمة النبي من كيد الشيطان وتَمْنِيَته**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والثلاثين؛ من هذا الجزء.

الشبهة الثالثة

دعوى كون القرآن وحيًا نفسيًّا من خيال النبي ﷺ(*) ®

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتقولين أن النبي ﷺ كان رجلًا عبقريًّا، ذا خيال واسع، وإحساس عميق، وكثيرًا ما كان وجدانه يطغى على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصًا يكلمه، وما تلك إلا صورة من وحي أخيلته ووجدانه؛ وعليه فليس هذا القرآن سوى كلامه النابع من نفسه، وإنما جاء كلامًا معجزًا فصيحًا؛ لفصاحة صاحبه ونبوغه وعبقريته. ويبرهنون على ذلك بما يزعمونه من أن القرآن في جملته مما يمكن أن يستنبطه العقل بطول التأمل والتفكر وكثرة التعبُّد والتحنُّث.

وهم في ذلك كله يرمون إلى الطعن في سلامة القرآن وإلى التشكيك في نسبته لله عز وجل، وإلحاقه بوجدان النبي ﷺ وأخيلته؛ بغية تزهيد المسلمين فيه وتشكيكهم في أحكامه وأوامره ونواهيه.

(*) النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٩، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

® في "**بطلان فكرة الوحي النفسي**" طالع: الوجه السادس، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

وجها إبطال الشبهة:

١) ليس كل ما في القرآن مما يمكن للعقل أن يستنبطه، وإطلاق هذا الكلام على جملته يكتنف كثيرًا من التعميم والتعامل غير المسوَّغ؛ ذاك أن في القرآن ما فيه من المعاني الإخبارية والعلمية والغيبية وكلها أمور نقلية لا تنالها يد العقل بحال، وإنما سبيلها الإلهام أو النقل عمن جاءه ذاك الإلهام.

٢) لو كان القرآن وحيًا نفسيًّا لما رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام بعيني رأسه على صورته الحقيقية ولما أصابه ما أصابه حين نزل عليه من خوف ورعب، ولما انقطع عن ذلك الوحي النفسي بعد المرة الأولى مباشرة مدة ستة أشهر، ولما سكت عن أمور سُئِل عنها، ولما انتظر حتى يأتيه الوحي بأمر ربه فيها ولأجاب في حينها.

التفصيل:

أولا. ليس كل ما في القرآن ممَّا يمكن أن يستنبطه العقل:

معلوم أن في الوحي جانبًا كبيرًا من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها لاستنباط العقل ولا لذكائه؛ ومن تلك الأمور ما وقف القرآن الكريم فيه على أدق تفاصيل أخبار القرون الأولى[1] وأمام تلك التفاصيل الدقيقة حتى في الأرقام - في قصة نوح عليه السلام، وقصة أصحاب الكهف - لا يستطيع عاقل أن يقول بأنه ﷺ استوحى عقله واستلهم ضميره في رواية ما حكاه القرآن بمثل تلك التفاصيل الدقيقة؛ فليس ثمة منطق يسوِّغ نسبة هذا الكلام للنبي ﷺ، ولا سبيل أمام تلك الأنباء التاريخية إلا النقل لا العقل، وأن تجيء من خارج النفس لا من داخلها[2].

ومن الجوانب التي اكتنفها القرآن أيضًا ولا سبيل للعقل في إدراكها: الحقائق الدينية الغيبية، فنجد القرآن شارحًا حدود الإيمان مفصلة، واصفًا بدء الخلق ونهايته، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها، والملائكة... إلى آخر هذه الأمور، فعلى أية قاعدة أو نظرية عقلية بُنيت تلك الحقائق المحددة الدقيقة؟!

وقريب من هذا الشأن حديث القرآن عن النبوءات المستقبلية التي أخبر بها الواقع بعد ذلك. وبَتُّ القرآن في تحديده، وصرامته في الجزم بوقوع ما تنبأ به، وبُعْد ما أخبر به عن المقدمات والأمارات الظنية، خير شاهد على انتفاء أن يكون القرآن من وحي النبي النفسي، وما قيل فيما سلف يُقال في الإعجاز العلمي والبياني والتشريعي أيضًا؛ فكلها قريب من قريب.

ومن نافلة القول أن نُقِرَّ حقيقة كون العقول البشرية محدودة بحد إدراكي تقف عنده ولا تتجاوزه، وأن لها في إدراك الأشياء طريقًا معينًا تسلكه، وكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركوزًا في غريزة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذاك المجهول؛ إما بسرعة كما في الحدث، وإما ببطء كما في الاستدلال والمقايسة والاستنباط، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل ولا تلك المقدمات، لا يمكن أن تناله يد العقل بحال، وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عمن جاءه

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد الشربيني، مرجع سابق، ص٣٠٦ بتصرف.

٢. النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص٦٧ بتصرف.

ذلك الإلهام[1].

ومن الجدير بالذكر أن نشير في هذا الصدد إلى أن ملاحدة الجاهلية وصناديد الكفر كانوا أكثر ذكاء وأبلغ دقة من أتباعهم المعاصرين؛ إذ لم يقل قائل منهم: إن النبي محمد ﷺ استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا كما حكى القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ (الفرقان). وهذا إقرار منهم بأنه لا يمكن أن يكون هذا وَحْيًا نفسيًّا؛ بل لا بد أن تكون قد أُمْلِيَت على النبي ﷺ فتعلَّم وكتب، وهم أقرب في تصورهم من المعاصرين المشككين، فلقد تعلم النبي محمد ﷺ، لكن من الروح الأمين جبريل فبلَّغ الوحي عن رب العزة، واكتتب، لكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام بررة.

إن المتأمل لطبيعة اللقاء الأول بين النبي ﷺ وجبريل، وما أصابه ﷺ بعد ذاك اللقاء؛ ليقف على ثنائية المُلْقِي والمُتَلَقِّي، ويدرك انفصال ذات النبي ﷺ عن ذات جبريل عليه السلام.

فلقد فوجئ رسول الله ﷺ وهو في غار حراء بجبريل أمامه يراه بعينه، وهو يقول له: اقرأ، حتى يتبين أن الوحي ليس أمرًا ذاتيًّا داخليًّا مَرَدُّه إلى حديث النفس المجرد، وإنما هو استقبال وتلقٍّ لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات، وضمُّ المَلَك إياه ثم إرسالُه ثلاث مرات قائلًا في كل مرة: اقرأ، يُعَدُّ تأكيدًا لهذا التلقي الخارجي، ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أنه خيال أو وهم أو اضطرابٌ نفسي.

ثانيًا. الأدلة التي تنفي فكرة الوحي النفسي:

١. لو كان حديثًا نفسيًّا لما داخله الخوف والرُّعب!

ولقد داخله ﷺ الخوف والرعب مما سمع ورأى، حتى إنه قطع خلوته في الغار، وأسرع عائدًا إلى البيت، يرجف فؤادُه، لكي يتضح لكل مفكر عاقل أن رسول الله ﷺ لم يكن متوقعًا للرسالة التي سيُدْعَى إلى حملها، وَبثِّها في العالم، وأن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أو يخطر في باله، وإنما طرأت طروءًا مثيرًا على حياته، وفوجئ بها دون أي توقع سابق، ولا شك أن ليس هذا من شأن مَنْ يتدرَّج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه ــ بطريقة الكشف التدريجي المستمر ـ عقيدةٌ يؤمن بالدعوة إليها!

ثم إن شيئًا من حالات الإلهام، أو حديث النفس، أو الإشراق الروحي، أو التأملات العُلْوية، لا يستدعي الخوف والرعب وتغيير اللون، وليس ثمة انسجام بين التدرج في التفكير والتأمل من ناحية، وبين مفاجأة الخوف والرعب من ناحية أخرى، وإلا لاقتضى ذلك أن يعيش عامة المفكرين والمتأملين نهبًا لدفعات الرعب والخوف المفاجئة المتلاحقة.

ومعلوم أن الخوف والرعب ورجفان الجسم وتغيُّر اللون، كل ذلك من الانفعالات القسرية التي لا سبيل إلى اصطناعها، حتى لو افترضنا ـ جدلًا ـ إمكان صدور المخادعة والتمثيل منه ﷺ، وفرضنا المستحيل من انقلاب طباعه المعروفة قبل البعثة، إلى عكس ذلك.

٢. لو كان حديثًا نفسيًّا لما خشي على نفسه أن يكون الذي رآه آتيًا من الجن!

ويتجلى مزيد من صور المفاجأة المخيفة لديه ﷺ في

---

١. المرجع السابق، ص٦٨ بتصرف.

توهمه أن هذا الذي رآه وغطَّه وكلَّمه في الغار قد يكون آتيًا من الجن؛ إذ قال لخديجة بعد أن أخبرها الخبر: "لقد خشيت على نفسي"[1] أي: من الجانِّ، ولكنها ـ رضي الله عنها ـ طمأنته بأنه ليس ممن يطولهم أذى الشياطين والجان؛ لما له من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة.

وقد كان الله ﷻ قادرًا أن يَرْبِط على قلب رسوله، ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلَّمه ليس إلا جبريل ـ ملك من الملائكة ـ جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئًا من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يُوجَد في ذهن الرسول ﷺ سابقًا، ولم يتصور الدعوة إليه سلفًا بتأكيد ثنائية الملقي والمتلقي بين النبي ﷺ وجبريل عليه السلام.

٣. لو كان حديثًا نفسيًّا لما انقطع عنه بعد المرة الأولى مدة ستة أشهر:

أما انقطاع الوحي بعد ذلك وتلبثه ستة أشهر ـ أو أكثر على الخلاف المعروف فيه ـ فينطوي على حكمة بالغة، فقد قضت الحكمة الإلهية أن يحتجب عنه الملك الذي رآه لأول مرة في غار حراء مدة طويلة، وأن يستبِدَّ به القلق من أجل ذلك، ثم يتحول القلق لديه إلى خوف في نفسه من أن الله ﷻ قد قَلَاه بعد أن أراد تشريفه بالوحي والرسالة؛ لسوءٍ قد صدر منه، حتى لقد ضاقت الدنيا عليه، إلى أن رأى ذات يوم المَلَك الذي رآه في حراء ـ وقد ملأ شكله ما بين السماء والأرض ـ بعد أن سمع صوتًا من السماء، فعاد مرة أخرى ـ وقد استبد به الخوف والرعب ـ إلى البيت وهو يقول: "زمِّلوني زملوني"، فدثَّروه فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢)﴾ (المدثر)[2].

إن هذه الحالة التي مرَّ بها رسول الله ﷺ تجعل مجرد التفكير في كون الوحي إلهامًا نفسيًّا ضربًا من الجنون؛ إذ من البداهة بمكان أن صاحب الإلهامات النفسية، والتأملات الفكرية لا يمر إلهامه أو تأمله بمثل هذه الحالات من الفتور غير المرغوب فيه من قبله.

وربما يعودون يسألون: لماذا نزل الوحي عليه بعد ذلك، وهو بين الكثير من أصحابه فلا يرى المَلَكَ أحدٌ سوى النبي ﷺ؟ والجواب: أنه ليس من شرط وجود الموجودات أن تُرى بالأبصار؛ إذ إن وسيلة الإبصار في البشر محدودةٌ بحدٍّ مُعَيَّن، وإلا لاقتضى ذلك أن يصبح الشيء معدومًا، إذا ابتعد عن البصر بُعْدًا يمنع من رؤيته، على أن من اليسير على الله ﷻ ـ وهو الخالق لهذه العيون المبصرة ـ أن يزيد في قوة ما شاء منها، فترى ما لا تراه العيون الأخرى.

يقول مالك بن نبي في هذا الصدد: "إن عمى الألوان مثلٌ يقدم لنا حالة نموذجية لا يمكن أن ترى فيها بعض الألوان بالنسبة لكل العيون، وهناك أيضًا مجموعة من الإشعاعات الضوئية دون الضوء الأحمر، وفوق الضوء البنفسجي لا تراها أعيننا، ولا شيء يثبت علميًّا أنها كذلك بالنسبة لجميع العيون؛ فقد توجد عيون تكون أقل حساسية أو أكثر".

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة العلق (٤٦٧١)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٥).

ثم إن في استمرار الوحي بعد ذلك ما يحمل الدلالة على حقيقته، وينفي ما روَّجه المشككون من أنه ظاهرة نفسية مَحْضَة، ونستطيع أن نجمل هذه الدلالة فيما يأتي:

التمييز الواضح بين القرآن والحديث، إذ كان يأمر بتسجيل الأول فورًا على حين يكتفي بأن يستودع الثاني ذاكرة أصحابه، لا لأن الحديث كلام من عنده لا علاقة للنبوة به، بل لأن القرآن موحى به إليه بنفس اللفظ والحروف بواسطة جبريل ، أما الحديث فمعناه وحي من الله ، لكن لفظه وتركيبه من عنده ﷺ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله الذي يتلقاه من جبريل بكلامه هو ﷺ.

كان النبي ﷺ يُسْأل عن بعض الأمور، فلا يجيب عنها، وربما مرَّ على سكوته زمنٌ طويل، حتى إذا نزلت آية في شأن ذلك السؤال، استدعى السائل وتلا عليه ما نزل من القرآن الكريم في شأن سؤاله، وربما تصرف في بعض الأمور على وجهٍ معين، فنزلت آيات من القرآن تصرفه عن ذلك الوجه، وربما انطوت على عَتْب له أو لوم.

إن صِدْق النبي ﷺ أربعين سنة بين قومه واشتهاره فيهم بالصادق الأمين؛ ليَسْتدعي أن يكون من قبل ذلك صادقًا مع نفسه، ولذا لا بد أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أي شك يخايل عينيه أو فكره وكأن هذه الآية جاءت ردًّا لدراسته الأولى، لشأن تفسير ما حدث مع الوحي، ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ (يونس)، وحاشاه ﷺ أن يشك أو يسأل وهو المُنَزَّه المعصوم، وإنما الخطاب خرج مخرج الخاص وأريد به العام[1].

يُضاف إلى ما سبق: أنه لو افترضنا أن القرآن وحي نفسي، فهل يُعقل أن يكرر الرسول ﷺ كل عام هذا الكم الهائل دون أن يُغيِّر فيه بتقديم أو تأخير أو تعديل؟! هذا مع الأخذ في الاعتبار والإقرار من كِلَيْنَا بأميَّة النبي ﷺ، أفلن تخونه ذاكرته البشرية، فيخالف ما أملاه على الكَتَبَة في عدد من المواضع؟!

الخلاصة:

- الوحي الإلهي - الذي يمارون فيه - قوةٌ خارجيَّة تتَّصل بالنفس المحمدية حينًا بعد حين، وهذه القوة أعلى من قوته ﷺ؛ بدليل ما تُحْدِثه في نفسه ﷺ وفي بدنه من الآثار العظيمة، وهي قوةٌ خيِّرة معصومة؛ لأنها لا توحي إلا الحق، ولا تأمر إلا بالرُّشْد، إنها قوة مَلَك كريم.
- ثمة بون شاسع بين الوحي النبوي ووحي الناس بعضهم لبعض، فالناس قد يوحون زخرف القول غرورًا، وكثيرًا ما يترك وحيهم في نفس متلقِّيه أعراضًا عقلية أو بدنية يصعب علاجها. فأين هذا من الوحي بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته: رسولٍ من الملائكة ورسولٍ من الناس؟ فأما الرسول المَلائِكي فإنه لا يوحي إلا الحق، ولا يأمر إلا بالخير. وأما الرسول البشري فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل، ثابت الفؤاد كامل العقل قوي النفس والبدن:

---

١. انظر: فقه السيرة، د. محمد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٦٢: ٦٧. مباحث في علوم القرآن، منّاع القطّان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٣٥: ٤١.

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

- لا يقال: إنه ﷺ أراد بنسبة القرآن إلى الوحي الإلهي أن يجعل لكلامه حرمة تفوق كلامه حتى يستعين بهذا على استجابة الناس لطاعته وإنفاذ أوامره، فإنه صدر عنه كلام نسبه لنفسه فيما يسمى بالحديث النبوي ولم ينقص ذلك من لزوم طاعته شيئًا، ولو كان الأمر كما يتوهمون لجعل كل أقواله من كلام الله ﷻ.

- إن الجانب الإخباري - وهو قسم كبير من القرآن - لا يماري عاقل في أنه لا يعتمد إلا على التلقي والتعلم؛ فلقد ذكر القرآن أنباء من سبق من الأمم والجماعات، والأنبياء والأحداث التاريخية بوقائعها الصحيحة الدقيقة مع طول الزمن الضارب في أغوار التاريخ، ونشأة الكون الأولى بما لا يدع مجالًا لإعمال الفكر ودقَّة الفراسة، ولم يعاصر محمد ﷺ تلك الأمم في قرونها المختلفة؛ حتى يشهد وقائعها وينقل أنباءها، كما لم يتوارث كتبها ليدرس دقائقها ويروي أخبارها.

- في القرآن الكريم أنباء دقيقة تتناول الأرقام الحسابية التي لا يعلمها إلا الدارس البصير ففي قصة نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١٤)﴾ (العنكبوت). وهذا موافق لما جاء في سفر التكوين من التوراة، وفي قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا (٢٥)﴾ (الكهف)، وهي عند أهل الكتاب ثلاثمائة سنة شمسية، والسنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية، فمن أين أتى محمد ﷺ بهذه الدقائق الصحيحة لو لم يكن يُوحى إليه وهو الرجل الأمي الذي عاش في أمة أميَّة لا تكتب ولا تَحْسِب في الأعم الأغلب؟

- إن قسم العقائد يتناول كذلك أمورًا تفصيلية عن بدء الخلق ونهايته، والحياة الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وما يتبع ذلك من الملائكة وأوصافهم ووظائفهم، وهذه معلومات لا مجال فيها لذكاء العقل، ولا لقوة الفراسة ألبتة.

- إن المتأمل لطبيعة ما انضوى عليه اللقاء الأول بين النبي ﷺ وجبريل عليه السلام، وما أصاب النبي ﷺ أثناءه وبعده من خوف وما أصابه من فتور الوحي - ليعلم أن كل هذا شاهد صدق على انفصال مصدر الوحي عن نفسه وخياله ﷺ، وحواره مع جبريل: "اقرأ"، "ما أنا بقارئ" يؤكد ثنائية الملقي والمتلقي وانفصال ذات جبريل عليه السلام عن ذات النبي ﷺ.

الشبهة الرابعة

دعوى أن بعض الآيات القرآنية من أقوال الصحابة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتقولين أن في القرآن آيات من أقوال الصحابة، ممثلين لذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ (آل عمران: ١٤٤)،

(*) أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة. مناهل العرفان في علوم القرآن، د. محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

وقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥). زاعمين أن الآية الأولى من قول أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ، وأن الآية الثانية من قول عمر ﷺ. ويتساءلون: كيف يكون للقرآن مصداقية عند المسلمين، وفيه مثل هذا التدخل والتحريف والوضع البشري؟! ويرمون من وراء ذلك إلى تشكيك المسلمين فيما بين أيديهم من الكتاب؛ بغية هَزِّ ثقتهم في تشريعاته وأحكامه وأوامره ونواهيه.

وجها إبطال الشبهة:

١) نزول الآية الأولى بعد غزوة أحد ـ أي قبل وفاة النبي ﷺ ببضع سنوات ـ يثبت قرآنيتها، وما كان من أبي بكر ﷺ إلا أن ذكَّر الصحابة بها؛ ليَثْبتوا عند مُصابهم بموت رسول الله ﷺ.

٢) الآية الثانية نزلت حينما تمنَّى عمر ﷺ أن يتَّخذ المسلمون من مقام إبراهيم ﷺ قبلةً، فنزلت الآية تأمر بذلك؛ تحقيقًا لما تمنَّى الفاروق المُلْهَم، وهي إحدى فضائله المعروفة عنه، وليست الآية بنصها الذي وردت به في القرآن من كلامه ﷺ حسبما ادَّعى بعضهم؛ فثمة فرق بين أسلوب التمني (كلمته)، وأسلوب الأمر في الآية.

التفصيل:

أولا. ليست الآية الأولى من كلام أبي بكر ﷺ، وإنما هو الذي ذكَّر المسلمين بها بعد وفاة النبي ﷺ:

فقد نزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (آل عمران) بعد غزوة أحد، أي: قبل وفاة النبي ﷺ ببضع سنوات تقريبًا، وهذا مما يُثْبِت قرآنيتها، وما كان من أبي بكر إلا أن ذكَّر الصحابة بها.

وقد نزلت الآية في عِتَاب الصحابة بعد غزوة أحد؛ وذاك أن المسلمين لما أصيبوا في أحد، وأشيع أن الرسول ﷺ قد قُتِل، اختلَّ نظام الجيش، وفرَّ كثير من المسلمين، وقال بعضهم: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أُبي؛ فيأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، وبعضهم جلسوا وألقوا ما بأيديهم من السلاح، وقال أناس من أهل النفاق: إن كان محمدٌ قد قتل، فالحقوا بدينكم الأول، فقال أنس بن النضر ـ عم أنس بن مالك ـ: "يا قوم: إن كان محمد قُتِل، فإن ربَّ محمدٍ لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد محمد ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم ألقى بنفسه في القتال، حتى لقي ربَّه شهيدًا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)[1]؛ ليبين لهم خطأهم في تصرفهم، حينما ظنوا أن الرسول ﷺ قد قتل، وليوضِّح لهم أن النبوة لا تقتضي الخلود، وأنه ﷺ كغيره من الأنبياء، يجوز عليه ما جاز عليهم من الموت والفناء، قال ﷻ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الرحمن).

ويبدو أنه قد التبس على هؤلاء الأمر، بما جرى بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ إذ أنكر عمر في سَوْرَة الغضب وغمرة الحزن موت رسول الله ﷺ، بل توعَّد من يقول ذلك بضرب عنقه، وغفل عن هذه الآية، شأنه في

١. السيرة النبوية، ابن كثير، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٣، ص٤٤، ٤٥.

ذلك شأن كل البشر - في مثل تلك النوازل - يجري عليه قانون الغفلة والنسيان، فلما أن جاء أبو بكر الصِّديق ﷺ ودخل على رسول الله ﷺ وقبّله، وقال: "طبت حيًّا وميتًا". ثم قال: "على رسلك يا عمر"، ثم حمد الله وأثنى عليه، وقال: "أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"، ثم تلا الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾، عندئذٍ قال عمر: "فوالله ما إن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رِجْلَاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات"[1][2]. إذ قد تحقّق ما غاب عنه من أن موت الرسول ﷺ حق لا شك فيه.

وليس صحيحًا ما استشهد به هؤلاء على نسبة الآية لأبي بكر ﷺ بدليل موقف عمر بن الخطاب عنه سالف الذكر؛ إذ قول عمر ﷺ في هذه الرواية: "وما إن سمعت أبا بكر تلاها" إنما يُثْبت قرآنيتها، والتلاوة إنما تكون - في مفهوم الصحابة - قراءة القرآن حسبما اتفق عرفًا واصطلاحًا في مجتمع المسلمين، وقد نزلت هذه الآية قبل وفاة رسول الله ﷺ ببضع سنوات، والمسلمون جميعًا - ومنهم أبو بكر وعمر - يحفظونها ويعرفونها. غير أن عمر ذهل عنها؛ لهول الحادث وشدة صدمته وتصدُّع قلبه بموت رسول الرحمة ﷺ.

ويزيد ما سبق تأكيدًا قول الراوي: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر، فأخذها الناس من أبي بكر. والآية - كما هو واضح - ليس فيها ما يدل أو يشير مجرد إشارة إلى أنها من كلام أبي بكر، بل هي تحمل في طيها أدلة كونها من كتاب الله، وهذا ما يؤمن به الصحابة[3]، بمقتضى نزولها عليه ﷺ في حياته، شأنها في ذلك شأن قوله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر).

ثانيًا. ثمة فرق بين الآية المنسوبة لعمر ﷺ وبين صيغة التمني التي قالها:

فقد حدث أن تمنى عمر ﷺ أن يتخذ المسلمون قبلة من مقام إبراهيم ﷺ، فنزلت الآية تأمر به، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِۦمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥)، وكان هذا من جملة ما ألهم به عمر ﷺ من الأشياء التي وافقه فيها القرآن، ولا تعني موافقة القرآن عمر ﷺ في أشياء رآها أو اجتهد فيه أنها من كلامه ﷺ، فهل كل ما حُكي على لسان أحد من البشر في القرآن الكريم يعد من قوله؟ بالطبع لا؛ بدليل أن الله ﷻ قد حكى كلامًا في القرآن، على لسان الكفار والمشركين، ومن ذلك: قول الله ﷻ حكاية عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (يونس). فهل تصحُّ نسبة هذه الآية لفرعون؟! أم تنسب لجملة القرآن الكريم - على أنها من كلام الله ﷻ أو الذي قاله لينقل لنا موقفه؟!

ولما أمسك الوليد بن المغيرة، بعظمة بالية، ثم فركها، ونشرها في الهواء، وقال كيف يحيي هذه الله بعد

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٨٧).

٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص ٢٩٤ بتصرف.

٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٨، ٢٢٩ بتصرف.

موتها؟ ونقل لنا الله هذا في قوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ (يس)، فهل نقل كتبة الوحي هذا القرآن الكريم عن الوليد بن المغيرة، أو هو من قول الله تبارك وتعالى؟! وكذا قول الله ﷻ مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) إلى آخر هذه الأمثلة. وكلها داخل تحت إطار السياق القرآني، متصل النسبة بالله ﷻ.

قريب الشبه من هذا ـ ولله المثل الأعلى ـ أن يورد الشاعر العربي في قصيدته نص كلام لغيره في بيت أو بيتين من قصيدته، ولا يقتضي هذا أن تنسب تلك الأبيات ـ أو القصيدة كلها ـ لغير شاعرها الذي وظَّف القول المحكي في سياقه الشعري؛ فأبو ذؤيب الهذلي مثلًا عندما يحكي قول زوجته " أميمة " في عينيته الشهيرة قائلًا:

قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِبًا

مُنْذُ ابْتُذِلْتَ، وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ

أَمْ مَا لِجَنْبِكَ لَا يُلَائِمُ مَضْجَعًا

إِلَّا أَقَضَّ عَلَيْكَ ذَاكَ المَضْجَعُ

لا يتسنى لعاقل أن ينسب القصيدة لأميمة ـ لمجرد أن الشاعر حكى قولها في قصيدته ـ؛ بل ما تزال عينية أبي ذؤيب لا عينية أميمة، وهذه كتلك، ولله المثل الأعلى.

نعود فنقول: إن عمر ﷺ تمنى ـ فقط ـ أن تكون القبلة تجاه البيت الحرام؛ لما رآه من رسول الله ﷺ في اتخاذ الكعبة قبلةً للمسلمين بدلًا من بيت المقدس خاصةً بعد أن تكلم أهل الكتاب عن صلاة المسلمين تجاهه؛ حيث قالوا: "اتَّبع محمدٌ قِبْلَتنا، وعمَّا قليل ليَتَّبِعَنَّ مِلَّتَنا ".

نخلص من هذا إلى أن ما كان من قول عمر بن الخطاب ﷺ إن هو إلا أمنية تمناها؛ ذلك أن قلبه كان معلقًا بالبيت الحرام حتى قبل إسلامه، فيحكي عنه أنه قال: لقد كنت عندما يلم بي التعب، أدور حول البيت ـ الكعبة ـ حتى أتم السبعة، فيذهب ما بي من تعب، هذا هو عمر ﷺ وعلاقته بالكعبة قبل إسلامه، فما أعظم هذه العلاقة بعد إسلامه التي تجعله معلقًا بالبيت الحرام يتمنى لو كانت القبلة نحوه.

وهل يزعم صاحب هذه الفِرْيَة أن قوله تبارك وتعالى في الآية "اتخذوا" بصيغة الأمر هكذا هو من قول عمر بن الخطاب ﷺ؟ فكيف يتأتى لعمر بن الخطاب ﷺ أو لأي شخص مهما بلغت مكانته ومهما علا قدره أن يأمر النبي ﷺ بتشريع لم يشرعه الله؛ فَيَنَفِّذ النبي أمره؟!

ومن نافلة القول أن نُبيِّن الفرق بين كلمة عمر ﷺ في تمنيه الذي هو سبب النزول، وبين نسج الآية الكريمة النازلة بذلك السبب، وجلي أن الفعل في الآية إنما جاء بصيغة الأمر، ولم يقرن بلفظ "لو". أما تمني عمر ﷺ فجاء الفعل فيه بصيغة الماضي، وقُرِن بلفظ "لو" على أن من اعتبر تحقيق القرآن أمنية عمر ﷺ من كلام عمر ﷺ، فقد أغفل ما بينهما من البعد الشاسع والبون البعيد[1].

١. المرجع السابق، ص٢٩ بتصرف.

الخلاصة:

- نزل قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤) ﴾ (آل عمران) بعد غزوة أحد، وقبل موت النبي ﷺ ببضع سنين تقريبًا، وما كان من أبي بكر إلا أن ذكَّر الصحابة بها في موقف موت رسول الله ﷺ حتى يرجعهم إلى صوابهم.
- لقد تمنَّى عمر ﷺ أن تتحول القبلة للبيت الحرام لأسباب معلومة؛ فعبَّر بأسلوب التمني المقرون بلفظ "لو"، وفرق بين التمني في كلمته ﷺ، والأمر في الآية .
- ليس معنى أن يحكي القرآن قول أحد من الأنبياء أو حتى من المشركين أن يُنْسَب القرآن لهم، وقريب من هذا ما يحكيه أحد الشعراء - ولله تبارك وتعالى المثل الأعلى - من كلام غيره في شعره، ولا تزال القصيدة وثيقة الصلة بشاعرها الذي وظَّف القول المحكي في نسيجه الشعري، ولله المثل الأعلى.
- لقد جانب هؤلاء الصواب حين خلطوا وأوَّلوا في موقف عمر ﷺ عقب وفاة النبي متخذين من ذلك دليلًا على صحة نسبة الآية لأبي بكر ﷺ؛ إذ قول عمر ﷺ: "وما إن سمعت أبا بكر تلاها"[1] يثبت قرآنيتها، فالتلاوة - كما اصطلح المسلمون - تنصرف في ذهن الصحابة إلى قراءة القرآن الكريم، وهنا يقف دور أبي بكر ﷺ عند التذكير بها مجرد تذكير.

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤١٨٧).

الشبهة الخامسة

الزعم أن النبي ﷺ توفي ولم يترك للمسلمين قرآنًا مدوَّنًا؛ فحرَّفه الصحابة أثناء جمعه ونسخه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القرآن الكريم لم يُجْمَع في حياة النبي ﷺ، وأن الصحابة ﷺ هم الذين قاموا

(*) رد القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده،مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر، ترجمة: سمير عبد الحميد إبراهيم، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة،١٤١١هـ/ ١٩٩١م. المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة التاسعة، العدد ١٠٤، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيمي، دار عمار، عمان، ط٢، ١٩٩٦م. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق. أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة، رسول جعفريان، تقديم: د. محمد عمارة، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م. عصمة القرآن من الزيادة والنقصان، السيد مرتضى الرضوى، مؤسسة دار الهجرة، طهران، ط١، ١٤٢٢هـ. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق. مناهل العرفان، الزرقاني، مرجع سابق. الاستشراق والقرآن العظيم، د. محمد خليفة، دار الاعتصام، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م. مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز. ترجمة: محمد عبد العظيم علي، مراجعة: د. السيد محمد بدوي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك. مركز البحث العلمي للدراسات وإحياء التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م. الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، مصر. لماذا لم يجمع القرآن في عهده ﷺ، موقع طريق الحقيقة. جمع القرآن في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث، د. محمد شرعي أبو زيد، رسالة ماجستير، جامعة الكويت.

بجمعه وترتيب نصِّه وتوحيده في كتاب واحد، وقد حرَّفوه فأسقطوا كثيرًا من آياته وسوره، ويستدلون على هذا بأن الرسول ﷺ توفي ولم يكن هناك قرآنٌ مدوَّنٌ في أيدي المسلمين. ويرمون من وراء ذلك إلى وَصْم القرآن بشيء من التحريف أو التصحيف أو التزييف أو النقص أو الزيادة أثناء جمعه؛ بغية الطعن في سلامته والتشكيك في تمامه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد حفظ الله القرآن لنبيه ﷺ في حياته بطرق عدة؛ منها: حفظه في صدور الصحابة، وتدوين الكَتَبَة له فَوْر تلقِّي النبي ﷺ إياه، ثم مُعارضة جبريل القرآن عليه كل عام مرة، وعام وفاته ﷺ مرتين.

٢) لم يُجمَع القرآن في مصحف واحد على عهد النبي ﷺ؛ لأنه لم يكن اكتمل بعد، ولم يكن المسلمون بحاجة لذلك الجمع والنبي ﷺ بين ظَهْرانَيْهم، فلما تُوُفِّي النبي ﷺ، وخَشِي المسلمون نَفاد الحَفَظَة، ثم لم يأمنوا الفتنة على أهل الأمصار، كان ما كان من جمع القرآن في مصحف، وجمع المسلمين على مصحف هو المصحف الإمام.

٣) لقد كان الصحابة الكرام من الحرص على سلامة القرآن، والتحوُّط في جمعه بمكان؛ ولذا لم يقبلوا غير المتواتر وردّوا غير قطعي الثبوت، واشترطوا في قبول النص القرآني أن يكون مكتوبًا بين يدي النبي ﷺ لا مجرد الحفظ مع المبالغة في الاستظهار، وأن يكون ممَّا ثبت عرضه على النبي ﷺ في العَرْضَة الأخيرة، وغير ذلك من الضوابط التي راعاها الصحابة ضمن الدستور الرشيد المحكم الذي انتهجوه أثناء جمعهم القرآن ونسخهم إياه.

التفصيل:

أولا. من الثابت تاريخيًّا أن القرآن الكريم كان محفوظًا في عهد النبي ﷺ بطرق شتى:

لقد كان القرآن الكريم محفوظًا في عهد النبي ﷺ، حيث ظل يتلقى القرآن الكريم في مكة ثلاث عشرة سنة، وفي المدينة المنورة عشر سنين، وخلال تلك الفترة الطويلة كان كل حرف ينزل يَعِيه الحَفَظَة في قلوبهم، ويسجِّله الكَتَبَة في صُحُفهم.

فقد كان النبي ﷺ كلما نزل عليه الوحي وفرغ من تلقيه دعا كتَّاب الوحي فأملى على مسامعهم ما نزل فيقومون بكتابته بدقة وعلى الفور، وكان يعرض على جبريل مرة كل عام ما كُتب من الوحي في ذاك العام، وعرضه عليه مرتين في سنة موته ﷺ، وهكذا جُمع القرآن كله في حياة النبي ﷺ في صُحُف ورِقاع، وكان مُرَتَّبًا كما هو الآن في سوره وآياته إلا أنه لم يكن في مُصْحَف واحد.

ومن هنا نستطيع القول: إنَّ النبي ﷺ عندما تُوُفِّي كان كل محفوظٍ من القرآن مكتوبًا، كما كان كل مكتوبٍ من القرآن محفوظًا في صدور المؤمنين، وليس أدل على ذلك من مصحف عائشة - رضي الله عنها - الذي اعتمد عليه عثمان رضي الله عنه في توحيده المصاحف كما كان لكثير من الصحابة مصاحف مدوَّنة خاصة بهم، بل كان بين المسلمين من يحفظ القرآن كله أسوة برسول الله ﷺ؛ ومن هؤلاء: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وحذيفة وسالم مولى أبي حذيفة وأبو

هريرة وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبوه، وغيرهم من المهاجرين، ومن الأنصار: أُبَي بن كعب وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأبو الدرداء، وأبو زيد ﷺ، ومهما يكن من شيء فقد حفظ القرآن كثير من الصحابة في عهد النبي ﷺ، حتى إنه رُوِي أنه في يوم بِئْر مَعُونة فقط قُتِل سبعون من حَفَظَة القرآن.

لكن قد يُشكل على هذا الذي نذكره ما جاء عن أنس بن مالك، قال: "مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد"[١].

والحق أن لا إشكال؛ لأن مراد أنس الحصر الإضافي لا الحقيقي حتى يشكل الأمر، إذ لا يتم له الحصر الحقيقي؛ والدليل على ذلك في الرواية الأخرى عن أنس قال "أربعة كلهم من الأنصار..."[٢]. والحق ما ذهب إليه ابن حجر في الفتح من أن ذلك بالنسبة إلى الخزرج دون الأوس؛ لأنه قال ذلك في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج، فلا يتنافى أن كثيرًا من غيرهم قد حفظوه[٣].

وكذلك ما ورد من أن الحفظة للقرآن كانوا سبعة أو أقل فإنه يُحْمَل على من اشتهر منهم لا على إرادة الحصر؛ فقد أورد البخاري في صحيحه ثلاث روايات ذكر في مجموعها سبعة من القرَّاء، هم: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل - مولى حذيفة -، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

وذِكْرُ هؤلاء الحفاظ السبعة، لا يعني - كما قلنا - الحصر، وإنما هو محمول على أن هؤلاء هم الذين جمعوا القرآن كله في صدورهم، وعرضوه على النبي ﷺ واتصلت بنا أسانيدهم، أما غيرهم من حفظة القرآن - وهم كُثر - فلم تتوافر فيهم هذه الأمور كلها، لا سيما أن الصحابة تفرقوا في الأمصار، وحفظ بعضهم عن بعض؛ ويكفي دليلًا على ذلك أن الذين قُتِلُوا في بئر معونة من الصحابة ممَّن كان يُقال لهم "القُرَّاء" كانوا سبعين رجلًا كما سبق أن ذكرنا.

وقد نال شُهْرَة حفظ كتاب الله كثير من الصحابة؛ مما يدل على أن الحصر ليس مرادًا، ومنهم على سبيل المثال: الخلفاء الأربعة، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة، وأبو هريرة، وعبد الله بن السائب، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عمر، وتميم بن أوس الداري، وعقبة بن عامر ﷺ، وغيرهم.

هذا من ناحية الحَفَظَة والحِفْظ في الصدور، ومن ناحية أخرى ثمة طريقة أخرى كانت تسير مع تلك الأولى جنبًا إلى جنب تلك هي كتابة الوحي، ومن أشهر الكتَبَة الذين عهد إليهم النبي ﷺ بكتابة القرآن الكريم زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وهو أول من كتب له بالمدينة، وممن كتب له ﷺ: الخلفاء الأربعة، والزبير ابن العوام، وخالد، وابنا سعيد بن العاص بن

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (٤٧١٨).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب زيد بن ثابت ﷺ (٣٥٩٩)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبّي بن كعب وجماعة من الأنصار (٦٤٩٤)، وفي موضع آخر.

٣. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٦٢: ٢٦٤ بتصرف.

أمية، وحنظلة بن الربيع الأسدي وعبد الله بن الأرقم وآخرون ممن كانوا يكتبون القرآن الكريم في سعف النخيل، وصفائح الحجارة، والجلود، والرقاع، وغيرها.

هذا فضلًا عن بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون لأنفسهم، ما شاء الله لهم أن يكتبوا، ويحتفظون به في بيوتهم ليرجعوا إليه متى أرادوا.

وفي هذا ما يبين لنا طرفًا من الجهد الذي بذله ذلك الرعيل الأول في إثبات مقتضى حفظ الكتاب الخالد وبتحقيق مقتضى الوعد الإلهي: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

لقد عاش رسول الله ﷺ طيلة حياته والقرآن محفوظ في الصدور ومدوّن في السطور، ومعلوم أنه لم يجمع في مصحف عام؛ لأن الوحي كان ينزل، فلو جمع في مصحف واحد لأدى ذلك إلى مشقة كبيرة في ترتيبه؛ إذ لم يكن ترتيب الكتابة وفق ترتيب النزول، بل كانوا يكتبون الآية بعد نزولها؛ حيث يُشير ﷺ إلى موضع كتابتها بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا، ولو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد؛ لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي، وفي ذلك من المشقة ما لا يخفى لصعوبة آلية الكتابة وبدائية أدواتها وهذا ما ألمح إليه الزركشي بقوله: "وإنما لم يُكْتَب في عهد النبي مصحف؛ لئلا يفضي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ".

وورد عن زيد بن ثابت من قوله: "قبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جمع في شيء"، وقد اتّخذها بعضهم مطعنًا في صحة القرآن، متوهمًا أن هذه الرواية تدل على عدم جمع القرآن في عهد النبي ﷺ أصلًا بمعنى تدوينه وحفظه، وهذا زعم مردود عليه -لو قلنا بصحة الرواية- بما بيَّنه العلماء من أن المراد هنا أن القرآن لم يجمع في صحيفة واحدة في كتاب واحد على غرار ما هو حادث اليوم.

ولعل روايات جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه نفسها تقف بنا على حقيقة ما خلَّفه النبي ﷺ من قرآن بين المسلمين وكيف أنه كان مدوَّنًا؛ يقول العلامة ابن حجر شارحًا ما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "فأرسل عثمان رضي الله عنه إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصُّحف ننسخها في المصاحف". وفي رواية يونس بن يزيد: "فاستخرج الصحيفة التي كان أبو بكر أمر زيدًا بجمعها، فنسخ منها مصاحف، فبعث بها إلى الآفاق". "والفرق بين الصحف والمصحف أن الصحف الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر، وكانت سورًا مفرقة كل سورة مرتبة بآياتها على حدة، لكن لم يرتب بعضها إثر بعض، فلما نسخت، ورتب بعضها إثر بعض صارت مصحفًا"[1].

وعقَّب السيوطي على حديث أبي سعيد الخُدري: "لا تكتبوا عَنِّي وَمَنْ كتب عنِّي غير القرآن فَلْيَمْحُه"[2]. فقال: "لا ينافي ذلك -أي ما جاء في حديث زيد السابق-؛ لأن الكلام في كتابة مخصوصة، على صفة مخصوصة وقد كان القرآن مكتوبًا كله في عهد رسول

---

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٨، ص٦٣٥.
٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (٧٧٠٢).

الله ﷺ لكنه غير مجموع في موضع واحد".

ثم إن زيد بن ثابت الذي جاء عنه الحديث السابق هو نفسه الذي ذكر له البخاري حديثًا صريح الدلالة صحيح الثبوت في أن القرآن كان مكتوبًا في السطور، محفوظًا في الصدور قبل وفاة النبي ﷺ، ونص الحديث: أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ـ وكان ممن يكتب الوحي ـ قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يَسْتَحِرَّ القتل بالقُرَّاء في المواطن فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نَتَّهِمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّع القرآن فاجمعه. فوالله، لو كَلَّفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله النبي ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقُمْتُ فتتبعتُ القرآن، أجمعه من الرِّقاع[1] والأكتاف[2] والعُسُب[3] وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ (التوبة: ١٢٨) حتى خاتمة براءة. وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها[4].

فالقرآن كما تدل هذه الرواية التي لا يتطرق إليها شك قد جُمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه ـ بمشورة عمر رضي الله عنه ـ مما كتب في عهد رسول الله ﷺ ومن صدور الرجال ـ وهم كثير ـ وإن كان ما كتب في عهده ﷺ مفرقًا في العُسُب واللِّخاف[5] والرقاع والأكتاف وغيرها كما أشار زيد راوي الحديث.

وقد فهم العلماء من حديث زيد بن ثابت ـ السّالف ذكره ـ أن القرآن كان مكتوبًا ومحفوظًا في عصر النبي ﷺ ولم يكن جَمْع أبي بكر رضي الله عنه له جمعًا مستحدثًا؛ قال الزركشي في البرهان: "قال الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي في كتاب "فهم السنن": كتابة القرآن ليست مُحْدَثة؛ فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقًا في الرقاع والأكتاف والعسُب، وإنما أمر الصدّيق بنسخها من مكان إلى مكان وكان ذلك بمنزلة أوراق فيها القرآن وجدت في بيت رسول الله ﷺ فجمعها جامع، وربطها بخيط؛ كيلا يضيع منها شيء.

ثم قال ـ والكلام للإمام المحاسبي ـ: وفي قول زيد بن ثابت: "فجمعناه من الرقاع والأكتاف وصدور

---

١. الرِّقاع: واحدها رُقْعة، وهي قطعة من القماش يُكتب عليها.
٢. الكَتِفُ والكِتْفُ: عَظْم عريض خَلْف المَنْكِب، كانوا يكتُبون فيه لقِلَّة القَراطِيس عندهم.
٣. العُسُب: جمع عسيب، وهو جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يُكْشَط ورقها.
٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة براءة " التوبة " (٤٤٠٢)، وفي مواضع أخرى.
٥. اللِّخاف: حجارة بِيْض رِقاق، واحدها لَخْفة.

الرجال " ما أوهم بعض الناس أن أحدًا لم يجمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ، وأن من قال: إنه جمع القرآن أبي بن كعب وزيد بن ثابت ليس بمحفوظ، وليس الأمر على ما أوهم وإنما طلب القرآن متفرقًا ليعارض بالمجتمع عند من بقي ممن جمع القرآن؛ ليشترك الجميع في علم ما جُمِع فلا يغيب لمن جمع القرآن أحد عنده منه شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف ولا يُشَكُّ في أنه جُمِع عن ملأ منهم".

والذي قاله المحاسبي المتوفى سنة ٢٤٣هـ تصوير جيد لجمع القرآن ورد عظيم على المشككين في تاريخه.

وبعد... فليس ثمة ما يحتاجه مشكك في أمر الجمع وخلافه من فضل تفنيد وبيان للحقيقة على وجهها، وإلى من يؤمنون بالوحي ويتشككون في أمره نقول: إذا كان هؤلاء يؤمنون بالوحي الإلهي، فلماذا يستبعدون نزوله على رسول الله ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل، يعارضه القرآن مرة كل سنة ومرتين في العام الأخير لحياته ﷺ؟ وإذا ثبت عندهم ذلك ففيمن يشككون؟! وعلام يتحفَّظون، وقد قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر)؟!

وجاء عن فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "أسرَّ النبي ﷺ إلي أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني هذا العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجَلي"[١].

ولقد تكفَّل الحق ﷻ بجمع القرآن فقال ﷻ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) ﴾ (القيامة) وجمعه في الآية يشمل المعنيين المشار إليهما من قبل: حفظه في الصدور وكتابته في السطور، فكيف ينال من جمع القرآن وحفظه نائل بعدما تعهد الله الحفيظ العليم بجمعه وقرآنه[٢]؟

ثانيًا. لم يُجمَع القرآن كاملا ولم يُدوَّن في مصحف واحد على عهد الرسول ﷺ لموانع انتفت بوفاته ﷺ؛ فارتأى الصحابة جمعه، وهذا ما كان:

لسائل أن يسأل: لِمَ لم يجمع القرآن في مصحف واحد على عهده ﷺ؟ وهو سؤال مشروع، والجواب عليه من أوجه نلخِّصها فيما يأتي:

- إن دواعي الكتابة لم تكن قائمة في عهده ﷺ، من جهة أن القرآن لم يكن اكتمل بعد، ومن جهة أخرى أن عددًا كبيرًا من الصحابة كان يحفظ القرآن في صدره.
- إن وجود النسْخ في حياته ﷺ كان أمرًا واردًا على بعض آيات القرآن الكريم، طالما أن الوحي لم ينقطع بعد، فلو دُوِّن القرآن ثم جاء النسخ لأدَّى ذلك إلى الاختلاف والاختلاط في الدين، فَحَفِظَه ﷻ في قلوب الصحابة إلى انقضاء زمن النسخ، ثم وفق الصحابة بعدُ للقيام بجمعه. كما أمَّن الله ﷻ رسوله ﷺ من النسيان، بقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) ﴾ (الأعلى)، فحين تُوُفِّي المعصوم من النسيان، وبقي القرآن، في صدور غير المعصومين منه؛ وقع الخوف من نسيان الخلق، وحدث ما لم يحتج إليه قبل ذلك من جمع القرآن.

بعد وفاة النبي ﷺ توافرت دواعي جمع القرآن كاملًا وتدوينه في مصحف واحد لما ترتب على وفاته ﷺ من انقطاع الوحي ومن حروب الردة التي استنفدت عددًا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٢٦).

٢. انظر: المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق، ص٤٧ وما بعدها.

كبيرًا من الصحابة الحفظة... ومقتل سبعين صحابيًّا في اليمامة على عهد أبي بكر ﷺ.

ولقد كانت هذه الوقعة أهم الأسباب التي اكتملت بها الحاجة إلى جمع القرآن، ودفعت الصحابة إلى هذا العمل، لَمَّا رأَوْا أن مصلحة الدين، وحفظ الكتاب الحكيم لا تتم إلا به[1].

هذا عن سبب جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ، أمَّا في عهد عثمان ﷺ فإن الأسباب الباعثة على جمع القرآن كما ذكرها الباحث محمد شرعي في رسالته للماجستير عن جمع القرآن: تتمثل في اتساع بلاد المسلمين وتفرق الصحابة فيها، وباتِّساع دولة الإسلام كثُر المسلمون، وتفرق الصحابة في الأمصار، يدعون إلى الله، ويعلِّمون العلم، ويُقرِئون القرآن.

وكان الناس يقرءون كما عُلِّموا، فأهل الشام يقرءون بقراءة أُبَي بن كعب، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة يقرءون بقراءة أبي موسى الأشعري، وهكذا[2]؛ فعن الشعبي عن علقمة قال: لقيت أبا الدرداء فقال لي: ممن أنت؟ قلت: من أهل العراق. قال: من أَيِّهم؟ قلت: من أهل الكوفة. قال: هل تقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود؟ قلت: نعم. قال: فاقرأ[3].

وكان هؤلاء القراء من الرَّعيل الأول الذين شهدوا نزول القرآن، وسمعوه من النبي ﷺ، وعلموا وجوه

١. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٧، ٢٠٨ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ج١، ص٢١٢.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب ما يتعلق بالقراءات (١٩٥٥).

قراءته، ولم يكن شيء من ذلك لِمَن تعلَّم منهم في الأمصار، فكانوا إذا اجتمع الواحد منهم مع من قرأ على غير الوجه الذي قرأ عليه يعجبون من ذلك، وينكر بعضهم على بعض، وكان لانتشار حلقات تعليم القرآن، في هذا الشأن أثر ملحوظ؛ إذ انتقل الخلاف إلى الغلمان والمعلمين، فخطَّأ بعضهم بعضًا، وأنكر بعضهم قراءة بعض.

وكان لغزو أرمينية وأذربيجان في عام خمس وعشرين من الهجرة النبوية في هذا شأن؛ إذ اجتمع أهل الشام وأهل العراق وكان أهل الشام يقرءون بقراءة أُبي بن كعب، وكان أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، فتنازع أهل الشام وأهل العراق في القراءة، حتى خطَّأ بعضهم بعضًا، وأظهر بعضهم تكفير بعضٍ، والبراءة منه، وكادت تكون فتنة عظيمة.

وكان السبب وراء هذا الخلاف عدم مشاهدة هؤلاء نزولَ القرآن، وبُعْدهم عن معاينة إباحة قراءته بأوجه مختلفة، فظنَّ كلٌّ منهم أن ما يقرأ به غيره خطأ لا يَجوز في كتاب الله، فكادت تكون تلك الفتنة.

على أن حذيفة بن اليمان لما وقف على شيء من هذا الخلاف، أنذر أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذاك الخطر الداهم؛ فعن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أَرْمِنْيَة وأَذْرَبيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أَدْرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى[4].

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢).

فكانت هذه الحادثة من أهم الأسباب التي بعثت عثمان ﷺ على جمع الناس على مصحف واحد ونَسْخِه نُسَخًا للأمصار قاطبة، فقد أكدت ما ظنه ﷺ من أن أهل الأمصار أشد اختلافًا مِمَّن كان بدار الخلافة بالمدينة وما حولَها®.

ثالثًا. من الثابت تاريخيًّا أن المسلمين وضعوا ضوابط صارمة قبل اعتماد المصحف في المرتين:

معلوم أن الصحابة ﷺ كانوا أحرص الناس على الاحتياط للقرآن، وكانوا أيقظ الخلق في حراسة القرآن، ولهذا لم يعتبروا من القرآن إلا ما ثبت بالتواتر[1] وردوا كل ما لم يثبت تواتره؛ لأنه غير قطعي ويأبى عليهم دينهم وعقلهم أن يثبتوا ما ليس بقطعي.

ولو أخذنا منهج أبي بكر ﷺ في جمع القرآن لوجدنا مدى الدقة والحرص في اهتمام الصحابة بجمع القرآن.

وفي اختيار أبي بكر الصديق زيد بن ثابت ـ رضي الله عنهما ـ للقيام بمهمة جمع القرآن؛ دليل قاطع على حرص الصحابة الشديد، ودقَّتهم البالغة في جمع القرآن الكريم. وقد بَيَّن أبو بكر الصديق ﷺ أسباب اختياره زيدَ بن ثابت؛ حيث قال له: "إنك رجل شاب عاقل ولا نَتَّهِمك، وقد كُنْتَ تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّع القرآن فاجمعه"[2].

وقد ورد أيضًا أن زيد بن ثابت كان قد حضر العَرْضة الأخيرة للقرآن الكريم.

أضف إلى ذلك أن زيد بن ثابت كان ممن جمع القرآن حفظًا في صدره في حياة رَسُول الله ﷺ فعن قتادة قال: قلت لأنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ؟ قال أربعة، كلهم من الأنصار: أُبي بن كعب، ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت، ورجل من الأنصار يكنى أبا زيد[3].

نخلُص من هذا إلى أن أبا بكر ﷺ إنَّما اختار زيد بن ثابت لِهذه المهمة الشاقة للأسباب الآتية:

- أنه كان شابًّا، وفي ذلك خصال توافق غرض الصديق، حيث إن الشابَّ أقوى وأجلدُ على العمل الصعب من الشيخ، كما أن الشابَّ لا يكون صَعْب القياد، كثير العناد، شديد الاعتداد برأيه، فعند حصول الخلاف يسهل قبوله النصح والتوجيه.
- أنه كان معروفًا بوفرة عقله، وهذا مِمَّا يؤهله لإتْمام هذه المهمة الجسيمة.
- أنه كان غير متهم في دينه، فقد كان معروفًا بشدة الورع، والأمانة وكمال الخلق، والاستقامة في الدين.
- أنه كان يكتب الوحي لرَسُول الله ﷺ، ويرى إملاءه ﷺ، فكان يشاهد من أحوال القرآن الكريم ما لا يشاهده غيره، وهذا يُؤَهِّله أكثر من غيره ليكتب القرآن.
- أنه كان حافظًا للقرآن الكريم عن ظَهْر قلب، وكان حِفْظه في زمن النبي ﷺ على العرضة الأخيرة؛ إذ

® في "أسباب جمع أبي بكر للقرآن" طالع: الوجه الثاني. وفي "جمع القرآن في عهد عثمان وأسبابه" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة؛ من هذا الجزء.

١. تواتر الخبر: أن يرويه جَمْع من الناس يستحيل تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى منتهاه، وهو مصطلح عند علماء مصطلح الحديث وغيرهم من علماء الشريعة.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة براءة "التوبة" (٤٤٠٢)، وفي مواضع أخرى.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار (٦٤٩٥)، وفي موضع آخر بنحوه.

كان ممن شهدها.

وقد كان زيد بن ثابت ﷺ جديرًا بهذه الثقة، ويدل على ذلك قوله لمَّا أُمِر بجمع القرآن: فوالله! لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قال ابن حجر: وإنَّما قال زيد بن ثابت ذلك لِما خَشِيَهُ من التقصير في إحصاء ما أُمِر بجمعه، لكن الله تعالى يسر له ذلك، فشرع زيد بن ثابت يَجمع القرآن من الرقاع واللخاف والعظام والجلود وصدور الرجال، وأشرف عليه وعاونه في ذلك أبو بكر وعمر وكبار الصحابة[1].

نضيف لما سبق أن الجمع نفسه اصطبغ بصبغة إجماعية لا تقبل غير المتواتر؛ فعن عروة بن الزبير قال: لَمَّا استحرَّ القتل بالقراء يومئذٍ، فَرِق أبو بكرٍ على القرآن أن يضيعَ، فقال لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: اقعدا - يوم معركة اليمامة - على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه[2]. وعن أبي العالية عن أُبَي بن كعب أنَّهم جَمعوا القرآن في مصحفٍ في خلافة أبي بكر، فكان رجالٌ يكتبون، ويُملي عليهم أُبَي بن كعبٍ ...[3] بهذه المشاركة أخذ هذا الجمع الصفة الإجماعية، فقد اتفق عليه الصحابة ﷺ، وتعاونوا على إتمامه على أكمل وجه.

ولمزيد من الإيضاح نريد أن نقف على الدستور الذي اقتفاه الصحابة حين جمعوا القرآن، وقد بلغت رغبتهم في المحافظة على القرآن الغايةَ القصوى، فمع أنَّهم شاهدوا تلاوة القرآن من النبي ﷺ عشرين سنة، ومع أن القرآن كان بالفعل مكتوبًا على عهد النبي ﷺ، إلا أنه كان مفرَّقًا، ومع أن تزويره كان مأمونًا، ومع أن زيد بن ثابت - الذي قام بالجمع - كان هو وغيره من الصحابة يَحفظون القرآن، فقد اتَّبعُوا في جمع القرآن على عهد أبي بكر ﷺ منهجًا دقيقًا حريصًا، أعان على وقاية القرآن من كل ما لَحَق النصوص الأخرى من مظنة الوضع والانتحال، ويُمكن تلخيص ذلك المنهج في النقاط الآتية:

1. أن يأتي كلُّ من تلَقَّى من رَسُول الله ﷺ بما تلقى من قرآن كريم إلى زيد بن ثابت ومن معه، على ذلك ما ذكره ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب قام في الناس فقال: من كان تلقى من رَسُول الله ﷺ شيئًا من القرآن الكريم فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعُسُب[4].
2. أن لا يُقبل من أحدٍ شيء حتى يشهد عليه شاهدان، أي أنه لم يكن يكتفي بِمجرد وجود الشيء مكتوبًا حتى يشهد عليه شاهدان.

1. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج1، ص209 بتصرف.
2. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب جمع أبي بكر الصديق ﷺ القرآن في المصاحف، اقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء (18)، وعلاء الدين البرهان فوري في كنز العمال، حرف الهمزة، كتاب الأذكار من قسم الأفعال من حرف الهمزة، باب في لواحق التفسير، جمع القرآن (4754).
3. أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث أبي العالية الرياحي عن أبي كعب ﷺ (21264)، وابن أبي داود في المصاحف، خبر قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ (التوبة: 128)، رسول الله ﷺ قد أقرأني بعد هذا آيتين (81).
4. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب جمع عمر بن الخطاب ﷺ القرآن في المصحف، من كان تلقى من رسول الله ﷺ (27)، وعلاء الدين البرهان فوري في كنز العمال، حرف الهمزة، كتاب الأذكار من قسم الأفعال من حرف الهمزة، باب في لواحق التفسير، جمع القرآن (4759).

ويدل على ذلك أثر عمر السابق، وكذلك قول أبي بكر لعمر بن الخطاب ولزيد بن ثابت: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه[1]. وقد اختلف في المراد بالشهادة هنا:

- فقال السخاوي: المراد أنَّهما يشهدان على أنَّ ذلك المكتوب كُتِب بين يدي رَسُول الله ﷺ، أو المراد أنَّهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التي نزل بِها القرآن.
- وقال ابن حجر: وكان المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب. ثم ذكر احتمال الوجهين الأولين.
- قال السيوطي: أو المراد أنَّهما يشهدان على أن ذلك مِمَّا عُرض على النبي ﷺ عام وفاته.

والذي يظهر - والله أعلم - أن المراد الشهادة على كتابته بين يدي النبي ﷺ، وأنه مِمَّا عُرض على جبريل في العام الذي توفي فيه رَسُول الله ﷺ؛ إذ كان القرآن مَحفوظًا في صدور كثير من الصحابة ﷺ، فلو أرادوا الإشهاد على حفظه لوجدوا العشرات.

٣. أن لا يُقبل مِمَّا يُؤتى به إلا ما تحقق فيه الشروط الآتية:

- أن يكون مكتوبًا بين يدي النبي ﷺ، لا من مُجرد الحفظ، مع المبالغة في الاستظهار والوقوف عند هذا الشرط. قال أبو شامة: وكان غرضهم ألا يُكتب إلا من عَيْن ما كُتب بين يدي النبي ﷺ، لا من مجرد الحفظ[2].

١. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب جمع أبي بكر الصديق ﷺ القرآن في المصاحف، اقعدوا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء (١٨)، وعلاء الدين البرهان فوري في كنز العمال، حرف الهمزة، كتاب الأذكار من قسم الأفعال من حرف الهمزة، باب في لواحق التفسير، جمع القرآن (٤٧٥٤).

٢. انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ج١، ص١٦٧. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٨، ص٣٦٠.

- أن يكون مما ثبت عرضه على النبي ﷺ عام وفاته، أي في العرضة الأخيرة؛ وذلك أن ما لم يثبت عرضه في العرضة الأخيرة لم تثبت قرآنيته، وقد مرَّ قريبًا احتمال كون الإشهاد على أن المكتوب كان مِمَّا عرض في العرضة الأخيرة.

وعن محمد بن سيرين عن كَثِير بن أفلَحَ قال: لَمَّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أُبَي بن كعبٍ وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الرَّبعَةِ[3] التي في بيت عُمَرَ، فجِيء بِها، قال: وكان عثمانُ يتعاهدهم، فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخَّروه، قال محمد: فقلت لكَثِيرٍ - وكان فيهم فيمن يكتب -: هل تدرون لم كانوا يُؤَخِّرونه؟ قال: لا، قال محمد: فظننت أنَّهم إنَّما كانوا يُؤَخِّرونه لينظروا أحدثهم عهدًا بالعرضة الآخرة، فيكتبونَها على قوله[4].

- أن تكتب الآيات في سورها على الترتيب والضبط اللذين تلقاهما المسلمون عن النبي ﷺ.

هذا ولا يظنَّن ظان أن الصحابة الكرام كانوا من أولئك الذين يخالف فعلهم قولهم، أو أنهم وضعوا شروط ثم لم يلتزموها؛ فقد التُزم في هذا الجمع كل الضوابط السابقة بدقة صارمة؛ فقد جاء عن الليث بن سعد، قال: أوَّل من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيدٌ، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا

٣. الرَّبْعَة: جُونة العطَّار، وصندوق أجزاء المصحف.

٤. إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، جمع عثمان ﷺ المصاحف، لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف (٧٢)، وذكره ابن كثير في فضائل القرآن، كتابة عثمان ﷺ للمصاحف، (١/ ٣٩).

بشاهدي عدل، وإن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع خزيْمة بن ثابت، فقال: اكتبوها؛ فإن رَسُول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين، فكتب. وإن عمر أتى بآية الرجم، فلم يكتبها؛ لأنه كان وحده[1] [2].

وإذا كان القرآن قد تم جمعه وفق منهج حكيم مضبوط بشروط التوثيق وقواعده في عهد أبي بكر ﷺ، فإن المنهج نفسه اتبع في عملية الجمع الثانية التي تمت في عهد ذي النورين عثمان بن عفان ﷺ بل زاد عليه، ويمكننا أن نلخص ملامح هذا المنهج في النقاط التالية:

- الاعتماد على جمع أبي بكر الصديق ﷺ، ويظهر هذا جليًّا في طلب عثمان ﷺ الصحف التي جمع فيها أبو بكرٍ القرآن من حفصة ـ رضي الله عنها ـ وقد كانت هذه الصحف ـ كما مرَّ ـ مستندةً إلى الأصل المكتوب بين يدي النبي ﷺ. فكان لا يُقْبل شيء في مرحلة الجمع الثاني ليس له وجود في تلك الوثائق التي أقرها النبي ﷺ من قبل.
- أن تكون الآية أو الآيات محفوظة حفظًا مطابقًا لما في مصحف أبي بكر عند رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ على الأقل فلا يكفي حفظ الرجل الواحد ولا يكفي وجودها في مصحف أبي بكر، بل لا بد من الأمرين معًا.
- أن يتعاهد لجنةَ الجمع ويشرف عليها خليفةُ المسلمين بنفسه؛ فعن كَثِير بن أفلَحَ قال: لَمَّا أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أُبَي بن كعبٍ وزيد بن ثابت، قال: فبعثوا إلى الرَّبْـعَةِ التي في بيت عُمَرَ، فجِيء بها، قال: وكان عثمانُ يتعاهدهم[3].
- أن يأتي كلُّ مَن عنده شيء من القرآن سمعه من الرَّسُول ﷺ بما عنده، وأن يشترك الجميع في علم ما جُمِع، فلا يغيب عن جمع القرآن أحدٌ عنده شيء منه، ولا يرتاب أحدٌ فيما يودَع المصحف، ولا يُشَك في أنه جُمِع عن ملأٍ منهم[4].

فقد ورد أنَّ عثمان ﷺ دعا الناس إلى أن يأتوا بما عندهم من القرآن المكتوب بين يدي النبي ﷺ، وأنه كان يستوثق لذلك أشد الاستيثاق؛ فعن مصعب بن سعد قال: قام عثمان ﷺ فخطب الناس فقال: أيها الناس! عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة سنةً، وأنتم تمترون في القرآن... فأَعْزِم على كل رجل منكم ما كان معه من القرآن شيء لَمَا جاء به، وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن، حتى جمع من ذلك كثرةً، ثم دخل عثمان، فدعاهم رجلًا رجلًا، فناشدهم: لَسَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ، وهو أملاه عليك؟ فيقول: نعم[5].

---

١. ذكره العظيم آبادي في عون المعبود فيما ذكره ابن أبي شيبة في المصاحف، كتاب الصيد، باب إذا علم الحاكم صدق شهادة الواحد (١٠/ ٢٠).

٢. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مرجع سابق، ج١، ص١٦٧، ١٦٨.

٣. إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، جمع عثمان ﷺ المصاحف، لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف (٧٢)، وذكره ابن كثير في فضائل القرآن، كتابة عثمان ﷺ للمصاحف (١/ ٣٩).

٤. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، المكتبة العصرية، بيروت، ج١، ص٢٣٨، ٢٣٩.

٥. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، جمع عثمان ﷺ المصاحف، عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة وأنتم تمترون في القرآن (٦٦)، وعلاء الدين البرهان فوري في كنز العمال، حرف الهمزة، كتاب الأذكار في قسم الأفعال من حرف الهمزة، باب في لواحق التفسير، جمع القرآن (٤٧٧٩).

• الاقتصار عند الاختلاف على لغة قريش، كما جاء في حديث أنس بن مالك أن عثمان قال للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا[1].

والمقصود من الجمع على لغة واحدة: الجمع على القراءة المتواترة، المعلوم عند الجميع ثبوتُها عن النبي ﷺ، وإن اختلفت وجوهها، حتى لا تكون فرقةٌ ولا اختلاف، فإن ما يعلم الجميع أنه قراءة ثابتة عن رَسُول الله ﷺ لا يختلفون فيها، ولا ينكر أحدٌ منهم القراءة بِها. قال أبو شامة: يحتمل أن يكون قوله: نزل بلسان قريش، أي: ابتداء نزوله، ثم أبيح أن يقرأ بلغة غيرهم، فلعلَّ عثمان ﷺ عندما جمع القرآن رأى الحرف الذي نزل القرآن أولًا بلسانه أولى الأحرف، فحمل الناس عليه عند الاختلاف[2].

• أن يُمنع كتابة ما نُسخت تلاوته، وما لم يكن في العَرْضَة الأخيرة، وما كانت روايته آحادًا، وما لم تُعلم قرآنيته، أو ما ليس بقرآن، كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة، شرحًا لمعنىً، أو بيانًا لناسخ أو منسوخٍ، أو نحو ذلك[3].

ومِمَّا يدل على ذلك ما ورد عن محمد بن سيرين عن كَثِير بن أفلَحَ قال: فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخَّروه، قال محمد: فقلت لكَثِيرٍ ـ وكان فيهم فيمن يكتب ـ: هل تدرون لم كانوا يُؤَخِّرونه؟ قال: لا. قال محمد: فظننت أنَّهم إنَّما كانوا يُؤَخِّرونه لينظروا أحدثهم عهدًا بالعرضة الأخيرة، فيكتبونَها على قوله[4].

• أن يشتمل الجمع على الأحرف التي نزل بِها القرآن، والتي ثبت عرضها في العرضة الأخيرة ـ كما سبق أن فعل أبو بكر ـ مع مراعاة ما يأتي:

○ عند كتابة اللفظ الذي تواتر النطق به على أوجهٍ مختلفةٍ عن النبي ﷺ، يبقيه الكَتَبَةُ خاليًا عن أية علامة تقصِر النطق به على وجه واحد؛ لتكون دلالة المكتوب على كلا اللفظين المنقولين المسموعين متساوية[5]، فتكتب هذه الكلمات برسم واحدٍ ـ في جميع المصاحف ـ محتمل لما فيها من الأوجه المتواترة؛ ومن أمثلة ذلك قوله ﷻ: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾ (الهمزة)، بفتح العين والميم، فقد قرأها حمزة والكسائي وخلف وشعبة بضم العين والميم (عُمُد).

○ ما لا يحتمله الرسم الواحد كالكلمات التي تضمَّنت قراءتين أو أكثر، ولم تُنْسَخ في العَرْضة الأخيرة، ورسمُها على صورة واحدة لا يكون محتملًا لما فيها من أوجه القراءة، فمثل هذه الكلمات ترسم في بعض المصاحف برسم يدل على قراءة، وفي بعضها

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش (٣٣١٥)، وفي موضع آخر.

٢. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٨، ص٦٢٦ بتصرف.

٣. انظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٥، ٢٣٦. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مرجع سابق، ج١، ص١٧١.

٤. إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، جمع عثمان ﷺ المصاحف، لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف (٧٢)، وذكره ابن كثير في فضائل القرآن، كتابة عثمان ﷺ للمصاحف (١/ ٣٩).

٥. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، ج١، ص٣٣.

برسم آخر يدل على القراءة الأخرى[1].

ولم يكتب الصحابة رضي الله عنهم تلك الكلمات برسمين أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية؛ لئلا يُتَوَهَّم أن الثاني تصحيحٌ للأول، وأن الأول خطأ، وكذلك لأن جعل إحدى القراءات في الأصل والقراءات الأخرى في الحاشية تحكُّمٌ، وترجيحٌ بلا مرجِّح؛ إذ إنَّهم تلقَّوْا جميع تلك الأوجه عن رسول الله ﷺ، وليست إحداها بأولى من غيرها، ومن الأمثلة على ذلك: قوله تبارك وتعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ (البقرة: ١٣٢)، فقد قرأها أبو جعفرٍ، ونافعٌ، وابن عامرٍ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ من الإيصاء. وقد رسمت في مصاحف أهل المدينة والشام بإثبات ألف بين الواوين. قال أبو عبيد: وكذلك رأيتها في المصحف الإمام مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، ورسمت في بقية المصاحف بواوين قبل الصاد، من غير ألفٍ بينهما.

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (التوبة: ١٠٠) فقد قرأها عبد الله بن كثير المكي بزيادة (مِنْ) قبل (تَحْتِهَا). وهي كذلك في المصحف المكي، وفي بقية المصاحف بحذفها[2] إلى آخر تلك النماذج.

وبعد الفراغ من كتابة المصحف الإمام يراجعه زيد بن ثابت، ثم يراجعه عثمان رضي الله عنه بنفسه.

وكانت هذه هي المراجعة الأولى لزيدٍ رضي الله عنه، ويظهر من الروايات أنه عرضه مرتين أخريين، فأظهرت الثانية الاختلاف في لفظ (التابوت)، ولم تكشف الثالثة عن شيء؛ فعن زيد أنَّه لَمَّا بَلَغَ: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ (البقرة: ٢٤٨) قال زيد: فقلت أنا: التابوه، وقال أبان: التابوت فرفعنا ذلك إلى عثمان، فكتب التابوت، ثم عرضه - يعني المصحف - عرضة أخرى، فلم أجد فيه شيئًا، فأرسل عثمان إلى حَفْصَة أن تُعْطِيَه الصحيفة، وحَلَفَ لها لَيَرُدَّنَّ الصحيفة إليها، فأعطته، فعرض المصحف عليها، فلم يختلفا في شيء، فردها إليها وطابت نفسه، وأمر الناس يكتبون مصاحف[3].

وفي هذا الأثر ما يدل على أن المعارضة بِما جمعه الصديق كانت بعد الانتهاء من كتابة المصحف الإمام، لِمزيد الاطمئنان، وفي هذا ما يدل على بقاء الأوجه الثابتة من القراءة بغير اختلافٍ بين الحفَّاظ والعلماء.

وقد نفَّذ الصحابة رضي الله عنهم هذه الضوابط أدقَّ تنفيذٍ، فكانوا ينتظرون الغائب الذي عنده الشيء من القرآن زمانًا إذا لزم الأمر؛ حتى يستثبتوا مِمَّا عنده، على الرغم من أن القائمين بالكتابة والإملاء كانوا من الحفاظ القراء؛ فعن أبي قلابة البصري قال: كنتُ فيمن أملي عليهم، فربَّما اختلفوا في الآية، فيذكرون الرجل قد

١. سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين، علي محمد الضباع، ص١٠١: ١٠٦. شرح الإعلان بتكميل مورد الظمآن، إبراهيم المارغني التونسي، ص٤٣٦.

٢. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، مرجع سابق، ج١، ص١١، ج٢، ص٢٨٠. شرح الإعلان بتكميل مورد الظمآن، إبراهيم المارغني التونسي، مرجع سابق، ص٤٤٨، كتاب المصاحف، ابن أبي داود، ص٥٧.

٣. صحيح: ذكره الطحاوي في مشكل الآثار، باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ، أفعل ما لم يفعل رسول الله ﷺ (٢٦٤٥)، والترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة (٣١٠٤) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣١٠٤).

تلقَّاها من رَسُول الله، ولعله أن يكون غائبًا أو في بعض البوادي، فيكتبون ما قبلها وما بعدها، ويَدَعُون موضعها حتى يجيء، أو يُرسَل إليه[1].

ومما يدل على حصانة منهج الصحابة في تدوين القرآن وسلامته من النقص أن القرآن الذي نقرؤه اليوم هو الذي نزل على النبي ﷺ لم يتغير فيه حرف واحد، وذلك بشهادة كثيرين من أهل الغرب أنفسهم وأصحاب الدراسات الدينية المقارنة فقد أكَّد "لوبلوا": "أن القرآن الكريم هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر".

وكان "و. موير" قد أعلن ذلك قبله إذ قال: "إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يدٍ ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حُفِظَ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يُذْكَر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النُّسَخ التي لا حصر لها المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة...فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يُعَدُّ أكبر حجةٍ ودليلٍ على صحة النص المنزل الموجود معنا"[2].

الخلاصة:

- إن تدوين آيات القرآن قائم منذ أول سورة نزلت، بل أول آية من القرآن، وكان كلما نزل نجم من القرآن أملاه ﷺ على أحد كتبة الوحي فدوَّنه سماعًا منه لتوِّه، ولم يلق ﷺ ربه إلا والقرآن كله مدوَّن في الرقاع وما أشبهها من وسائل التدوين المتاحة، وهذا هو التدوين الأول للقرآن الذي قام جمع الصحابة الكرام للقرآن على أساس منه.

- إن الفترة النبوية التي سبقت جمع القرآن في خلافة أبي بكر ؓ لم تكن فترة إهمال للقرآن - كما يزعم البعض - بل العكس هو الصحيح، كانت فترة عناية شديدة بالقرآن اعتمدوا فيها على ركيزتين بالغتي الأهمية هما:
  - السماع من الحفظة المتقنين لحفظ القرآن وتلاوته.
  - والكتابة على الجلود والعظام والرقاع والعسب.

ومعلوم أن السماع والحفظ هما أقدم الوسائل لحفظ القرآن وتلاوته، وسيظلان هكذا إلى يوم الدين.

- لم يكن الصحابة ؓ بحاجة لجمع القرآن في مصحف واحد والنبي ﷺ حي بين ظهرانيهم، فلمّا تُوُفِّي لم يأمنوا عليه لضياع بعض الرقاع من جهة، ولاستشهاد كثير من الحفظة في المعارك من جهة ثانية، فكان جمعه في مصحف على عهد أبي بكر ؓ، وجمع المسلمين على مصحف في عهد عثمان ؓ.

- لقد التزم الصحابة في جمع القرآن ونسخه دستورًا رشيدًا قويًا، وطبَّقوه بمنتهى الدقة؛ فكان أن أُخرج المصحف بالصورة التي أُنْزِل بها على النبي ﷺ، مصداق قول الحق: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر). إن القرآن منذ أول آية نزلت منه، حتى اكتمل وحيه لم يغب عن المسلمين، ولم يغب عنه

---

1. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، جمع عثمان ؓ المصاحف، أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون (٦١)، وعلاء الدين البرهان فوري، حرف الهمزة، كتاب الأذكار من قسم الأفعال من حرف الهمزة، باب في لواحق التفسير، جمع القرآن (٤٧٧٦).
2. مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص٤٢.

المسلمون، بل كان ملازمًا لهم، ملازمين إياه ملازمة الروح للجسد.

- إن تاريخ القرآن الكريم واضح كل الوضوح، لم تمر عليه فترات غموض، مبهمة المعالم، كما هو الشأن في عهدي الكتاب المقدس ـ التوراة والإنجيل ـ وما خضعا له من غموض وإبهام لا يمكن إسقاطه على تاريخ القرآن، بحال من الأحوال؛ لفرق بيِّن بين المقيس والمقيس عليه.

الشبهة السادسة

ادِّعاء أن القرآن كان وثيقة قديمة مخطوطة عثر عليها النبي ﷺ فسمَّاها قرآنًا (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتقولين أن القرآن الكريم وثيقة قديمة مخطوطة، اكتشفها النبي ﷺ فأخذ يُعَدِّل فيها ويُجَوِّد، وسماها قرآنًا، ويتساءلون: ما الذي قدَّمه محمد ﷺ للبشرية غير أنه أظهر تلك الوثيقة؟ وهم بهذا يشككون في كون القرآن وحيًا إلهيًّا نزل على النبي محمد ﷺ.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم يكن القرآن وثيقة قديمة، وإلا فأين كانت تلك الوثيقة ؟ ولماذا لم يعثر عليها غير محمد ﷺ وينسبها لنفسه لينال من الشرف ما ناله محمد ﷺ؟

٢) إنَّ فيما اشتمل عليه القرآن من غيبيات ـ المستقبل خاصة ـ، وما عُهد عن النبي من انتظار نزول الوحي للإجابة على أسئلة هو في أمسِّ الحاجة للإجابة عنها؛ نقول: إن في هذا كله ما يبطل دعوى كون القرآن الكريم وثيقة، فلو كان القرآن بحوزته ففيم كان انتظاره؟!

التفصيل:

أولا. هل حقا كان القرآن الكريم وثيقة مخطوطة من قبل محمد ﷺ؟!

الحق أن هذا الزعم يكتنف كثيرًا من التحامل مما يجعلنا نتساءل: إذا كان القرآن وثيقة مخطوطة من قبل النبي ﷺ ـ كما يزعمون ـ فأين كانت تلك الوثيقة؟! ولماذا لم يعثر عليها غير محمد ﷺ وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب؟! ومن ذا الذي دلَّه عليها؟! ثم ألم يكن هذا الذي دلَّه أولى بها منه ﷺ؟!

فعلى فرض أنه كان وثيقة قديمة عثر عليها أحد الرهبان أو الأحبار، فقد كان من الأولى بهذا الحَبْر أو ذاك الراهب أن ينسبها لنفسه، أو يقوم هو بنشرها لينال شرف السيادة والزعامة، لكن هذا لم يحدث، ولم يدَّع أحد الأحبار أو الرهبان ذلك.

وإذا تجاوزنا حقيقة ارتفاع القرآن عن مستوى البشرية بما فيه من غيبيات وإعجاز ليس في مقدور بشر ـ بالغًا من النبوغ ما بلغ ـ أن يحيط بها علمًا حتى لو كان النبي ﷺ نفسه؛ نتساءل هل يوجد عاقل في ذرعه أن يأتي بما أعجز الناس ـ قديمًا وحديثًا ـ من الغيبيات، والمعجزات ثم ينسب بضاعته لغيره وينسلخ

(*) تاريخ الشعوب العربية، د. ألبرت حوراني، ترجمة: نبيل صلاح الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق.

منها انسلاخًا؟!

الحق أننا نرى كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم، فيسرقونها أو يسرقون منها ما خفَّ حمله، وغلت قيمته، وأُمنت تهمته، أما أن يَنسِب أحدٌ لغيره آثار بحثه، وعُصارة عقله، فهذا ما لا يقبله عقل، ولا يؤيده واقع ولا تجربة.

وإذا قال قائل: إن محمدًا قد نسب تلك الوثيقة لله ﷻ؛ لأن في ذلك ما قد يجعل لها من الحرمة والتعظيم ما لا يكون إذا نسبها لنفسه، قلنا: هذا قياسٌ فاسدٌ في نفسه، فاسدٌ في أساسه.

أمَّا أنه فاسدٌ في نفسه؛ فلأن محمدًا ﷺ قد صدر منه الكلام المنسوب إلى نفسه، وهو الحديث الشريف، في نفس الوقت الذي صدر عنه كلام الله ﷻ، فَلِمَ لم ينسب كل الكلام الصادر عنه لله ﷻ ليزداد بذلك قداسةً وتعظيمًا؟! هذه واحدة، والثانية: أن أرباب اللغة - ومن لهم دراية بفنون القول وعلوم العربية - يدركون الفرق الواضح بين بلاغة القرآن الكريم، وبلاغة الحديث النبوي الشريف؛ حيث التفاوت الطبيعي بين كلام صدر عن الله ﷻ، وكلام صدر عن بشرٍ؛ وإن كان - أبلغ الناس كافة - رسول الله ﷺ.

وأما عن كون قياسهم فاسدًا في أساسه؛ فلأنه مبنيٌّ على افتراض باطل، هو تجويز أن يكون محمد ﷺ ممَّن تبرِّر الغاية عندهم الوسيلة غير المشروعة، أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية، أن يَعْبُروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه التاريخ كل الإباء؛ لأن محمدًا ﷺ قد شهد له أعداؤه بالصدق والأمانة، قبل أن يشهد له أصحابه[1].

ثانيًا. طبيعة ما اشتمل عليه القرآن الكريم من جهة، وواقع النبي ﷺ في انتظار الوحي من جهة ثانية؛ خيرا شاهدين على استحالة أن يكون القرآن وثيقة:

ومعلوم أن القرآن نزل مُنَجَّمًا في ثلاثة وعشرين عامًا حسب الغايات الربانية، وهذا خيرُ دليلٍ على أنه وَحْي من الله ﷻ، وأنه يمضي حسب المشيئة الإلهية، لا حسب الأهواء والرغبات الشخصية، وكم من مرة كان رسول الله ﷺ في حاجة ماسَّة لنزول الوحي فيتأخر عنه، وكم من مرة نزل عليه بغير ما يتوقع[2].

وزمن نزول الوحي في مجموعه ثلاثةٌ وعشرون عامًا؛ وبذلك لا يكون ظاهرةً مؤقتةً أو خاطفة، ولقد نزلت الآيات منجمة (مفرقة)، وبين كل مرة والتي تليها مدةُ انقطاعٍ تتفاوت طولًا وقصرًا، وقد ينقطع الوحي مدة أطول مما ينتظره النبي ﷺ، لا سيما عندما يلزمه أن يتخذ قرارًا يعتقد أن من الواجب ألا يصدره قبل تصديق السماء عليه، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ منها:

- موقفه ﷺ إزاء قرار الهجرة، فلقد هاجر أصحابه من مكة فارِّين بدينهم، بينما كان يعتقد ﷺ أنه لا بد فيما يتعلق بشخصه أن ينتظر أمرًا صريحًا من الوحي.
- انتظاره ﷺ وحي الله في حادث الإفك، الذي لم يفصل فيه الوحي إلا بعد شهر من الانتظار المرير عاشه الرسول ﷺ في حيرة.

---

١. النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ٥١، ٥٢.

٢. بحوث في علوم القرآن، محمد نبيل غنايم، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٥١ بتصرف.

على أن النبي ﷺ لم يكن وحده في هذا الشأن، بل شاركه المسلمون ذلك؛ فبينما كان الإسلام ينتشر في رُبا الحجاز ونجد، كان الوحي يتنزَّل بالدرس الضروري في المثابرة، والصبر، والإقدام، والإخلاص، يتلقَّنه الأبطال المسلمون تباعًا حسبما يجدُّ من أمور وما يعرض من أحداث، ولو نزل القرآن جملةً واحدةً؛ لتحوَّل سريعًا إلى كلمةٍ مقدسةٍ خامدةٍ، وإلى فكرةٍ ميتةٍ لا مصدرًا يبعث الحياة في حضارة وليدة، وكان من الممكن لهؤلاء المدَّعين حينها أن يقولوا: إنه وثيقة قديمة عثر عليها محمد ﷺ وهذا ما لم يكن، وصدق الله القائل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الفرقان)[1] ®.

ويحسن في هذا الصدد أن نشير لما انفرد به القرآن من مظاهر الإعجاز على مستوى الإخبار بالغيب المستقبل، وأمام ما نبَّأ به القرآن من تلك المستقبليات التي صدقها الواقع بعد ذلك؛ لا يستقيم لعاقل أن يدعي كون القرآن وثيقة قديمة.

كما لا يستقيم هذا الادعاء أيضًا إذا ما وقفنا على ما اشتمل عليه القرآن من الحقائق العلمية التي لم تُكتشف إلا في العصر الحديث، بعدما توصلنا إليه من التقدم العلمي وظهور الأجهزة والمخترعات.

ولعل المقام لا يتَّسع لحصر الأمثلة المندرجة تحت هذا اللون من ألوان الإعجاز القرآني - كما لم يتَّسع لسابقه - لكننا نلمح سريعًا لمراحل تطور الجنين، والتي أدهشت البروفيسور "جولي سمسون"[2]، وكان في شكٍّ من أمر إخبار الإسلام - قرآنًا وسنة - عن تلك المراحل هذا الإخبار المفصل، فلما تأكد من النصوص الإسلامية؛ تساءل مندهشًا[3]:

هل هذه نصوص القرآن ؟ هل هذه نصوص السنة؟

ولما اطمأنت نفسه لها؛ قال: "أعتقد أنه لا يوجد خلاف بين المعرفة العلمية، وبين الوحي، بل إن الوحي ليدعم أساليب الكشف العلمية التقليدية المعروفة حينئذ، وقد جاء القرآن الكريم، قبل عدة قرون مؤيدًا ما تطرقنا إليه، مما يدل على أن القرآن كلام الله ﷻ ®.

---

١. المرجع السابق، ص١٥٢ بتصرف.

® في **"حكمة نزول القرآن مُنجَّمًا"** طالع: الوجه السادس، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان). وفي **"جواب القرآن عمن سأل نزول القرآن جملة واحدة"** طالع: الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

٢. هو أستاذ أمراض النساء والولادة في جامعة نورث وستون في شيكاغو بالولايات المتحدة الآمريكية،. وقد تعرض البروفيسور جولي لحديث النبي: "إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا"، {أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله (٦٨٩٣)، واللفظ له} . و"إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا فصورها" {أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله (٦٨٩٦)}، وأخذ يقارن بين الحديثين والحد الفاصل بينهما، وبعد أن وقف على هذه الدقائق والتفاصيل، وقف يعلن في المؤتمرات أن القرآن والسنة أو الوحي الإلهي لا يخالف المعرفة العلمية.

٣. لمزيد من الأمثلة ينظر: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مكتب جدة، مكة المكرمة.

® في **"الإعجاز الغيبي والعلمي للوحي المحمدي"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). وفي **"الإعجاز العلمي في القرآن الكريم"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السادسة والثمانين، من الجزء الثاني عشر (عصمة القرآن الكريم).

الخلاصة:

- لو كان القرآن وثيقةً قديمةً عثر عليها محمد ﷺ من أحد الأحبار، فلماذا لم يقم الراهب أو الحَبْر بنشرها؛ لينال هو شرف الرسالة، ولماذا عثر عليها محمد ﷺ وهو الأُمِّي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة.
- إن المتأمل في واقع رسول الله ﷺ وانتظاره نزول الوحي؛ يجزم بإلهية القرآن الكريم؛ إذ لو كان وثيقة مخطوطة في حوزته، فلماذا انتظر نزوله بما هو في أمسِّ الحاجة إليه؟!
- إن غيبيات المستقبل التي صدقها الواقع على المدى البعيد والقريب خير شاهد على إلهية القرآن الكريم، فأنَّى لوثيقة مجهولة الهوية - أو حتى يهودية أو نصرانية - أن تتنبأ من الغيب بما اختص به الله تعالى ذاته؟! ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا (٢٧)﴾ (الجن).
- الحقائق العلمية التي جاءت في القرآن الكريم، والتي أثبتتها البحوث، والاكتشافات العلمية حديثًا بعد مرور أربعة عشر قرنًا من الزمان، تؤيد ما جاء به القرآن، وهذا دليل قاطعٌ على أن القرآن وحي من عند الله ﷻ صاحب العلم الأزلي، وإلا كيف بهذه الوثيقة القديمة في عصور البداوة والجهل، أن تعرف تلك الحقائق؟!

الشبهة السابعة

دعوى أن القرآن الكريم جُمع بسبب ما أصابه من تحريف(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقولين أن القرآن الكريم أصابه من التحريف، والتبديل، والتغيير؛ ما دفع المسلمين إلى مُحاولة جَمْعه وترتيبه، وتوحيد نَصِّه في كتابٍ واحد ويرمون من وراء ذلك إلى وصم القرآن بالتزييف والتحريف.

وجوه إبطال الشبهة:

١) جمع القرآن على معنيين: الأول: الحفظ، والثاني: الكتابة، والجمع بمعنييه - الحفظ والكتابة - ثابت في عهد النبي ﷺ.

٢) لم يكن جمع القرآن - في عهد أبي بكر ؓ - بسبب تحريفه أو تغييره، وإنما بسبب الخوف من مجرد وقوع التحريف، أو التغيير فيه، ولهذا الخوف أسباب، منها:

- لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى والتأكد من

(*) الاستشراق والقرآن العظيم، د. محمد خليفة، مرجع سابق. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك، مرجع سابق. مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، مرجع سابق. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيمي، مرجع سابق. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق. بحوث في علوم القرآن، د. نبيل غنايم، مرجع سابق. جمع القرآن في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث، د. محمد شرعي أبو زيد، مرجع سابق.

انقطاع الوحي وتمام الشريعة بتمام نزوله.

- كثرة الشهداء من القُرَّاء في موقعة اليمامة؛ حتى خِيْفَ نفادهم.

٣) كذلك لم يكن جمع القرآن الكريم - في عهد عثمان ﷺ - بسبب تحريفه؛ وإنما كان لجمع أمر المسلمين على مصحف إمام، واجتثاث جذور الفتن؛ حيث كانت بلاد المسلمين قد اتسعت وتفرق الصحابة فيها بعلومهم، وحيث كان اجتماع الشاميين والعراقيين في غزو أرمينية وأذربيجان.

٤) ثمة ثلاثة براهين رياضية أثبتها العلم الحديث تؤكد على أن القرآن الكريم لم يُحرَّف.

التفصيل:

أولا. القرآن جُمع في عهد النبي ﷺ حفظًا وكتابةً:

ومعلوم أن الجمع هنا على معنيين؛ هما:

١. الحفظ: وقد جُمع القرآن الكريم بهذا المعنى على عهد النبي ﷺ حيث كان النبي ﷺ يترقب نزول الوحي عليه بشوق، فيحفظه ويفهمه، مصداقًا لوعد الله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة)، فكان ﷺ بذلك أول الحُفَّاظ، ولصحابته فيه الأسوة الحسنة؛ شغفًا بأصل الدين ومصدر الرسالة، والأمة العربية كانت بسَجِيَّتها قوية الذاكرة، تستعيض عن أُمِّيتها في كتابة أخبارها وأشعارها وأنسابها بسِجِلّ صدورها. وقد أورد البخاري في صحيحه سبعة من الحُفَّاظ، هم: عبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد بن السكن، وأبو الدرداء.

٢. **الكتابة**: وقد جُمع القرآن بهذا المعنى أيضًا على عهد النبي ﷺ حيث اتخذ ﷺ كُتَّابًا للوحي من أجلاء الصحابة؛ كعلي، ومعاوية، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، تنزل الآية فيأمرهم بكتابتها، ويرشدهم إلى موضعها من سورتها، حتى تظاهر الكتابةُ في السطور، الجمعَ في الصدور[1]، ولم يُجمع القرآن على عهد النبي ﷺ، في مصحف واحد لعدم توافر الدواعي، ولورود الموانع.

بقي أن نُشير إلى أن عمليات الحفظ والكتابة، والاهتمام بكل جزءٍ من أجزاء القرآن - قد أولاها المسلمون عنايتهم البالغة منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية، فمن المعروف أن كتَّاب الوحي قد سجَّلوا القرآن تحت الإشراف المباشر للنبي ﷺ، ولم يكتب ﷺ لأميَّته، فكان يكتفي بأن يُملي عليهم، ثم يعيدوا قراءة ما كتبوه[2] ®.

ثانيًا. لم يُجمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ بسبب تحريفه، وإنما كان جمعه لأسباب أخرى:

ومعلوم أن القرآن بما كُتِبَ له من الحفظ الإلهي لم يُصِبْه تحريف ألْبَتَّة، وإنما جمعه أبو بكر ﷺ خوفًا عليه من وقوع التحريف فيه بتوالي أحداث عدة من شأنها أن تذهب بحفظته، ويمكننا أن نجمل أهم هذه الأسباب حسبما أوردها د. محمد شرعي في رسالته عن جمع القرآن - فيما يأتي:

---

١. مباحث في علوم القرآن، منَّاع القطان، مرجع سابق، ص١١٤: ١١٨ بتصرف.

٢. انظر: الاستشراق والقرآن العظيم، د. محمد خليفة، مرجع سابق، ص٧٩: ٨١.

® في **"طرق حفظ القرآن الكريم في عهد النبي"** طالع: الوجه الأول. و في **"حكمة عدم جمع النبي للقرآن في مصحف واحد"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الخامسة؛ من هذا الجزء.

١. لحوق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى:

كان وجود النبي ﷺ بين المسلمين، أمانًا لهم من حصول الخلاف فيما بينهم، كما كان وجوده ﷺ أمانًا من ضياع شيء من القرآن، ومع انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى توقف الوحي، فانتفى المانع الذي من أجله لم يجمع القرآن في مصحف واحد في زمنه ﷺ.

٢. انقضاء زمن نزول القرآن وأمن النَّسخ:

من المعروف أن القرآن الكريم لم يجمع في كتاب واحد في عهد النبي ﷺ لما كان يترقبه من نزول الوحي، ومعلوم أن الوحي إنما كان ينزل مفرقًا على ما يناسب الحوادث والمسائل، وقد كان يُنسخ من السورة الآيات، أو تزاد عليها، فلو أن القرآن جمع في كتاب واحد، ثم طرأ نسخ أو زيادة لزم إعادة الكتابة مرة أخرى، فحصل بذلك مشقة عظيمة، فلما انقطع بوفاة النبي ﷺ خبر السماء، أُمِن نزول شيء من القرآن يتغير معه ترتيب الآيات في السور؛ وبذلك يكون انقضاء نزول القرآن سببًا لجمعه في كتاب واحد؛ حفاظًا عليه من الضياع والتبديل.

٣. موقعة اليمامة:

بعد أن توفي النبي ﷺ ومنع الزكاة من منع، وارتدَّ عن الإسلام من ارتد، ثم اتبع مدَّعي النبوة: مسيلمة الكذاب، وكان قومه بنو حنيفة قد التفوا حوله واتبعوه أيضًا، وكانوا يسكنون اليمامة، فأرسل إليهم أبو بكر جيشًا بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وأمدَّه بشرحبيل بن حسنة، وانهزم عكرمة أول الأمر، ثم جاءهم خالد بن الوليد بمدد وقاد الجيش إلى النصر، وكانت موقعة اليمامة سنة إحدى عشرة من الهجرة، وقُتل فيها مسيلمة الكذاب وكثير ممن كان معه، وقُتل - فيما ذكره سعيد بن المسيب - من الأنصار يومها سبعون، ولا شك أن الكثير منهم كان ممن حفظ القرآن، إما كله أو بعضه، فهال ذلك عمر رضي الله عنه فدخل على أبي بكر رضي الله عنه وأشار عليه بجمع القرآن الكريم وكتابته، خشية الضياع قائلًا: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن، ومع موت كثير من الحُفَّاظ، يصبح من المحتمل أن تُفْقَد إحدى القِطَع التي كتب القرآن عليها بين يدي النبي ﷺ، ومن المحتمل أن يستشهد الذين يحفظون المكتوب في هذه القطعة؛ فيترتب على الأمرين معًا ضياع المكتوب فيها.

وبذلك تكون موقعة اليمامة أهم الأسباب التي اكتملت بها الحاجة إلى جمع القرآن، ودفعت الصحابة إلى هذا العمل، لَمَّا رأوا أن مصلحة الدين، وحفظ الكتاب الحكيم لا تتم إلا به[®].

ثالثًا. جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه ونسْخِه للأمصار، كان بهدف اجتثاث الفتن لا لكون التحريف قد أصابه:

حدثت في زمن عثمان رضي الله عنه أحداث عظيمة، أدَّت إلى التفكير في جمع القرآن مرة ثانية، وإرسال نُسَخ منه إلى الأمصار، ونُجمل أهم أسباب هذا الجمع حسبما أوردها د. محمد شرعي فيما يأتي:

١. اتساع بلاد المسلمين وتفرُّق الصحابة فيها:

كانت رقعة بلاد المسلمين قد اتسعت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى وصلت إلى بلاد ما وراء النهر شرقًا، وإلى طرابلس غربًا، وامتدت الفتوحات

® في "مزايا جمع أبي بكر للقرآن" و"الفرق بين صنيع أبي بكر وصنيع عثمان في جمع المصحف" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء.

التي ابتدأها عمر بن الخطاب في أيام عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ، فاستمرَّت طيلة فترة خلافته تفتح بلادًا جديدة، وتوطَّد للمسلمين فيما فتح من قبل من البلدان، وباتساع دولة الإسلام كثر المسلمون، وتفرق الصحابة في الأمصار يدعون إلى الله، ويُعَلِّمون العلم، ويقرءون القرآن. وكان الناس يقرءون كما عُلِّموا؛ فأهل الشام يقرءون بقراءة أُبَي بن كعب، وأهل الكوفة يقرءون بقراءة ابن مسعود، وأهل البصرة يقرءون بقراءة أبي موسى الأشعري، وهكذا.

وانتشرت حلقات تعليم القرآن فانتقل الخلاف إلى الغلمان والمعلمين، فخطَّأ بعضهم بعضًا، وأنكر بعضهم قراءة بعض؛ فعن علي بن أبي طالب أن عثمان ـ رضي الله عنهما ـ قال: قد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد أن يكون كفرًا، قلنا: فماذا ترى؟ قال: نرى أن نجمع الناس على مصحف، فلا تكون.

وعن أبي قلابة قال: لَـمَّا كان في خلافة عثمان ﷺ، جعل المعلِّم يُعلِّم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين، قال: حتى كَفَر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان ﷺ، فقام خطيبًا، فقال: أنتم عندي تختلفون وتلحنون، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافًا لنا، اجتمعوا يا أصحاب محمد، فاكتبوا للناس إمامًا.

والظاهر أن هذه الأحداث كانت قبل فتح أرمينية وأذربيجان، ولما وقع الخلاف الشديد، والفتنة العظيمة بين المسلمين في فتح أرمينية وأذربيجان، تأكدت الحاجة إلى جمع جديد للقرآن، يُلمُّ به شمل المسلمين، وتُجتث به جذور تلك الفتنة.

٢. اجتماع الشاميين والعراقيين في فتح أرمينية وأذربيجان:

في عام خمس وعشرين من الهجرة النبوية اجتمع أهل الشام، وأهل العراق في فتح أرمينية، وأذربيجان، قال الذهبي: جاشت الروم، حتى استمد أمراء الشام من عثمان مددًا، فأمدَّهم بثمانية آلاف من العراق، وكان أهل الشام يقرءون بقراء أبي بن كعب، وكان أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود، فتنازع أهل الشام وأهل العراق في القراءة، حتى خطَّأ بعضهم بعضًا، وأظهر بعضهم إكفار بعض والبراءة منه، وكادت تكون فتنة عظيمة، وكان السبب وراء هذا الخلاف عدم مشاهدة هؤلاء نزول القرآن، وبُعْدهم عن معاينة إباحة قراءته بأوجه مختلفة، فظن كل منهم أن ما يقرأ به غيره خطأ لا يجوز في كتاب الله، فكادت تكون تلك الفتنة.

وعن زيد بن ثابت أن حذيفة بن اليمان قدم من غزوة غزاها، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان ﷺ، فقال: يا أمير المؤمنين أدرِك الناس، فقال عثمان: وما ذاك؟

قال: غزوت خرج أرمينية، فحضرها أهل العراق، وأهل الشام، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أُبَي، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، فيكفرهم أهل العراق، وإذا بأهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفرهم أهل الشام، قال زيد: فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفًا. فكانت هذه الحادثة أهم الأسباب التي بعثت على جمع القرآن في عهد عثمان، فقد أكدت ما ظنه ﷺ من أن أهل الأمصار أشد اختلافًا ممن كان بدار الخلافة بالمدينة وما حولها.

وبهذا البيان يتضح أن جمع القرآن كان لأسباب عظيمة دعت إلى جمعه على اختلافها في زَمَنَي أبي بكر وعثمان - رضي الله عنهما -، وجمعه الصحابة بسبب الخوف من مجرد وقوع التحريف فيه، وليس - كما يُدَّعى - بسبب تحريفه أو تغيره®.

رابعًا. إن في احتواء القرآن الكريم على منظومة رقمية معقدة، ما ينفي أن يكون دخله تحريف أو تبديل:

أنزل الله القرآن وتعهَّد بحفظه؛ ولذلك وضع فيه نظامًا لضمان عدم التحريف، وليكون هذا النظام بمثابة الدليل المادي لكل من يَشُكُّ في أن القرآن محفوظ. ولنفرض أن هذا القرآن تغيرت منه سور وآيات منذ زمن نزوله حتى يومنا هذا، فلو تم هذا ماذا سيحدث؟

بالطبع سوف يختل النظام الموجود في هذا الكتاب، فلو كان لدينا كتاب بعدد صفحات محدد، وعدد فصول محددة، وعدد جُمل محددة، وعدد كلمات محددة... هكذا، ثم طرأ تغيير على هذا الكتاب، مثل إضافة فصل لفصوله أو حذف فصل منه، فإن جميع الأعداد السابقة ستتغير، ولو فرضنا أن هذا الكتاب فيه نظام رقمي لأعداد جمله وفصوله وصفحاته، فإن هذا النظام سيختفي بمجرد أن نقوم بتحريف أو تغيير بعض جمل من هذا الكتاب.

ولذلك فإن مجرد وجود نظام رقمي في القرآن دليل كافٍ على أن القرآن لم يُحرَّف، ولغة الرقم تضمن لنا أن الكتاب لم يتبدَّل، فمن عظمة القرآن أن الله تعالى لم يخبرنا أن عدد سور كتابه سيكون ١١٤ سورة، ولم يخبرنا أن عدد آيات كتابه ستكون ٦٢٣٦ آية، ولم يخبرنا أنه سينزل هذا الكتاب في حقبة من الزمن هي ٢٣ سنة، وهذه الأعداد لم يعرفها الناس إلا بعد وفاة النبي الكريم ﷺ، عندما اكتمل نزول القرآن وتوقف الوحي.

لقد ترك الله لنا باب التدبر مفتوحًا، بل أمرنا أن نتدبر فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ (النساء: ٨٢)، ولكن لماذا نتدبر القرآن ونبحث فيه ونفتش عن عجائبه وأسراره؟ والإجابة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء)، وكأن الله ﷻ يشير إلى وجود نظام في القرآن علينا أن نكتشفه، وبالمقابل فإن هناك اختلافًا واضطرابًا وعشوائية في كتب البشر، وعندما نقارن كتاب الله مع كتب البشر نخرج بنتيجة، هي: أن هذا القرآن يستحيل أن يكون تأليفًا بشريًّا، بل هو كلام رب البشر ﷻ.

وفيما يأتي نقدم ثلاثة براهين رقمية دامغة، اخترناها لك أيها القارئ الكريم من بين آلاف البراهين الرقمية في كتاب الله تعالى، لشدة وضوحها:

البرهان الأول: يتعلق باسم مؤلف الكتاب، فلو تأملنا في كل كتب العالم فإننا نلاحظ أن هناك ميزة لا تتوافر إلا في كتاب واحد فقط، وميزة هذا الكتاب أن الكلمة الأكثر تكرارًا فيه هي اسم مُنزل الكتاب! لو فتشنا في جميع الكتب في العالم - وهي تعد بالمليارات - لن نجد كتابًا واحدًا يتكرر في داخله اسم مؤلف الكتاب إلا على غلاف الكتاب وفي المقدمة أو الخاتمة،

® في "أسباب إقدام عثمان على جمع المصحف" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢). وفي "الفرق بين صنيع أبي بكر وصنيع عثمان في جمع المصحف" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء.

أي على أعلى تقدير ثلاث مرات أو أربع مرات، ولكن ماذا عن القرآن وهو كتاب من الله ﷻ، ولله المثل الأعلى؟

إن القرآن فيه ميزة رائعة، هي: أن اسم مُنَزِّل هذا الكتاب قد تكرر ٢٦٩٩ مرة!! فإذا ما جاء أعظم مؤلف وألف كتابًا وكرر اسمه مائة مرة، فلن تجد أحدًا يقرأ هذا الكتاب. لماذا؟ لأن الناس سيقولون: إن هذا الرجل مغرور ولا يستحق أن ينظر في كتابه، بينما نجد في كتاب الله الذي يبلغ ٦٠٠ صفحة، أن اسم (الله) ﷻ يرد ٢٦٩٩ مرة، أي بمعدل أربع أو خمس مرات في كل صفحة، فما دلالة ذلك وكيف نفسره؟

ثم إن الله ﷻ قد اختار هذا العدد أي ٢٦٩٩ تحديدًا، لأنه عدد أوَّلي مفرد يعبر عن وحدانية الله، فهو لا ينقسم إلا على نفسه وعلى واحد لأن الله واحد!

والعجيب أن الرقم الأكثر تكرارًا في القرآن هو الرقم واحد، فهل جاء هذا التوافق بالمصادفة، ولو أن تحريفًا طرأ على هذا الكتاب هل ستبقى هذه النسب كما هي أم أنها ستختل؟

إذن يمكن القول: إن الكتاب الوحيد على وجه الأرض الذي تكون فيه الكلمة الأكثر تكرارًا بين جميع كلماته هي اسم صاحب هذا الكتاب - هو القرآن؛ ولذلك نقول: (كتاب الله)!! ولو قمنا بإحصاء لجميع كتب البشر فلن نجد أي كتاب تكون فيه الكلمة الأكثر تكرارًا هي اسم صاحب الكتاب إلا كتاب واحد هو كتاب الله!

وهذا إثبات مادي على أن القرآن كتاب الله، وليس كتاب محمد ﷺ كما يدعي المشككون، لأن اسم (محمد) لم يتكرر في القرآن إلا أربع مرات فقط فتأمل!!

البرهان الثاني: يتعلق بمواصفات الكتاب من حيث عدد الفصول وعدد الجمل وعدد السنوات التي كُتب فيها الكتاب، فلو جئنا بكل ما كُتب في التاريخ من كتب وقصائد شعر ونصوص أدبية وغير ذلك، وقمنا بإجراء إحصاء لعدد فصول كل كتاب، وعدد الجمل التي يتضمنها هذا الكتاب، والمدة التي كُتب فيها هذا الكتاب، إذن نحن نريد ثلاثة أعداد فقط، فلو طبقنا هذا على جميع كتب العالم لن نجد كتابًا واحدًا تتناسق أرقامه مع الرقم المميز في هذا الكتاب! لنشرح هذا الدليل بتفصيل أكثر، ونختار قراءة حفص عن عاصم ميدانًا للتطبيق عليها:

لو قمنا بعدِّ آيات القرآن الكريم وجدناها ٦٢٣٦ آية، ولو قمنا بعدِّ سور القرآن الكريم وجدناها ١١٤ سورة، ولو سألنا علماءنا عن المدة التي كُتب فيها القرآن أو مدة نزول القرآن وجدناها ٢٣ سنة، ولو تأملنا هذه الأعداد بشكل سطحي لا نكاد نجد أي تناسق أو ترابط بينها.

والآن إذا توجهنا بسؤال لأي مؤمن عن العدد المميز في القرآن لأجابنا بأنه العدد سبعة، لأن هذا العدد يتكرر في مناسبات كثيرة، فهو عدد مبارك يمثل السماوات السبع، وأيام الأسبوع، وعدد أبواب جهنم، وغير ذلك، ويكفي أن نعلم أن هذا الرقم المميز هو أول رقم ذُكر في القرآن.

إذا قلنا الآن إن الأعداد الثلاثة التي تميز القرآن ترتبط بشكل رياضي مع العدد الأكثر تميزًا في القرآن وهو العدد سبعة، فماذا تكون النتيجة؟ لنتأمل ذلك!

من العلوم الرياضية الحديثة والمعقدة جدًّا ما يسمى بالسلاسل الرقمية، وهناك نوع من هذه السلاسل، هو

السلاسل العشرية، أي التي تعتمد العدد ١٠ أساسًا لها، وبما أن القرآن معجزة لكل العصور ومهما تطور العلم، فإن الله ﷻ نظّم أرقامه بشكل مميز ومحكم، ولا يمكن أن نجد مثل هذا النظام في أي كتاب آخر مهما بحثنا.

وتعتمد هذه السلاسل القرآنية على صف الأرقام بجانب بعضها، ومن ثم قراءة العدد الكامل لنجد أنه دائمًا يتعلق بالرقم سبعة، أي الرقم المميز في القرآن.

والآن نعود إلى الأرقام الثلاثة:

- عدد آيات القرآن ٦٢٣٦.
- عدد سور القرآن ١١٤.
- عدد سنوات نزول القرآن ٢٣.

هذه الأرقام اختارها الله تحديدًا لتشكل بناء رياضيًّا محكمًا وعجيبًا، ولا يوجد مثله إلا في القرآن، ومن لا يصدق فبإمكانه أن يبحث في كتب الدنيا ليقتنع بأن هذه الأرقام محكمة ومحفوظة بأمر الله تعالى، ولو نقصت آية واحدة أو زادت لانهار هذا البناء بالكامل، وإليكم الدليل الرياضي:

إن هذه الأعداد يرتبط بعضها مع بعض بنظام متسلسل: الأكبر فالأصغر، أي أننا إذا وضعنا كل عددين بجانب بعضهما؛ الأكبر فالأصغر لتشكلت أعداد دائمًا لها علاقة بالرقم المميز سبعة.

المعادلة الأولى: إن القرآن يتألف من ٦٢٣٦ آية وهذه الآيات تشكل ١١٤ سورة:

لو اختصرنا الكلمات من هذه الجملة وأبقينا الأعداد فسنجد العددين: ٦٢٣٦ و ١١٤ وعندما نرتب ونصفّ هذين العددين ينتج عدد جديد، هو ١١٤٦٢٣٦، إن هذا العدد وهو مليون ومئة وستة وأربعون ألفًا ومئتان وستة وثلاثون، هذا العدد يرتبط بالرقم سبعة؛ إذ إنه من مضاعفاته.

ولكي نتأكد من ذلك نلجأ إلى عملية القسمة على سبعة، فعندما نقسم هذا العدد على سبعة نجد أنه يقبل القسمة ولا يبقى شيء، أي أن ناتج القسمة هو عدد صحيح، لنتأكد من ذلك:

١١٤٦٢٣٦ ÷ ٧ = ١٦٣٧٤٨ الناتج هو عدد صحيح.

وهناك ارتباط آخر، هو أننا إذا قرأنا العدد ذاته (١١٤٦٢٣٦) بالعكس، فإنه يصبح ٦٣٢٦٤١١، ويبقى قابلًا للقسمة على سبعة، لنتأكد من ذلك:

٦٣٢٦٤١١ ÷ ٧ = ٩٠٣٧٧٣ الناتج عدد صحيح.

المعادلة الثانية: إن القرآن يتألف من ٦٢٣٦ آية، هذه الآيات نزلت في ٢٣ سنة:

لو اختصرنا الكلمات من هذه الجملة وأبقينا الأعداد فسنجد العددين: ٦٢٣٦ و ٢٣ وعندما نرتب ونصفّ هذين العددين ينتج عدد جديد هو ٢٣٦٢٣٦. إن هذا العدد يرتبط بالرقم سبعة؛ إذ إنه من مضاعفاته.

ولكي نتأكد من ذلك نلجأ إلى عملية القسمة على سبعة، فعندما نقسم هذا العدد على سبعة نجد أنه يقبل القسمة ولا يبقى شيء، أي أن ناتج القسمة هو عدد صحيح، لنتأكد من ذلك:

٢٣٦٢٣٦ ÷ ٧ = ٣٣٧٤٨ الناتج هو عدد صحيح.

وهناك ارتباط آخر هو أننا إذا قرأنا العدد ذاته (٢٣٦٢٣٦) بالعكس، فإنه يصبح ٦٣٢٦٣٢، ويبقى قابلًا للقسمة على سبعة، لنتأكد من ذلك:

٦٣٢٦٣٢ ÷ ٧ = ٩٠٣٧٦ الناتج هو عدد صحيح.

المعادلة الثالثة: إن القرآن يتألف من ١١٤ سورة

وهذه السور نزلت في ٢٣ سنة:

لو اختصرنا الكلمات من هذه الجملة وأبقينا الأعداد فسنجد العددين: ١١٤ و ٢٣ وعندما نرتب ونصف هذين العددين ينتج عدد جديد هو ٢٣١١٤. إن هذا العدد يرتبط بالرقم سبعة؛ إذ إنه من مضاعفاته.

ولكي نتأكد من ذلك نلجأ إلى عملية القسمة على سبعة، فعندما نقسم هذا العدد على سبعة نجد أنه يقبل القسمة ولا يبقى شيء، أي أن ناتج القسمة هو عدد صحيح، لنتأكد من ذلك:

٢٣١١٤ ÷ ٧ = ٣٣٠٢ الناتج هو عدد صحيح.

هناك ارتباط آخر، هو أننا إذا قرأنا العدد ذاته (٢٣١١٤) بالعكس، فإنه يصبح ٤١١٣٢ ويبقى قابلًا للقسمة على سبعة، لنتأكد من ذلك:

٤١١٣٢ ÷ ٧ = ٥٨٧٦ الناتج هو عدد صحيح.

إذن الأعداد الثلاثة ١١٤٦٢٣٦ و ٢٣٦٢٣٦ و٢٣١١٤ وهي الأرقام المميزة للقرآن قبلت القسمة على الرقم المميز في القرآن وهو الرقم سبعة، وبالاتجاهين أي أننا كيفما قرأنا العدد وجدناه قابلًا للقسمة على سبعة، والآن لنطرح هذه التساؤلات:

هل يمكن أن تكون جميع المعادلات المحكمة هذه قد أتت بالمصادفة العمياء؟

هل يمكن أن تكون هذه الأرقام من صنع محمد ﷺ أو أحد جاء بعده مثلًا؟ ولماذا لم ينسبها إلى نفسه؟ ولماذا لم يفتخر بها كما يفتخر كل العلماء بإبداعاتهم؟

لو أن القرآن مُحَرَّف أو تغيرت منه آيات أو أُضيفت إليه آيات، فهل سيبقى هذا النظام كما هو دون أن يختل؟

إننا لو غيرنا عدد سور القرآن فجعلناها ١١٣ سورة مثلًا لاختل هذا البناء الرياضي، ولانهارت هذه المعادلات السباعية؛ لأن عملية القسمة هي عملية حساسة جدًّا لأي تغيير.

إذن ما التفسير المنطقي لوجود هذه التناسقات السباعية بين أعداد تميز القرآن (آياته وسوره وسنوات نزوله) وبين العدد الأكثر تميزًا في القرآن (الرقم سبعة)؟

هل يمكن أن نجد مثل هذا النظام الرقمي في كتاب واحد في العالم؟ ولو كان هذا الكتاب موجودًا فأين هو؟

ولذلك نقول: إن هذه المعادلات تشكل دليلًا رياضيًّا على أن القرآن كتاب منزل من الله الواحد الأحد، وأنه لم يُحرف ولم يتبدل أو يتغير، ومن لم يقتنع بهذا المنطق الرياضي، فليأتنا بكتاب تتحقق فيه مثل هذه المعادلات الإلهية المحكمة، ونقول كما قال تبارك وتعالى لأولئك الذين شككوا في القرآن الكريم زمن نزوله عندما قال الله عنهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الطور)، ونكرر لهم بعد أربعة عشر قرنًا التحدي الإلهي في قول الحق ﷻ: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الطور).

البرهان الثالث: ويتعلق هذا البرهان بالرقم سبعة ذاته، فلو تأملنا جميع الكتب البشرية فلن نجد أي نظام رقمي فيها، لأن وجود النظام يعني وجود من وضع هذا النظام، ولا نعلم أحدًا من المؤلفين حتى الآن حاول أن يجعل عدد كلمات كتابه من مضاعفات رقم ما، أو أن يجلس ويعدَّ الحروف والكلمات والجمل ويقول: إنني سأكتب كتابًا تأتي جميع كلماته منضبطة ومتناسقة مع عدد ما.

والسبب في عدم إقدام أحد من المؤلفين على هذا العمل - أي تأليف كتاب تتكرر كلماته وفصوله وجُمله بنظام رقمي محدد - هو أن هذا الكتاب سيفشل؛ لأن المؤلف عندما يكتب نصًا أدبيًا فإنه يعطي كل تفكيره لما سيكتبه والمعاني التي سيحققها، ولكن إذا قام بعدِّ الكلمات والفصول والجُمل فإن النص سيكون هزيلًا وأشبه بالكلمات المتقاطعة!! بل لن يحقق أية فائدة من ذلك.

ولكن الله ﷻ الذي أحكم كل شيء في القرآن، قد أودع فيه نظامًا دقيقًا لكل كلمة وكل حرف، ويستطيع القارئ متابعة أبحاث الرقم سبعة ليكتشف هذا النظام المبهر، ونكتفي هنا أن نضرب مثالًا يسيرًا عن الرقم الأكثر تميزًا في القرآن هو الرقم سبعة.

ولن ندرس تكرار هذا الرقم في القرآن الكريم فإن ذلك يحتاج لبحث خاص، ونكتفي بأول مرة ورد فيها الرقم سبعة في القرآن وآخر مرة، لقد ورد ذكر الرقم سبعة في القرآن الكريم لأول مرة في سورة البقرة في قول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ (البقرة). وآخر مرة ورد فيها ذكر هذا الرقم في القرآن في سورة النبأ من قوله ﷻ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ (النبأ).

والآن: ما عدد السور من السورة الأولى حتى الأخيرة، أي من سورة البقرة حيث ورد الرقم ٧ أول مرة حتى سورة النبأ حيث ورد الرقم ٧ آخر مرة؟

بإحصاء بسيط نجد أن عدد السور هو ٧٧ سورة!! إنها نتيجة مذهلة أن نجد عدد السور من السورة الأولى حيث ذكر الرقم ٧، إلى السورة الأخيرة حيث ذكر الرقم ٧، هذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة وهو ٧٧:

٧٧ ÷ ٧ = ١١ الناتج عدد صحيح.

وتأمل معي أن العدد ٧٧ يتألف من ٧ و ٧، كإشارة إلى الرقم ٧ الأول والرقم ٧ الأخير، إن هذا التناسق مبهر فعلًا، ولكنه لا يكفي لنقرر أنه لا يوجد كتاب في العالم فيه مثل هذا التناسق؛ لأنه قد يتصادف أن نجد كتابًا لو بحثنا فيه عن الرقم ٩ مثلًا أن نجد عدد فصول الكتاب من أول مرة ذكر فيها الرقم ٩ ولآخر مرة ذكر فيها الرقم ٩ أن نجد عدد الفصول ٩٩ مثلًا، أو من مضاعفات الرقم ٩.

ولذلك لا بد من وجود تناسقات أخرى تثبت أن العملية لا تتم عن طريق المصادفة، إنما هي حسابات إلهية محكمة؛ ولذلك نطرح سؤالًا: إذا كان عدد السور من مضاعفات الرقم ٧ فماذا عن عدد الآيات، وهل يمكن أن يكون من مضاعفات الرقم ٧ أيضًا؟

سندهش عندما نعلم أن عدد الآيات من الآية الأولى حتى الآية الأخيرة، أي من قوله ﷻ: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ (البقرة: ٢٩) إلى قوله ﷻ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ (النبأ)، هي ٥٦٤٩ آية، وهذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة، فهو يساوي:

٥٦٤٩ ÷ ٧ = ٨٠٧ الناتج عدد صحيح.

وتظهر المفاجأة الثانية عندما نتأمل سورة البقرة حيث ورد الرقم ٧ لأول مرة، وسورة النبأ حيث ورد الرقم ٧ لآخر مرة، فإننا نجد أن عدد الآيات التي تسبق الآية الأولى، أي: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ هو ٢٨

آية، وهذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة:

٢٨ ÷ ٧ = ٤ الناتج عدد صحيح.

أي أن هنالك ٢٨ آية من بداية سورة البقرة، ثم تأتي الآية التي يُذكر فيها الرقم سبعة أول مرة في القرآن.

والمذهل فعلًا أن نجد النتيجة ذاتها في سورة النبأ! فبعدِّ الآيات التي تلي الآية: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ نجد بالتمام والكمال ٢٨ آية، بنفس العدد السابق، وهذا يعني أنه يوجد بعد المرة الأخيرة التي يُذكر فيها الرقم ٧ يوجد ٢٨ آية (٢٨ ÷ ٧ = ٤).

وبالنتيجة نجد الحقيقة الرائعة وهي أن عدد السور هو ٧٧ سورة وعدد الآيات من الآية الأولى حتى الأخيرة هو ٥٦٤٩ آية، ولو قمنا بعد الآيات من أول البقرة حتى نهاية سورة النبأ، فإننا نجدها ٥٧٠٥ آية وهذا العدد من مضاعفات الرقم سبعة، ولا ننسى أن الآيتين تتحدثان عن الرقم سبعة:

٥٧٠٥ ÷ ٧ = ٨١٥ الناتج عدد صحيح.

والآن يمكننا أن نعتبر أن هذا الدليل حقيقي ولا يمكن أن يأتي بالمصادفة، إذن هو بتقدير من الله الذي أحصى كل شيء عددًا، والذي أودع هذه العجائب الرقمية في كتابه لنكتشفها اليوم في عصر الأرقام لتكون برهانًا ماديًّا ملموسًا على أن القرآن كتاب الله، أنزله بعلمه، وحفظه لنا بقدرته، ونظَّمه بحكمته ﷻ.

وأخيرًا نطرح هذه النتائج:

١. لقد قدمنا ثلاثة براهين رقمية ثابتة لا يتطرق إليها الشك أو الخلل، ونقول: إن القرآن هو الكتاب الوحيد على وجه الأرض الذي يحوي منظومة رقمية معقدة تتضمن آلاف البراهين ورأينا ثلاثة منها فقط!

٢. يستطيع أي إنسان أن يتأكد من صدق هذه الأرقام بسهولة، وما عليه إلا أن يحضر نسخة من المصحف الشريف (برواية حفص عن عاصم أو ما يسمى مصحف المدينة المنورة) ويدقق هذه الأرقام بنفسه.

٣. وكل من يدعي أن هذه التناسقات السباعية جاءت بالمصادفة؛ فعليه أن يقدم البرهان المادي كما قدمناه نحن في هذا البحث، وأن يأتينا بكتاب تتحقق فيه مثل هذه الأرقام، وهيهات أن يجد مثل هذا الكتاب.

الخلاصة:

- تشهد قرائن الواقع لكتاب الله العزيز أنه محفوظ من التحريف، وقد أتيح له في عهد نبيِّه ﷺ أن يُجمع - بمعنيي الجمع: الحفظ والكتابة -، مصداق قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر)، فحفظه في عهد النبي ﷺ، وقيَّض له ﷻ بعد وفاة النبي رجالًا حققوا له مقتضى الوعد الإلهي فدُوِّن في السطور وحفظ في الصدور.

- إن الغرض الذي من أجله جُمع القرآن الكريم منحصر في خوف الصحابة - رضوان الله عليهم - من مجرد التحريف أو التغيير أو التبديل، وبخاصة بعدما لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، وانقطع نزول الوحي؛ فانتفت الأسباب التي من أجلها لم يجمعه النبي ﷺ وأهم من كل ذلك، استشهاد كثير من الحفاظ والقرَّاء الثقات في الفتوحات الإسلامية.

- وأدّى اختلاف الأمصار في القراءة، وتخطئة بعضهم بعضًا، بل تكفير من يخالفهم في القراءة، إلى جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه.
- لقد ارتأى أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يجمع المسلمين على نسخة واحدة هي المصحف الإمام؛ فجمعه ثانية بعد جمع أبي بكر رضي الله عنه الأول ونسخه وأرسله للأمصار، فاجتث بذلك الفتنة؛ وكان هذا سبب الجمع الثاني للقرآن الكريم، وليس تحريفه كما يحلو لبعضهم أن يدعي.
- في القرآن الكريم كثير من البراهين الرياضية الرقمية التي تثبت أن هذا الكتاب مصون محفوظ من التحريف أو التبديل أو التغيير أو الزيادة أو النقصان؛ وثمة ثلاثة براهين نذكرها في هذا المضمار نكتفي بها، هي:
  - تكرار اسم الله عز وجل في القرآن (٢٦٩٩) مرة، وهو عدد لا يقبل القسمة إلا على نفسه وعلى واحد؛ ليدل على أن الله واحد لا شريك له.
  - الأعداد التي تمثل عدد آيات القرآن وعدد سور القرآن وعدد السنوات التي نزل القرآن فيها، كلها تقبل القسمة على العدد المميز في القرآن وهو العدد سبعة، وذلك إذا ضُمَّت إلى بعضها، وذلك من الاتجاهين اليمين واليسار.
  - العدد سبعة ومضعفاته في القرآن الكريم.
- العقل حاكم بناء على هذه البراهين الرقمية الثابتة، التي لا يتطرق إليها الشك أو الخلل ـ بأن هذا الكتاب كتاب الله وليس من تأليف أحد من البشر.

الشبهة الثامنة

توهم وقوع الخطأ من بعض كَتَبَة الوحي(*)

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض المتقولين أن كُتَّاب القرآن قد تصرفوا في المصحف، واختاروا ما شاءوا في كتابة القرآن؛ ويستدلون على زعمهم بما ورد عن خارجة بن زيد أنه قال: قالوا لزيد: يا أبا سعيد، أَوَهِمْتَ؟ إنما هي ثمانية أزواج من الضأن اثنين اثنين، ومن المعز اثنين اثنين، ومن الإبل اثنين اثنين، ومن البقر اثنين اثنين، فقال: لا، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ (القيامة) فهما زوجان كل واحد منهما زوج: الذكر زوج، والأنثى زوج؛ ظانين أن هذا تدخُّلٌ اجتهادي مخطئ من زيد في كتابة القرآن وتدوينه.

ويرمون من وراء ذلك إلى اتهام كتبة القرآن بالخطأ في تدوينه؛ إيذانًا للطعن في سلامة القرآن، والتشكيك في مدى مطابقة ما هو عليه الآن لما نزل به الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم.

وجه إبطال الشبهة:

معنى كلمة (زوج) في اللغة من جهة، وإجابة زيد على السائل من جهة ثانية، ورد فعل السائل وسكوته إدراكًا للمعنى الذي غاب عنه من جهة ثالثة، وطبيعة الدور المنوط بزيد من جهة رابعة؛ كل هذا ينفي عنه تهمة الوهم أثناء تدوين القرآن وجمعه، ويثبت أن المتوهم هو السائل نفسه لا زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(*) هل القرآن معصوم، عبدالله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

التفصيل:

معنى كلمة "زوج" في اللغة يدل على أن المتوهم هو السائل لا زيد:

واضح في مضمون الشبهة أن السائل قصر مدلول "زوج" على الاثنين معًا دون أحدهما، وتوهم - بمقتضى ذلك - أن زيدًا هو الذي أخطأ حين دوَّن قوله تبارك وتعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (الأنعام).

وبالوقوف على معنى كلمة "زوج" في اللغة يُدرَك خطأ تصوره هو للآية بالتفصيل هكذا: الضأن اثنين اثنين، والمعز اثنين اثنين، والإبل اثنين اثنين، والبقر اثنين اثنين؛ ليكون المجموع ثمانية أزواج، ومناط خطأ السائل أن لفظة "زوج" تقع للواحد وللاثنين؛ فيقال: هما زوجان وهما زوج، كما يقال هما سيّان وهما سواء، وتقول: اشتريت زوجَي حمام، وأنت تعني ذكرًا وأنثى.

ولعل هذا ما ألمح إليه زيد نفسه حين استدل للسائل بآية القيامة: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ (القيامة)، ولو لم تكن "زوج" للمفرد كما هي للمثنى لما صح قوله "الزوجين" هكذا بالتثنية![1] واللغة تؤيد استشهاد زيد السابق وتؤكد صحة دليله في آية القيامة، وبراءته من الوهم في آيتي الأنعام؛ ذلك أن كل فرد يحتاج إلى آخر يسمَّى - عند العرب - زوجًا، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج.

وأمر آخر تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد - من شأنه أن يبرِّئ زيدًا - مؤداه أن السائل إن كان يتَّهم زيدًا بالوهم في كتابة القرآن الكريم حال تدوينه الوحي بين يدي النبي ﷺ؛ فدعواه أقرب للوهن منها للقوة، ومستحيل عقلًا أن يُترَك وَهْم كهذا - إن جاز أن زيدًا وَهِم فيه أصلًا - ولا يتداركه أحد من سائر كتبة الوحي، ثم إن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ القرآن مرة كل عام، ومرتين في عام وفاته على ما بأيدي الكتبة من قرآن، فكيف لم يقف أحد على هذا الوهم إن كان وقع؟!

هذا إن كان السائل يرمي زيدًا بالوهم حال كتابة الوحي بين يدي النبي ﷺ، أما إن كان وصمه لزيد بذاك حال نسخه القرآن في مرحلتي جمعه، فلا يقل وهانة في الحُجَّة، وبُعْدًا عن المنطق من سالفه؛ إذ لم يقم زيد بهذه المهمة - وجليلة ما هي - وحده، وإنما كانت على كاهل جمع من الصحابة الثقات الأثبات بإشراف من أمير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه - في الجمع الأول - وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه - في الجمع الثاني -، فإذا كان زيد أخطأ، فهل أخطأ هؤلاء جميعًا وهم بين حافظ للقرآن وكاتب للوحي؟!

ونحيط هؤلاء علمًا بأن زيدًا في المرحلتين - كتابة الوحي في عهد النبي ﷺ وجمع القرآن ونسخه في عهد الراشدين - لم يكن مؤلِّفًا يكتب القرآن من تلقاء نفسه، بل يقف دوره في المرحلة الأولى عند كتابة ما يمليه

---

1. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٧، ص١١٣ بتصرف.

النبي ﷺ عليه عقب نزول الوحي، فهل وَهِم هو أم وَهِم النبي ﷺ؟! وفي المرحلة الثانية - الجمع والنسخ - يقف دوره فقط عند جمع ونسخ ما تم تدوينه من ذي قبل في عهد النبي ﷺ، ولم يؤلف شيئًا من بنات أفكاره حتى يتوهم أو يخطئ!!

وإذا تجاوزنا هذه المناقشات التفصيلية لنقف على ردِّ فعل السائل بعدما أجابه زيد بن ثابت، والواضح أن الرجل سكت اقتناعًا بإجابته حسبما ورد في الرواية التي استدلوا بها، وإذا صح هذا نتساءل: ما وجه تكرار دعوى توهُّم صاحبها فيها ثم هدى إلى رشده؟! ونحن في الحقيقة لا نكاد نجد مسوِّغًا لمثل هذا التكرار البيِّن إلا أن يكون هوى في نفس مرَدِّد الدعوى وحاجة في نفسه قضاها، ومثل هذه الأسباب غير العلمية لا تسوغ لهم أن يعيدوا القول ويبدوه فيما مات من الشبهات قبل أن يولد.

الخلاصة:

- معنى كلمة "زوج" في اللغة يدلنا على أن المتوهم فيها هو السائل نفسه لا زيد بن ثابت؛ ذاك أنها تطلق على كل فرد يحتاج إلى آخر؛ فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج، وتقع للواحد وللاثنين؛ فيقال هما زوجان وهما زوج، كما يقال: هما سيان وهما سواء.
- لقد أجاب زيد السائل مستشهدًا بآية القيامة: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ (القيامة) ولو لم تكن "زوج" للمفرد كما هي للمثنى لما صحَّ قوله ﷻ: "الزوجين" هكذا بالتثنية!
- واضح من الرواية المستدل بها أن سائل زيد بن ثابت اقتنع بإجابته؛ وسكت إدراكًا لخطئه ووهمه هو، وهذا نفسه ينفي وجاهة الاستدلال بكلام عدل عنه صاحبه ومثيره الأول، ولا مُسوِّغ لإعادة القول وإبدائه في هذا الشأن.
- إن الدور المنوط بزيد لا يحتمل أن يقع ﷺ في وهم أو خلافه؛ فمهمته في عهد النبي ﷺ تقف عند مجرد تدوين ما يمليه النبي ﷺ عليه عقب نزول الوحي، وفي عهد الراشدَين تقف عند مجرد جمع ما دُوِّن سلفًا ونسخه في مصحف واحد، ومثل هذا الدور لا يحتمل وهْمًا، فهو إما مدوِّن يُمْلَى عليه، أو جامع (ناسخ) ينسخ ما هو مدون أمامه، ولم يكن مؤلفًا للقرآن حتى يتوهم شيئًا فيصوغه بما يخالف قواعد اللغة.

الشبهة التاسعة

ادعاء أن ترتيب آيات القرآن وسوره من وضع الصحابة (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغرضين أن ما عليه القرآن الكريم من ترتيب الآيات داخل السور، وكذلك ترتيب السور في المصحف الشريف كان من صنع الصحابة ﷺ، دون مراعاة لأية ضوابط أو حدود زمانية أو مكانية. ويتساءلون: ألا يمكننا القول بأننا نقرأ القرآن الكريم بتنظيم معكوس؟

ويرمون من وراء ذلك إلى النيل من سلامة القرآن

(*) المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق. قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

الكريم بالطعن في ترتيب آياته وسوره.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن ترتيب الآيات في سورها من الأمور التوقيفية - أي لا مجال لاجتهاد البشر فيها - فقد كان جبريل عليه السلام يوقف النبي ﷺ على مواضع الآيات من سورها، وقد حصل اليقين المتواتر بهذا الترتيب من قراءة الرسول ﷺ.

٢) ترتيب سور القرآن الكريم داخل المصحف الشريف أيضًا من الأمور التوقيفية، فلم توضع سورة في مكانها الذي هي فيه إلا بأمر من رسول الله ﷺ، ولا يجوز مخالفة هذا الترتيب، حتى لا يفسد نظم القرآن الكريم.

التفصيل:

أولا. ترتيب آيات السور من الأمور التوقيفية التي لا مجال فيها للاجتهاد من أحد:

لقد انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي عليه اليوم بالمصاحف، كان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله ﷻ، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، فلم يجتهد أحد برأيه في وضع آية في موضع ما من القرآن الكريم من غير سماع من رسول الله ﷺ، بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية في سورتها، ثم يقرؤها النبي ﷺ على أصحابه، ويأمر كُتَّاب الوحي بكتابتها، معينًا لهم السور التي تكون فيها الآية، وموضع الآية من هذه السورة، وكان يتلوه عليهم مرارًا وتكرارًا في صلاته وخطبه، وفي حكمه وأحكامه، وكان يعارض به جبريل كل عام مرة، وعارضه به في العام الذي قُبِضَ فيه مرتين.

كل ذلك كان على الترتيب المعروف لنا في المصاحف، وكذلك كان حفظ كل من حفظ القرآن أو شيئًا منه من الصحابة، مرتبَ الآيات على هذا النمط، وشاع ذلك وذاع، وملأ البقاع والأسماع، يتدارسونه فيما بينهم، ويقرءونه في صلاتهم، ويأخذه بعضهم عن بعض، ويسمعه بعضهم من بعض بالترتيب القائم الآن.

وعليه فليس لواحد من الصحابة والخلفاء الراشدين يد ولا تصرف في ترتيب شيء من آيات القرآن الكريم، بل الجمع الذي كان على عهد أبي بكر، لم يتجاوز نقل القرآن من العسب واللخاف وغيرها في صحف، والجمع الذي كان على عهد عثمان لم يتجاوز نقله من الصحف في مصاحف، وكلا الجمعين كان وفق الترتيب المحفوظ المستفيض عن النبي ﷺ عن الله تعالى.

يقول السيوطي: الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك، وممن حكى هذا الإجماع جماعة، منهم: الزركشي في "البرهان"، وأبو جعفر في "المناسبات" إذ يقول ما نصه: "ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره، من غير خلاف في هذا بين المسلمين"[1].

"وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقال في الانتصار: الذي نذهب إليه

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص ٢٨٢، ٢٨٣ بتصرف.

أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه، ولم ينسخه، ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان ﷺ وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه شيء، وأن ترتيبه، ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى، ورتب عليه رسوله من أي السور، لم يقدم من ذلك مؤخرًا، ولا أخر منه مقدَّمًا"[1].

هذا عن الإجماع المنعقد على توقيفية ترتيب الآيات في سورها، أما عن النصوص التي أفادت ذاك الإجماع، فهي أكثر من أن تحصى، وحسبنا أن نشير إلى ما يلي:

١. جاء عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسًا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض قال: ثم شخص ببصره فقال: "أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ (النحل: ٩٠) إلى آخرها"[2].

٢. حديث زيد بن ثابت ﷺ قال: فُقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ﴾ (الأحزاب: ٢٣) فألحقناها في سورتها في المصحف[3].

١. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مرجع سابق، ج١، ص١٧٥.

٢. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عثمان بن أبي العاص عن النبي ﷺ (١٧٩٤٧)، وحسَّن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب التفسير، باب سورة النحل (١١١٢٠).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢)، وفي موضع آخر.

٣. حديث عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما - قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا ﴾ (البقرة: ٢٤٠) قال: قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها قال: يا ابن أخي لا أغير شيئًا منه من مكانه[4].

٤. مجيء الناسخ قبل المنسوخ في السورة الواحدة: كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ (البقرة: ٢٣٤)، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖ ﴾ (البقرة: ٢٤٠)، فهذه منسوخة بالتي قبلها على قول الأكثرين، وهي تالية لها في ترتيب الآي.

فلو كان الترتيب اجتهاديًّا من الصحابة؛ لأخروا الناسخ وقدموا المنسوخ، على القاعدة في هذه المسألة، فحيث وقعت هذه السورة كذلك فقد نفت جواز القياس في مثلها.

٥. وقوع الإعجاز بترابط أي السورة الواحدة؛ ولذا وقع التحدي بالإتيان بسورة من مثله، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٣). وسُميت السورة "سورة" تشبيهًا لها بالسور، لكونها تحيط بالآيات إحاطة السور بالمدينة.

ومما يدل على أن الوحي كان ينزل بالسور مرتبة من عند الله، آيات في كتابه تبارك وتعالى، كقوله: ﴿ يَحۡذَرُ

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة البقرة (٤٢٥٦)، وفي موضع آخر.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ (التوبة: ٦٤)، وقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ (النور: ١)[1].

٦. تواتر الأحاديث الشريفة عن رسول الله ﷺ الدالة على أن ترتيب الآيات القرآنية في سورها من توقيف رسول الله ﷺ؛ إذ دلت هذه الأحاديث على فضل آيات من سور بعينها، ويستلزم هذا أن يكون ترتيبها توقيفيًّا، إذ لو جاز تغييرها لما صدقت عليها الأحاديث منها:

ما جاء عن أبي الدرداء مرفوعًا: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال"[2].

وعن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "أعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا، أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يُشرك بالله من أمته شيئًا المقمحات"[3].

كما جاءت أحاديث دالة على آية بعينها في موضعها، فعن عمر رضي الله عنه قال: ما راجعت رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلالة، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه، حتى طعن بإصبعه في صدري وقال: "يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء"[4]؟

١. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، الجديع للبحوث والاستشارات، بريطانيا، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص ١١٥: ١٢٠ بتصرف.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي (١٩١٩).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى (٤٤٩).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة (٤٢٣٥).

٧. ثبتت قراءة رسول الله ﷺ لسور عديدة بترتيب آياتها في الصلاة، أو في خطبة الجمعة، كسورة البقرة وآل عمران والنساء، وصح أنه قرأ الأعراف في المغرب، وأنه كان يقرأ في صبح الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ (السجدة)، و: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ (الإنسان: ١)، وكان يقرأ سورة "ق" في الخطبة، ويقرأ الجمعة و المنافقون في صلاة الجمعة.

وبهذا يكون ترتيب آيات القرآن كما هو في المصحف المتداول في أيدينا توقيفيًّا، لا مراء في ذلك، قال السيوطي بعد أن ذكر أحاديث السور المخصوصة: "تدل قراءته ﷺ لها بمشهد من الصحابة على أن ترتيب آياتها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبًا سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر"[5].

وقال الزمخشري: "الآيات علم توقيفي لا مجال للقياس فيه؛ ولذلك عدُّوا "الم" حيث وقعت ـ وهي ست ـ آية و "المص"، ولم يعدُّوا "المر" ولا "الر" ـ وهي في خمس سور ـ، وعدوا "حم" آية في سورها ـ وهي سبعة ـ و "حم عسق" آيتين، وكذا "طه ويس" ولم يعدوا "طمس" النمل، و "طسم" آية في الشعراء القصص"[6].

وعليه فلا يحق لأحد أن يزعم أن ترتيب الآيات في السور من صنع البشر.

٥. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص١٣٤ بتصرف يسير.

٦. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص ٥٩.

ولا يرد على هذا الإجماع قول عباد بن عبد الله بن الزبير: أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (التوبة:١٢٨) إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: "من معك على هذا"؟ قال: لا أدري والله، إلا أني أشهد لَسَمِعْتُها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها. فقال عمر ﷺ: "وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ"، ثم قال: "لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من سور القرآن الكريم فضعوها فيها"، فوضعتها في آخر براءة[1].

قال الحافظ ابن حجر: "ظاهر هذا أنَّهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم، وسائر الأخبار تدل على أنَّهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك إلا بتوقيف"[2].

فالجواب عن هذا الخبر بوجوه:

الأول: أنه معارض للقاطع، وهو ما أجمعت عليه الأمة، ومعارض القاطع ساقطٌ عن درجة الاعتبار، فهذا خبر ساقطٌ مردودٌ على قائله.

الثاني: أنه معارض لِمَا لا يُحصى من الأخبار الدالة على خلافه.

الثالث: أن هذا الخبر منكر وشاذ مخالف للمتواتر المعلوم - كما ذكرنا من قبل - من الدين بالضرورة، وأن القرآن بلَّغه رسول الله ﷺ لأمته سورًا معروفة مفصَّلة، ليس لعمر ﷺ ولا لغيره أن يرتب فيه شيئًا، ولا أن يضع آية مكان آية، ولا أن يجمع آيات وحدها فيجعلها سورة، ومعاذ الله أن يجول شيء من هذا في خاطر عمر ﷺ.

من ذلك حديث زيد بن ثابت ﷺ قال: "فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٢٣)، فألحقناها في سورتها في المصحف"[3].

فهذا يدل على أن ترتيب الآيات داخل السور من الأمور التوقيفية التي لا مجال فيها لاجتهاد أحد من البشر.

ثانيًا. ترتيب السور في المصحف كان بتوقيف من النبي ﷺ:

أما بالنسبة لترتيب السور في المصحف الشريف، فقد ذهب الجمهور إلى أن ترتيب السور كان أيضًا بتوقيف من النبي ﷺ، فلم توضع سورة في مكانها الذي هي فيه إلا بأمر النبي ﷺ وتعليمه أو برمزه على حسب ما سمعوا من تلاوته[4]، وممن ذهب إلى هذا: أبو جعفر النحاس، والكرماني، وابن الحصار، وأبو بكر الأنباري، قال أبو بكر الأنباري: أنزل الله القرآن كله إلى

١. إسناده ضعيف: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الصحابة بعد العشرة، حديث الحرث بن حزمة ﷺ (١٧١٥)، وابن أبي داود في المصاحف، خبر قوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)، أشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ (٨٠)، وضعف إسناده الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد (١٧١٥).

٢. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٨، ص٦٥٤.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢)، وفي موضع آخر.

٤. انظر: البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك، مرجع سابق، ص١٠١.

سماء الدنيا، ثم فرَّقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لمستخبر، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتساق السورة كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن.

وقال الكرماني في البرهان: ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب، وعليه كان ﷺ يعرض على جبريل كل سنة، ما كان يجتمع عنده منه، وعرض عليه في السنة التي توفي فيها مرتين، وكان آخر الآيات نزولًا: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١) فأمره جبريل أن يضعها بين آيتي الربا والدَّين.

وقال الطيبي: أُنْزِلَ القرآن الكريم أولًا جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل مُفَرَّقًا على حسب المصالح، ثم أثبت في المصاحف على التأليف والنظم المثبت في اللوح المحفوظ.

وأخرج في كتاب المصاحف عن سليمان بن بلال قال: سمعت ربيعة يسأل، لِمَ قُدِّمت سورة البقرة وآل عمران، وقد نزلت قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما أنزلتا بالمدينة؟ فقال: "قُدمتا وأُلف القرآن -أي رتبت سوره- على علم ممن ألفه، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه، ولا يُسْأَلُ عنه"[1].

وبالإضافة إلى ما سبق فهناك العديد من الأدلة على ترجيح كون ترتيب السور في المصحف ترتيبًا توقيفيًّا من النبي ﷺ، منها:

١. أن رسول الله ﷺ قرأ بعض السور مرتبة في صلاته، جاء عن ابن أبي شيبة: أنه ﷺ كان يجمع المفصل[2] في ركعة. وجاء عن ابن مسعود أنه ﷺ قال في بني إسرائيل -الإسراء- والكهف ومريم وطه والأنبياء: "إنَّهُنَّ من العِتاق الأُوَل، وهُنَّ تِلَادي"[3][4].

٢. أن الصحابة أجمعوا على ترتيب المصحف الذي كُتب في عهد عثمان، ولم يخالف في ذلك أحد، حتى من كان عنده مصاحف مكتوبة على ترتيب آخر، فلو لم يكن الأمر توقيفيًّا لحصل من أصحاب المصاحف الأخرى المخالفة في الترتيب، والتمسك بترتيب مصاحفهم، لكن عدولهم عنها، وعن ترتيبها، بل إحراقها دليل على أن الأمر ليس فيه مجال للاجتهاد، ولا يشترط أن يكون التوقيف بنص صريح، بل قد يكفي فيه الفعل أو الرمز أو الإشارة[5].

٣. لو كان ترتيب السور عن اجتهاد، لظهرت العلة التي بُني عليها، فمن الواضح أنه لم يُرَتَّب على حسب النزول الزمني، ولا على الطول والقِصَر، فسور طُوال بين قِصار وبالعكس، ولا على المَكِّي والمدني، فسُوَر مَكِّيَّة بين سور مَدَنيَّة وبالعكس، ولا على تجانس

---

١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣٢٦.

٢. المفصل: السور من سورة ق إلى آخر المصحف، وقيل من سورة الحجرات إلى آخر المصحف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٤٧٠٨)، وفي موضع آخر.

٤. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص١٣٥.

٥. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٢٦، ٣٢٧ بتصرف.

الموضوعات وقربها، فبين سور القصة الواحدة سور أخرى، ولا على حسب الفواتح، فلم تذكر المسبحات وِلاءً "متتابعات"، مع أن الحواميم رتبت ولاء، كذلك اختلف ترتيب الطواسين "طس"، حيث فصل بين "طسم" الشعراء، و "طسم" القصص بـ "طس"، وحيث لم تظهر علة لهذا الترتيب مع الإجماع عليه، كان بتوقيف وتسليم لصاحب القرآن ﷺ[1].

وبهذه الأدلة وغيرها مما لم نذكرها، يتبين لنا أن ترتيب سور القرآن الكريم في مواضعها التي عليها في المصحف، إنما كان من الوحي، ولا دخل لأحد من البشر في هذا الترتيب.

أما ما ذهب إليه بعض العلماء من أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن تم باجتهاد من الصحابة، واستدل هؤلاء باختلاف ترتيب الصحابة قبل جمع المصحف على عهد عثمان، فلو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ ما اختلفت مصاحفهم في ترتيب السور، فمثلًا مصحف أُبي كان مبدوءًا بسورة الحمد "الفاتحة"، ثم "البقرة"، ثم "النساء"، ثم "آل عمران"، ثم "الأنعام". ومصحف ابن مسعود كان مبدوءًا بسورة "البقرة"، ثم "النساء"، ثم "آل عمران"، ثم "الأنعام"، ومصحف علي بن أبي طالب كان مبدوءًا بسورة "العلق"، ثم "المدثر"، ثم "القلم"، ثم "المزمل"، ثم "تبّت"، ثم "التكوير".. وهكذا، فهذا الاختلاف دليل على أن ترتيب السور كان من اجتهاد لا عن توقيف.

والحق أن هذا القول مردود؛ لأن اختلاف الصحابة في ترتيب مصاحفهم ليس دليلًا على أن ترتيب السور عن اجتهاد، وليس عن توقيف؛ لأن مصاحفهم لم يُرَاعَ فيها أن تكون مصاحف تِلاوة، بل كانت مصاحف عِلْم وتأويل، بدليل أن منهم من كتب في مصحفه منسوخ التلاوة، ومنهم من كتب بعض الأدعية المأثورة، ومنهم من كتب بعض تأويلات لبعض القرآن؛ لذا لم تكن هذه المصاحف حُجَّة في إثبات القرآن، فكما لم يُعَوَّل عليها في زيادة ونقص، لم يعوَّل عليها في ترتيب السور، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لو كان مصحف عثمان اجتهاديًّا، لما وافقوه على ذلك، ولما قدَّموا مصاحفهم للتحريق؛ لأنه ليس للمجتهد أن يقلد مجتهدًا آخر، كما هو مقرر عند الأصوليين.

ولنقرأ معًا كلام النيسابوري في السبب الذي من أجله لم تكن الصحابة توالي بين سور القرآن في حياته ﷺ حيث قال: "واعلم أن القرآن كان مجموعًا على عهده ﷺ، فإنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من كان يكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا، ولا نزلت سورة إلا وقد أمر رسول الله ﷺ الكاتب أن يضعها بجنب سورة كذا.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة، دعا بعض من يكتب، فقال: "ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا..."[2]، غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها فيما بين

---

١. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص ٧٠.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عثمان بن عفان رضي الله عنه (٤٩٩)، وصححه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة (٣٢٧٢)، ووافقه الذهبي في التلخيص.

الدفتين، ولم يلزموا القراء توالي سورها، وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها، ثم خرج في سَرِيَّة، فنزلت في وقت مغيبه سورة، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته، ويتتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه، وقد كان منهم من يعتمد على حفظه، فلا يكتب على ما كان من عادة العرب في حفظ أنسابها وأشعار شعرائها من غير كتابة، ومنهم من كان كتبها في مواضع مختلفة من قرطاس وكتف وعسب، ثقة منهم بما كانوا يَعْهَدونه من جِدِّ المسلمين في حفظ القرآن، فلا يرون بأكثرهم حاجة إلى مصحف يُنْظَر فيه".

وأيضًا: فإن المسلمين لم يكونوا متفرغين لطلب العلم، إذ كانوا بجانب هذا يسعون لطلب العيش أو غيره، فقد قال الله ﷻ عنهم: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠). وجاء عن عمر أنه قال: "كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد ـ وهي من عوالي المدينة ـ وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك"[1].

ونفهم منه أن بعض الصحابة كان يتغيب عن مجالس العلم؛ سعيًا وراء متطلبات الحياة، أو للغزو أو للمرض، أو غير ذلك، فإذا نزل القرآن في هذه الحالة، فلا يدري مقدمه ومؤخره، وإن علم ذلك وقد كتبه على ما كان أولًا، ترك تغييره على حسب ما استقر عليه آخرًا، اعتمادًا على حفظه، فلما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واحتيج إلى جمع القرآن بين دفتين على ما انتهى إليه الأمر بعد العرضة الثانية، جمعه الصحابة على هذا، وأجمعوا على هذا الترتيب.

وإجماع الصحابة ﷺ على هذا الترتيب، وعدولهم عما كان أولًا من بعضهم على غيره من الأساليب، وهم الذين لا تلين قناتهم لباطل، ولا يصدهم عن اتباع الحق لوم لائم، ولا قول قائل ـ أقوى دليل على أن هذا الترتيب مأخوذ عن النبي ﷺ سواء بالتصريح أو بالرمز بما أوحاه إليه ربه ﷻ، ولا دخل للبشر في هذا الترتيب[2].

وهناك رأي ثالث يذهب أصحابه إلى أن بعض سور القرآن رُتبت بوقف من النبي ﷺ وبعضها تم ترتيبه باجتهاد الصحابة، ويستدل أصحاب هذا الرأي بما جاء عن ابن عباس ﷺ قال: "قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى سورة الأنفال وهي من المثاني وإلى سورة براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم" فوضعتموها في السبع الطوال، فما حملكم على ذلك؟ قال: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له فيقول: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب التناوب في العلم (٨٩)، وفي مواضع أخرى بنحوه، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (٣٧٦٨) بنحوه.

٢. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك، مرجع سابق، ص ١٠٨ : ١١٠ بتصرف.

وكذا، وإذا أنزلت عليه الآيات قال: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا أنزلت عليه الآية قال: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت سورة الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت سورة براءة من أواخر ما نزل من القرآن، قال: فكانت قصتها شبيهًا بقصتها، فظننا أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قَرَنْتُ بينهما، ولم أكتب بينهما سطر "بسم الله الرحمن الرحيم" ووضعتها في السبع الطوال"[1].

فقد فهم أصحاب هذا الرأي من قول عثمان ﷺ: "فظننا أنها منها، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يُبَيِّن لنا أنها منها" أنه دليل على أن ترتيب سور القرآن بالتوقيف إلا الأنفال وبراءة، حتى لقد قال القرطبي: "إن سور القرآن انتظمت ببيان منه ﷺ، وبراءة ضُمَّت إلى الأنفال من غير عهد منه، لما عاجله من الحِمَام - الموت - قبل تبيينه ذلك، وكانتا تدعيان القرينتين، فوجب أن تُجمعا، وتُضَم إحداهما إلى الأخرى؛ للوصف الذي لزمها من الاقتران ورسول الله ﷺ حي".

وهذا غير مُسَلَّم به، إذ كيف نثبت في المصحف أمرًا قائمًا على الظن، ومن عثمان وحده؟

قال الخطيب في الكفاية: "لا يقبل خبر الواحد في منافاة حكم العقل، وحكم القرآن الثابت المحكم، والسنة المعلومة، والفعل الجاري مجرى السنة، وكل دليل مقطوع به"، بل إن قوله: "إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان... إلخ" يدل في الجملة على التوقيف في القرآن، وقوله: "فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها" - بعيد؛ إذ الأنفال نزلت في السنة الثانية عقب بدر، والتوبة نزلت في أواخر التاسعة بعد تبوك، وبعد خروج أبي بكر الصديق للحج على رأس المسلمين.

فكيف يُعقل أن يظل الرسول ﷺ زهاء خمسة عشر شهرًا، ولا يبين للناس أنها منها أو غيرها؛ إنه بذلك يكون قد تأخر عن البيان في وقت الحاجة إليه، بل مات قبل البيان، وحاشاه ﷺ أن يفعل ذلك، ثم إن إطلاق الاسم على كل منهما واختلافه فيهما، مما يعين أن هذه غير تلك، وقد سمَّى ﷺ كلا منهما.

أما قوله: "فمن ثم قرنت بينهما، ولم أكتب سطر "بسم الله الرحمن الرحيم"، فإن البسملة لا تخضع لهوى الكُتَّاب إثباتًا وحذفًا، فقد جاء عن ابن عباس قال: "كان االمسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل "بسم الله الرحمن الرحيم"، "فإذا نزلت "بسم الله الرحمن الرحيم" علموا أن السورة قد انقضت"[2].

قال الحافظ أبو شامة عن حديث ابن عباس الأخير: "هذا حديث حسن، وإنما لم تُذكر في أول براءة، ليعلم أنه يخص من يشاء وما يشاء بما يشاء، ويفرد من يشاء وما يشاء بما يشاء، ليس لصنعه سبب، وليس له في أفعاله غرض ولا أرب، واتضح للكافة أن هذه الآية أثبتت في الكتاب؛ لأنها منزلة، وبالأمر هنالك محصلة".

هذا، وقد قام الإجماع على أن سورة الأنفال سورة برأسها غير سورة التوبة؛ ولذا قال الزركشي: "إن سور

١. المرجع السابق، ص١٠٨: ١١٠.

٢. أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب الإمامة وصلاة الجماعة، باب التأمين (٨٤٦)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب الحيض، باب الدليل على أن ما جمعته مصاحف الصحابة ﷺ كله قرآن (٢٢٠٧).

القرآن مائة وأربع عشرة سورة، بإجماع أهل الحل والعقد"، وقال السيوطي: "أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يُعتد به".

وعليه فالصحيح أن وضع السورة هذه بعد تلك كان بوحي من الله ﷻ، وأن حذف البسملة كذلك بوحي منه ﷻ.

وبعد... فقد كان هذا الرد على فرض صحة الرواية، مجاراة لمن قالوا بصحتها، ولكن هل الأمر كما قالوا؟

لننظر في الحديث وأقوال العلماء فيه أولا؛ حتى نستطيع الإجابة عن هذا السؤال. فقد ذكر الترمذي الحديث، وقال: لا نعرفه إلا من حديث عوف، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس، وحسنه، وقال الذهبي: عوف الأعرابي قيل: كان يتشيع وقد وثقه جماعة، وجرحه جماعة، وكان داود بن أبي هند يضربه، ويقول: ويلك يا قَدَرِي، وقال بِنْدَار: والله لقد كان عوف قَدَرِيًّا رافِضِيًّا شيطانًا. وقال مسلم في مقدمة صحيحه، وإذا وازنت بينه وبين الأقران، رأيت البون بينهم بعيدًا في كمال الفضل وصحة النقل.

وأما يزيد فقد اختُلِفَ فيه: هل هو ابن هرمز أو غيره؟ وقد ذكره البخاري في كتاب الضعفاء باسم يزيد الفارسي، لاشتباهه فيه، وحيث إنه قد انفرد بهذا الحديث، فلا يحتج به في شأن القرآن الذي يُطلب فيه التواتر. وقال الذهبي: قال فيه النسائي وغيره: متروك، وقال الدارقطني وغيره: ضعيف، وقال أحمد: كان منكر الحديث. وإذا كان متن الحديث وسنده بهذه المكانة من الضعف، ولم يرتضه إلا القليل الذين قوّموه، ولم يخرجوه عن أقل درجات القبول، فكيف نقبله في أمر القرآن وهو أعلى درجات الصحة، نقلًا ونظمًا وترتيبًا؟

ومن ثم نستخلص من كل هذه الحقائق أن القرآن الكريم كله، آية آية، وسورة سورة، مرتب من الله تعالى، وقد بلغه عنه رسوله الأمين ﷺ، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت)، ويقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)[1].

الخلاصة:

- لقد اتفق العلماء على أن ترتيب آيات القرآن الكريم كان بتوقيف من النبي، تلقاه من ربه ﷻ بطريق الوحي، وقد حكى الإجماع في ذلك غير واحد من المحققين، منهم: الزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان وغيرهما.
- هناك العديد من الأدلة على أن ترتيب الآيات داخل السور من الأمور التوقيفية التي لا مجال للاجتهاد فيها، منها:
  - ما ثبت من قراءته ﷺ لسور عديدة، كسورة البقرة وآل عمران في الصلاة، وغيرها بمسمع من الصحابة، وما كان الصحابة ليرتبوا ترتيبًا خلاف ما سمعوه من النبي ﷺ، فبلغ ذلك التواتر.
  - قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "كان رسول الله ﷺ يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر

١. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك، مرجع سابق، ص١١١: ١١٣ بتصرف يسير.

فيها كذا وكذا"[1].

- مجيء الناسخ قبل المنسوخ في السورة الواحدة، فلو كان اجتهاديًّا من الصحابة لأخروا الناسخ وقدموا المنسوخ، وهذا ينفي الاجتهاد في هذا الترتيب.

- كذلك كان ترتيب سور القرآن الكريم من الأمور التوقيفية التي لا مجال لاجتهاد أحد فيها، يقول الكرماني: "ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب"، ومما يدل على ذلك:

- ما جاء عن ابن مسعود أنه ﷺ قال في بني إسرائيل - الإسراء - والكهف ومريم وطه والأنبياء: "إِنَّهُنَّ من العِتاق الأُوَل، وهُنَّ تِلَادي".[2] فذكرها نسقًا كما استقر ترتيبها.

- إجماع الصحابة على ترتيب مصحف عثمان بن عفان ﷺ وعدولهم عن ترتيب مصاحفهم، فدل هذا على أن الأمر في ذلك توقيفي، وإلا لما عدلوا عن ترتيب مصاحفهم.

- لو كان ترتيب السور عن اجتهاد، لظهرت العلة التي بُنِي عليها، سواء كانت علة الترتيب حسب النزول الزمني أم الطول والقصر أم تجانس الموضوعات، وهذا ما لم يكن، وهذا دليل على أن هذا الترتيب من الوحي لا من صنع البشر كما يزعمون.

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند عثمان بن عفان ﷺ (٤٤٩)، وصححه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة التوبة (٣٢٧٢)، ووافقه الذهبي في التلخيص.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٤٧٠٨)، وفي موضع آخر بنحوه.

الشبهة العاشرة

دعوى احتمال وقوع الخطأ في القرآن في أثناء ضبطه بالشَّكْل والنَّقْط (*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض المدَّعين في سلامة القرآن الكريم وحفظه من التحريف والتبديل والتغيير، ويستدلون على هذا باحتمالية وقوع الخطأ فيه أثناء ضبطه بالشَّكْل والنَّقْط[3]، لا سيما أن المصحف العثماني لم يكن منقوطًا ولا مضبوطًا بالشكل، والنقطة في الكتابة العربية ربما تقلب المعنى رأسًا على عقب. ويتساءلون: ما الضمان على مطابقة القرآن الحالي للقرآن المُنَزَّل؟

وجها إبطال الشبهة:

١) لقد كان لخلو المصحف العثماني من الشكل والنقط العديد من الحِكَم والمزايا، ولكن لما اختلط العرب بالعَجَم شاع اللحْن في الكلام العربي، وشاع أيضًا في القرآن الكريم من الصبيان والمولدين، فاضطر المسلمون إلى ضبط المصحف بالشكل والنقط حتى

(*) شبكة اللادينيين العرب. Ladeeni.net.

٣. الشَّكْل: هو ما يدل على عوارض الحرف، من حركة (ضمة وفتحة وكسرة) وسكون، سواء كان ذلك في أول الكلمة أو وسطها أو أخرها، ولا شك أن ما يميز الحرف من جهة كونه متحركًا أو ساكنًا يزيل إبهامه وإشكاله، فبين المعنى اللغوي والاصطلاحي مناسبة ظاهرة.

والنقط: هو وضع النقطة أو النقطتين أو النقط فوق الحرف، والنقطة أو النقطتين تحت الحرف تمييزًا له عما يشبهه في صورته، مثل: (الباء والتاء والثاء والياء والزاي والقاف) ويُسَمَّى "الإعجام". انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٨٠، المقدمات الأساسية في علوم القرآن، د. عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، ص١٣٩.

يُصَحِّح الناس قراءتهم على هدي منها.

٢) لم يكن اعتماد من قاموا بضبط المصحف الشريف بالشكل والنقط على المكتوب في المصحف العثماني فقط؛ بل كان اعتمادهم الأول على التَّلقِّي الشفاهي المتواتر عن النبي ﷺ لهذا كان الضبط في منتهى الدقة.

التفصيل:

أولا. الأسباب التي دفعت المسلمين إلى ضبط المصحف بالنقط والشكل:

قبل الحديث عن الأسباب التي دفعت المسلمين إلى نقط المصاحف وشكلها، لا بد أن نتحدث عن أسباب خلو المصاحف العثمانية من الإعجام[1]، والحكمة من ذلك، فقد اختلف الدارسون قديمًا وحديثًا في أمر إعجاز الكتابة العربية اختلافًا كثيرًا، فمنهم من يرى أن الحروف التي كتب بها العرب كانت خالية من الإعجام، ومنهم من يرى أن بعضها كانت له علامات تميزه عن غيره ممن رسم على صورته من نقط وغيره.

والذي يعنينا هنا تقريره، أن المصاحف العثمانية كانت خالية من النقط والشكل إلى منتصف القرن الأول الهجري تقريبًا؛ إما لأن الإعجام لم يكن معروفًا لديهم حين نَسْخها، وإما أن الصحابة قد تعمدوا تجريد مصاحفهم من الإعجام؛ لتكون مشتملة على الأحرف السبعة التي أنزل القرآن الكريم عليها، والراجح الرأي الأخير، وهو قول كثير من علماء السلف، وعلى رأسهم أبو عمرو الداني؛ فقد قال في كتاب المحكم - وهو يتحدث عن نقط المصحف: "وإنما أخلى الصدر منهم المصاحف من ذلك، ومن الشكل من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السَّعَة في اللغات، والفُسْحَة في القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها، والقراءة بما شاءت منها، فكان الأمر على ذلك إلى أن حدث في الناس ما أوجب نَقْطها وشَكْلها".

وردد ابن الجزري هذا المعنى فقال: "ثم إن الصحابة ﷺ لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل؛ ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة، مما صح عن النبي ﷺ، وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل؛ لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين".

وبهذا الرأي أخذ ابن تيمية في فتاواه فقال: "إذا كان قد سَوَّغ لهم أن يقرءوا على سبعة أحرف، كلها شاف كاف مع تنوع الأحرف في الرسم؛ فلأن يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك مع الرسم وتنوعه في اللفظ أولى وأحرى، وهذا من أسباب تركهم المصاحف أول ما كتبت غير مشكولة ولا منقوطة؛ لتكون صورة الرسم مُحْتَمِلة للأمرين كالتاء والياء، والفتح والضم، وهم يضبطون باللفظ كلا الأمرين، وتكون دلالة الخط واحدًا على كلا اللفظين المتلوين شبيهًا بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المفهومين، فإن أصحاب رسول الله ﷺ تلقوا عنه ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن لفظه

١. الإعجام: تشكيل حروف الكلمة بالحركات والسكون ونحوها، ووضع النقاط على حروفها.

ومعناه جميعًا"[1].

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن الأساس في تواتر القرآن هو الحفظ في الصدور لا في السطور، حتى لا يعتد به المحو والإثبات، فلو كان القرآن منقوطًا ومشكولًا لاستغنى طالب القرآن عن أن يُقرئه مُقرئ، فلا يكون التواتر الصحيح الذي يقتضي الإجازة ممن أقرأه، ولقد جاء التحريف في الكتب الأخرى لاعتمادها على المكتوب في السطور لا المحفوظ في الصدور.

كما أن ترتيل القرآن، كما أثر عن النبي ﷺ، لا بد منه كما قال ﷻ: ﴿ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان)، وذلك لا يتم إلا إذا كان القرآن يُقرأ على مقرئ يجيزه حفظًا وقراءة وترتيلًا[2].

تلك هي الحكم التي دفعت الصحابة الكرام ﷺ إلى تجريد المصاحف من النقط والشكل ولكن قد يتساءل أحدهم: إذا كان خلو المصحف الشريف من النقط والشكل، يشتمل على تلك الحكم، فلماذا لجأ المسلمون فيما بعد إلى إدخال النقط والشكل إلى رسم المصحف؟

ونجيب عن هذا التساؤل فنقول: إن السبب الذي دفع المسلمين إلى ضبط المصاحف بالنقط والشكل هو اختلاط العرب بالعجم، مما أدى إلى شيوع اللحن في الكلام العربي، وشيوعه كذلك في القرآن الكريم بين الصبيان والمولدين، فاضطر المسلمون أمام هذه الظاهرة الخطيرة إلى ضبط المصاحف بالنقط والشكل حتى يصحح الناس قراءتهم على هدي منها[3].

ويمكننا تفصيل ذلك على النحو الآتي:

١. ضبط القرآن بالشكل:

لقد اتفق المؤرخون على أن العرب في عهدهم الأول لم يكونوا يعرفون الضبط بالشكل بمعناه الاصطلاحي، بل كانوا ينطقون بالألفاظ مضبوطة مشكولة بحسب سليقتهم وفطرتهم العربية من غير لحن ولا غلط، لما كان متأصلًا في نفوسهم من الفصاحة والبلاغة، واستقامة ألسنتهم على النطق بالألفاظ المؤلفة على حسب الوضع الصحيح من غير حاجة إلى معرفة القواعد؛ ولذا لما كُتبت المصاحف في العهد الأول جُردت من الشكل والنقط، اعتمادًا على هذه السليقة، وعلى أن المعول عليه في القرآن ـ كما سبق أن ذكرنا ـ هو التلقي والرواية، فلم يكن بهم حاجة إلى الشكل، فلما اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بالعجم فسدت الفطرة العربية، ودخل اللحن في الكلام، وحدثت حوادث نبهت المسلمين إلى القيام بحفظ القرآن الذي هو أصل الدين ومنبع الصراط المستقيم من أن يتطرق إليه اللحن والخطأ، وكان قد ظهر في المسلمين من عرف أصول النحو وقواعده، وبرع في حفظ القرآن وقراءاته أمثال: أبي الأسود الدؤلي، ويحيى بن يعمر العدواني، ونصر بن عاصم الليثي[4].

وقد ورد أن زياد بن أبيه والي البصرة في حوالي سنة ٤٨ هـ، طلب من أبي الأسود الدؤلي أن يجعل

---

١. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١٦٨، ١٦٩.

٢. المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٣٥ بتصرف.

٣. دراسات في علوم القرآن د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٦٩ بتصرف.

٤. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٨٠، ٣٨١.

للناس علامات تساعدهم على القراءة الصحيحة لكتاب الله ﷻ فتباطأ أبو الأسود، حتى سمع قارئًا يقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ (التوبة: ٣).

فقرأها بجر اللام في كلمة رسوله، فأفزع هذا اللحْن أبا الأسود، وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم ذهب إلى زياد، وقال له: قد أجبتك، وانتهى إلى جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسرة نقطة تحت الحرف، وجعل علامة الضمة نقطة على جانب الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين[1].

وسار الناس على هذا النهج مدة، ثم بدءوا يزيدون ويبتكرون فجعلوا علامة للحرف المشدد كالقوس، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها على حسب ما قبلها، من فتحة أو كسرة أو ضمة، حتى كان عبد الملك بن مروان، واضطروا إلى وضع النقط الذي هو الإعجام للباء والتاء والثاء... إلخ، فالتبس النقط بالشكل، فجعلوا لكل منهما مدادًا مخالفًا للون الآخر، ثم وضعوا للشكل علامات أخرى، وهي العلامات المعروفة اليوم للفتحة والكسرة والضمة والشدة ونحوها، فجعلوا الفتحة ألفًا أفقية من فوق الحرف، والكسرة ألفًا من تحت الحرف، والضمة على هيئة رأس الواو، والتنوين جعلوه حركة أخرى من جنس ما قبله: ضمة أو فتحة أو كسرة، وبذلك صار القرآن مشكولًا.

٢. نقط القرآن:

من المعلوم أن المصاحف لم تكن منقوطة في مبدأ الأمر؛ لأن الاعتماد لم يكن ـ كما قلنا من قبل ـ على القراءة من المصحف، بل كان على التلقي والسماع، ولتبقى صور الكلمة الواحدة في الخط صالحة لكل ما صح وثبت من وجوه القراءات، ولما جاء عن ابن مسعود ﷺ من قوله: "جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء".

وقد اختلف المؤرخون في النقط؛ فمنهم من يرى أن الإعجام كان معروفًا قبل الإسلام لتمييز الحروف المشابهة، غير أنه تُرك عند كتابة المصاحف لما ذكرنا، ومنهم من يرى أن الإعجام لم يُعرف إلا من طريق أبي الأسود الدؤلي، ثم اشتهر ووضع في القرآن في عهد عبد الملك بن مروان، ومهما يكن من شيء فقد اشتدت الحاجة إليه حينما اتسعت رقعة الإسلام، واختلط العرب بالعجم، وبدأ اللبس والإشكال في قراءة المصاحف، حتى كان يشق على الكثير منهم أن يميزوا بين حروف القرآن وقراءاته في مثل قوله ﷻ: (ننشرها) و (ننشزها) وقوله: (فتبينوا) و (فتثبتوا) فاهتم عبد الملك بن مروان بذلك، وأمر الحَجَّاج أن يُعْنى بهذا الأمر، فاختار الحَجَّاجِ له رجلين من خيرة المسلمين: نصر بن عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني ـ تلميذَي أبي الأسود الدؤلي، وكانا من الورع والصلاح وبلوغ الغاية في العربية والقراءات بمكان، فوضعا النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة، وكان في هذا توفيق عظيم للأمة إلى هذا العمل الذي يتوقف عليه حفظ

---

١. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٦٩، ١٧٠.

القرآن الكريم[1].

إذن فالضرورة الملحة هي التي دفعت المسلمين في منتصف القرن الأول الهجري إلى ضبط المصاحف بالشكل والنقط، على أننا ينبغي أن ننبه إلى أن هذا الضبط لا يخل برسم المصحف، وإنما يزينه ويكمله، وييسر على القرَّاء ويعينهم على قراءة القرآن الكريم من غير لحن.

قال النووي: "نقط المصحف وشكله مستحب؛ لأنه صيانة له من اللحن والتحريف"[2].

وعليه فلا يحق لأحد أن يشكك في سلامة القرآن الكريم بسبب ما طرأ على رسمه من شكل ونقط. أما ما يدعيه بعضهم من احتمالية وقوع الغلط فيه أثناء نقطه وشكله، فهو ادعاء واهٍ، ونفصل الرد عليه في الوجه الآتي.

ثانيًا. الاعتماد في تناقل القرآن على التلقي الشفهي لا على المكتوب:

إن هؤلاء الذين زعموا احتمال وقوع من قاموا بشكل المصحف الشريف ونقطه في الخطأ، قد تناسوا أن المعول عليه في تلقي القرآن هو الأخذ بالرواية والمشافهة لا على المكتوب في المصاحف، "فلم يعرف التاريخ في عمره الطويل كتابًا أُحِيْطَ بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عُرف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين، مثل ما عُرِفَ ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا أوجب الله حفظه على الأمة كلها غير القرآن الكريم، ولا كتابًا سَلِمَ من التحريف والتبديل غير القرآن.

ولم يكن المعول عليه في حفظ القرآن الكريم وتَلَقِّيه - الأخذ من الرقاع والصحف والمصاحف، وإنما كان المعول عليه - الأول - التلقي الشفهي والأخذ بالسماع، فالنبي ﷺ أخذ عن أمين الوحي جبريل عليه السلام، وعن النبي ﷺ أخذ الكثير من الصحابة النجباء العدول الضابطين الأمناء، وعن الصحابة رضي الله عنهم أخذ الألوف من التابعين الفضلاء، وهكذا نقله العدد الكثير عن العدد الكثير، حتى وصل إلينا كما أنزله الله تبارك وتعالى من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تحريف مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر)[3].

ولعل مما يؤكد حقيقة أن الاعتماد في القرآن كان على التلقي الشفهي لا على المكتوب، هو أن العرب كانوا أميين لا يعرفون القراءة، ولا يحذقون الخط والكتابة، إلا نذرًا يسيرًا لا يُصَاغ منهم حكم على المجموع، وترجع هذه الأمية السائدة فيهم إلى غلبة البداوة عليهم وبعدهم عن أسباب المدنية والحضارة.

وهذه الأمية جعلت المرء منهم لا يعوِّل إلا على حافظته وذاكرته فيما يهمه حفظه وذكره، ومن هنا كان تعويل الصحابة على حوافظهم يقدحونها في الإحاطة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الحفظ هو السبيل

١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٨١، ٣٨٢. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص ٣٢٧: ٣٢٩.

٢. انظر: دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٧٢.

٣. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٨٦.

الوحيدة إلى إحاطتهم بها، ولا يزال التعويل إلى الآن في حفظ القرآن على التلقي من صدور الرجال، ثقة عن ثقة، وإمامًا عن إمام إلى النبي ﷺ[1].

فإذا أضفنا إلى ذلك أن من خصائص القرآن الكريم أن الله ﷻ كلف الأمة الإسلامية بحفظه كله، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين على هذا الوضع، فإن لم يحفظه عدد يثبت بهم التواتر أثمت الأمة كلها.

هذا بخلاف التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، وغيرها مما أنزله الله ﷻ فلم تُكَلَّف أممها بحفظها عن ظهر قلب، بل تُرِكَ ذلك لاختيار من يريد، فمن شاء حفظ، ومن شاء اعتمد في القراءة على المكتوب، وهذا الأخير هو الأعم الأغلب من شأن بني إسرائيل وغيرهم، ولم تتوافر الدواعي لحفظ هذه الكتب والصحف كما توافرت للقرآن الكريم، فمن ثم لم يكن لها من ثبوت النص القطعي الموثوق به مثل ما للقرآن العظيم، ومن هنا سهل التحريف والتبديل في التوراة والإنجيل من الأحبار والرهبان والقساوسة، وبعضها كالصحف ضاع بمرور الزمن، ولم يبق له وجود[2].

وفي المقابل لم يُصب القرآن الكريم بأي تحريف بزيادة أو نقصان، أو تغيير في آياته أو كلماته أو حروفه أو علامات ضبط حروفه في أثناء ضبطه بالشكل والنقط؛ لأن هذا الضبط لم يتم عن طريق التخمين كما يظن هؤلاء، إذ اعتمد من قاموا بهذا الضبط في المقام الأول على التلقي الشفاهي والسماع من القراء الحذاق الذين أخذوا القرآن الكريم تواترًا عن النبي ﷺ لا على ما هو مكتوب في المصاحف العثمانية، فلم يكن المقصود من هذه المصاحف حفظ القرآن، وإنما معاضدة المكتوب للمحفوظ؛ لهذا تم هذا الضبط بدقة متناهية لا احتمال معها لوقوع أي خطأ في رسم المصحف الشريف.

الخلاصة:

- لقد كانت المصاحف العثمانية خالية من النقط والشكل، إما لأن الإعجام ـ النقط والشكل ـ لم يكن معروفًا في ذلك الوقت، وإما لأن الصحابة تعمدوا ذلك لتكون هذه المصاحف مشتملة على الأحرف السبعة التي أُنزل القرآن عليها.
- حينما اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بالعجم، فسدت الفطرة العربية، وشاع اللحن في القرآن الكريم من الصبيان والمولدين، فاضطر المسلمون أمام هذه الظاهرة الخطيرة إلى ضبط المصحف بالشكل والنقط، دون أن يُخِلّوا برسم المصحف صيانة للقرآن، وتيسيرًا على القراء.
- لم يكن المعول عليه في حفظ القرآن وتلقيه في أي عصر من العصور الأخذ من المصاحف، وإنما كان المعول عليه الأول التلقي الشفاهي والأخذ بالسماع من صدور الرجال ثقة عن ثقة، وإمامًا عن إمام إلى النبي ﷺ، وكذلك كان اعتماد من قاموا بضبط شكل ونقط المصحف على التلقي الشفاهي في المقام الأول لا على المكتوب في المصاحف، لهذا تم هذا الضبط بدقة

---

1. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص٢٣٨ بتصرف.
2. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٨٩ بتصرف.

متناهية لا احتمال فيها لوقوع أي خطأ.

الشبهة الحادية عشرة

ادعاء أن القرآن الكريم أصابه اللحن بشهادة عثمان بن عفان رضي الله عنه(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن بالقرآن الكريم لحنًا؛ مستدلين على ذلك بما جاء عن عثمان بن عفان - لمَّا عُرضت عليه المصاحف - أنه قال: "إن فيها لحنًا، لا تغيروها، فإن العرب ستغيرها وستعربها"، ويتساءلون: إذا كان عثمان نفسه يعترف بوقوع اللحن، فكيف يكون مصحفه موضع ثقة وإجماع من الصحابة والمسلمين من بعدهم؟! وذلك بغية تشكيك المسلمين في القرآن الذي بين أيديهم، وهزِّ ثقتهم في التسليم بسلامته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن ما ذهب إليه بعضهم من وقوع اللحن في القرآن زعم لا يستند إلى دليل؛ إذ إن كل ما ورد في ذلك الشأن فقط روايتان ضعيفتان مضطربتان، منقطعتا السند، وللعلماء في تفنيدهما أقوال كثيرة، وإذا علمنا ما بلغه القرآن من التواتر، وتبيَّنا ما عليه الروايتان من الضعف؛ تساءلنا: كيف يُطعن بالضعيف في المتواتر؟!

٢) إن في عدم اعتراض أحد من كبار الصحابة على عثمان فيما ذهب إليه ما يقدح في ثبوت الرواية - أو خطأ فهمهم لها إن ثبتت - وإذا تذكرنا موقف عثمان رضي الله عنه مع عبد الله بن مسعود، ورفض الثاني كتابة الأول المعوذتين في مصحفه في بادئ الأمر، وتذكرنا أيضًا معارضي عثمان من الشيعة والخوارج؛ نتساءل: لماذا لم يعترض أحد من هؤلاء ولا أولئك بشأن اللحن في المصحف مع حرص المعارضين على تصيد هنَّاته؟! وإذا كان شيء من الاعتراض قد حدث؛ فلماذا لم نسمع بذلك في قليل ولا كثير؟!

٣) لو سلمنا جدلًا بصحة هاتين الروايتين عن عثمان رضي الله عنه فيجب تأويلهما على ما عرف عن عثمان رضي الله عنه من دقة وحرص في جمع القرآن الكريم، وذلك بأن يحمل لفظ (لحنًا)، على معنى القراءة واللغة دون الرسم.

التفصيل:

أولا. رواية اللحن هذه ضعيفة، والقرآن متواتر، فكيف يُطعن بالضعيف في المتواتر؟

إن المتأمل في الأدلة التي يستدل بها هؤلاء المغالطون لإثبات وجود اللحن والخطأ في القرآن الكريم، يجدها أدلة متهافتة لا تقوم على شيء من الحق، فقد استدل هؤلاء بروايتين عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ذكرت أولاهما: "أن عثمان رضي الله عنه حين عُرض عليه المصحف قال: أحسنتم وأجملتم إن في القرآن لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها"، وجاء في الرواية الثانية عن عكرمة أنه قال: "لما كُتبت المصاحف عُرضت على عثمان فوجد فيها حروفًا من اللحن فقال: لا تغيروها فإن العرب ستغيرها، أو قال ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف والمُملي من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف".

(*) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق. المدخل لدراسة القرآن، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق.

ونحن بدورنا نوضح تهافت هؤلاء المغالطين فنقول: إن هاتين الروايتين ضعيفتان مضطربتان، منقطعتا السند ومضطربتا المتن، متناقضتان من حيث الغرض، فقد قال الإمام السخاوي: عن رواية أحسنتم وأجملتم، وإن في القرآن لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها ـ رواية ضعيفة الإسناد ومنقطعة، وكذلك مضطربة المتن، ونقل ذلك عنه الألوسي في تفسيره، وهذا إقرار من الألوسي على كلام الإمام السخاوي[1].

وأما الرواية الثانية ـ رواية عكرمة ـ فإن عكرمة لم يَسمع من عثمان أصلًا، وإنما رويت عن يحيى بن يعمر عن عثمان بن عفان، ويحيى أيضًا ـ لم يسمع من عثمان.

وردَّ الرواية الأولى جماعة من العلماء، كالإمام أبي بكر الباقلاني والحافظ أبي عمرو الداني، وأبي القاسم الشاطبي والجعبري، وغيرهم[2]. "ولا يخفى على المتأمل ما في الروايتين من اضطراب وتناقض، فإن قوله: أحسنتم وأجملتم مدح وثناء، وقوله: إن فيه لحنًا يشعر بالتقصير والتفريط، فكيف يصح في العقول أن يمدح على التقصير والتفريط؟!"[3] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كما يقول السيوطي: كيف يُظن بالصحابة أنهم يلحنون في الكلام؛ فضلًا عن القرآن، وهم الفصحاء اللدُّ[4]؟

ثم كيف يُظن بهم في القرآن الذي تلقوه عن النبي ﷺ كما أُنزل، وحفظوه وضبطوه وأتقنوه؟

ثم كيف يُظن بهم اجتماعهم كلهم على الخطأ في كتابته؟

ثم كيف يُظن بهم عدم تنبيههم ورجوعهم عنه؟

ثم كيف يُظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ، وهو مروي بالتواتر خلفًا عن سلف؟

ويمضي السيوطي فيقول محقًّا: هذا مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادة.

ويقول الداني: هذا الخبر لا تقوم عندنا بمثله حجة ولا يصح به دليل من جهتين:

الأولى: أنه ـ مع تخليط في إسناده، واضطراب في ألفاظه ـ مرسل؛ لأن ابن يَعْمر وعكرمة، لم يسمعا من عثمان شيئًا ولا رأياه.

الثانية: أن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان رضي الله عنه لما فيه من الطعن عليه مع محله من الدين، ومكانه في الإسلام، وشدة اجتهاده في بذل النصيحة، واهتباله بما فيه الصلاح للأمة، فغير ممكن أن يتولى رضي الله عنه لهم جمع الصحف مع سائر الصحابة الأخيار الأنقياء الأبرار ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم، ثم يترك لهم فيه ـ مع ذلك ـ لحنًا وخطأ يتولى تغييره من يأتي بعده، ممن لا شك أنه لا يدرك مداه، ولا يبلغ غايته، ولا غاية من شاهده، ثم يقول ـ رحمه الله ـ: هذا ما لا يجوز لقائل أن يقوله، ولا يحل لأحد أن يعتقده.

ويقول الإمام ابن الجزري: كيف يصح أن يكون عثمان رضي الله عنه يقول ذلك في مصحف جُعل للناس إمامًا، يُقتدَى به، ثم يتركه لتقيمه العرب بألسنتها، ويكون ذلك بإجماع من الصحابة؟! وهو لم يأمر بكتابة مصحف واحد، إنما كتب بأمره عدة مصاحف، ووجه كلًّا منها

---

١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣٦١ بتصرف.

٢. رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، مكتبة الأزهر، القاهرة، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص١١٥.

٣. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٦٢.

٤. اللدُّ: شديد الخصومة.

إلى مصر من أمصار المسلمين.

فماذا يقول أصحاب هذا القول فيها؟ أيقولون: إنه رأى اللحن في جميعها متفقًا عليه فتركه لتقيمه العرب بألسنتها؟ أم رآه في بعضها؟

فإن قالوا: في بعض دون بعض، فقد اعترفوا بصحة بعضها، ولم يذكر أحد منهم، ولا من غيرهم أن اللحن كان في مصحف دون مصحف، ولم تأت المصاحف مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءات، وليس ذلك بلحن؛ وإن قالوا: رآه في جميعها، لم يصح أيضًا، إذ يكون مناقضًا في نصب إمام يُقتدى به على هذه الصورة[1].

وأما تناقض الروايتين من حيث الغرض؛ إذ كان الغرض من كتابة المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه على حرف قريش أن تكون مرجعًا عامًا يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف في حروف القرآن وقراءاته؛ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يكل تصحيحها إليهم؟! إن صح هذا فسيصل بنا إلى الدور المحال، إذ تكون صحة قراءاتهم متوقفة على القراءة وفق المصاحف التي كتبها لهم عثمان، وصحة المصاحف وسلامتها من اللحن متوقفة على صحة قراءتهم، وهذا ما ننزه عنه أي عاقل، فضلًا عن عثمان رضي الله عنه[2].

فهاتان الروايتان ضعيفتان من حيث الإسناد، ومضطربتان من حيث المتن، ومتناقضتان من حيث الغرض، فلا يجوز الاحتجاج بهما بحال من الأحوال.

١. رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، مرجع سابق، ص ١١٦، ١١٧.

٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٦٢ بتصرف.

ثانيًا. عدم اعتراض كبار الصحابة على هذا اللحن دليل قاطع على عدم وقوعه:

إن سلَّمنا ـ جدلًا ـ بصحة هذا الرواية، فلماذا لم ينكر الصحابة الكرام على عثمان رضي الله عنه، لا سيما عبد الله بن مسعود الذي كان له موقف من مصحف عثمان بن عفان، حيث رفض في البداية كتابة المعوذتين، كما رفض أيضًا تسليم مصحفه لعثمان؟

هل يُعْقَل أن عبد الله بن مسعود ـ مع موقفه هذا ـ يترك عثمان بن عفان ليعبث في المصحف؟ وإن كان عارضه، فلماذا لم يشتهر وينتشر، لا سيما وقد ظهر لعثمان معارضون ألداء من الشيعة والخوارج؟ ولو كان حدث مثل ذلك، لاتخذوه حجة لإدانته.

وإذا نظرنا إلى موقف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا نجد منهم اعتراضًا على مثل هذا اللحن المزعوم، بل نراهم يتكاتفون ويتعاونون في عملية الجمع، كما نراهم يثنون على فعل عثمان هذا ويمدحونه، فهذا علي رضي الله عنه يقول: "يا معشر الناس، اتقوا الله وإياكم والغلو في عثمان وقولكم حرَّاقُ مصاحف، فوالله ما حرقها إلا عند ملأ منا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم" ويقول أيضًا: "لو كنت الوالي وقت جمع عثمان لفعلتُ في المصاحف مثل الذي فعل عثمان".

وقال مصعب بن سعد: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد"[3].

فهذا إجماع من الصحابة، وإقرار لفعل عثمان رضي الله عنه

٣. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك، مرجع سابق، ص٩٣ بتصرف.

ولو كان هناك أدنى لحن في جمع المصحف لما أقروه، ولما أجمعوا على مدحه؛ لأنهم لم يكونوا يتهاونون فيما هو أدنى من ذلك من أمور الدين، فما بالنا والقضية هنا تمس جوهر الدين ومصدره الأول®؟

ولقد وصلت مصاحف عدة من جمع عثمان إلى البلدان الإسلامية، فلو وجدوا فيها خطأ، لما سكت أحد من المسلمين عنه، ولكنهم أجمعوا على صحتها وقبولها، وقد قال ﷺ: "إن الله تعالى لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله على الجماعة"[1] [2].

ثالثًا. إذا صحت هذه الرواية يجب تأويلها بما يتناسب ودقة عثمان وحرصه في عملية الجمع:

إن المتأمل في هذين الأثرين المرويين عن عثمان ﷺ يجدهما يخالفان ما كان عليه عثمان ﷺ من دقته وكمال ضبطه، وحفظه القرآن وملازمة قراءته ومدارسته، حتى صار في ذلك ممن يؤخذ عنهم القرآن، وقد حرص غاية الحرص على إحاطة كتابة المصاحف بسياج قوي، لكي لا يتطرق إلى القرآن لحن أو تحريف أو تبديل، وجعل من نفسه حارسًا أمينًا على كُتَّاب المصاحف في عهده، والمرجع عند أي اختلاف في كيفية الرسم، فقد قال عثمان لرهط القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد في حرف فاكتبوه بلسان قريش، وقد اختلفوا في كلمة "التابوت" أيكتبونه بالتاء أم بالهاء؟ ورفعوا الأمر إليه، فأمرهم أن يكتبوه بالتاء، فإذا كان هذا شأنه في حرف لا يُغيّر المعنى، ولا يعتبر تحريفًا ولا تبديلًا؛ لاستناده إلى الحروف التي نزل بها القرآن، فكيف يُعْقَل منه أن يرى منهم لحنًا، ثم يقرُّهم عليه أو يتساهل فيه؟!

وأخرج أبو عبيدة عن عبد الله بن هانئ، قال: كنت عند عثمان ﷺ وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أُبي بن كعب، فيها: "لم يتسن" وفيها: "لا تبديل للخلق"، وفيها: "فأمهل الكافرين" فدعا بالدواة، وكتب: (لم يتسنه) فألحق فيها الهاء، ومحا "فأمهل" وكتب (فمهِّل) ومحا أحد اللامين من "للخلق" وكتب (لا تبديل لخلق الله).

فهل يصح في العقول ممن هذا شأنه أن يرى لحنًا في المصاحف ثم يقرهم عليه، ويدعه للعرب تُصْلِحه؟ ومن أَحَقُّ بإصلاح اللحن والخطأ منه ﷺ وهو مَنْ هو في حفظ القرآن والحفاظ عليه[3].

ويقول ابن الأنباري: "فكيف يُدَّعى على عثمان ـ بعد ذلك ـ أنه رأى فسادًا فأمضاه، وهو يُوقف على ما كُتب، ويُرفع إليه ـ كما رأينا ـ الخلاف الواقع من الناسخين ليحكم بالحق، ويلزمهم إثبات الصواب وتخليده"؟

ويستبعد محمد طاهر الكردي وجود هذا اللحن بقوله: "من المشاهد أنه لو أمر أحد الملوك أو الأمراء، بنسخ مصحف أو كتاب لا يقدمه الكاتب إليه إلا بعد العناية بتصحيحه، والتثبُّت من عدم وجود أي غلط

® في "إجماع الصحابة على مصحف عثمان" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السادسة والعشرين، من هذا الجزء.

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب لزوم الجماعة (٢١٦٧) بنحوه، والحاكم في مستدركه، كتاب العلم، باب كتاب العلم (٣٣٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٢٧٢٩).

٢. رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، مرجع سابق، ص١٢١.

٣. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣٦٢، ٣٦٣ بتصرف يسير.

فيه، فكيف بهؤلاء الصحابة الذين بذلوا أنفسهم لله تعالى، لا يتحرون في كتابة وضبط المصحف الكريم، الذي هو أساس الدين الإسلامي الحنيف؟ هذا، ولقد وصلت عدة مصاحف من جمع عثمان إلى البلدان الإسلامية، فلو وجدوا فيها خطأً، أو لحنًا، لما سكت أحد من المسلمين عليه، ولكنهم أجمعوا على صحتها وقبولها، ولهذا كان إجماعهم حجة، على أنك لن تجد من المسلمين عناية بشيء كعنايتهم بكتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، سواء في نسخه أو تصحيحه أو حفظه أو حرمته، وهذا لا يحتاج إلى دليل، ثم يقول: وانظر: كم من المصاحف لا تعد ولا تحصى، قد كتبت منذ بدء الإسلام إلى يومنا هذا - أي أربعة عشر قرنًا - فهل رأيت فيه تبديلًا أو تغييرًا مع كثرة أعداء الدين من مختلف الأجناس والعقول[1]؟

تأويل الخبر (على فرض صحته):

يمكن على فرض صحة هذا الخبر - وهو ليس صحيحًا كما مرَّ بنا - أن:

يُؤوَّل معنى اللحن بما يتفق والصحيح المتواتر عن عثمان ﷺ في نسخ المصاحف وجمع القرآن، من نهاية التثبت والدقة والضبط، وذلك بأن يراد بكلمة "لحن" في الروايات التي ذكروها: القراءة واللغة دون الرسم.

قال عمر ﷺ: إنا لنرغب عن كثير من لحن أُبي "يعني لغة أُبي" وهو المعنى اللغوي لكلمة "لحن" وعليه يكون المعنى: أن في القرآن الكريم ورسم المصحف وجهًا في القراءة، لا تلين به ألسنتهم مرة واحدة، ولكنها لا تلبث أن تلين به ألسنتهم جميعًا بالمران وكثرة تلاوة القرآن بهذا الوجه، وقد ضرب بعض أجلَّة العلماء لذلك مثلًا كلمة (الصراط)، كتبت بالصاد المبدلة من السين، فتقرأ العرب بالصاد عملًا بالرسم، وبالسين عملًا بالأصل.

أن يكون معنى قول عثمان ﷺ: "لو أن الكاتب من ثقيف والمُملي من هذيل، لم توجد هذه الحروف"، كما يقول أبو عمرو:

"أي لم توجد فيه مرسومة بتلك الصور المبنية على المعاني، دون الألفاظ المخالفة لذلك؛ إذ كانت قريش ومن ولي نسخ المصاحف من غيرها، قد استعملوا ذلك، أي رسم اللفظ حسب أحد معانيه الكثيرة التي يتحملها الرسم الآخر في كثير من الكتابة، وسلكوا فيها تلك الطريقة، ولم تكن ثقيف وهذيل مع فصاحتهما يستعملان ذلك، فلو أنهما وَلِيَتَا من أمر المصاحف ما وَلِيَه من تقدم من المهاجرين والأنصار، لَرَسَمَتَا تلك الحروف جميعها على حال استقرارها في اللفظ، ووجودها في المنطق دون المعاني والوجوه؛ إذ ذاك هو المعهود عندهما، والذي جرى عليه استعمالهما.

ثم يقول أبو عمرو: هذا تأويل قول عثمان عندي - لو ثبت وجاء مجيء الحجة - وبالله التوفيق[2].

وبعد أن تبين لنا أن هذا الخبر غير صحيح، بل على فرض صحته يمكن تأويله بما يتوافق مع المعروف عن دقة الصحابة واعتنائهم بالقرآن الكريم، فلا يحق لأحد أن يدَّعي وجود الخطأ واللحن في القرآن الكريم.

---

١. رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، مرجع سابق، ص١٢١.

٢. المرجع السابق، ص١٢٤، ١٢٥.

الخلاصة:

- إن الروايتين اللتين رُوِيَتا عن عثمان بن عفان ، ويستدل بهما المغالطون لإثبات وجود اللحن في القرآن الكريم - هما روايتان ضعيفتا الإسناد، وفيهما اضطراب وانقطاع يذهب بالثقة بهما، وغير خفي على المتأمل ما فيهما من تناقض، فإن قوله: "أحسنتم وأجملتم" مدح وثناء، وقوله: "إن فيه لحنًا" يشعر بالتقصير، فكيف يصح عقلًا أن يمدحهم على التقصير؟

- إن الغرض من كتابة المصاحف في عهد عثمان هو أن تكون مرجعًا عامًّا يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف في القراءات، فكيف يَكِلُ عثمان أمر تصحيح هذه المصاحف إلى هؤلاء القرَّاء؟

- لو جوزنا فرضًا أن عثمان بن عفان قد تساهل في إصلاح هذا اللحن، فكيف يَدَعه جمهور المسلمين من المهاجرين والأنصار دون أن يصححوه؟ وهم الذين لا يخشون في الحق لومة لائم ولا يقرُّون الباطل، ولو صحت هذه المقالة عن عثمان لأنكروا عليه ذلك.

- على فرض صحة هذين الأثرين فيمكن أن نأولهما بما يتفق مع ما عُرف عن عثمان من دقة وحفظ القرآن الكريم، وذلك بأن يُحمل لفظ (لحنًا) على معنى اللغة، ويكون المعنى: أن في رسم القرآن وكتابته في المصاحف وجهًا في القراءة لا تلين به ألسنة العرب جميعًا، ولكنها لا تلبث أن تلين به ألسنتهم بالمران وكثرة تلاوة القرآن.

الشبهة الثانية عشرة

ادعاء أن عثمان بن عفان حذف بعض سور القرآن أثناء جمعه (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم قد وقع فيه شيء من التحريف بالحذف، ويستدلون على ذلك بأن عثمان حذف منه بعض السور الموجودة في مصحفي "علي" و "أُبَي" مثل الولاية والحَفْد والنورين، ويتساءلون: كيف يثق المسلمون فيما بين أيديهم من القرآن بعد ذلك ويزعمون أنه مصون عن التحريف؟ ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في صون الله للقرآن ووعده بحفظه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لا ينكر منصف أن الله تعهد بحفظ كتابه؛ فحُفظ وكُتب في عهد النبي ﷺ، وجُمع في عهد أبو بكر الصديق ، ووُحِّد في عهد عثمان من غير تحريف ولا نقصان.

٢) توحيد المصاحف لم يكن من رأي عثمان وحده حتى يحذف أو يزيد ما يشاء، بل هي بمشورة ومراقبة لجنة عليا من حفظة القرآن وكَتَبَة الوحي، ثم ما جدوى أن يحذف عثمان بعض السور وهو الذي جهد في جمعه؟ ولماذا هذه السور بعينها دون غيرها؟

٣) كيف يحذف عثمان من القرآن الكريم ويسكت

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. مناهل العرفان، محمد الزرقاني، مرجع سابق. ردُّ القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مرجع سابق.

أصحاب النبي ﷺ على حذف ما كانوا يحفظون ويقرءون طيلة ثلاثة عهود سابقة؟! وهل يحذف عثمان ﷺ من القرآن ما هو بشأن علي وأبي - رضي الله عنهما - ولا ينكر عليه أحد منهما هذا، بل - على العكس - يُثنيان عليه؟!

التفصيل:

أولا. تعهد الله ﷻ بحفظ كتابه على مر العصور:

بمقتضى قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر)، تكفل الله بحفظ القرآن الكريم في كل الأحيان والأحوال؛ ففي حالة نزول الوحي، وحينما كان الرسول يتعجل في ترديده ليحفظه، هوَّن الله عليه، وضمن حفظه له، فقال: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) ﴾ (طه)، وفي حالة جمع القرآن قال ﷻ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) ﴾ (القيامة)، وفي حفظ القرآن عامة، قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

ومن معاني الآيات، حفظ القرآن في الصدور، وخطُّه على السطور، فكان تدوين القرآن على عهد النبي ﷺ ضرورة لا بد منها لحفظه، وإبقاء قدسيته؛ إذ إن حفظ الصدور لغير النبي ﷺ يعتريه النسيان، والوهم في بعض الأحيان، ولذلك أشعر القرآن - نفسه - النبي ﷺ والصحابة الكرام، بضرورة الكتابة في مواضع كثيرة، بل إن من أسمائه "الكتاب" من الكتابة، وهذا يقتضي أن يكون مكتوبًا كما أشار عبد الله بن يوسف الجديع في كتابه "المقدمات الأساسية في علوم القرآن".

ومن ثم فقد اتخذ النبي ﷺ جماعة مأمونة من أصحابه، ممن كانوا يعرفون الكتابة؛ ليكتبوا ما ينزل من القرآن عليه، فضلًا عن كون الكتابة مأذونًا فيها، لكل من شاء أن يكتب يؤكد من بعض الوجوه قوله ﷺ: "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"[1]. وعلة ذلك مدركة، وهي الخوف من اختلاط ما ليس من القرآن بالقرآن كما ألمح لهذا د. محمد شرعي في رسالته عن جمع القرآن.

ثم جاء دور جبل الأمة وصدِّيقها، أبي بكر الصديق، وخوفه من ذهاب القرآن بذهاب حَمَلَته، وظهر ذلك في إشارة عمر عليه - رضي الله عنهما -؛ حيث قال له عمر: "إني أخشى أن يَسْتحِرَّ القتل بالقُراء بالمواطن (بالمعارك) فيذهب كثير من القرآن، أرى أن تأمر بجمع القرآن "، وبعد تردُّد من أبي بكر من فعل ما لم يفعله رسول الله، وبعد أن شرح الله صدره لذلك، أمر زيدًا بجمع القرآن، من الصدور، والجريد، والجلود[2]، وجمعه أبو بكر في بيته، ثم انتقل إلى بيت حفصة في ولاية عمر، حتى جاء دور الجبل الثاني - عثمان بن عفان - إذ إنه خاف على الأمة من الافتتان في دينها، بسبب اختلاف الحروف التي يُقرأ بها القرآن الكريم.

وكان نسخ عثمان للمصحف موضع الرضا من أصحاب النبي ﷺ قرت به أعينهم وطابت به نفوسهم؛ إذ أمنوا بذلك على كتاب ربهم، ووحدة أمتهم، وهو

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم (٧٧٠٢).

٢. مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص ٢٠٩. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص١٢١.

لعمري من أجلِّ الأعمال التي قام بها عثمان ﷺ لصيانة هذا الدين وتوحيد هذه الأمة، وإن هذا العمل لا يقل قدرًا عن الفتوحات الإسلامية التي حدثت في عهده، فحماية كتاب الله ﷻ وصيانته من التحريف والتبديل، لا تقل بحال عن حماية الأعراض والحرمات ونشر الإسلام هنا وهناك.

ومن كل ماسبق نستنتج أن: القرآن دستور الإسلام وصراطه المستقيم، ومنهجه القويم قد تكفل الله بحفظه، فقيَّض له فريقًا كبيرًا من خيار الخلق، فأودعه صدورهم، فحملوه إلينا، فأخذناه منهم كما أنزل بالتلقِّي مشافهةً وكتابةً، من غير أدنى لبس أو تحريف بكل الوجوه التي تلقوها من فم النبي ﷺ، فجزى الله عثمان وجزى أصحاب النبي ﷺ عن القرآن وأهل القرآن خير الجزاء[1].

وليس من المنطق في شيء أمام هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبعد أن تكفل الله بحفظه، وهيَّأ له من الأسباب ما حفظه بشتى الطرق والوسائل فلم تنله ـ عبر العصور ـ زيادة ولا نقصان ـ ليس من المنطق بعد كل هذا أن نضرب بهذه الحقائق الثابتات عرض الحائط لمجرد دعوى لا تبعد كثيرًا عن جملة الدعاوى التي لا يملك أصحابها للتدليل عليها قوي دليل ولا ضعيفه، ونعتقد أنه من الأحرى بأصحابها أن يُسلِّموا لله بما وعد ولا يُعوِّلوا على مثل تلك الأقاويل التي لن تنال من سلامة كتاب الله المحفوظ في قليل ولا كثير.

١. دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص١٣٠.

ثانيًا. توحيد المصاحف لم يكن من رأي عثمان ﷺ وحده حتى يحذف أو يزيد ما يشاء:

ومما يدل على أن هذا العمل لم يكن من رأي عثمان بن عفان ﷺ وحده ما جاء عن أنس قال: "إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ﷺ وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان، مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة؛ فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف فننسخها ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن ـ أي في كتابته ـ فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أنزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في صحيفة أو مصحف أن يحرق"[2].

وقد جاء أن عثمان: جمع اثني عشر رجلًا من المهاجرين والأنصار، فيهم أبي بن كعب، وزيد بن ثابت وسعيد بن العاص[3]. وأرسل الرُّقعة التي في بيت عمر

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢).

٣. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، جمع عثمان ﷺ المصاحف، عثمان بن عفان جمع اثني عشر رجلًا من من قريش والأنصار (٧٤).

قال: فحدثني كثير بن أفلح، وكان ممن يكتب، قال: إذا اختلفوا في شيء أخَّروه، قال ابن سيرين: أظنه ليكتبوه على العرضة الأخيرة[1].

وكان ممن عاون في الكتابة والإملاء بالإضافة إلى الأربعة السابق ذكرهم كثير بن أفلح، ومالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس، وأبي بن كعب، وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس[2]، فهؤلاء تسعة قد عُلموا، وهم من خيار الصحابة الاثني عشر، وكلهم عدول من سادات وأشراف صحابة رسول الله ﷺ.

ونخلص من مجموع الروايات السابقة أن عثمان لم يكن وحده في عملية جمع القرآن، وتوحيد المصاحف في مصحف واحد حتى يتسنى له أن يحذف أو يغير ما يشاء، بل الواضح من هذه الروايات أن عثمان ؓ لم يتدخل تدخلًا مباشرًا معهم في عملية توحيد المصاحف، وإنما كان دوره منحصرًا في إدارة العملية والإشراف عليها، ومتابعة اللجنة المكونة من أفاضل الصحابة، حتى تمت العملية بنجاح دقيق®.

وإذا استقر في أذهاننا هذا، نتساءل: أفي عثمان يشككون؟! أم في عدالة الصحابة الكرام وأمانتهم يطعنون؟! وإذا افترضنا ـ جدلًا ـ أن بإمكان عثمان أن يحذف في المصحف ويحرف وأنه ـ معاذ الله ـ ليس من الأمانة بحيث سوغ لنفسه هذا إننا حتى بعد هذا الافتراض مازلنا أمام شيء غير قليل من الاستفهام التعجبي المحلق في أخلادنا بين رجل يبذل جهده في جمع القرآن والعمل على حفظه وحفظ الأمة من الاختلاف بشأنه، ثم هو في الوقت ذاته يحذف منه! إنه تناقض من حاملي هذه الدعوى لم يفطنوا إليه في الغالب ولو فطنوا ما لاكوها بألسنتهم.

وإذا تجاوزنا هذا التناقض لنعود فنفترض ثانية أن عثمان ؓ بالفعل حذف سورًا من القرآن أمثال: النورين والحفد والولاية؛ نتساءل لماذا حذف هذه السور بعينها دون غيرها؟! وما الفائدة التي ستعود عليه من حذف السورة الأولى من هذه السور بالذات؟! ومعلوم أن النورين هما: زوجتا عثمان ـ رقية وأم كلثوم ـ، وهنا نتساءل: هل من المنطق أن يحذف إنسان ذكر أهل بيته من موضع قرآني من شأنه أن يخلد ذكرهم وذكره هو الآخر؟! إن هذا لا يستقيم!!

ثالثًا. السور التي استدلوا بها في الأصل أدعية مأثورة عن النبي ﷺ:

إذا نظرنا إلى هذا الكلام فلن نتكبد جهدًا أو نتكلف قولًا، إذا قلنا: إن هذه أدعية ربما كان أُبي ؓ يحتفظ بها معه في مصحفه أو في غير مصحفه ـ وذلك على فرض صحة نسبتها لأبي بن كعب ـ وأن أبيًّا كان يعلم أنها أدعية ـ مأثورة عن النبي ﷺ، ومما يدلل على ذلك أنه لم يؤثر عنه إنكار لصنيع عثمان ؓ ومن معه حين كتبوا المصحف بخصوص ذلك، مع أنهم كان يستشيرونه فيما كانوا يصنعون[3].

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن السورتين المنسوبتين

---

١. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٨، ص٦٣٥.

٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٧٦.

® في **"جمع القرآن في عهد عثمان وأسبابه"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

٣. المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق، ص٦١.

لمصحف أُبَي هما في الأصل أدعية مأثورة عن النبي ﷺ وهما:

التي يقال عنها سورة الولاية نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك".

بسم الله الرحمن الرحيم: اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونَحْفِد[1]، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك الجدّ بالكفار مُلْحِق".

وهذا الكلام بيِّن النسبة لأقوال النبي ﷺ المأثورة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية إذا أضفنا لهاتين السورتين المزعومتين السورة المنسوبة لمصحف علي ﷺ؛ نتساءل: إذا كانت هذه السور منسوبة لمصاحف اثنين كانا شاهدين حال جمع القرآن في عهد عثمان، فلماذا لم يذكر الصحابة بهم إن كانوا قد نسوهم؟ أو يخرجوا عليهم إن كانوا قد تعمدوا حذفهم؟!

وهل يعقل أن يحذف عثمان ﷺ ما بشأن مصحف علي ﷺ، ولا ينكر عليه ويتمنى لو كان هو صاحب هذا الشرف العظيم في خدمة القرآن، والأعظم من ذلك أنه يدافع دفاعًا شديدًا عن عثمان ضد من ينقم منه هذا الأمر، فقد ورد فيما نقله أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة، قال سمعت علي بن أبي طالب يقول: "يا معشر الناس، اتقوا الله، وإياكم والغلو في عثمان، وقولكم: حرَّاق مصاحف، فوالله ما حرقها إلَّا على مَلأ منَّا أصحاب رسول الله ﷺ".

وعن عمر بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب: "رحم الله عثمان، لو كنتُ وُلِّيتَه ـ أي: كنت وليًّا على أمر كتابة المصحف ـ لفعلت ما فعل في المصاحف"[2].

الخلاصة:

- ليس من المنطق في شيء أن نتجاهل وعد الله المحقق بحفظ كتابه، ونغُضَّ الطرف عما أحاط جمع القرآن من دقة وأمانة بالغة من القائمين عليه من أبناء الرعيل الأول، ليس من المنطق أن نضرب صفحًا عن كل هذا أمام دعوى لا تستند إلى دليل.
- إذا علمنا أن مسألة جمع القرآن في مصحف واحد لم تكن من عند عثمان وحده، ولم تُنَفَّذ من تلقاء نفسه وبمفرده، بل كانت بإشراف منه على لجنة عليا فيها خيرة الصحابة من حفظة القرآن وكَتَبَة الوحي ـ إذا علمنا هذا نتساءل: كيف يتسنى لعثمان أن يحذف ويحرف في حضور هذا الجمع الغفير من الصحابة الأثبات؟!
- حقيقة الأمر أن السور المزعومة في أصلها أدعية مأثورة عن النبي ﷺ، ونظرة متأنية في آثاره ﷺ تقف بنا على تلك الحقيقة وبخاصة في السورتين المنسوبتين لمصحف أبي بن كعب ﷺ الحَفْد والولاية.
- كيف يبذل عثمان ﷺ جهده في صون المصحف وصون المسلمين عن الفتنة، ثم يحذف هو منه بعض سوره، وإذا تجاوزنا هذا التناقض؛ نتساءل: ما جدوى أن يحذف عثمان بعض سور القرآن؟! وأي عاقل هذا الذي يحذف ما من شأنه أن يخلد ذكره وذكر أهل بيته؟!

---

1. الحَفْد: السرعة والخفة في العمل والخدمة والعبادة.

2. المقدمات الأساسية، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، ص٩٧. مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص٢١٦.

الشبهة الثالثة عشرة

الزعم أن مصحف عثمان رضي الله عنه يتعارض مع مصحف ابن مسعود رضي الله عنه(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقولين أن ابن مسعود رضي الله عنه لم يكن يعتبر نسخة عثمان رضي الله عنه صحيحة، ولهذا رفض أن يسلمه نسخته ليحرقها، كما أنه أمر أهل العراق أن يحتفظوا بنسخهم ولا يسلموها لعمال عثمان رضي الله عنه، وأنه حذف السورة الأولى (الفاتحة) والسورتين الأخيرتين (المعوِّذتين) من نسخته، بحجة أنها ليست من القرآن. ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في تواتر القرآن والطعن في سلامة تلاوته وتمام سوره.

وجها إبطال الشبهة:

١) رفض عبد الله بن مسعود أن يسلم نسخته لعثمان - رضي الله عنهما، لا لظنه أن نسخة عثمان غير صحيحة، وإنما لظنه أنه أحق بجمع القرآن من زيد لسبقه في الإسلام؛ على أنه قال هذا في وقت غضبه، فلما سكت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ومن معه من الصحابة لزيد ومن معه، وقد ندم على ما قال واستحيا منه.

٢) لقد أجمع المسلمون على أن الفاتحة والمعوذتين من القرآن الكريم، وما نُقل عن عبد الله بن مسعود من عدم إثباته هذه السور في مصحفه لا يستلزم إنكاره لقُرآنيَّتها.

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق.

التفصيل:

أولا. الدوافع الحقيقية وراء رَفْض ابن مسعود رضي الله عنه تسليم ما كتبه من القرآن لعثمان رضي الله عنه:

لقد كان ابن مسعود رضي الله عنه أحد أئمة القراءة من أصحاب النبي ﷺ، وأول من جهر بالقرآن في مكة، وأحد الأربعة الذين أمر النبي ﷺ بأخذ القرآن عنهم؛ فعن عبد الله بن عمرو أنه ذكر عبد الله بن مسعود، فقال: لا أزال أحبه؛ سمعت النبي ﷺ يقول: "خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب"[1].

جمع عثمان ابن عفان رضي الله عنه القرآن الكريم، ونسخه في المصاحف، وأرسل المصحف إلى الكوفة مع حذيفة بن اليمان فكره ابن مسعود ذلك؛ إذ كان يرى أنه أحق بأن يقوم بجمع القرآن الكريم، لما له من سابقة في الإسلام، ومكانة في القراءة والتلقي عن رسول الله ﷺ.

عن عبد الله أنه قال: على قراءة من تأمروني أقرأ؟! لقد قرأت على رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، وإن زيدًا لصاحب ذؤابتين يلعب مع الصبيان[2].

وقال أيضًا: "يا معشر المسلمين كيف أُعْزَل عن جمع المصحف ويتولاه رجل، والله لقد أسلمت وإنه لفي

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي كعب رضي الله عنه (٣٥٩٧)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله تعالى عنهما (٦٤٨٨).

٢. صحيح لغيره: أخرجه النسائي في المجتبى، كتاب الزينة، باب الذؤابة (٥٠٦٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب التفسير (٢٨٩٧)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن النسائي (٥٠٦٣).

صُلْب رجل كافر"[١].

على أن قول ابن مسعود ﷺ هذا لا يدل على عدم جواز جمع القرآن في مصحف، ولا إنكاره لمصحف عثمان ﷺ، ولا تشكيكه في صحته، كل ما يدل عليه - فقط - أن ابن مسعود ﷺ يرى أنه أحق من زيد بجمع القرآن لسابقته في الإسلام، على أنه قال هذا في وقت غضبه، فلما سكت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ﷺ ومن معه من الصحابة لزيد بن ثابت ومن معه، وقد ندم على ما قال واستحيا منه؛ فقد ذكر أبو وائل هذه القصة ثم قال عقبها: إن عبد الله استحيا مما قال، فقال: ما أنا بخيرهم، ثم نزل عن المنبر.

وشيء تجدُر الإشارة إليه في هذا المقام مؤدَّاه أن اختيار كل من أبي بكر وعثمان - رضي الله عنهما - لزيد لم يكن إلا لما له من المزايا التي تؤهله لهذه المهمة الجليلة.

وفيه صفات أربع لا بد منها لمن يقوم بهذا العمل هي: الشباب المقتضي للقوة والصبر والجلد، والعقل وهو جماع الفضائل، والأمانة وعدم التهمة وهي الصفة الأهم وبها يتم التوثق والاطمئنان ناهيك عن كتابة الوحي، وهذه الخصائص جميعها لا تقتضي أفضليته على عبد الله بن مسعود وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ؛ وإنما تقتضي أهليَّته لما عُهِدَ إليه به[٢].

هذا من جانب، ومن جانب آخر هل كتب ابن مسعود لأهل العراق أن يحتفظوا بنسخهم ولا يسلموها لعمال عثمان بحجة أنها أصح النسخ؟ وهذا معناه أن ابن مسعود بمحلٍ يستطيع فيه أن يعارض أمر أمير المؤمنين، وأن أهل العراق كانوا يصدرون عن رأيه، والسؤال: هل صدعوا لأمره واحتفظوا بنسخهم؟!

فإن قيل: نعم، فأين تلك النُّسخ؟ ولِمَ لم يروِ لنا التاريخ شيئًا عن مخالفتها لنسخة عثمان ﷺ؟ وإن قيل: لا، فكيف يُعْقَل أن يفرِّط أهل قطر عظيم كالعراق في تلك النُّسخ لو كان ثمة ما يؤخذ على عثمان ﷺ؟ ولِمَ لم تبدُ منهم أية حركة مقاومة؟! أكان أهل العراق من خَوَر العزيمة في هذه الدَّرَكَة؟ وأنَّى يستقيم ذلك وهم الذين انتدبوا لخلع عثمان ﷺ فحاصروه في بيته، ثم قتلوه؟

هذا، وقد أحصى أهل العراق على عثمان ﷺ مآخذ كثيرة ليس فيها أنه عمد إلى تحريف القرآن، وكانت هذه الحجة كافية وحدها في صرف القلوب عنه، ودفعها إلى ارتكاب أشدِّ ضروب القسوة ضده.

وإذا افترضنا جدلًا أن ابن مسعود كتب لأهل العراق وأمرهم بالاحتفاظ بمصاحفهم، فلم لم يفعل ذلك مع أهل المدينة وهو بين ظهرانيهم وبينهم مئات من كبار أصحاب رسول الله؟ ألم يكونوا أولى بذاك من أهل العراق؟! وإذا كان ابن مسعود ﷺ قد فعل، فهل يُعقل ألا نجد أثرًا عن أحد وافقه في ذلك؟! وهل يُعقل أيضًا أن يجمعوا كلهم على رفض قوله؟!

إن هذا القول المنسوب لابن مسعود لا يمكن التسليم بنسبته إليه جريًا على أسلوب النقد الإسلامي، فإن المسلمين لا يقبلون قولًا منسوبًا لرسولهم إلا بعد التحقق من حالة رواته العقلية والنفسية والدينية، وقد

١. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، سورة التوبة (٣١٠٤)، وأبو يعلى في مسنده، مسند أبي بكر الصديق ﷺ (٦٣) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٣١٠٤).

٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٨٤، ٢٨٥ بتصرف يسير.

رفضوا مئات الآلاف من الأحاديث المنسوبة إليه، وعدُّوها موضوعة، فهل يقبل المسلمون المنصفون من غيرهم قولًا من هذا الطراز تقوم ضده كل ما ذكر من المضعفات والمشككات®؟!

ثانيًا. ثبت إجماع المسلمين بما فيهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن:

لقد أجمع أصحاب النبي ﷺ والمسلمون جميعًا - بما فيهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه - على قُرآنيَّة الفاتحة والمعوذتين، فقد تواترت قراءة تلاميذ ابن مسعود من الكوفيين؛ كرواية عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود بإثبات الفاتحة والمعوذتين، فكيف يزعم زاعم أن ابن مسعود أنكر كون هذه السور من القرآن، وقد تواترت الأخبار بذلك، فقد جاء عن عقبة بن عامر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ألم تر آيات أُنْزِلت الليلة لم يُرَ مثلهُنَّ قط؛ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ (الفلق)، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ (الناس)"[1].

كما ثبت أن النبي ﷺ قد كان يقرأ بالمعوذتين في الصلاة، فقد روى أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر قال: "بينا أنا أقود برسول الله ﷺ في نقب من تلك النقاب، إذ قال لي: يا عقبة، ألا تركب؟ قال: فأجللت رسول الله ﷺ أن أركب مركبه، ثم قال: يا عقيب، ألا تركب؟ قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله ﷺ وركبت هنية، ثم ركب، ثم قال: يا عقيب، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأقرأني: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم أُقيمت الصلاة، فتقدَّم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مرَّ بي قال: كيف رأيت يا عقيب، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت"[2].

وجاء عن ابن عباس أنه قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فُتِحَ اليوم لم يُفْتَح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أَبْشِرْ بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته"[3].

عدم كتابة المعوِّذتين والفاتحة لا يستلزم إنكار كونهما من القرآن لجواز أنه كان لا يكتبهما اعتمادًا على حفظ الناس لهما لا إنكارًا لقرآنيتهما، فالفاتحة يقرؤها كل مسلم في الصلاة، والمعوذتان يعوِّذ بهما المسلمون أولادهم، وأهليهم[4].

"كما يحتمل أن إنكار ابن مسعود رضي الله عنه لقرآنية المعوذتين والفاتحة كان قبل علمه بذلك، فلما تبيَّن له قرآنيتهما - بعد أن تمَّ التواتر، وانعقد الإجماع على قرآنيتهما - كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن"[5].

® في "حقيقة موقف ابن مسعود من مصحف عثمان" طالع: الوجه الخامس، من الشبهة السابعة والعشرين، من هذا الجزء.

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل قراءة المعوذتين (١٩٢٧).

٢. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عقبة بن عمار الجهني عن النبي ﷺ (١٧٣٣٥)، وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (١٩١٣).

٤. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٨٧ بتصرف يسير.

٥. مناهل العرفان، الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٧.

قال ابن قتيبة في "مشكل القرآن": "ظن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن الكريم؛ لأنه رأى النبي ﷺ يعوِّذ بهما الحسن والحسين، فأقام على ظنه، ولا نقول إنه أصاب في ذلك وأخطأ المهاجرون والأنصار".

وعليه، فما أنكره ابن مسعود هو إثبات المعوذتين في المصحف لا كونهما سورتين قرآنيتين، فهذا ما لم يقله أحد.

ثم إننا لو سلمنا بأن ابن مسعود أنكر المعوذتين، وأنكر الفاتحة، بل أنكر القرآن الكريم كله، فهل ينقض إنكار فرد تواتر القرآن؟ إن هذا الإنكار ـ الذي لم يثبت ـ لو افترضنا أنه ثبت، فإنه لا يرفع العلم القاطع بثبوته القائم على التواتر، ولم يقل أحد في الدنيا: إن من شروط التواتر والعلم اليقيني المبني عليه ألا يخالف فيه مخالف[1].

وبقي أن نتساءل: أية مصلحة للذين جمعوا القرآن الكريم أن يضعوا فيه ثلاث سور قصار ليست منه في شيء، أكانوا يرمون بذلك لغرض من الأغراض التي تحمل النفوس المنحرفة على التحريف، وليس فيها ما يشوه جمال القرآن، ولا ما يتناقض مع الحكمة التي أتى بها؟!

وهل يعقل أن يفوت هذا على دقة القائمين على هذا الجمع من الأثبات الأجلاء المبشرين بالجنة؟ أم هل يعقل أن يضع المنحرفون فاتحة الكتاب، وأن يُذيِّلوه بسورتين صغيرتين، في أمة تتعبد بتلاوة ذلك الكتاب، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه، وصحبوا رسولهم في جميع أدواره؟!

هل يعقل أن يحدث هذا الأمر فلا يثير صخبًا ولا يهيج غضبًا، ويمر كأنه لم يكن في أمة دستورها هذا الكتاب وحده ومتعبدها سوره وآياته؟!

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه، فلم يُسمع له فيه زئير يدوِّي في العالم الإسلامي دوي الرعود القاصفة؟! لعلهم يقولون خشي بأس عثمان، فقد قتل عثمان، وابن مسعود حي يرزق، فلِم لم ينبِّه المسلمين إلى هذه الجناية، ويلجأ إلى خليفته ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التي ليست منه[2]؟!

الخلاصة:

- رفض ابن مسعود تسليم نسخته لعثمان ـ رضي الله عنهما ـ، لا لظنه أن نسخة عثمان غير صحيحة، وإنما لظنه أنه أحق من زيد بجمع القرآن لسابقته في الإسلام؛ على أنه قال هذا في وقت غضبه، فلما سكت عنه الغضب أدرك حسن اختيار عثمان ومن معه من الصحابة لزيد ومن معه، وندم على ما قال واستحيا منه.
- أجمع المسلمون على أن المعوِّذتين والفاتحة من القرآن، وما نُقل عن ابن مسعود من عدم إدراجه تلك السور في مصحفه لا يستلزم إنكار كونها من القرآن؛ لجواز أنه كان لا يكتبها اعتمادًا على حفظ الناس لها لا إنكارًا لقرآنيتها، فالفاتحة يقرؤها كل مسلم في الصلاة، والمعوذتان يعوِّذ بهما المسلمون أولادهم وأهليهم، وعلى فرض صحة إنكاره لهما يحمل هذا على أنه كان قبل علمه بقرآنيتهما، فلما تبين له ذلك ـ بعد أن تمَّ التواتر،

١. المرجع السابق، ص٢٢٧، ٢٢٨ بتصرف يسير.

٢. انظر: مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص٥١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٢٨،٢٢٩.

وانعقد الإجماع على قرآنيتها ـ كان في مقدمة من آمن بأنهما من القرآن.

- إن إنكار أحد من الصحابة شيئًا من القرآن ـ وهو ما لم يحدث ألبتة، ولم يثبت عن أحد منهم ـ لا يرفع التواتر المعلوم في هذا الشأن، ناهيك أن يسكت أحد من الصحابة على نسبة ما ليس من القرآن له بعد أن يثبت ذلك، فضلًا عن أن الفاتحة مما لا تخفى قرآنيتها على أحد!

الشبهة الرابعة عشرة

الزعم أن عثمان ﷺ أهان القرآن وأضرَّ بالمسلمين حين جمعهم على مصحف واحد(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقولين أن عثمان بن عفان ﷺ انفرد بقرار النَّسْخ وحده دون المسلمين، ويدَّعون أنه لم يكن هناك ما يستدعي هذا النسخ ـ بعد جمع أبي بكر ﷺ الأول ـ إلا حاجة في نفس عثمان ﷺ قضاها، ويتهمونه أنه ﷺ ارتكب ـ في سبيل رغبته تلك ـ خطأين:

الأول: أنه أهان القرآن حين أحرق المصاحف، والقرآن وحي إلهي، فكيف يجرؤ على إحراقه؟

الثاني: أنه أضر بالمسلمين حين جمعهم على مصحف واحد، جعله على لغة قريش.

ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في سلامة القرآن الكريم وحفظه.

وجها إبطال الشبهة:

١) ما فعله عثمان من جمع المسلمين على مصحف واحد وإحراق ما عداه من الصحائف كان إجراء موفقًا وضروريًّا لتيسير حفظ القرآن وتلاوته، ودَرْء الفتنة والخلاف بين القراء؛ على أن أحدًا من جماعة الصحابة لم يخالفه حين جمع ولم يعترض عليه حين أحرق ما سواه.

٢) ثمة فرق بين جمع أبي بكر ﷺ للقرآن، وجمع عثمان ﷺ المسلمين على مصحف، والواقف على دافع هذا وذاك يدرك طبيعة اختلاف تلك الدوافع في الحالتين، ويعلم ميزات الجمع الأول التي لا تلغي أهمية الجمع الثاني ولا تقلل من ميزاته وضرورته هو الآخر.

التفصيل:

أولا. لم يخرج عثمان ﷺ عن الإجماع حين نسخ المصحف الإمام:

من المعلوم أن عثمان ﷺ لم يكتب نسخته التي تُنسب إليه منفردًا، وإنما شكل لجنة من كبار أصحاب رسول الله هم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام، ولم يستبدل قرآنًا بقرآن كما يزعم الزاعمون؛ وإنما الذي قامت به اللجنة ـ بتوجيه منه ـ أنها وحَّدت قراءة القرآن الكريم بلهجة واحدة، فالقرآن نزل بلهجات العرب تيسيرًا لتلاوته وحفظه، فلما استقر حفظ القرآن وحَّد الناس على قراءة واحدة ولم يأمر بإلغاء القراءات الأخرى، بل

(*) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، إدوارد جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، مراجعة: محمد أبو ريدة، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، مرجع سابق. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر، مرجع سابق. شبهات في كتاب "القرآن وعلومه في مصر" والرد عليها، محمد عطا أحمد يوسف، مطبعة النيل، القاهرة، د. ت.

أمر بحرق النسخ الأخرى غير المجمع عليها.

وعجيب أن يتخذ بعض المغرضين من أمر عثمان ﷺ بتحريق ما عدا المصاحف التي كتبها وأرسلها إلى الأمصار ذريعة للطعن فيه، مع أنه لم يفعل ما فعل إلا بموافقة من الصحابة.

وقد كان بدهيًّا بعد أن أتم عثمان ﷺ نسخ المصاحف، وأمضاها إلى الأمصار، أن يحجب كل ما خالفها، فأمر من كان عنده شيء مِمَّا عداها من الصحف التي كانوا يكتبون فيها القرآن أن يحرقه، حتى لا يأخذ أحدٌ إلا بتلك المصاحف التي حصل عليها إجماع الصحابة، وهذا ما جاء عن أنس، قال: حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[1].

وقد اختلفت الروايات في تحديد ما فعله عثمان ﷺ بالمصاحف التي كانت عند المسلمين؛ فرواية البخاري السابقة: وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق، قال الحافظ: في رواية الأكثر: (أن يُخرق) بالخاء المعجمة. وفي رواية الإسماعيلي: (أن تمحى أو تحرق)[2]. من حديث أنس بن مالك: وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل به، فذلك زمان حُرِّقَت المصاحف بالعراق بالنار[3]. وهذه الرواية صريحة في أن ما فعلوه إنَّما هو إحراق تلك الصحف بالنار؛ إذهابًا لَها، وصونًا لها عما قد تتعرض له من كل ما لا يليق بها.

وأورد البخاري أيضًا من طريق أبي قلابة: فلما فرغ من المصحف، كتب إلى أهل الأمصار، أني قد صنعت كذا، ومحوت ما عندي، فامحوا ما عندكم، قال ابن حجر: والمحو أعمُّ من أن يكون بالغسل أو التحريق، وأكثر الروايات صريحٌ في التحريق، فهو الذي وقع، ويحتمل وقوع كل منهما بحسب ما رأى من كان بيده شيء من ذلك.

وقد جزم القاضي عياضٌ بأنَّهم غسلوها بالماء، ثم أحرقوها مبالغة في إذهابِها[4].

نخلص مما سبق أن ما صحَّ من الآثار السابقة ـ في الصحيح وغيره ـ أن عثمان ﷺ أحرق المصاحف، وأن أحدًا من الصحابة لم ينكر عليه ذلك، وقد اتفق الصحابة ﷺ مع عثمان على ما أراد من تحريق المصاحف التي كانوا يكتبونَها، فاستجابوا له وحرقوا مصاحفهم.

ويبدو أن طائفة كانت قد قالت في عثمان ما قاله أصحاب هذه الدعوى، فحذرهم علي بن أبي طالب ﷺ من أن يقولوا في عثمان شيئًا فقال: "يا أيها الناسُ، لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيرًا في المصاحف وإحراق المصاحف، فوالله ما فَعَلَ الذي فَعَلَ في المصاحفِ إلَّا عن ملأٍ منَّا جميعًا"، وقال ﷺ: "والله لو وُلِّيتُ لفعلتُ مثلَ الذي فعل"[5]. وعن مصعب بن

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢).

٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٨، ص٦٣٦.

٣. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب جمع عثمان ﷺ المصاحف، باب أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى (٥٧).

٤. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ص٦٣٦.

٥. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب جمع عثمان ﷺ المصاحف، باب لا تغلوا في عثمان ولا تقولوا له إلا خيرًا (٦٢).

سعد قال: أدركت الناس حين شقَّق عثمان ﷺ المصاحف، فأعجبهم ذلك، أو قال: لم يعِبْ ذلك أحدٌ[1].

وقد ردَّ عثمان ﷺ الصحف التي كتبت زمن أبي بكر ﷺ إلى حفصة بعد كتابة المصاحف دونما إحراق؛ كما في حديث أنس بن مالك أنه قال: حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة[2].

وإنما أبقى عثمان ﷺ تلك الصحف؛ لأنه كان قد وعد حفصة - رضي الله عنها - أن يردَّها إليها، ولأَمْنِه على تلك الصحف ما لا يَأْمَنه على غيرها؛ فعن أنس بن مالك قال: فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان"[3]. وعليه يحتمل أن يكون عثمان ﷺ أبقاها وفاء بما وعدها دون غيرها، ويحتمل أنه أبقاها لاحتمال الرجوع إليها؛ لأنَّها كانت أصلًا لمصاحفه، وانعقد عليها إجماع الصحابة، وأما غيرها فقد تكون مخالفةً لمصاحفه؛ فتكون سببًا للاختلاف.

وعن سالم بن عبد الله أن مروان بن الحكم لما تولى إمرة المدينة في خلافة معاوية ﷺ كان يُرسل إلى حفصة يسألها الصُّحف التي كُتب منها القرآن، فتأبى حفصة أن تعطيه إياها، قال سالم: فلمَّا تُوفيت حفصة ورجعنا من دفنها، أرسل مروان بالعزيمة إلى عبد الله بن عمر ليُرسِلنَّ إليه بتلك الصحف، فأرسل بِها إليه عبد الله بن عمر، فأمر بِها مروان فشُقِّقت، فقال مروان: إنَّما فعلت هذا لأن ما فيها قد كُتِب وحُفِظ بالمصحف، فخشيت إن طال بالناس زمانٌ أن يرتاب في شأن هذه الصحف مُرتابٌ، أو يقول: قد كان شيء منها لم يُكْتب[4].

وفي رواية: ففشاها وحرَّقها، مَخافة أن يكون في شيء من ذلك اختلافٌ لَمَّا نسخ عثمان ﷺ. وفي رواية: فغسلها غسلًا، ولا يبعد أن يكون مروان قد فعل بالصحف جميع ما ذكر من التمزيق والغسل والتحريق. قال ابن حجر: "ويجمع بأنه صنع بالصحف جميع ذلك من تشقيق، ثم غسل، ثم تحريق"[5].

ومن نافلة القول بيان مدلول هذه الرواية، وتقرير كونها تأكيدًا لما ارتآه عثمان ﷺ منذ رَدَح من الزمان، فلو كان فعله هذا من غير طائل، ولم يُؤْت ثماره، ولم يَجْن منه المسلمون سوى الضرر، والمصحف سوى الإهانة، لو كان هذا صحيحًا؛ فلماذا تابعه فيه غيره من الأئمة بعد وفاته وانقضاء إِمْرته؟! أليس في هذا الفعل إقرار صريح من الأمة بوجاهة ما صنع عثمان ﷺ؟! إنه تأكيد على أن في هذا ما يصون القرآن لا ما يهينه، وقد أجمعت عليه الأمة ولم يخرج على ذاك أحد، ولو حدث أن أحدًا اعترض؛ فلماذا لم يرد لنا عنه نبأ؟! وإذا كان الأمر إجماعًا

١. أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن، باب تأليف القرآن وجمعه ومواضع حروفه وسوره، أدركت الناس حين شقق عثمان المصاحف فأعجبهم (٤٦٠).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢).

٤. إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب جمع عثمان ﷺ المصاحف، باب فقلت: هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف (٦٩)، وابن كثير في فضائل القرآن، كتاب عثمان ﷺ للمصاحف (١/ ٣٩).

٥. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٨، ص٦٣٦.

من الأمة التي لا تجتمع على ضلالة كما قال النبي ﷺ نتساءل: أعلى عثمان ﷺ يتقولون؟ أم في إجماع الأمة يطعنون؟!

نخلص من هذه التساؤلات إلى أن عثمان ﷺ لم يُبقِ على نسخته الخاصة ويفضِّلها على سائر النسخ لهوىً في نفسه؛ بل كلف لجنة من كبار الصحابة، أمثال: زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن الحارث بن هشام، وقد أحسن ﷺ بذلك صنعًا. ولم يستبدل قرآنًا بقرآن وحده بمعزل عن المسلمين حسبما زعموا.

ثانيًا. مزايا جمع القرآن في عهدي أبي بكر وعثمان والفرق بين الجمعين:

كان لِجمع القرآن في عهد أبي بكرﷺ منزلة عظيمة بين المسلمين؛ وامتاز بِمزايا عديدة، منها:

١. أنه جمع القرآن على أدقِّ وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبت العلمي.

٢. حصول إجماع الأمة على قبوله، ورضي جميع المسلمين به.

٣. بلوغ ما جُمِع في هذا الجمع حدّ التواتر، إذ حضره وشهد عليه من الصحابة ﷺ ما يزيد على عدد التواتر.

٤. أنه اقتصر في جمع القرآن على ما ثبتت قرآنيته من الأحرف السبعة، بثبوت عرضه في العرضة الأخيرة، فكان شاملًا لما بقي من الأحرف السبعة، ولم يكن فيه شيء مِمَّا نُسِخَت تلاوته[1].

ولقد حظي هذا الجمع برضى المسلمين وإجماع الصحابة ﷺ ولقي منهم العناية، فقد حُفظت الصحف التي جُمع فيها القرآن عند أبي بكر ﷺ حتى وفاته، ثم انتقلت إلى عمر ﷺ حتى تُوُفِّيَ، ثم كانت بعد ذلك عند ابنته حفصة زوج رَسُول الله ﷺ، فطلبها منها عثمان ﷺ، فنسخ منها المصاحف إلى الأمصار ثم أرجعها إليها، فكانت الصحف المجموعة في عهد أبي بكرﷺ هي الأساس لنسخ المصاحف في زمن عثمان ﷺ؛ وفي هذا ما يدل على مكانة الجمع الأول، وأصالة النسخ العثماني في الوقت ذاته. قال ابن حجر: وإذا تأمَّل المنصف ما فعله أبو بكرٍ ﷺ من ذلك جزم بأنه يُعد في فضائله ويُنوِّه بعظيم منقبته؛ لثبوت قوله ﷺ: "مَن سَنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمِلَ بها بعده، كُتِبَ له مثل أجر من عمل بها"[2][3].

مزايا جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ:

كان نسخ القرآن في المصاحف في زمن عثمان بن عفان ﷺ تحقيقًا لوعد الله ﷻ بحفظ كتابه العزيز، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)، فقد وحَّد هذا الجمع صف المسلمين وكلمتهم، وردَّ عنهم ما كان محدقًا بِهم من الفتنة العظيمة، واجتث بذور الشقاق من بينهم.

ومزايا النسخ العثماني وجمع المسلمين على مصحف كثيرة، يمكن تلخيص بعضها فيما يأتي:

- مشاركة جميع من شهد الجمع من الصحابة فيه،

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص٢١١ بتصرف.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم،باب مَنْ سَنَّ سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى (٦٩٧٥).

٣. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٨، ص٦٣٦.

وإشراف الخليفة عليه بنفسه.

- بلوغ من شهد هذا الجمع وأقرّه حدّ التواتر.
- الاقتصار على ما ثبت بالتواتر، دون ما كانت روايته آحادًا.
- إهمال ما نُسِخَت تلاوته، وما لم يستقرَّ في العَرْضة الأخيرة.
- ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن بخلاف صحف أبي بكر ، فقد كانت مرتبة الآيات دون السور.
- كتابة عدد من المصاحف التي تجمع القراءات المختلفة التي نزل بها القرآن.
- تجريد هذه المصاحف من كل ما ليس من القرآن، كالذي كان يكتبه بعض الصحابة من تفسير للفظ، أو بيان لناسخ أو منسوخ، أو نحو ذلك.

ولقد حظي الجمع العثماني برضى مَن شهده من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، وقطع الله به دابر الفتنة التي كادت تشتعل في بلاد المسلمين، إذ جمعهم على ما ثبتت قرآنيته، فانتهى بذلك ما كان حاصلًا من الاختلاف بين المسلمين. وقد عُدَّ جمعُ القرآن في المصاحف في زمن عثمان من أعظم مناقبه؛ فعن عبد الرحمن بن مهدي قال: خصلتان لعثمان بن عفَّانَ ليستا لأبي بكر، ولا لِعُمَرَ: صبرُهُ نفسَه حتَّى قُتِل مظلومًا، وجمعُهُ الناسَ على المصحف[1] ®.

الفرق بين الجمعين:

من نافلة القول أن نعيد ما سبق ذكره، من أن أصل الجمعين اللَّذين حدثا في خلافتي أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان ـ رضي الله عنهما ـ كان واحدًا، هو الوثائق الخطية التي حُرِّرت في حضرة النبي ﷺ إملاءً من فمه الطاهر على كَتَبَة الوحي، ثم تلاوتها عليه، وإقرارها كما تليت عليه، وهي التي نراها الآن في المصحف الشريف المتداول بين المسلمين لم تدخل عليها أية تعديلات.

وكان الهدف من الجمع الأول في خلافة أبي بكر هو جمع تلك الوثائق المتفرقة في مكان واحد منسقة السور والآيات، دون نقلها في مصحف حقيقي جامع لها، فهذا الجمع بلغة العصر مشروع جمع لا جمع حقيقي في الواقع؛ ولهذا عبَّر عنه أحد العلماء بأنه أشبه ما يكون بأوراق وجدت متفرقة في بيت النبي ﷺ فربطت بخيط واحد، مانع لها من التفرق مرة أخرى.

أما الجمع في خلافة عثمان نسخًا ونقلًا لما في الوثائق الخطية، التي حررت في حياة النبي ﷺ وأقرها بعد تلاوتها عليه، وجمعها في مصحف واحد في مكان واحد، وإذا شبَّهنا الوثائق الأولى بقصاصات ورقية مسطر عليها كلام، فالجمع في خلافة عثمان هو نسخ ذلك الكلام المفرق في القصاصات في دفتر واحد ويمكننا أن نجمل أسباب ذلك الجمع ـ التي تقف بنا على أهميته ـ فيما يأتي:

- توحيد المصحف الجماعي واستبعاد مصاحف الأفراد؛ لأنها لم تسلم من الخلل. وقد تم ذلك على خير وجه.
- القضاء على القراءات غير الصحيحة، وجمع

---

١. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، باب اتفاق الناس مع عثمان على جمع المصاحف، خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر (٣٦).

® في "**جمع القرآن في عهد عثمان وأسبابه**" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء. والوجه الأول، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢).

الناس على القراءات الصحيحة التي قرأ بها النبي ﷺ في العرضة الأخيرة على جبريل عليه السلام في العام الذي توفي فيه.

- حماية الأمة من التفرق حول كتاب ربها، والقضاء على التعصب لقراءة بعض القراء على قراءة قراء آخرين.

وفي جميع الأزمنه فإن القرآن يؤخذ سماعًا من حُفَّاظ مجوّدين متقنين، ولا يؤخذ عن طريق القراءة من المصحف؛ لأن الحفظ من المصحف عُرْضة لكثير من الأخطاء، فالسماع هو الأصل في تلقي القرآن وحفظه؛ لأن اللسان يحكي ما تسمعه الأذن؛ لذلك نزل القرآن ملفوظًا ليُسْمع، ولم ينزل مطبوعًا ليقرأ.

نعود فنقول: إن الفرق بين الجمعين حاصل من وجهين:

الأول: طبيعة الجمع وما تم فيه، فجمع أبي بكر رضي الله عنه كان تنسيقًا للوثائق الخَطِّية التي حُرِّرت في حياة النبي محمد ﷺ على صورتها الأولى حسب ترتيب النزول سورًا وآيات. وجمع عثمان رضي الله عنه كان نقلًا جيدًا لما في الوثائق الخطية في مصحف واحد أُطْلق عليه: "المصحف الإمام".

الثاني: من حيث الهدف من الجمع وهو في جمع أبي بكر الصديق رضي الله عنه: حفظ الوثائق النبوية المفرقة في نسق واحد مضمومًا بعضها إلى بعض، منسقة فيه السور والآيات كما هي في الوثائق، لتكون مرجعًا حافظًا لآيات الذكر الحكيم، وهو في جمع عثمان بن **عفان** رضي الله عنه: جمع الأمة على القراءات الصحيحة التي قرأها النبي ﷺ في العرضة الأخيرة على جبريل عليه السلام، أما المتون ـ النصوص ـ التي نزل بها الوحي الأمين فظلت على صورتها الأولى، التي حُررت بها في حياة النبي ﷺ.

فالجمعان البكري والعثماني شكّلا منظومة بالغة الإحكام والدقة في تحقيق مقتضى قوله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحجر)، ولكل منهما طبيعته وأهدافه التي وُفِّق لتحقيقها[1]، وإقرارنا بميزات الأول لا يلغي أهمية الثاني، وتعديد آثار الثاني لا ينكر فضل الأول؛ فكلاهما أحسن للمسلمين وما أضر، وصان القرآن الكريم ولم يُهن، وليس من العرفان أن نقابل الإحسان ـ من هذا الجيل الفريد الذي أقام من نفسه سدنة قائمين بأمر الله تبارك وتعالى ـ بغير الإحسان، فإن كانوا خلوا من قبلنا ودالوا فليبق فينا حسنهم وطيب ذكرهم جزاء ما قدموا، والشاعر يقول:

تَدُوْلُ أَحادِيْثُ الرِّجالِ وتَنْقَضِي

وَيَبْقَى حَدِيْثُ الفَضْلِ والحَسَناتِ

الخلاصة:

- اختلف المسلمون في عهد عثمان رضي الله عنه في قراءة القرآن؛ نظرًا لدخول عدد كبير من غير العرب إلى الإسلام، واختلاف القراء واللهجات مما كان فيه خطر كبير على القرآن الكريم.

- قام عثمان رضي الله عنه بنسخ الصحف التي كانت عند أم المؤمنين حفصة إلى سبعة مصاحف بالاستعانة بزيد بن ثابت، وبعض الصحابة، وأوصى برد المختلف فيه إلى لهجة قريش؛ لأنه نزل عليهم، وبهذا وحّد المسلمين على

---

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود زقزوق، مرجع سابق، ص٢٢: ٢٤ بتصرف.

مصحف واحد، ونسق واحد، وأمر بإحراق ما عدا ذلك من الصحف.

- ذكر المؤرخون والمفسرون في جمع عثمان للقرآن على نسق واحد، أنه كان عملًا حاسمًا للفتنة، وحافظًا للقرآن من عهده وحتى عصرنا الحاضر، ولم ينفرد بالنسخ وحده، بل شكل لجنة من الصحابة وأشرف عليهم بنفسه، ولم يخرج عليه أحد حين أحرق باقي النسخ، ولو كان في ذلك ما يهين المصحف أو ما يضر عامة المسلمين لما أجمع الصحابة الكرام عليه.
- العلة من حرق عثمان ﷺ للنُّسخ الأخرى هي توحيد المسلمين على نسخة واحدة يرجعون إليها إذا اختلفوا في قراءة القرآن لتجميع شملهم وتوحيد كلمتهم، وهذا تصرف حكيم من عثمان ﷺ عند من يفهم بحق لماذا صنعه، أما المغرض فلا يرى في الحق حقًّا ولا يقدر لصاحب الخير خيره، فعثمان ﷺ قضى على الفتنة في مهدها وحفظ كيان الأمة بحفظ أسباب وحدتها إلى يوم القيامة.
- ثمة فرق بين طبيعة الجمع البكري والجمع العثماني من جهة، والدافع وراء كل منهما من جهة ثانية، والهدف المرتجى من جهة ثالثة، وكل هذه الفروق من شأنها أن تُبيِّن ضرورة الجمع العثماني واستكمال منظومة الحفظ.
- إننا لا ننكر مزايا الجمع البكري لكننا في الوقت ذاته نقر بأهمية الجمع العثماني، ونحن إذ نعدِّد عظيم آثاره وبالغ نفعه بالمسلمين والقرآن لا نجحد فضل المرحلة السابقة عليه (الجمع البكري).
- كان من الأولى بهؤلاء - لو أنصفوا - أن يعترفوا بالجهد الذي بذله عثمان ﷺ في هذا الشأن ويعدوه منقبة من مناقبه - وغني ذو النورين عن اعترافهم - بدلًا من أن يتخذوه مطعنًا عليه مخالفين بذلك حقائق التاريخ الثابتات.

الشبهة الخامسة عشرة

ادِّعاء أن السيدة عائشة خطَّأت كُتَّاب القرآن في بعض الآيات (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتقولين أن بعض كُتَّاب الوحي أثبتوا في المصحف - على سبيل الخطأ - ما خالف قواعد اللغة، ويستدلون على ذلك بأن السيدة عائشة حينما سئلت عن قوله ﷻ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ (طه: ٦٣)، وعن قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ (المائدة: ٦٩)، وعن قوله ﷻ: ﴿ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (النساء:١٦٢) قالت: هذا خطأ من الكاتب.

ويرمون من وراء ذلك إلى وصم كتبة الوحي بما لم يكن منهم من كتابة ما خالف اللغة على أنه قرآن؛ وذلك بغية الطعن في سلامة القرآن الكريم.

وجه إبطال الشبهة:

هذه الرواية غير صحيحة عن عائشة - رضي الله

(*) مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، مرجع سابق.

عنها ـ، وعلى فرض صحتها لا يُعمل بها؛ لأنها رواية آحاد[1] مخالفة للمتواتر القطعي، والآحاد إن خالف المتواتر القطعي لا يُستدلُّ به. ثم إن الآيات المذكورة صحَّت بها القراءة وتواترت، ولها أوجه في قراءتها، وكلها جارٍ على القواعد العربية، وكل منها له توجيه سديد.

التفصيل:

الرواية المستدل بها لا أصل لها، والآيات المذكورة صحَّت قراءاتها وكلها جارٍ على قواعد اللغة العربية:

هذه الرواية لا أصل لها، ولم تثبت عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولا غيرها، وعلى فرض صحتها فهي رواية آحاد، وهي معارضة للقطعي الثابت بالتواتر؛ فهي باطلة لا يثبت بها قرآن ولا ينفى بها قرآن، ومعلوم أن من قواعد المحدثين أن مما يدرك به وضع الخبر، ما يؤخذ من حال المروي، كأن يكون مناقضًا لنص القرآن أو السنة أو الإجماع القطعي أو صريح العقل؛ حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل.

أما آية: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ فالذي نص عليه أئمة الرسم والقراءة أن "هذان" لم تكتب في المصحف العثماني بالألف ولا الياء، وذلك يحتمل وجوه القراءات المتواترة كلها، وهذا من أسرار الرسم العثماني، فنسبة الخطأ إلى الكاتب غير معقول.

وإنما المعقول أن تُخَطِّئَ السيدةُ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ من يقرأ "إنَّ " بتشديد النون، و"هذان" بالألف، وأما من يقرأ بتشديد النون "إن" وبالياء في "هذين"، أو بتخفيف النون "إن" وبالألف في "هذان" فلا وجه في تخطئته، وهذا يلقي الضوء على اختلاق هذه الرواية على عائشة رضي الله عنها وغيرها، وأنها من وَضع مشكِّكي المسلمين في كتابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد قرئ هذا الجزء من الآية بسبع قراءات متواترة وبيانها كما يأتي:

- قرأ أبو عمرو: "إنَّ هذين لساحران" بتشديد النون في "إن" وبالياء في "هذين"، وهذه القراءة الثابتة قد سلمت من مخالفة المصحف الشريف، وجرت في الإعراب على قواعد النحو العربي المعروفة، فلا إشكال فيها أصلًا.
- وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص عنه: "إنْ هذان" بتخفيف النون في "إن" وبالألف في "هذان"، غير أن ابن كثير يشدد نون "هذان"، وهذه القراءة أيضًا سلمت من مخالفة الرسم العثماني، ومن مخالفة العربية، ووجه موافقتها للغة أن: "إنْ " مخففة مهملة، والجملة بعدها مبتدأ وخبر مرفوعان.
- وقرأ الباقون " إنَّ هذان لساحران" بتشديد نون "إنَّ " وبالألف في "هذان" وهي موافقة للرسم العثماني، ولكنها مشكلة في الإعراب، وهذه القراءة هي التي زعم الزاعمون، أنها خطأ ونسبوا ذلك زورًا إلى السيدة عائشة، وهذه القراءة لها وجوه صحيحة في العربية، وقد أفاض في بيانها العلماء، وأحسن هذه الوجوه وأجودها أنها جارية على لغة بعض العرب في إلزام المثنى الألف في جميع حالاته، وهي لغة لكنانة، ولبني الحارث بن كعب، والخثعم، وزبيد، ومراد.. وغيرهم ولذلك

---

[1] . الآحاد: بالمد والتحريك من الواحد. وحديث الآحاد: الحديث الذي لم تبلغ طُرُقُه حدَّ التواتر.

شواهد من الشعر العربي مثل قول الشاعر:

واهًـا لِسَلْمَى ثُـمَّ واهًـا واهَـا

يـا لَيْـتَ عَيْناهـا لَـنَا وفاهَـا

ومَوْضِعَ الخَلْخالِ مـن رِجْلاهَـا

بِـثَمَنٍ نُـرْضِي بِـهِ أباهَـا

إنَّ أباهَـا وأبـا أباهَـا

قَـدْ بَلَغـا في المَجْـدِ غايَتاهَـا

وقد اعتبر العلامة ابن هشام النحوي هذه القراءة أقيس، إذ الأصل في المبني أن لا تختلف صيغته، مع أن فيها مناسبة لألف "ساحران".

أما زعمهم أن عائشة - رضي الله عنها - قالت في قوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ١٦٢) خطأ من الكاتب، فلا يصح مثل هذا الكلام عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - وهي من الفصاحة بمكان، والآية من قبيل النعت المقطوع، وقطع النعوت مشهور في لسان العرب الفصحاء، وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره، وعلى القطع خرَّج سيبويه ذلك.

وأما قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المائدة)، فله وجوه صحيحة في العربية.

وأوضح هذه الوجوه وأظهرها أن يكون "والصابئون" مبتدأ مقدم من تأخير، وخبر "إن" قوله "من ءامن..." إلى آخر الآية، ويكون خبر "الصابئون" محذوف لدلالة خبر "إن" عليه، والتقدير: والصابئون والنصارى كذلك[1].

الخلاصة:

- إن الرواية - مناط الاستدلال - لا أصل لها، ولم تثبت عن عائشة - رضي الله عنها - ناهيك أنها - على فرض ثبوتها - رواية آحاد تخالف المتواتر القطعي، وهي في هذه الحال لا يعمل بها - كما يقول المحدثون - ولا يستند إليها.
- لقد قُرِئَت هذه الآية ﴿إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ﴾ بثلاثة أوجه في القراءات السبع المتواترة، ولكل منها توجيه سديد في اللغة وجارٍ على قواعد النحو العربي.
- لا يصح أن السيدة عائشة خطَّأت كتَّاب الآيات في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المائدة)، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (النساء: ١٦٢)؛ لأن المعرفة بقواعد اللغة تنفي نسبة هذا القول لعائشة رضي الله عنها ومن له بالعربية نظر - وللسيدة عائشة رضي الله عنها، من الفصاحة ما لها - يدرك أنهما من قبيل النعت المقطوع، وقطع النعت عن المنعوت باب مشهور في اللغة العربية.

---

١. انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص٣١٨، ٣١٩. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣٧٣: ٣٧٥.

الشبهة السادسة عشرة

دعوى شهادة بعض الصحابة بوقوع التحريف في القرآن(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن قد تعرض لشيء من التحريف بالحذف، مستدلين على ذلك بحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ "كان فيما أُنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، ثم نُسخن بخمسٍ معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهُنَّ مما يُقرأ من القرآن"، ويتساءلون: أين هذه الآيات ؟ كذلك أين آية الرجم؟[1] ويَدَّعُون أن سورة الأحزاب كانت تُقرأ في زمن النبي مائتي آية، فلما كتب عثمان المصحف، لم يقر منها إلا ما هو الآن "سبع وسبعون آية". قائلين: أن في هذا دليلًا على تحريف عثمان للمصحف.

وجها إبطال الشبهة:

١) إن رواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي يستشهد بها هؤلاء هي رواية آحادية، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وغاية ما تدل عليه أنها خبر لا قرآن، وعلى فرض أنها قرآن فقد نُسخ لفظه وحكمه، ولا يجوز كتابتها في المصحف، أو اعتبارها قرآنًا.

٢) لا يُعقل أن يحذف شخص ـ أيًا كانت سلطته ـ حرفًا واحدًا من القرآن دون اعتراض أحد من الصحابة، أما آية الرجم تلك فهي خبر آحاد لا يثبت به قرآن، وهي لا تعدو أن تكون حديثًا أو قرآنًا نُسخ لفظه وبقي حكمه.

التفصيل:

أولا. إن غاية ما تدل عليه رواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن آية الرضاع خبر لا قرآن، وعلى فرض كونها قرآنا فقد نسخت لفظًا وحكمًا:

استغلَّ المغالطون لإثبات وقوع التحريف في مصحف عثمان ؓ قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "كان فيما أُنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرِّمن، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن"[2]. وكذلك ما ذكره عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة أنها قالت: "لقد نزلت آية الرجم ورضاعة الكبير عشرا، ولقد كان في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ وتشاغلنا بموته، دخل الداجن[3] فأكلها"[4].

وهذا يعني في زعمهم أن القرآن الذي بين أيدينا الآن غير مكتمل، إذ سقطت منه آيات الرضاع تلك.

ونحن نجيبهم بأن ما يستدلون به من قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ وإن كان صحيحًا فهو لا يعد دليلًا على نقصان القرآن الكريم، ونترك تفصيل ذلك للدكتور محمد بن محمد أبو شهبة الذي يقول معلِّقًا على قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ السابق: " إن هذه الرواية

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

١. الرجم: رجم الزاني: رميه بالحجارة حتى الموت، وذلك إذا كان مُحْصَنًا، وهو حدٌّ من حدود الله، له شروط وأحكام يرجع إليها في مظانها في كتب الفقه.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات (٣٦٧٠).

٣. الداجن: هو ما يألف البيوت من شاة أو حمام.

٤. حسن: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب رضاع الكبير (١٩٤٤)، وأبو يعلى في مسنده، تابع مسند عائشة رضي الله عنها (٤٥٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١٩٤٤).

مهما صحت فهي آحادية لا يثبت بها قرآن؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، ثم هي أيضًا لا تعارض القطعي الثابت بالتواتر، وهو القرآن الذي بين أيدينا اليوم، وغاية ما تدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن.

قال ابن حجر في معرض ذكر ما يقوّي مذهب الجمهور القائلين بتحريم قليل الرضاع وكثيره: "وأيضًا فقول عائشة: عشر رضعات معلومات ثم نسخن بخمس معلومات، فمات النبي ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن - لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قول الأصوليين؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والراوي روى هذا على أنه قرآن لا خبر، فلم يثبت كونه قرآنًا، ولا ذكر الراوي أنه خبر ليُقبل قوله فيه، والله أعلم"[1].

ومما يدل على أنه ليس قرآنًا، وأنه كان تشريعًا ثابتًا بالسنة ثم نُسخ بالسنة - اختلاف الرواية عنها في القدر المحرِّم، ففي رواية الموطأ عنها: عشر رضعات، وعنها أيضًا سبع رضعات، أخرجه ابن أبي خيثمة بإسناد صحيح عنها، وعبد الرزاق أيضًا، وجاء عنها أيضًا: خمس رضعات، وهي مما يدل على أنه كان باجتهاد منها استندت فيه على ما ظهر من السنة، ولو كان قرآنًا لما نقل عنها كل هذا الاختلاف.

واعترض أصحاب مالك على الشافعية - يعني القائلين بأن لا حرمة إلا بالخمس - بأن حديث عائشة هذا لا يحتج به عندكم، وعند محققي الأصوليين؛ لأن القرآن لا يثبت بخبر الواحد، وإذا لم يثبت قرآنًا لم يثبت خبر الواحد عن النبي ﷺ؛ لأن خبر الواحد إذا توجه إليه قادح يُوقَفُ عن العمل به، وهذا إذا لم يجئ إلا بآحاد مع أن العادة مجيئه متواترًا توجب ريبة، والله أعلم[2].

وهكذا يتبين لنا إجماع الأئمة على أنه ليس بقرآن قط، وأقصى درجاته أن يكون خبرًا صحيحًا.

أما رواية أكل الداجن فهي مردودة متهافته، وليس أدل على هذا من أن القرآن كان محفوظًا في الصدور، فضياع صحيفة منه - فرضًا - لا يؤثر في ثبوت قرآنيته ما دامت تحفظه الكثرة الكاثرة من المسلمين، ثم إن القرآن كان مكتوبًا في العسب والرقاع والعظام وصحائف الحجارة، ومثل هذه الأشياء مما لا يتيسَّر في العادة للداجن أن تأكله، لا سيما والرواية لم تعيِّن لنا نوع هذا الداجن، أهو شاة أم حمام أم غيرهما.

فإن قال قائل: فكيف يتفق ما ذهب إليه من تأويل وما ثبت في الرواية من قولها: "كان فيما أُنزل من القرآن".

قلت - ولا يزال الكلام للدكتور أبو شهبة -: المراد كان فيما نزل من شرح القرآن وبيانه، ولا شك أن السنة شارحة للقرآن ومبينة له، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل: ٤٤). وأيضًا فإن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن، ويكون الأمر من نسخ السنة بالسنة، ويكون قولها في الحديث: "فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ في القرآن"، أي: من حكم القرآن على أنه سنة لا قرآن، ولا شك أنهم كانوا يعنون بحفظ السنة أيضًا، أو يكون المراد وهن مما يعلم

١. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٩، ص٥١

٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٩٥، ٢٩٦.

من أحكام القرآن.

وللحديث تأويل آخر، وهو أنه يُحمل على أنه كان قرآنًا ثم نُسخ لفظه وبقي حكمه، وبعد النسخ لم يعد يسمَّى قرآنًا ولا له حكمه، فإن قيل: هذا تأويل مقبول لولا ما يعارض من قولها: "فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن" قلنا: إن غرضها الإخبار بأن هذا النسخ لم يقع إلا قبيل وفاة النبي ﷺ فعلم بالنسخ الكثيرون، وتركوا القراءة به، ولم يعلم بعضهم فبقوا على القراءة حتى تيقنوا فيها بعد نسخه فتركوا القراءة به، قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدًّا، حتى إنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ويجعلها قرآنًا متلوًّا لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يُتْلَى[1].

هذا وإن كان الرأي الأول هو الأرجح وهو أن آيات الرضاع ليست من القرآن، ويؤيد هذا الرأي أنها لو كانت من القرآن لما وقف العلم بها عند عائشة - رضي الله عنها - فحسب، يقول صاحب المنار: "لو صح أن ذلك قرآنًا يتلى لما بقي علمه خاصًّا بعائشة، بل كانت الروايات تكثر فيه، ويعمل به جماهير الناس، ويحكم به الخلفاء الراشدون؛ وكل ذلك لم يكن"[2].

ثانيًا. إن آية الرجم لا تعدو أن تكون حديثًا، أو قرآنًا نُسِخَ لفظه وبقي حكمه:

أما بالنسبة لما يدَّعيه هؤلاء من إسقاط بعض آيات سورة الأحزاب ومِنْ ضمْنِهَا آية الرجم من المصحف العثماني، واستدلالهم على ذلك بقول عمر بن الخطاب ﷺ: "إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها ووعيناها - رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحَبَلُ أو الاعتراف"[3].

وكذلك بما جاء عن زر بن حبيش أنه قال: قال لي أُبي بن كعب: "كأين تقرءون سورة الأحزاب؟ قال: قلت: إما ثلاثًا وسبعين وإما أربعًا وسبعين، قال: أقط إن كانت لتقارب سورة البقرة أو لهي أطول منها، وإن كانت فيها آية الرجم، قال: قلت: أبا المنذر، وما آية الرجم؟ قال: إذا زنا الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم"[4].

ولإبطال دعواهم تلك يقول د. أبو شهبة: وأما الروايات عن عمر ﷺ فهي صحيحة ولا شك، وليس من الصواب ولا البحث العلمي الصحيح رد روايات صحيحة بمجرد الهوى، ولكن الواجب أن نحملها على محاملها الصحيحة من غير تعسف ولا تكلف، فما هي

١. المرجع السابق، ص٢٩٦، ٢٩٧.

٢. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت، ج٤، ص ٤٧٢.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت (٦٤٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا (٤٥١٣).

٤. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في المصنف، كتاب الطلاق، باب الرجم والإحصان (١٣٣٦٣)، وأحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث زر بن حبيش عن أبي بن كعب ﷺ (٢١٢٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١٣).

المحامل الصحيحة لهذا الحديث؟ نقول: إن هذه الروايات آحادية فهي لا يثبت بها قرآن، ولا تُعارِضُ القطعي الثابت بالتواتر، وغاية ما تدل عليه أنها حديث من أحاديث رسول الله، وسنة من سننه، ولا ينافي هذا قول عمر ﷺ: "وكان فيما أنزل عليه" فإن جبريل ـ كما ذكرنا ـ كان ينزل ببعض السنة كما ينزل بالقرآن، وتسميتها آية بالمعنى اللغوي لا الاصطلاحي.

وكذلك قوله: "فقرأناها ووعيناها"، فالمراد به نرويها عن رسول الله ـ فعبر عن الرواية بالقراءة، ومنه يقال: فلان يقرأ الحديث والسنن على فلان، ويكون قوله: "والرجم في كتاب الله حق"، أي في شرع الله وحكمه وتقديره، أو يكون المراد به الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ (النساء).

فقد بيَّنت السنة أن المراد جَلْد البِكْر ورَجْم الثَّيِّب، ويؤيد هذا التأويل قول الفاروق ﷺ: لولا أن يقال زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في المصحف؛ إذ لا يقال زاد لما عرف أنه منه، لكنه لما كانت عنده سنة مؤكدة وحكمًا لازمًا حث على حفظها وقراءتها ودراستها، حتى لا يغفل الناس عنها، كما حث على حفظ أي القرآن.

والذي يؤكد هذا التأويل ما ورد عن عمر أنه قال: هممتُ أن أدعو بنفر من المهاجرين والأنصار، معروفة أسماؤهم وأنسابهم، وأكتب شهادتهم في ناحية المصحف أي حاشيته، هذا ما شهد عليه عمر بن الخطاب وفلان وفلان يشهدون أن رسول الله ﷺ رجم في الزنا، وإني خفت أن يجيء قوم من بَعْدُ يرون أن لا يجدونها في كتاب الله فيكفرون بها، وعمر ﷺ ما كان يخشى في الحق لومة لائم، فلو أنها كانت من القرآن لأثبتها، ولما خاف مقالة الناس، وكونه هَمَّ أن يكتبها في الحاشية لا في الصُّلْب دليل على أنها ليست قرآنًا.

قال العلامة الألوسي عند تفسير قوله ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢): إن الجلد نُسخ في حق المحصن قطعًا؛ لأن الحكم في حقه الرجم واختلف في الناسخ هل هي السنة القطعية، أو ما ذكره عمر ﷺ من الآية المنسوخة "الشيخ والشيخة" قال العلامة ابن الهمام: إن كون السنة القطعية أولى من كون ما ذُكِر من الآية، لعدم القطع بثبوتها قرآنًا ثم نسخ تلاوتها، وإن ذكرها عمر وسكت الناس، فإن كون الإجماع السكوتي حجة ـ مختلف فيه، وبتقدير حجيته، لا نقطع بأن المجتهدين من الصحابة ﷺ كانوا إذ ذاك حضورًا، ثم لا شك في أن الطريق في ذلك إلى عمر ظني، ولهذا ـ والله أعلم ـ قال علي ﷺ، حين جلد شُراحة ثم رجمها: قال "جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ"، ولم يعلل الرجم بالقرآن المنسوخ.

ويؤيد هذا التأويل أيضًا ما جاء عن مروان بن الحكم أنه قال لزيد بن ثابت: ألا تكتبها في المصحف؟ قال: لا، ألا ترى بأن الشابين الثيبين يُرْجَمان، ولقد ذكرنا ذلك فقال عمر: أنا أكفيكم؛ فقال: يا رسول الله، أكتبني آية الرجم؟ قال: "لا أستطيع"[1].

وإن نظرة فاحصة في "الشيخ والشيخة... إلخ" لترينا أنها ليس عليها نور القرآن ومسحته، ولا فيها حكمته وإعجازه، وإن قول زيد ﷺ: ما يشير إلى عدم

١. أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب الرجم، باب نسخ الجلد عن الثيب (٧١٤٨)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب الحدود، باب ما يستدل به على أن السبيل هو جلد الزانيين ورجم الثيب (١٦٦٩٠).

بلوغها الغاية في الدقة والإحكام، كما هو الشأن في القرآن، وهذا يدل على فرق ما بين كلام الله وكلام الإنسان.

إن هذه الآية كانت قرآنًا ثم نسخ لفظها وبقي حكمها، قال الإمام النووي رحمه الله: أراد بآية الرجم "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة"، وهذا مما نسخ لفظه ليس له حكم القرآن في تحريمه على الجنب ونحو ذلك، وفي ترك الصحابة كتابة هذه الآية دلالة ظاهرة على أن المنسوخ لا يكتب في المصحف، وبنحو ذلك قال ابن كثير في تفسيره والحافظ ابن حجر في الفتح.

ولعل السر في نسخ لفظها عدم إحكام معناها، وأن العمل على غير الظاهر من عمومها؛ فقد ذكر الحاكم عن عمر أنه قال: لما نزلت أتيت النبي ﷺ فقلت أكتبها؟ فكأنه كره ذلك، فقال عمر: ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد، وأن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم، هذا إلى ما في ظاهرها من تجرئة الشاب على الوقوع في الزنا؛ إذ الشأن في الكبير والكبيرة البعد عن مواطن الإثم والفجور فاقتضت حكمة الله تنزيه الأسماع عن سماعها، وهذا الجواب الثاني إنما يتم بعد تسليم قرآنيتها، وقد خالف في هذا كثير من العلماء[1].

هذا بالنسبة لآية الرجم، أما عن سائر الآيات التي يزعم هؤلاء أنها سقطت من سورة الأحزاب، وعددها كما يزعمون مائة وثلاث عشرة آية، فلا بد أن ننبه أن رواية عمر الصحيحة لم يرد بها أي ذكر لتلك الآيات، وأنها وردت في رواية أبي بن كعب التي سبق ذكرها وفيها: أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة، وهي رواية صحيحة أيضًا، ولكن المقصود من كلام أُبي ؓ ـ وهو من أعلام القراء ومن مشاهير الحفَّاظ من جيل الصحابة ـ أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في أول الأمر، ثم نُسخت ولم يبق منها إلا ما هو موجود بأيدي الصحابة، ولولا ذلك لما سكت أُبي وغيره من الصحابة على حذف حرف واحد، ناهيك عن هذا القدر العظيم.

والواضح من كلام أُبي أنه مقام بيان لما نُسخ وليس استنكارًا لضياع أو حذف جزء من القرآن، ويدل على هذا الذي بيَّناه أن البخاري كتب في ذلك بابًا في صحيحه سمَّاه: باب من قال لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين... ثم ذكر حديثًا عن عبد العزيز بن رُفيع قال: دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال له شداد بن معقل: أَتَرَكَ النبي ﷺ من شيء؟ قال: ما ترك إلا ما بين الدفتين. قال: ودخلنا على محمد بن الحنفية فسألناه، فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين". وعلَّق ابن حجر على ترجمة البخاري للباب بقوله: قوله ـ أي البخاري ـ: باب من قال: لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين. أي: ما في المصحف.

وليس المراد أنه ترك القرآن مجموعًا بين الدفتين؛ لأن ذلك يخالف ما تقدم من جمع أبي بكر ثم عثمان. وهذه الترجمة للرد على من زعم أن كثيرًا من القرآن ذهب لذهاب حَمَلَته... ووقع عند الإسماعيلي: "لم يدع إلا ما في هذا المصحف"، أي: لم يدع من القرآن ما يتلى إلا وهو داخل المصحف الموجود... إلى أن قال: ويؤيد

1. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣٠٠: ٣٠٤ بتصرف.

ذلك ما ثبت عن جماعة من الصحابة من ذكر أشياء نزلت من القرآن فنُسِخت تلاوتها وبقي حكمها أو لم يبق، مثل حديث عمر: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة"، وحديث أنس في قصة القُرَّاء الذين قُتِلوا في بئر مَعُونة، قال: فأنزل الله فيهم قرآنًا: "بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا"، وحديث أبي بن كعب: "كانت الأحزاب قدر البقرة"، وحديث حذيفة: "ما يقرءون ربعها"، يعني: براءة. وكلها أحاديث صحيحة، وقد أخرج ابن الضريس من حديث ابن عمر أنه: "كان يكره أن يقول الرجل: قرأت القرآن كله، ويقول: إن منه قرآنًا قد رُفِع"، وليس في شيء من ذلك ما يعارض حديث الباب؛ لأن جميع ذلك مما نُسِخت تلاوته في حياة النبي ﷺ[1]؛ إذ لا يُعقل أن يقوم شخص - أيًّا كانت سلطته - بحذف حرف واحد من القرآن الكريم ولا يعترض على ذلك أحد من الصحابة؟

وبعد هذا البيان يحق لنا أن نقول بكل زهو وثقة: إن القرآن الذي جُمع في عهد عثمان ﷺ، الذي هو بين أيدينا الآن هو كل القرآن الذي أنزله الله ﷻ على عبده محمد ﷺ لم تنله يد بزيادة أو نقصان ولو بحرف واحد منه، ولِمَ لا؟ وقد وعد الله بحفظه في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر)، وكما شهد المسلمون وأجمعوا على هذا الحفظ، شهد أيضًا المنصفون من غير المسلمين.

أكد "لوبلوا": أن القرآن هو الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه تغيير يُذكر، وقال "و. موير": إن المصحف الذي جمعه عثمان قد تواتر انتقاله من يد ليد حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حُفِظَ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النُسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة...

فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الاجتماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزّل الموجود معنا، والذي يرجع إلى الخليفة عثمان بن عفان، الذي مات مقتولًا[2].

الخلاصة:

- إن التواتر قد قام والإجماع قد انعقد، والصحابة تحروا الدقة فيما جمعوا من القرآن، فَعُلم أن ما بين دفتي المصحف هو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان.
- إن قول عائشة - رضي الله عنها -: " كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات.. إلخ" لا يُعد دليلًا على نقصان القرآن الكريم، إذ إن هذه الرواية - على الرغم من صحتها - آحادية، والقرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وغاية ما تدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن.
- على فرض أن آية الرضاع من القرآن، فقد نسخت في آخر عهد النبي ﷺ ولا يجوز كتابتها في المصحف أو اعتبارها قرآنًا.

١. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٨، ص٦٨٣.

٢. مدخل إلى القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، مرجع سابق، ص٤٢.

- إن روايات آية الرجم آحادية ولا يثبت بها قرآن، وغاية ما تدل عليه أنها حديث من أحاديث رسول الله، وسنة من سننه، أما إذا افترضنا كونها قرآنا فهي أيضًا مما نسخ لفظًا وَبَقِي حكمًا، ولا يجوز كتابتها في المصحف أو اعتبارها قرآنًا.

- لا يُعقل أن يقوم أحد - حتى ولو كان خليفة المسلمين - بحذف حرف واحد من القرآن، ولا يحاسبه أحد، ولا يعترض عليه معترض من الصحابة، بل لا يجرؤ أحد على ذلك، فما بالنا إذا علمنا أن جمهور الصحابة قد أيدوا عثمان ﷺ فيما فعل، وأثنوا على عمله أشد الثناء.



المحور الثاني

شبهات حول الناسخ والمنسوخ وتعدد القراءات في القرآن

الشبهة السابعة عشرة

إنكار وقوع النسخ في القرآن (*) ®

مضمون الشبهة:

ينكر بعض الناس وقوع النسخ في القرآن؛ لأن النسخ بَداء، والبَداء: ظهور ما كان خافيًا على المشرِّع من قبل معرفته وإدراكه، أي: ظهور قصور الحكم عند التطبيق، فهو علم بعد جهل، وهو محال على الله تعالى، ويستدلون على ذلك بأن الجائز العقلي لا يستلزم الوقوع الفعلي، ردًّا على من قال بجواز النسخ عقلًا. ومن هنا أَوَّلُوا الآيات التي تدل على وقوع النسخ في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (النحل). ويرمون من وراء ذلك إلى إنكار ما اقتضاه النسخ من تدرج تشريعي، توصُّلا إلى الطعن في نصوص القرآن الناسخة والمنسوخة، ومن ثم الطعن في سلامة القرآن.

وجوه إبطال الشبهة:

١) النسخ لغةً: الإزالة والنقل. وشرعًا: رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه لحكمة أرادها الله ﷻ، وهو واقع في القرآن الكريم، وقد توافرت على ذلك الأدلة العقلية والنقلية، وهو يختلف تمامًا عن البَداء الذي يعني إدراكًا وعلمًا يسبقه جهل وخفاء، وهو محال على الله تعالى.

٢) أنواع النسخ في القرآن ثلاثة، هي: نسخ الحكم والتلاوة معًا، ونسخ التلاوة دون الحكم، ونسخ الحكم دون التلاوة؛ وشروطه: أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًّا، وألا يكون مقيدًا بزمان، وأن يكون الناسخ خطابًا شرعيًّا.. إلخ.

٣) لا يقع النسخ في الكليات ولا الضروريات ولا التحسينات. كما أن النسخ في القرآن وراءه حِكَمٌ كثيرة، منها: مراعاة مصالح العباد، و تدرج التشريع الإلهي إلى مرحلة الكمال...

٤) النسخ واقع في الكتب المقدسة السابقة للإسلام، وهو واقع بنوعيه: نسخ شريعة لاحقة لشريعة سابقة، وفي الشريعة الواحدة نفسها، فلماذا يُنكر وقوعه في القرآن وقد دلت النصوص على وقوعه.

التفصيل:

أولا. النسخ: تعريفه، والأدلة على وقوعه في القرآن الكريم، واختلافه عن البَداء:

أنكر ثبوت النسخ ـ أو بعضه ـ قلة من المتقدمين والمتأخرين، فاتخذها أعداء الإسلام من ملاحدة ومُبَشِّرين ومستشرقين تُكأة لغرس أسلحتهم المسمومة في صدر هذا الدين الحنيف، والنيل من قدسية كتابه

(*) لا نسخ في القرآن، لماذا؟ عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

® في "ردّ القرآن على من أنكر وقوع النسخ من اليهود" طالع: الشبهة الثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

وشرف سنته. فأحكموا حبك شبهاتهم ورَوَّجوا مطاعنهم حتى أمالوا عقول بعض المنتسبين إلى العلم من المسلمين، فجحد هؤلاء وقوع النسخ وأمعنوا في الجحود بتمحلات ساقطة وتأويلات غير سائغة[1]، ومما رُوِّج في هذا الشأن ـ قولهم ببطلان النسخ في القرآن الكريم ظنًّا منهم أن النسخ بَداء، والبداء محال على الله..إلخ، هذا القول.

ولقد عرَّف الصحابة الكرام وسلفنا الصالح النسخ بأنه: كل ما يطرأ على ظاهر النص من تخصيص عمومه[2]، أو تقييد مطلقه[3]، أو بيان مجمله[4]، أو تدرج حكمه، أو تخفيفه، أو إلغاء حكمه، أو نحو ذلك.

فهو ـ كما في مفهوم الصحابة ـ مطلق التغيير، الذي يطرأ على بعض الأحكام، فيرفعها ليحل غيرها محلها، أو يخصص ما فيها من عموم، أو يقيد ما فيها من إطلاق، سواء أكان النص الناسخ عندهم متصلًا بالنص المنسوخ كما في الاستثناء والتقييد، أم كان منفصلًا عنه، متأخرًا في النزول كما في رفع الحكم السابق كليةً (وهو النسخ عند جميع الفقهاء والأصوليين)، وكما في رفع الحكم عن بعض ما يشمله العام إذا تأخر نزول المخصص (وهو النسخ الجزئي عند الحنفية)[5].

وذكر د. مصطفى الزلمي أن الشاطبي فهم ذلك وعبر عنه فقال: "إن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين، فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخًا، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخًا، وعلى بيان المُبهم والمجمل نسخًا، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخًا؛ لأن جميع ذلك مشترك في معنى واحد، وهو أن النسخ في الاصطلاح المتأخر اقتضى أن الأمر المتقدم غير مراد في التكليف، وإنما المراد ما جاء آخرًا، فالأول غير معمول به، والثاني هو المعمول به، وهذا المعنى جارٍ في تقييد المطلق، فإن المطلق متروك الظاهر مع مقيده، فلا إعمال في إطلاقه، بل المعمول به هو المقيد، فكأن المطلق لم يفد مع مقيده شيئًا، فصار مثل الناسخ والمنسوخ. وكذلك العام مع الخاص، فلما جاء الخاص أخرج حكم ظاهر العام من الاعتبار فأشبه الناسخ والمنسوخ، إلا أن اللفظ العام لم يهمل مدلوله جملة، وإنما أهمل منه ما دل عليه الخاص، وبقي السائر على الأول. والمبين مع المبهم كالمقيد مع المطلق، فلما كان كذلك اسْتُعْمِلَ إطلاق لفظ النسخ في جملة هذه المعاني لرجوعها إلى شيء واحد".

ومن ذلك يتضح لنا أن النسخ عندهم هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ، بل بأمر خارج عنه، ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى، وزال عنه ـ بهذا

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٣٨.

٢. تخصيص العام: قصر العام على بعض أفراده بدليل.

٣. تقييد المطلق: ادخال الشروط والصفات عليه. والقَيْد: إضافة وصف زائد على الماهية، فالمطلق يُفهم على إطلاقه، مثل: مصري، إلا إذا قام الدليل على تقييده، فإن قام الدليل على تقييده كان الدليل صارفًا له عن إطلاقه ومبينًا المراد منه، كقولك: مصري مسلم.

٤. المُجْمَل: الكلام الذي خفي المراد منه، بحيث يحتاج إلى بيان لكشف معناه.

٥. انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٧٧.

التأمل - إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح المتأخر، ومن هذه الإشكالات: استدلال كثير من المتأخرين بقول السلف على نسخ كثير من الآيات بمفهومهم "أعني مفهوم المتأخرين" وهذا مرفوض منطقيًّا؛ لأن الأعم لا يستلزم الأخص ومِن ثَمَّ لا يُسْتَدَلُّ به على إثباته"[1].

وقد جاء المتأخرون من الأصوليين فعرَّفوا النسخ بتعريف ضَيَّقَ دائرته، فقالوا: هو رفع الحكم بدليل شرعي متأخر. وهو تعريف مستمد من معناه اللغوي والشرعي، ولا يخرج عن مفهوم الصحابة له، إلا أنه ضيق دائرته فحصرها في رفع الحكم كلية، فأخرج منه تقييد المطلق وتخصيص العام بالاستثناء وغيره.

قال الأستاذ مصطفى زيد في الموازنة بين المفهومين: "إن قَصْرَنَا للنسخ على رفع الحكم كله، بعد أن كان الصحابة يفهمون منه، إلى جانب هذا ما نسميه نحن الآن تخصيصًا واستثناءً وتقييدًا وتفسيرًا ووعدًا ووعيدًا ونحوها - ليس مخالفة منا لهم، وليس خروجًا على قواعدهم في التشريع، وإنما هي سنة التطور، قضت بتحديد المصطلحات العلمية، ثم تكفلت بوضع كل مجموعة من القضايا تحت كلٍ منها ما دامت تقوم على حقيقة واحدة، هي التي وضع لها ذلك المصطلح.

وهذا التطور لن يغير شيئًا من الأحكام الشرعية كما قررها الصحابة، ما دمنا نعرف الحقائق التي كانوا يطلقون عليها اسم "النسخ"، ونستطيع أن نتبين ما يسمى "نسخًا" في اصطلاحنا، وما خَصَّه اصطلاحنا المتأخر عن زمانهم باسم آخر[2].

الأدلة العقلية والنقلية تثبت وقوع النسخ في القرآن:

- **الأدلة العقلية:**

النسخ لا محظور فيه عقلًا، وكل ما كان كذلك فهو جائز عقلًا، فالنسخ لا يترتب على وقوعه محال؛ وذلك لأن أحكام الله، إما أن تشرع لمصالح العباد، أو لا تشرع لمصالحهم، فإن قلنا بالأول - كما تقول المعتزلة - فلا شك أن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص، كما تختلف باختلاف الأزمان، فما يكون مصلحة لشخص، قد لا يكون مصلحة لغيره، كشرب الدواء مثلًا، فهو مصلحة للمريض ولكنه غير مصلحة للصحيح في الزمن الواحد، وما يكون مصلحة في زمن قد يكون غير مصلحة في زمن آخر بالنسبة للشخص الواحد، كشرب الدواء بالنسبة لزيد مثلًا، مصلحة له في زمن مرضه ولكن ليس مصلحة له في زمن صحته، وما دامت المصلحة تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأحكام، يراعي في شرعيتها مصالح العباد، فلا شك أن ذلك مما يجعل النسخ أمرًا لا بد منه، لا أن يكون محالًا.

وإذا قلنا بالثاني، وهو: أن الأحكام لا يراعي فيها مصالح العباد، فظاهر - أيضًا - أن النسخ لا يترتب عليه محال؛ لأنه لم يخرج عن كونه فعلًا من أفعال الله ﷻ والله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد[3]. ولكن ليس معنى

---

١. انظر: التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن، مصطفى إبراهيم الزلمي، جامعة صدام، العراق، ص٥: ١٠.

٢. انظر: النسخ في القرآن الكريم، د. مصطفى زيد، دار اليسر، القاهرة، ط٢، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص١١٥، ١١٦.

٣. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٤ بتصرف يسير.

ذلك أنه ﷻ عابث مستبد ظالم، بل إن أحكامه كلها ﷻ لا تخلو من حكمة بالغة، وعلم واسع، وتنزه عن البغي والظلم: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ (الكهف)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾ (البقرة).

ومذهب أهل السنة والجماعة: أن الله لا يجب عليه شيء لعباده، فالنسخ من تصرفه ﷻ العليم الحكيم، الذي يمحو ما يشاء ويثبت، وإن كان ذلك لا يخلو من مصالح البشر، وأما مذهب المعتزلة في النسخ فهو مبني على علم الله الأزلي بمصلحة عباده، في نوع أفعالهم في وقت ما؛ فيأمرهم به، وأن في علمه ﷻ الأزلي ـ أن تلك الأفعال نفسها ضرر لهم ـ أو إن شئت قل: لا تصلح لهم في وقت آخر؛ فينهاهم عنها في ذلك الوقت[1].

ومن الواضح اتفاق المعتزلة مع أهل السنة والجماعة في مبدأ جواز النسخ، ولكنهم اختلفوا معهم في دليل إثباته، تبعًا لاختلاف الفريقين في أحكام الله، هل يجب أن تتبع مصالح العباد أم لا؟

فالمنطق السليم يقرر جواز النسخ عقلًا؛ لأنه لا يترتب على وقوعه محال، والجواز العقلي يكفيه هذا فهو حسبه من دليل.

وكذلك الواقع التاريخي يؤكد وقوع النسخ سماعًا بنوعيه، نسخ الشرائع السابقة بالإسلام، ونسخ الحكم في الشريعة الواحدة كالإسلام وغيره بحكم متأخر عنه، وليس أصدق من التاريخ شاهدًا حين يقرر الواقع.

- **الأدلة النقلية:**

وهي كثيرة، نذكر منها قوله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦)، وهذه الآية برهان صريح على وقوع النسخ في القرآن الكريم، ومعناها: ما ننسخ من حكم أو ننسه نأت بحكم مثله أو أفضل منه، حسبما تقتضيه المصلحة، وتستدعيه سياسة الأمة، وحيثما صح نسخ الوحي بوحي خير منه للعباد، صح نسخه بوحي مثله أو في درجته، وهذا دليل على أن النسخ كما يكون في القرآن، يكون في السنة كذلك؛ لأن السنة وحي من الله تعالى[2].

وقوله ﷻ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ (٣٩)﴾ (الرعد)، والمعنى: أن الله يغير من شرائعه وخلقه على وفق علمه وإرادته وحكمته، وعلمه ﷻ لا يتغير ولا يتبدل، وإنما التغيير في المعلوم لا في العلم؛ إذ إنه ﷻ عنده ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي المرجع الثابت الذي لا مَحْو فيه ولا إثبات، وهو اللوح المحفوظ، وإنما يقع المحو والإثبات على علم وفقه، فيمحو الله ﷻ شريعة ويُثْبت أخرى، ويمحو حكمًا ويبثت آخر، ويمحو مرضًا ويثبت صحة، ويمحو فقرًا ويثبت غنى، ويمحو حياة ويثبت موتًا، وهكذا تعمل يد الله تبارك وتعالى في خلقه وتشريعاته تغييرًا وتبديلًا، وهو الحق وحده لا يعروه تغيير ولا تبديل، ولا يتطرق إلى علمه محو ولا إثبات[3].

قوله ﷻ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٦٠).

---

١. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٩، ١٥٠ بتصرف يسير.

٢. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، ص٢٠٥ بتصرف.

٣. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٥.

ووجه الدلالة في هذه الآية أن بعض الطيبات التي لم تكن حلالًا لبني إسرائيل أُحِلَّت لهم، فلما أفسدوا في الأرض وظلموا حُرِّمت عليهم، وهذا نسخ، وكلمة (أُحِلَّت) يُفْهَمُ منها أن الحكم الأول كان حكمًا شرعيًّا، وليس براءة أصلية[1].

كما جاء أن رجلًا من الصحابة قام في جوف الليل يريد أن يفتتح سورة قد كان وَعَاها، فلم يقدر منها على شيء إلا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فأتى باب النبي ﷺ حين أصبح يسأله عن ذلك، ثم جاء آخر وآخر، حتى اجتمعوا فسأل بعضهم بعضًا ما جمعهم؟ فأخبر بعضهم بعضًا بشأن تلك السورة، ثم أَذِنَ لهم النبي ﷺ فأخبره خبرَهم وسألوه عن السورة، فسكت ساعة لا يرجع إليهم شيئًا، ثم قال: " نُسِخَت البارحة "، فنسخت من صدورهم ومن كل شيء كانت فيه"[2].

وإذا كان هذا هو النسخ، فإنه يختلف عن البَداء اختلافًا ظاهرًا، وقد جعلهما اليهود شيئًا واحدًا، ولذلك لم يُجَوِّزوا النسخ فضلوا، قال النحاس: "والفرق بين النسخ والبداء ـ أن النسخ تحويل العبادة من شيء إلى شيء قد كان حلالًا فَيُحَرَّم، أو كان حرامًا فَيُحَلَّل. وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه؛ كقولك: امض إلى فلان اليوم، ثم تقول: لا تمض إليه، فيبدو لك العدول عن القول الأول؛ وهذا يلحق البشر لنقصانهم.

وكذلك إن قلت: ازرع كذا في هذه السنة، ثم قلت: لا تفعل، وهو البَدَاء"[3].

إذن البداء هو أن تأتي بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فَيُعَدَّل الحكم، وهذا محال بالنسبة لله ﷻ، وأما النسخ فليس بداءً؛ وإنما هو إزالة الحكم والمجيء بحكم آخر، ونقول لهم: ساعة حَكَم الله الحُكْم أولًا فهو ﷻ يعلم أن هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه، ثم يحل مكانه حكم جديد، ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج، وليس معنى ذلك أن الله ﷻ قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل الله عن الحكم، إن هذا غير صحيح.

لماذا...؟ لأنه ساعة حكم الله أولًا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لمدة، ثم بعد ذلك يُنْسَخ أو يُسْتَبْدَل بحكم آخر، إذن فالمشرِّع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس أنه سينتهي، وسيُحِلُّ محله حُكْم جديد.

وليس هذا كواقع البشر، فأحكام البشر وقوانينهم تُعَدَّل؛ لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع؛ لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء، فجاء الواقع ليظهر ما خفي، وأصبح الحكم لا بد أن ينسخ أو يعدل، بيد أن الأمر مع الله ﷻ ليس كذلك؛ لأن أمر الله ﷻ جعل الحكم موقوتًا ساعة جاء الحكم الأول.

مثلًا حين وجه الله تعالى المسلمين إلى بيت المقدس؛ أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلى بيت المقدس

---

١. المرجع السابق، ص١٥٣،١٥٤.

٢. إسناده صحيح: أخرجه الطبراني في مسند الشاميين، كتاب ومن فضائل شعيب بن أبي حمزة واسم أبي حمزة دينار، باب شعيب عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف الأنصاري (٣٠٠١)، والبيهقي في دلائل النبوة، كتاب جماع غزوة تبوك، باب جماع أبواب كيفية نزول الوحي على رسول الله (٣٠٨٥)، وصحح إسناده الأرنؤوط في تعليقاته على بيان مشكل الآثار.

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٢، ص٦٤ بتصرف يسير.

طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة؟ ثم بدا له ﷻ أن يوجِّه المسلمين إلى الكعبة؟ لا، لم تكن هذه هي الصورة، ولكن كان في شرع الله أن يتوجه المسلمون أولًا إلى بيت المقدس مدة، ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة، إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يُعَدِّلَ القبلةَ من بيت المقدس إلى الكعبة، وإنما كان في علمه وفي شرعه أنه سيغير القبلة بعد مدة إلى الكعبة، ولعل لذلك هدفًا إيمانيًّا في أن العلة في الأمور أنها من الله، فلا قدسية لشيء في ذاته، ولكن القدسية لأمر الله فيه[1].

واعتمادًا على ما سبق، فإن البداء مستحيل على الله تعالى؛ لما يلزم من ذلك سبق الجهل وحدوث العلم، والجهل والحدوث عليه مُحالان؛ لأن النظر الصحيح في هذا العالم دَلَّنا على أن خالقه ومدبِّره - متصف أزلًا وأبدًا بالعلم الواسع المطلق المحيط بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون، كما هدانا هذا النظر الصحيح إلى أنه ﷻ لا يمكن أن يكون حادثًا ولا محلًّا للحوادث، وإلا لكان ناقصًا يعجز عن أن يبدع هذا الكون ويدبره هذا التدبير المعجز، وهذا دليل عقلي على أن النسخ والبَداء مختلفان.

وثمة نصوص فيَّاضة ناطقة بأنه ﷻ أحاط بكل شيء علمًا وأنه لا تخفى عليه خافية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد)، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأنعام)، ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ (الرعد). إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تؤكد إحاطته ﷻ بكل شيء علمًا.

ولكن على الرغم من توافر هذه الأدلة والبراهين الساطعة العقلية والنقلية، اشتبه الأمر على أقوام فزعموا أن النسخ ضرب من البداء أو مستلزم للبداء! وهكذا اشتبهوا أو شَبَّهوا على الناس الأمر، وقالوا: لولا ظهور مصلحة لله ونشوء رأي جديد له، ما نسخ أحكامه وبدَّل تعاليمه، ونسوا أو تناسوا أن الله ﷻ حين نسخ بعض أحكامه ببعض، ما ظهر له أمر كان خافيًا عليه، وما نشأ له رأي جديد كان يفقده من قبل، إنما كان ﷻ يعلم الناسخ والمنسوخ أزلًا من قبل أن يشرعهما لعباده، بل من قبل أن يخلق الخلق، ويبرأ السموات والأرض، إلا أنه - جلَّت حكمته - علم أن الحكم الأول المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم، ولا ريب أن الحِكَمَ والمصالح تختلف باختلاف الناس، وتتجدد بتجدد ظروفهم وأحوالهم، وأن الأحكام وحِكَمَها، والعباد ومصالحهم، والنواسخ والمنسوخات - كانت كلها معلومة لله من قبل، ظاهرة لديه لم يخف شيء منها عليه، والجديد في النسخ إنما هو إظهاره ﷻ ما علم لعباده، لا ظهور ذلك له، على حد التعبير المعروف: شئون يبديها ولا يبتديها ﴿وَمَا نَنَزَّلُ

---

١. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، مصر، ج١، ١٩٩١م، ص٥٠٩، ٥١٠ بتصرف.

﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مريم: ٦٤)[١].

ثانيًا. أنواع النسخ في القرآن وشروطه:

النسخ الواقع في القرآن يتنوع إلى أنواع ثلاثة، هي:

١. نسخ الحكم والتلاوة معًا: وهو نوعان:

- ما بلغنا لفظه أو موضوعه، كما في حديث عائشة قالت: "كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يُحَرِّمْن، ثم نُسِخْنَ بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهي مما يقرأ من القرآن"[٢].

وإذا كان الحديث موقوفًا على عائشة - رضي الله تعالى عنها - فإن له حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي، بل لا بد فيه من توقيف، وقد تكلم العلماء في قول السيدة عائشة: "وهي مما يقرأ" فظاهره بقاء التلاوة، وهو ليس كذلك، ولكن المقصود أن التلاوة نسخت ولم يبلغ ذلك كل الناس، إلا بعد وفاة النبي ﷺ فتوفي وبعض الناس يظنها من القرآن.

- ما بلغنا مجرد الخبر عنه ورفع منه كل شيء، كما في حديث زر بن حبيش، قال: قال لي أبي بن كعب، كأين تقرأ سورة الأحزاب، أو كأين تعدها؟ قال: قلت له: ثلاثًا وسبعين آية، فقال: قط؟ لقد رأيتها، وإنها لتعادل سورة البقرة[٣]. وهذا يندرج عند أكثر أهل العلم تحت النسخ؛ لأنه رفع بعدما أنزل، وعند طائفة تحت الإنساء - التأجيل - والأمر في ذلك قريب.

٢. نسخ التلاوة دون الحكم:

وهذا النوع قليل الوجود في النصوص المنقولة إلينا، وثبوت حكمه مع نسخ تلاوته، إنما عرف عن طريق النقل الثابت، ومن أمثلته: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: "إنَّا كنا نقرأ من كتاب الله: أَلَّا ترغبوا عن آبائكم، فإنه كُفْرٌ بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو: إن كفرًا بكم أن ترغبوا عن آبائكم"[٤]. وعن زيد بن أرقم قال: "لقد كنا نقرأ على عهد رسول الله ﷺ: لو كان لابن آدم واديان من ذهب وفضة لابتغى إليهما آخر، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب"[٥].

وقد يثار هنا سؤال، وهو: ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم، وهلا أبقيت التلاوة ليجمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ وقد أجاب صاحب الفنون على هذا السؤال، فقال: إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريق الظن، من استفصال لطلب طريق مقطوع به فيسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذبح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي[٦].

---

١. مناهل العرفان، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٤٤، ١٤٥ بتصرف.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات (٣٦٧٠).

٣. انظر: المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، ص ٢٤٨. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٦.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصَنت (٦٤٤٢).

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث زيد بن أرقم ﷺ (١٩٢٩٩)، والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا (٢٣٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٩١٠).

٦. انظر: المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق، ص ٢٤٦. مناهل العرفان، الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٧٠.

٣. نسخ الحكم دون التلاوة:

ويدل على وقوعه، قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾ (النساء)، وهذا الحكم نسخ بقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ (النور: ٢).

وثبت عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلًا، البكر بالبكر جَلْدُ مائة وَنَفْي سنة، والثيب بالثيب جَلْدُ مائة والرجم"[١]. وهذا النوع من النسخ فرض على الفقيه تمييزه من نصوص الكتاب والسنة، وذلك لما له من الأثر في الأحكام العملية[٢].

شروط النسخ في القرآن:

ولكي يُضبط القول، فإنه لا بد في النسخ من شروط تتمثل في:

١. أن يكون المنسوخ حكمًا شرعيًّا ثابتًا بالنص، غير مؤقت ولا مؤبد، نصًّا متقدمًا في النزول عن الناسخ، وليس كليًّا، ومن ثم:

- لا يجوز نسخ الأخبار المحضة، ولا نسخ آيات الوعد والوعيد؛ لأنها لا تتضمن أحكامًا عملية من أحكام العبادات أو المعاملات أو الحدود، وإنما هي أخبار تحتمل الصدق والكذب لذاتها، فنسخها تكذيب للمخبِر بها، والشارع عز وجل منزه عن ذلك.
- لا يجوز نسخ الأحكام الشرعية الاعتقادية؛ لأن أحكام العقيدة لا يتصور فيها توارد الأمر والنهي على مسألة واحدة؛ إذ هي ثابتة في جميع الشرائع الإلهية، وسبب النسخ لا يعقل فيها، سواء أكان هو التدرج في التشريع، أم كان هو اختلاف المصالح.
- لا يجوز نسخ الأحكام الكلية؛ إذ الكليات ثابتة عادة، وإنما تتغير الفروع، وقد ثبت هذا بالاستقراء.
- لا يجوز نسخ الأحكام التي دليلها من القياس؛ لأن نسخ الحكم الثابت بالقياس لا يتصور مع بقاء أصله، فإذا نُسِخَ أصله، فهو نسخ لحكم ثابت بالنص[٣].

٢. أن لا يكون الحكم المنسوخ مقيدًا بزمان مخصوص نحو قوله ﷺ: "لا صلاة بعد صلاتين: بعد الصبح حتى تطلع الشمس، وبعد العصر حتى تغرب"[٤]؛ لأن الوقت الذي يجوز فيه أداء النوافل، التي لا سبب لها مؤقت، فلا يكون نهيه عن هذه النوافل في الوقت المخصوص نسخًا لما قبل ذلك من الجواز؛ لأن التوقيت يمنع النسخ[٥].

٣. أن يكون الحكم الناسخ خطابًا شرعيًّا (من الله أو من الرسول) ولا يكون بالإجماع ولا بالقياس، وأن يكون معادلًا للمنسوخ في قوة ثبوته ودلالته، أو أعلى

---

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب حد الزنا (٤٥٠٩).

٢. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مرجع سابق ص ٢٤٤، ٢٤٥.

٣. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٢: ٢٨٤.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب التطوع، باب مسجد بيت المقدس (١١٣٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها (١٩٦٠).

٥. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ١١١.

منه، أو مساويًا له، أو أقوى منه في إيجاب العمل كذلك.

٤. أن يكون الحكم الناسخ متراخيًا (متأخرًا) عن المنسوخ، فلا يُنسخ بخطاب أنزل قبله، ولا بخطاب صدر معه، ولا بمتأخر عنه في النزول دون فاصل زمني يمكن فيه العمل بالمنسوخ وامتثاله.

٥. أن يكون الحكم الذي شُرع به مضادًّا مع الحكم المنسوخ ومناقضًا له، بحيث لا يمكن الجمع بينهما وإعمالهما معًا بوجه من الوجوه[1].

هذه هي شروط النسخ المتفق عليها، وهناك شروط مختلف فيها، ولكن الراجح أنه لا داعي لها؛ إذ إن الشروط المتفق عليها كافية في مضمونها[2].

ثالثًا. النسخ لا يكون في الكليات ولا الضروريات ولا التحسينات، ولذا فهو قليل في القرآن الكريم وله حكم ومقاصد عظيمة:

وقوع النسخ في القرآن الكريم قليل جدًّا، ويكشف لنا عن سبب ذلك الإمام الشاطبي، فيقول: لما تقرر أن المُنَزَّل بمكة من أحكام الشريعة، هو ما كان من الأحكام الكلية والقواعد الأصولية في الدين على غالب الأمر - اقتضى ذلك أن النسخ فيها قليل؛ لأن النسخ لا يكون في الكليات، وإن أمكن ذلك عقلًا.

ويدل على ذلك الاستقراء التام لكتب الناسخ والمنسوخ، وأن الشريعة مبنية على حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينات، وجميع ذلك لم يُنْسَخ منه شيء، بل أتى بالمدينة ما يقويها - الكليات - وإذا كان ذلك كذلك، فإنه لم يثبت نسخ لقرآن مكي ألبتة.

ومن استقرأ كتب الناسخ والمنسوخ، تحقق من هذا المعنى، فإنما يكون النسخ في الجزئيات منها، والجزئيات المكية قليلة، وعلى هذا فإن الاستقراء يبين أن الجزئيات الفرعية التي وقع فيها النسخ - بالنسبة إلى ما بقي محكمًا - قليلة، ويَقْوى هذا في قول مَنْ جعل المنسوخ من المتشابه، وغير المنسوخ من المحكم.

ووجه آخر: هو أن الأحكام إذا ثبتت على المكلف، فادعاء النسخ فيها لا يكون إلا بأمر محقق؛ لأن ثبوتها على المكلف أولًا محقق، ولذلك أجمع المحققون على أن خبر الواحد لا ينسخ القرآن، ولا ينسخ الخبر المتواتر؛ لأنه رفع المقطوع به بالمظنون، فاقتضى هذا أن ما كان من الأحكام المكية ويُدَّعَى نسخه، فلا ينبغي قبول تلك الدعاوى إلا مع قاطع بالنسخ، بحيث لا يمكن الجمع بين الدليلين.

ووجه ثالث: أن غالب ما ادُّعِي فيه النسخ، إذا تُؤُمِّلَ وجدته متنازعًا فيه، ومحتملًا وقريبًا من التأويل بالجمع بين الدليلين، على وجه من كون الثاني بيانًا لمجمل، أو تخصيصًا لعام، أو تقييدًا لمطلق، وما أشبه ذلك من وجوه الجمع مع البقاء على الأصل في الحكم الأول والثاني، وقد أسقط ابن العربي كثيرًا من الناسخ والمنسوخ بهذه الطريقة.

وجه أخير يدل على قلة النسخ وندرته: هو أن تحريم ما هو مباح عند الأصوليين ليس بنسخ، كالخمر والزنا، فإن تحريمها بعدما كان على حكم الأصل لا يعد نسخًا بحكم الإباحة الأصلية، لذا قالوا في حد النسخ أنه رفع

---

١. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص ٢٨٤ بتصرف يسير.

٢. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص١٠٩، ١١٠، وأركان النسخ أربعة، وهي: المنسوخ، والمنسوخ به (الحُكْم الناسخ)، الناسخ (الله ﷻ)، المنسوخ عنه (وهو المكلَّف).

الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر، ومثله، رفع براءة الذمة، وقد كانوا في الصلاة يكلم بعضهم بعضًا، إلى أن نزل قوله ﷻ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ (البقرة)[١].

للنسخ حِكَمٌ تشريعيَّةٌ بليغة وكثيرة:

"إن الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم كان إحدى السمات التربوية والتشريعية العظيمة في مدة نزول الوحي، الذي ظل يُربي الأمة، وينتقل بها من طور إلى طور، وفق إرادة الله الحكيم، الذي يعلم المفسد من المصلح، وهو العزيز الحكيم".[٢] ولا ريب أن هذا النسخ حكمًا كثيرة، ومصالح للعباد جليلة، نوجزها فيما يأتي:

١. **مراعاة مصالح العباد:** وذلك بأن يُنْسَخ الحكم الذي لا يصلح للاستمرار، ويُبَدَّل بحكم آخر صالح للاستمرار على تبدل العصور والأيام، وتلك سمة بارزة من سمات التشريع الإسلامي السمح.

ولئن قيل: لِمَ شرع الحكم الأول إذا لم يكن صالحًا للاستمرار؟ قلنا: إن ذلك الحكم كان صالحًا لتلك الحقبة التي شُرِعَ فيها، والحال تقتضي ذلك الحكم في حينها.

٢. **الابتلاء:** وذلك ليظهر من يمتثل الأمر من غيره، كحادث تحويل القبلة وهنا تنكشف النفوس الضعيفة، ويتميز الصف المسلم، وفي هذا من الخير للمسلمين ما الله به عليم.

٣. **إرادة الخير بالأمة؛** لأن النسخ إذا كان من الأصعب إلى الأسهل كان ذلك تخفيفًا على الأمة، وإظهارًا لفضل الله عليها ورحمته بها، وإغراءً لها على المبالغة في شكر الله وتمجيده[٣].

وإذا كان النسخ من الأسهل إلى السهل، أو من السهل إلى الصعب، أو من الصعب إلى الأصعب، فإن ذلك تدرج من الشارع، ليصل بهم إلى الكمال رويدًا رويدًا، وليصعدوا في مدارج الرقي شيئًا فشيئًا، متخذًا في ذلك - جل شأنه - طريقة الإلف والمران سبيلًا إلى قلوبهم، حتى تم الأمر ونجح الإسلام نجاحًا، لم يعرف مثله في سرعته، وامتزاج النفوس به، ونهضة البشرية بسببه.

٤. **تدرج التشريع الإسلامي إلى مرحلة الكمال:** فالحكمة في نسخ بعض الأحكام ترجع إلى سياسة الأمة، وتعهدها بما يرقيها ويمحصها؛ إذ إن الأمة الإسلامية في بدايتها حين صَدَعَهَا الرسول بدعوته، كانت تعاني مدة انتقال شاق، بل كان أشق ما يكون عليها - تَرْكَ عقائدها وموروثاتها وعاداتها، لا سيما مع ما هو معروف عند العرب، الذين شُوفِهُوا بالإسلام - من التحمس لما يعتقدون أنه من مفاخرهم وأمجادهم، فلو أخذ بهذا الدين الجديد مرة واحدة؛ لأدى ذلك إلى نقيض المقصود ولمات الإسلام في مهده، ولم يجد أنصارًا يعتقدون ويدافعون عنه؛ لأن الطفرة من نوع المستحيل، الذي لا يطيقه الإنسان.

لذا جاءت هذه الشريعة الغراء تمشي على مهل، متألفة لهم، متلطفة في دعوتهم، متدرجة إلى الكمال،

---

١. الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م، ج٢، ص ٧٣.

٢. رد افتراءات المنصرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ص٢٥٦.

٣. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيمي، مرجع سابق، ص١٤٩ بتصرف.

حسب تطور الدعوة وحال الناس، وما يعلم الله من تحملهم في كل مرحلة من مراحل حياتهم[1].

يبقى الكلام في حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم، وفي حكمة نسخ التلاوة مع بقاء الحكم:

"أما حكمة بقاء التلاوة مع نسخ الحكم، فتسجيل تلك الظاهرة الحكيمة ـ ظاهرة سياسة الإسلام للناس، حتى يشهدوا أنه الدين الحق، وأن نبيه نبي الصدق، وأن الله هو الحق المبين، العليم الحكيم، الرحمن الرحيم، يضاف إلى ذلك ما يكتسبونه من الثواب على هذه التلاوة، ومن الاستمتاع بما حوته تلك الآيات المنسوخة من بلاغة، ومن قيام معجزات بيانية أو علمية أو سياسية بها.

وأما نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، فحكمته تظهر في كل آية بما يناسبها، وإنه لتبدو لنا حكمة رائعة في مثال مشهور من هذا النوع، ذلك أنه صح في الرواية عن عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب أنهما قالا: كان فيما أنزل من القرآن (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة)، أي كان هذا النص آية تُتْلَى، ثم نُسِخَتْ تلاوتها، وَبَقِي حكمها معمولًا به إلى اليوم، والسر في ذلك أنها كانت تتلى أولًا لتقرير حكمها، ردعًا لمن تحدثه نفسه أن يتلطخ بهذا العار الفاحش من شيوخ وشيخات، حتى إذا ما تقرر هذا الحكم في النفوس، نسخ الله تلاوته لحكمة أخرى، هي الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة، وبشاعة صدورها من شيخ وشيخة، حيث سلكا مسلك ما لا يليق أن يذكر فضلًا عن أن يفعل، وسار بها في طريق يشبه طريق المستحيل الذي لا يقع، كأنه قال: نزِّهوا الأسماع عن سماعها، والألسنة عن ذكرها، فضلًا عن الفرار منها، ومن التلوث برجسها"[2] ®.

رابعًا. وقوع النسخ في الكتب المقدسة (في العهدين: القديم والجديد) :

على الرغم من وجود الناسخ والمنسوخ في الكتب المقدسة السابقة للإسلام، وبصورة لا يمكن حصرها ـ إلا أننا وجدنا أصحاب هذه الكتب ينكرون على القرآن وجوده فيه، مدعين أن ذلك يتنافى مع كونه كتابًا منزلًا من عند الله، صاحب العلم الأزلي الأبدي، وإلى كل ذي لب، نسوق بعض الأمثلة من النسخ الذي وقع في التوراة والإنجيل ـ العهد القديم والجديد على ما أصابهما من تحريف ـ لأكشف اللثام عن أعين غابت عنها الحقيقة، وأسلط الضوء على أجفان أُغْلِقَتْ لكي لا ترى الحقيقة.

١. **العهد القديم (التوراة):**

فقد نُسِخَ حُكْم جواز الزواج من الأخت بحُكْم تحريمه، فجاء في حكم الجواز: "وبالحقيقة أيضًا هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة". (تكوين ٢٠: ١٢). وهذا هو المنسوخ، وجاء في حكم التحريم: "عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك، المولودة في البيت أو المولودة خارجًا، لا تكشف عورتها". (اللاويين ١٨: ٩). وهذا النص قد نسخ حكم جواز الزواج من الأخت غير الشقيقة أيضًا، ومن تلك النصوص الناسخة أيضًا: "ملعون من يضطجع

---

١. مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٥٥ بتصرف.

٢. المرجع السابق، ص ١٥٥، ١٥٦.

® في **"حِكَم النسخ ومقاصده"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه. ويقول جميع الشعب: آمين". (تثنية ٢٧: ٢٢).

٢. **في العهد الجديد (الإنجيل):**

يقول متَّى في نسب يسوع: "لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب. حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب". (تثنية ٢٣: ٢). وهذا قرار الرب، ونُسِخَ بقول متَّى: "وسلمون ولد بوعز من راحاب". (متى١: ٥)، وراحاب هي امرأة زانية؛ حيث قال فيها يشوع: "فذهبا ودخلا بيت امرأة زانيةٍ اسمها راحاب واضطجعا هناك". (يشوع: ٢: ١).

فالنسخ ليس قاصرًا على الشريعة الإسلامية، وإنما وقع في الشرائع السابقة على شريعة الإسلام بنوعيه: في شريعة لاحقة لشريعة سابقة، وفي الشريعة الواحدة نفسها[1].

الخلاصة:

- النسخ ثابت بإجماع علماء المسلمين عقلًا ونقلًا، ولا يعول على رأي من شذ عن ذلك الإجماع.
- توافرت الأدلة العقلية والنقلية على وقوع النسخ في القرآن الكريم؛ لأن المنطق السليم يجوِّز وقوع النسخ عقلًا؛ لأنه لا يترتب على وقوعه محال، والجواز العقلي يكفيه هذا، وحسبه هذا من دليل، كما أن الواقع التاريخي يؤكد وقوع النسخ سماعًا بنوعيه، وليس أصدق من التاريخ حين يقرر الواقع.
- أما الأدلة النقلية، فمنها: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (البقرة)، وقال ﷻ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (النحل).
- النسخ يختلف تمامًا عن البداء؛ فإذا كان النسخ: يعني: رفع الحكم الشرعي بحكم آخر متأخر عنه، فإن البداء يعني ترك ما عُزِم عليه لقصور الحكم عند التطبيق، وهو محال على الله؛ لأن الله الذي يعلم الغيب، وقرر كل شيء في الأزل، وحفظه في لوحه المحفوظ - يعلم كذلك الناسخ والمنسوخ أزلًا قبل أن يشرعهما لعباده، بل قبل أن يخلق الخلق، إلا أنه علم أن الحكم الأول المنسوخ منوط بحكمة أو مصلحة تنتهي في وقت معلوم.
- للنسخ شروط دقيقة، وليس اعتباطيًّا أو غائيًّا، كما أنه لا يكون في الكليات ولا الضروريات ولا التحسينات؛ ولذا فهو قليل في القرآن الكريم.
- للنسخ حِكَم كثيرة أرادها الله ﷻ، ولم يأت عبثًا ولا قدحًا في القرآن وهو - بما له من حكم - دليل على ألوهية القرآن لا بشريته، وهو ميزة من ميزات التشريع الإسلامي، من هذه الحكم: مراعاة مصالح العباد بنسخ ما لا يصلح للاستمرار، والتدرج وصولًا إلى الكمال.
- النسخ موجود في الشرائع السابقة على القرآن، فهو موجود في العهدين: القديم والجديد، وبنوعيه: نسخ شريعة لاحقة لسابقة، ونسخ في الشريعة الواحدة نفسها؛ فلماذا ينكر في القرآن وقد دلَّت نصوص الشريعة الإسلامية على وقوعه فيها.

---

١. انظر بالتفصيل فصل "النسخ في الشرائع السابقة" من كتاب " نظرية النسخ في الشرائع السماوية"، شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص٤٣: ٦٠.

الشبهة الثامنة عشرة

إنكار نسخ القرآن للشرائع السابقة (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين نسخ القرآن الكريم - بوصفه أساس الشريعة الإسلامية - للشرائع السماوية السابقة، مستدلين على ذلك بما ورد في التوراة من أن موسى قال كما يزعمون: "هذه شريعة مؤبدة ما دامت السماوات والأرض"، وكذلك ما جاء في الإنجيل من كلام عيسى "السماوات والأرض تزولان، وكلامي لا يزول".

ويرمون من وراء إنكارهم هذا إلى نفي صفة العالمية عن الشريعة الإسلامية ونفي كونها خاتمة ناسخة للشرائع السابقة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن فيما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف والتصحيف وعدم نقلهما بالتواتر - ما يجعلنا لا نسلم بالأدلة التي استدلوا بها.

٢) إن الفهم الصحيح للكلام الذي نسب للمسيح من خلال سياقه في الإنجيل، لا يتنافى مع مبدأ النسخ، بل هو تأكيد لوقوع تنبُّؤاته وتأييد لكلامه.

٣) التوراة والإنجيل بشَّرا بالرسالة الخاتمة وأمَرا باتباعها، وفي هذا خير شاهد على نسخ القرآن لهما وهيمنته عليهما، وإلا لكان الأمر فيه كما كان فيما قبله من الإنجيل مع التوراة مثلًا.

التفصيل:

أولا. عدم نقل التوراة والإنجيل بالتواتر، يجعلنا لا نسلم بالأدلة التي استدلوا بها:

لم يعد للتوراة الصحيحة التي أنزلها الله على موسى وجود؛ إذ أصابها من التحريف والتبديل والتزييف ما يرفع عنها قدسية النص الإلهي، وينقلها إلى دائرة التأليف البشرية، التي تصطبغ بصبغة العقل البشري الناقص، مما يجعلها أقرب إلى آراء فلسفية أو نظرة أو رؤية فكرية للسلوك البشري والحكم عليه.

وقد تضافرت الأدلة التي تثبت ذلك التحريف، ومن تلك الأدلة:

- أن نسخة التوراة التي بأيدي السامريين تزيد ألف سنة تقريبًا على ما جاء في نسخة العنانيين، وأن نسخة النصارى تزيد ألف وثلاثمائة سنة.
- ما جاء في بعض الكتب اليهودية أن نوحًا عليه السلام أدرك جميع آبائه إلى آدم عليه السلام، وأنه أدرك من عمر آدم مائتي سنة، وجاء في بعض الكتب الأخرى أنه عليه السلام أدرك من عمر إبراهيم ثماني وخمسين سنة، وكل هذا باطل تاريخيًّا.
- أن نُسَخ التوراة التي بأيديهم تحكي عن الله وعن أنبيائه وملائكته أمورًا ينكرها العقل، ويمجها الطبع، ويتأذى بها السمع، مما يستحيل معه أن يكون هذا الكتاب صادرًا عن نفس بشرية مؤمنة طاهرة، فضلًا عن أن يُنسب إلى ولي، فضلًا عن أن تُنسب إلى نبي، فضلًا عن أن يُنسب إلى الله رب العالمين.
- أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم، وأنه

(*) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، أحمد بن منصور آل سبالك، مرجع سابق.

بكى حتى رمدت عيناه، وأن يعقوب صارعه، جل الله عن ذلك كله.

- أن لوطًا عليه السلام شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه!
- أن هارون عليه السلام هو الذي اتخذ العجل لبني إسرائيل ودعاهم إلى عبادته من دون الله... إلخ[1].
- ومن الأدلة الدامغة على كذب دعوى تواتر التوراة، ما ثبت بالتواتر عند المؤرخين، بل عند اليهود أنفسهم، أنهم - أي اليهود، وهم حملة التوراة - قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة، وعبدوا الأصنام، وقتلوا الأنبياء شر تقتيل، ولا ريب أن هذه مطاعن شنيعة جارحة، لا تُبْقِي لأي واحد منهم أي نصيب من عدالة أو ثقة، ولا تدع لهذه النُّسَخ التي زعموا أنها التوراة أدنى شيء من المصداقية أو الصحة، ما داموا هم رواتها وحفاظها، وما دامت لم تعرف إلا عن طريقهم وبرواياتهم.

إن التواتر الذي خلعوه على التوراة لم يسلم لهم أيضًا؛ لأنها لو كانت متواترة، لحاجوا بها النبي ﷺ ولعارضوا دعواه عموم رسالته بقول التوراة، التي يؤمن بها ولا يجحدها، بل يجهر أنه جاء مصدقًا لها، ويدعو المسلمين إلى الإيمان بها.

ولو كانت التوراة غير محرفة لصح ذلك، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، بل حدث عكسه وهو أن كثيرًا من أحبار اليهود وعلمائهم - كعبد الله بن سلام وأضرابه - قد ألقوا القياد لرسول الله ﷺ مؤمنين، ودانوا لشريعته مسلمين، واعترفوا بأنه الرسول الذي بشرت به التوراة والإنجيل[2].

أما الأناجيل الأربعة المعروفة لدى النصارى: إنجيل متَّى، وإنجيل يوحنا، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقس، وهناك إنجيل آخر يُسمى (إنجيل برنابا) لا تعترف به الكنيسة اليوم، وهو أقرب الأناجيل إلى الحق والصواب - كل هذه الأناجيل من المقطوع أنها ليست الإنجيل الرباني الذي أنزله الله على عبده ورسوله (عيسى ابن مريم)، فهذه أناجيل دخلها التحريف والتبديل، كما نص القرآن الكريم، وبين هذه الأناجيل اختلاف واضح، ثم إن الله عز وجل أنزل إنجيلًا واحدًا، فكيف أصبحت أربعة أناجيل.

يقول الشيخ النجار في كتابه "قصص الأنبياء": "فأين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم؟ إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وبشَّر به لا يوجد الآن، وإنما تُوجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ، لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحذف.

فالمسيح ابن مريم جاء إلى أصحابه بكتاب هو الإنجيل، ولكن الناس على مَرِّ الزمان تركوا ذلك الإنجيل، وترتب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب أَلَّف بعضها تلاميذ المسيح، وبعضها أَلَّفها تلاميذ تلاميذه أو من بعدهم؛ وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة حتى أربت على المائة.

ومعلوم أن الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها وأقرَّت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السند، وعدم العلم التام بالمؤلف

---

1. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٠، ١٦١.
2. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٥ بتصرف يسير.

الحقيقي أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق، وعلى ما بينها من الاختلاف الحقيقي المفضي إلى أن أحد الأقوال صادق، وما عداه يكون كاذبًا"[1].

ثانيًا. كلام موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ في سياقه ـ إن صحّ ـ لا ينفي نسخ شريعتهما بالإسلام:

إن لفظ التأبيد الذي اعتمد عليه فيما نقلوه من قول سيدنا موسى عليه السلام: "هذه شريعة مؤبدة ما دامت السموات والأرض" ـ لا يصلح حجة لهم؛ لأنه يستعمل كثيرًا عند اليهود معدولًا به عن حقيقته.

ومن ذلك ما جاء في البقرة التي أقروا بذبحها: "هذه سنة لكم أبدًا" وما جاء في القربان "قربوا كل يوم خروفين دائمًا"، مع أن هذين الحكمين منسوخان باعتراف اليهود أنفسهم على رغم التصريح فيهما بما يفيد التأبيد كما ترى.

كما أن نسخ الحكم المؤبد جائز على الصحيح، فلتكن هذه العبارة التي اعتمدوا عليها منسوخة أيضًا، وشبهة التناقض تندفع بأن التأبيد مشروط بعدم النسخ، فإذا ورد الناسخ انتفى ذلك التأبيد، وتبين أنه كان مجرد تأبيد لفظي للابتلاء والاختبار[2].

أما ما اعتمدوا عليه من قول سيدنا عيسى عليه السلام: "السموات والأرض تزولان وكلامي لا يزول"؛ فإن المراد به تأييد تنبؤاته وتأكيد أنها ستقع لا محالة، وبيان ذلك أن المسيح كان قد حَدَّثَ حوارييه بأمور مستقبلية، وبعد أن انتهى من حديثه أتى بهذه الجملة التي تشبثوا بها: "السماوات والأرض تزولان..." وليس لها علاقة بالنسخ، لا نفيًا ولا إثباتًا. هكذا شرحها المفسرون للإنجيل منهم، وقالوا: إن فهم هذه الكلمة على عمومها ـ لا يتفق وتصريح المسيح بأحكام تم تصريحه بما يخالفها، ومن ذلك أنه قال كما جاء عند "متى": "إلى طريق أمم لا تمضوا، ومن مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة"، وهذا اعتراف من المسيح بخصوص رسالته[3] ®.

ذلك، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الله عز وجل لم يتكفل بحفظ تلك الكتب السماوية التي سبقت نزول القرآن، وإنما وكل حفظها إلى علماء تلك الديانات ابتلاء لهم، وهو يعلم سبحانه وتعالى أنهم سيحرفونها ويبدلونها، ويكتمون ما فيها من الحق، ويعلم أن رسالة أولئك الرسل قصيرة بزمنهم وبقومهم، وأن الرسالة الشاملة هي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا انتهت تلك الكتب بانتهاء رسالات الرسل الذين أنزلت عليهم، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ (المائدة:٤٤)، وفي هذه الآية أخبر الله عز وجل أن الأحبار والرهبان استحفظوا كتابه ـ أي استودعوه ـ وطلب منهم حفظه، ولم يبين هنا هل امتثلوا الأمر في ذلك

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للنشر، مكة المكرمة، ١٣٩٠هـ، ص٢٠٥، ٢٠٦.

٢. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، د. شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص١٣٥ بتصرف.

٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٢.

® في "نسخ شريعة محمد لشريعة موسى" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

وحفظوه، أو لم يمتثلوا الأمر في ذلك وضيعوه؟ ولكنه بين في مواضع أخرى أنهم لم يمتثلوا الأمر ولم يحفظوا ما استحفظوا، بل حرفوه وبدلوه عمدًا كما قال تبارك وتعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ (النساء: ٤٦).

أما القرآن الكريم فقد تكفل المولى تبارك وتعالى بحفظه، ولم يكل حفظه إلى خلقه - كسابقه من الكتب - مع توفيق الله لهذه الأمة للعناية الشديدة به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر)، والقرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية وآخرها نزولًا، والمهيمن عليها، فما أثبته القرآن الكريم مما ورد فيها فهو الثابت، لثبوته في القرآن الكريم، وما نفاه القرآن مما ورد فيها، فلا عبرة إلا لنفيه في القرآن، فهو الحجة، ولا حجة في سواه بعد نزوله؛ لأن كل الكتب السابقة قد حرفت وبدلت، وما بقي فيها ثابتًا، فهو خاضع لحكم القرآن الكريم الذي نسخ ما سبقه من الكتب، ولا غرو في ذلك؛ فهو الكتاب الخاتم، وقد يكون فيها شيء من الحق، ولكن أصحابها كتموه، حسدًا منهم لرسول الله ﷺ ولهذه الأمة، كما قال ﷻ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٤٨ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ۝٤٩﴾ (المائدة).

إن القرآن الكريم هو الصورة الأخيرة لكتاب الله ﷻ، وهو حقًّا صورة شاملة لحاجات البشر، وهو يقرر الأصول التي أوردها الله فيما سبق من كتب، ومن ثم فهو شامل ومسيطر على كل ما أراد الله ﷻ للناس من تشريع وقيم.

فالله ﷻ أرسل محمدًا ﷺ بالإسلام - دين التوحيد والحق الخالد؛ ليعلو على كل الأديان والمعتقدات، بأن يحوي أحسن ما فيها، وأن يضيف إلى ذلك ما فيه الخير للإنسان في الدنيا والآخرة.

ومن أجل هذه شمل الإسلام من المبادئ مالم يرد مثله في مختلف الأديان، إذ قد تقدمت البشرية وأصبح ضروريًّا أن تعرف حكم الله فيما يعترضها من شئون، ولهذا حفل التفكير الإسلامي بأفانين من القول في كل مشكلات الحياة التي تحتاج لتوجيه السماء، كالنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، والعلاقات الدولية وغيرها[1].

"إن الإسلام الذي بلغه محمد ﷺ وأخذ الناس به، هو الصورة الأخيرة للوحي الأعلى، وهو كذلك الصورة العامة التي تستغرق الأجناس كلها، وتتناول الأجيال التي تسكن الأرض حتى قيام الساعة.. النبوات السابقة كانت كلها محلية مؤقتة، أي محدودة الزمان والمكان، أما النبوة العامة الخالدة، فهي نبوة محمد ﷺ وحده لا يشركه في ذلك نبي من السابقين"[2].

١. الإسلام، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨٢م، ص١٠٧.

٢. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م، ص٩.

ثالثًا. التوراة والإنجيل بشّرا بالرسالة الخاتمة وأمرا باتباعها:

لا يستطيع أحد أن ينكر تبشير التوراة والإنجيل بمحمد ﷺ، وقد تحدثنا عن صفاته، وقد وردت البشارات فيهما على الرغم من أن اليهود حذفوا وأزالوا كل معنى صريح يدل على النبي محمد ﷺ، وقد جاء في التوراة عن النبي محمد ﷺ أنه لا يتكلم إلا بالوحي، كما بنص التوراة: "أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلَّم به باسمي أنا أطالبه". (التثنية ١٨: ١٨، ١٩)، فهو ﷺ لا يتكلم من نفسه، ولكن يتكلم بما يوحي إليه ربه.

ونفس الصفة يخبر بها عيسى عليه السلام: "وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلَّم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلَّم به، ويخبركم بأمور آتية". (يوحنا، ١٦: ١٤).

فالذي يأتي بعد المسيح عيسى عليه السلام لا يتكلم من نفسه، وإنما كلامه يكون بالوحي (هكذا بين أيديهم)، وهي نفس بشارة التوراة "وأجعلُ كلامِي في فَمِهِ، فيكلِّمهم بكلِّ ما أُوصيه به". إنه رسول الله محمد ﷺ الذي لا يتكلم إلا بالوحي: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)[1].

وإذا كان النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يتكلم إلا بالوحي، فإن النبي ﷺ قد أخبر أنه خاتم الأنبياء والمرسلين؛ إذ قال ﷺ: " أرسلت إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بي النبيون"[2].

ولذا وجب تصديقه ﷺ في ذلك، ووجب الإيمان بأن رسالته المهيمنة على جميع الرسالات السماوية قبلها، وقد أخبر القرآن الكريم بذلك؛ إذ قال ﷻ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ (المائدة: ٤٨).

وقد قال النبي ﷺ: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد نصراني من هذه الأمة ولا يهودي، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[3]. وهذا دليل قاطع على هيمنة رسالته على ما سواها، وقد أخبر القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ قد أُرسل إلى الناس كافة؛ إذ قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الإسراء). وقال تبارك وتعالى أيضًا: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأنبياء). وقال أيضًا: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

وإذا كانت رسالتا موسى وعيسى - عليهما السلام - وهما الديانتان الكبيرتان بعد الإسلام - محدودتين وخاصتين بأقوامهما، فإن غيرهما من الرسالات آكد في المحدودية وعدم العالمية.

وقد وُلِدَ موسى من أبوين إسرائيليين، وتربى في قصر فرعون، ونشأ بين المصريين، وفي هذا يقول سفر أعمال الرسل: "فتهذب موسى بكل حكمة المصريين،

---

١. وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ، ج١، ص٣٢٧.

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب منه (١١٩٥).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٣).

وكان مقتدرًا في الأقوال والأعمال. ولما كملت له مدة أربعين سنة، خطر على باله أن يفتقد إخوته بني إسرائيل". (أعمال الرسل ٧: ٢٢، ٢٣).

وحين ناداه الرب حين ذهب موسى إلى النار قال له الرب: "وقال الله أيضًا لموسى: «هكذا تقول لبني إسرائيل: يهوه إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكرى إلى دور فدور. اذهب واجمع شيوخ إسرائيل وقل لهم: الرب إله آبائكم، إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ظهر لي قائلًا: إني قد افتقدتكم وما صنع بكم في مصر. فقلت أصعدكم من مذلة مصر إلى أرض الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، إلى أرض تفيض لبنًا وعسلًا". (الخروج ٣: ١٥ـ١٧).

وهكذا كانت رسالة موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل وحدهم دون سواهم.

أما المسيح عليه السلام، فقد جاء رسولًا إلى بني إسرائيل وحدهم دون سواهم، فلقد حدد المسيح عليه السلام لنفسه ولتلاميذه مجال عمله ودائرة التبشير التي ينبغي التجول فيها، فبيَّن بكل وضوح أن رسالته تختص بالشعب الإسرائيلي فقط، فقال قولته المشهورة: "فأجاب وقال: لم أرسل إلَّا إلى خراف بيت إسرائيل الضَّالَّة". (متى ١٥: ٢٤).

أما ما جاء في خاتمة إنجيل مرقس التي تتكلم عن ظهور المسيح (الأعداد من ٩ ـ ٢٠)، التي تشتمل على العدد ١٥؛ الذي يتكلم عن تبشير العالم بالإنجيل ـ فهي ليست من عمل مرقس كاتب ذلك الإنجيل، ولكنها إضافات أُدخلت إليه حوالي عام ١٨٠م، أي بعد أن سطر مرقس إنجيله بنحو ١٢٠ عامًا.

وبالنسبة لما جاء في خاتمة إنجيل متى (٢٨: ١٩) من حديث التبشير بالإنجيل بين جميع الأمم، فإن العلماء يطعنون فيها لأسباب يذكر منها العالم الألماني أدولف هرنك: "لم يرد إلا في الأطوار المتأخرة من التعاليم المسيحية ما يتكلم عن المسيح وهو يلقي مواعظ ويعطي تعليمات بعد أن أقيم من الأموات، وأن بولس لا يعلم شيئًا عن هذا".

وبالنسبة لما جاء في خاتمة إنجيل لوقا عن تبشير جميع الأمم، فإن القارئ يستطيع الحكم على مصداقية الفقرة التي تشتمل على ذلك بمجرد قراءتها، فهي تنسب للمسيح قوله: "كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث، وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مبتدأ من أورشليم". (لوقا ٢٤: ٤٦، ٤٧).

ومن المعلوم حسب روايات الأناجيل الثلاثة ـ متَّى ومرقس ولوقا ـ أن المصلوب عُلِّق على الصليب يوم الجمعة، ووجدت المقبرة خالية فجر الأحد. وبالحساب البسيط يتبين أنه لم يدفن "في قَلْب الأرض ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وثَلاثَ لَيَال" حسب النبوءة التي أوردها إنجيل متى في ١٢: ٤٠، وإنما كانت مدة الدفن ـ حسب قول الأناجيل ـ يومًا واحدًا وليلتين على أحسن الفروض، وبذلك تكون مصداقية الحديث عن تبشير جميع الأمم بالإنجيل ـ مساوية تمامًا لمصداقية الحديث عن القيامة في اليوم الثالث، وهو شيء لا يتفق وأبسط الحسابات، ولهذا لا توجد مصداقية لهذه الأقوال

وما شابهها[1].

وضح من كلامهم إذن أن موسى وعيسى - عليهما السلام - قد دعوا إلى اتباع الفارقليط، وإذا كانا قد دعوا إلى اتباع محمد ﷺ، فهذا دليل على أن دعوته ورسالته مهيمنة على جميع ما قبلها من الشرائع كما أنه وضح بالدليل محدودية رسالتيهما وعدم عالميتهما، ومن ثمَّ فغيرهما بذلك أولى، ولذا فرسالة محمد ﷺ خاتمة ومهيمنة على ما قبلها، ومن ثم فهي ناسخة لما قبلها جميعًا®.

الخلاصة:

- القرآن نسخ التوراة والإنجيل، فمن آمن بما فيه، فهو مؤمن، ومن لم يؤمن بما فيه، فلا خلاق له: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (آل عمران: ١٩).
- وأما ما ادعاه الخرَّاصون من أن شريعة موسى عليه السلام شريعة مؤبدة، وأن كلام عيسى عليه السلام لا يزول حتى تزول السموات والأرض، فهذا كلام لا يثبت؛ وذلك لأن التوراة والإنجيل لا أصل لهما اليوم، وكل ما بين أيدينا منهما من وضع البشر.
- إن القرآن يكذِّب ما ادَّعوه؛ إذ يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨). فهل نصدق القرآن الكريم كلام الله تعالى المنقول إلينا بالتواتر، أم نصدق هذه الكلمات التي هي من كلام البشر، وفيها بشاعات تنفي كونها عن ولي، فضلًا عن كونها عن نبي، فضلًا عن كونها عن الله تبارك وتعالى.
- إن ما استدل به المدعون من عبارات - إذا سلمنا جدلًا بصحتها - لا ينفي نسخ القرآن ورسالته للشرائع السابقة عليه؛ وذلك لأن لفظ التأبيد الذي اعتمد عليه اليهود لا يصلح حجة لهم؛ لأنه يُستعمل عندهم كثيرًا معدولًا به عن حقيقته. وأما كلام النصارى الذي اعتمدوا عليه، فإنه يدل على تأكيد عيسى لوقوع تنبؤاته ووقوعها لا محالة.
- ثبت بكلام من التوراة والإنجيل تبشيرهما بالنبي ﷺ وأمرهما باتباعه، وهذا دليل قوي على هيمنة رسالة الإسلام على جميع الرسالات السابقة عليها.
- محدودية الديانتين السماويتين - اليهودية والنصرانية - وذلك من خلال نصوصهما - يدل على أن غيرهما أولى بالمحدودية وخصوصيتها بقومهما، ومحليتهما؛ وذلك لأنهما الديانتان الكبريان بعد الإسلام، فإذا كانتا محدودتين فغيرهما أولى بذلك.
- إذا ثبتت البشارة بالنبي محمد ﷺ في التوراة والإنجيل، وجاء فيهما وصفه بأنه لا يتكلم من عند نفسه، ولا يتحدث إلا بالوحي، إذا كان كذلك وقد أكده القرآن: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)، فإن هذا يقتضي تصديقه فيما قال، ولقد ثبت أنه ﷺ قال: وبُعث كل رسول إلى قومه خاصة، وبُعثت للناس كافة، وهذا دليل قاطع على هيمنة رسالته على ما سواها؛ لذا وجب تصديقه في ذلك؛ لأنه لا

---

١. الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ٧٨: ٨١ بتصرف.

® في **"البشارة بمحمد في التوراة"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية. و في **"البشارة بمحمد في الإنجيل"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثالثة عشرة؛ من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحَى.

الشبهة التاسعة عشرة

تَوَهُّم وقوع النسخ في آيات غير منسوخة في القرآن(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن النسخ وقع في خمسمائة وخمسين آية من القرآن الكريم، واستدلوا على ذلك بما جاء في كتاب "تاريخ القرآن" للأنباري، ويتساءلون: أين عقول المسلمين حين أغفلوا ما نُسِخَ، وجهلوا ما اقتضاه هذا النسخ من أحكام قَصُر عنها القرآن الذي بين أيديهم الآن؟ ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في مصداقية القرآن، وصلاحية نصوصه، وسلامة أحكامه، وتمام آياته، وثبوت ناسخه ومنسوخه.

وجها إبطال الشبهة:

١) ليس النسخ في حد ذاته تهمة نسارع إلى دفعها، لكننا نرفض أن يوصف به من كتاب الله مالم يقع فيه، كهذه الآيات التي ادعوا أنها منسوخة، وليست طبقًا لما عُرف عند علماء الأصول والفقه، بل ادَّعوا ذلك عن محض جهلهم، وفي غمرة تقوُّلاتهم، وكثيرة ما هي.

٢) إن ما توهَّمه المدَّعون من نسخ ستمائة آية أو ما يناهزها - ليس من قبيل النسخ الذي هو رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه، فهذا النوع قليل في القرآن، بل هو من قبيل النسخ بمعناه العام، وهو ما يطرأ على النص من تخصيص أو تقييد أو تدرُّج، وجميعها معروفة عند الصحابة، ولم يقل أحدهم بها قال به هؤلاء، فكيف يتقوَّل المتأخرون بما سكت عنه الأوَّلون الثقات؟!

التفصيل:

أولا. النسخ موجود في قليل من آيات القرآن:

اتفق جمهور العلماء على جواز النسخ - ولا عبرة بمن شَذَّ عن الإجماع - عقلًا وشرعًا لأدلة، منها:

- أن أفعال الله لا تُعَلَّل بالأغراض، فله أن يأمر بالشيء في وقت وبنسخه في وقت، وهو أعلم بمصالح العباد.
- أن نصوص الكتاب والسنة دالَّة على جواز النسخ ووقوعه، مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (النحل)، وقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ (البقرة: ١٠٦).

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أَقْرَؤُنا أُبَي، وأَقْضانا عليٌّ، وإنا لنَدَع من قول أُبي، وذاك أن أبيًّا يقول: لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ، وقد قال الله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ (البقرة)"[1][2].

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، مرجع سابق.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة البقرة (٤٢١١).

٢. مباحث في علوم القرآن، القطان، مرجع سابق، ص٢٢٨.

واستنادًا إلى ما سبق، فنحن لا ننكر وقوع النسخ في القرآن، بل نثبت وقوعه كما أثبته جمهور علماء المسلمين، بيد أننا لا نفرط لإثباته فندخل ما ليس منه فيه، ولذلك نقول: إن الآيات المنسوخة قليلة جدًّا في القرآن؛ إذ لا تتجاوز عشرين آية، أما من ظن أن النسخ أكثر من ذلك فهو يتكلم عن النسخ العام عند الصحابة، والذي يشمل التخصيص والتقييد والتفصيل، والآيات التي ظنوا أنها منسوخة ليست كذلك، وهذا يَنُمُّ عن فهم خاطئ.

وجمهور الفقهاء وعلماء الأصول يقرونه بلا حرج، وقد خصصوا للنسخ فصولًا مسهبة في مؤلفاتهم في أصول الفقه، وَقَلَّ من لم يذكره منهم، قدماء ومحدثين، والذي ننكره أن يكون وجود النسخ في القرآن عيبًا أو قدحًا في كونه كتابًا منزلًا من عند الله، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ (ص).

وقد حصر السيوطي عدد الآيات التي وقع فيها النسخ - في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" - في عشرين آية، كما ذكر د. مصطفى زيد في كتابه "النسخ في القرآن" أن عدد الآيات التي وقع فيها النسخ خمس آيات، وليس ذلك من باب التضارب، بل هو من قبيل اختلاف وجهات النظر؛ حيث يرى بعضهم أنه يمكن الجمع بين الآيات التي ظن الآخرون أنه لا يمكن الجمع بينها بوجه، فلم يعد منها ناسخًا ومنسوخًا، أما الآخرون فقد رأوا أنه لا يمكن الجمع بين الآيات بوجه من الوجوه، فجعلوها ناسخًا ومنسوخًا.

وقد استدل مثيرو الشبهة بعدد الآيات التي ذكرها الشيخ إبراهيم الأنباري في الآيات المنسوخة في كتابه "تاريخ القرآن"، ونحن نرى أن السبب في هذا الاختلاف في التعبير عن المصطلحات عن المراد من الشيخ إبراهيم - هو الخلط بين النسخ بمعناه العام عند الصحابة الكرام، والشامل لكل ما يطرأ على ظاهر النص من تخصيص أو تقييد أو تخفيف أو تفصيل أو تَدَرُّج، وبين النسخ بمعناه الخاص عند المتأخرين الذي يعني رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه.

لا نسخ بالمعنى الخاص في الآيات التي زعموا أنها منسوخة[1]:

نحن إن كنا قد سلمنا بوقوع النسخ، فلا نفرط لإثباته فندخل ما ليس منه فيه، كهؤلاء الذين يخلطون بين النسخ بمعناه الخاص، الذي هو رفع حكم شرعي متقدم بدليل شرعي متأخر عنه، وبين النسخ بمعناه العام الذي يدخل فيه تخصيص العام، وتقييد المطلق، والتدرج في الأحكام.

ومن ثَمَّ نورد بعض الآيات التي ليس فيها نسخ بالمعنى الخاص، وقد عدُّوها منه، فنقول:

١. يزعمون أن قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (التوبة) ناسخ لقوله ﷻ: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ (البقرة: ١٠٩).

ونرد على هؤلاء ما زعموه فنقول: إن سبب نزول

١. يُرجى الرجوع إلى: الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبي، تحقيق: عبد المنعم إبراهيم، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٣، ص٦٦٦: ٦٧٠.

قوله تبارك وتعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٢٩) ﴾ (التوبة) هو نقض اليهود العهود التي أبرموها مع رسول الله ﷺ وتآمرهم مع أعداء الإسلام للقضاء عليه في المدينة، فأصبح وجودهم خطرًا على أمن الإسلام واستقراره، فأمر الله المسلمين بقتالهم، حتى يعطوا الجزية[1] عن يد وهم صاغرون، ومِنْ ثَمَّ فإن الآية لم تأمر بقتال اليهود لإدخالهم في الإسلام، ولو كان الأمر كذلك، ما جعل الله إعطاءهم الجزية سببًا في الكف عن قتالهم إياهم، ولاستمر الأمر بقتالهم سواء أعطوا الجزية أم لم يعطوها، حتى يُسْلموا أو يُقْتلوا، وهذا غير وارد، ولم يثبت في تاريخ الإسلام أنه قاتل غير المسلمين لإجبارهم على اعتناق الإسلام[2].

أما آية العفو فمبدأ عام ودائم إلى يوم القيامة، والمعروف عند علماء الأصول والفقهاء أن الخاص لا ينسخ العام، فالآية محكمة غير منسوخة، وآية التوبة تتحدث عن موضوع خاص، هي مقصورة عليه، أو ما جاء على شاكلته، ولا تتعداه إلى غيره.

٢. وأما ما زعموه من أن قول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٢٩) ناسخ لقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ (البقرة: ١٩٠)، فهذا زعم لا يصل إلى مدعاه، وهو خلاف الحقيقة، فالآية الأولى خاصة باليهود لخيانتهم، ومن سار على ضربهم إلى يوم القيامة، ولكن آية البقرة تأمر بقتال من يقاتلنا، بشرط عدم الاعتداء، حتى على من قاتلنا لا نعتدي، وإلا تعدينا من مدافعين عن أنفسنا إلى معتدين، والاعتداء ظلم.

ونزل القرآن عندما كان يعيش الإنسان في ظل قانون القبيلة، متخلفًا في عقله وسلوكه، وكان ديدنه استخدام القوة في تحقيق مآربه، شأنه في ذلك شأن الحيوانات، ولما تطورت الحضارة البشرية، واكتسب عقل الإنسان النضج، تخلى عن فكرة استخدام القوة إلا في حالة الدفاع الشرعي، وأول شريعة عالمية أمرت بذلك هي الشريعة الإسلامية، وأقرت مبدأ عالميًّا في قوله ﷻ: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤).

وبعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من ميثاق الله ﷻ أتى ميثاق الأمم المتحدة ليقر هذا المبدأ، وعلى الرغم من ذلك، فإنه حتى الآن لم يصل إلى وضع يضاهي ما جاء به القرآن الكريم، من أنَّ ردَّ الاعتداء يجب أن يكون بقَدْر الاعتداء حجمًا وبُعْدًا، وإلا انقلب المُدافِع إلى معتدٍ؛ لأن الحرب شُرِعت للضرورة، والضرورات تُقَدَّر بقدرها[3].

٣. وزعموا أن قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ

١. الجزية: ضريبة مالية تفرضها الدولة الإسلامية على رءوس أهل الذِّمَّة، في مقابل حمايتهم والدفاع عنهم.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص ١٢٧، ١٢٨.

٣. البيان لرفع غموض النسخ في القرآن، محمد مصطفى الزلمي، مرجع سابق، ص ١٠٠ بتصرف.

﴿فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (التوبة) ناسخ لقوله ﷻ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ (آل عمران: ٢٠)، فقد جانبه الصواب؛ لأنه من المعلوم عند العلماء - أن النسخ لا يكون إلا في آيتين إحداهما تقضي بخلاف الأخرى، وعلى هذا فزعمهم مردود عليهم من غير أن نجهد أنفسنا في رده، إذ إن كل آية من الآيتين لها موضوعها الخاص بها.

وقول الله ﷻ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ (آل عمران: ٢٠) يدعو إلى السلام عملًا وتطبيقًا، وإن كان لا يدعو به أمرًا أو قولًا؛ لأن الله أمر رسوله ﷺ أن يعرض عن رافضي الإيمان، إن هم اكتفوا بمجرد الرفض ولم يؤذوه، ولم يظاهروا عليه أحدًا؛ لأن مبدأ الإسلام العام، والدستور الخالد في ذلك: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

وأما آية سورة التوبة التي ذكروها وتوهموا أنها ناسخة، ففيها الأمر بقتال من يقاتلنا، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ (التوبة: ٣٦)، وكلمة (كما) تفيد المثلية، والمعنى: قاتلوا المشركين واجتمعوا على قتالهم، مثلما يقاتلونكم وهم مجتمعون، وهذا حكم خاص، والخاص لا يَنْسَخ العام كما عرفنا.

٤. إن الذين يزعمون أن آية السيف في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ (التوبة) ناسخة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب)، يبينون ويكشفون عن كرههم الدفين لمحمد ﷺ وأمته، إذ إنها نزلت في الرسول ﷺ ومنزلته، ووصفه بالمكارم الفاضلة.

ولكن الحقد حملهم على القول بالنسخ، مع أنهما لا يقبلان النسخ؛ لأنهما خبريتان، والأخبار لا تنسخ، ولكن هؤلاء المدعين لا ضوابط عندهم عندما يتحدثون عن الإسلام؛ لأنهم لا يتحدثون عنه إلا ابتغاء الفتنة، ومع كثرة بحثهم، إلا أن الله أعماهم عن أوضح الآيات الداعية للسلام، في أول سورة من سور القرآن الكريم بعد الفاتحة؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ (الأنفال).

٥. وكذلك ادَّعى قوم النسخ بين قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة: ٩٠).

والآيتان هنا لا ناسخ ولا منسوخ فيهما، بل إن في الآية الثانية توكيدًا لما في الآية الأولى، فقد جاء في الآية الأولى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: ٢١٩)، ثم أكدت الآية الثانية هذا المعنى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ (المائدة: ٩٠)، فأين النسخ إذن؟

إنه تدرج القرآن في تحريم الأشياء التي كان لها قيمة في حياة الناس قبل الإسلام، ومن هنا تدرَّج في تضئيل دورها في حياة الناس الاقتصادية، وسَدَّ منافذ رواجها،

وتنبَّه الناس إلى أن تحريمها آتٍ لا محالة، وأخذوا يتحولون إلى منافذ وأنشطة اقتصادية أخرى، وجاء التحريم النهائي في سورة المائدة في قوله ﷻ: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ (المائدة: ٩٠)[1].

بناءً على ما سبق، فإن القوم المدَّعين خلطوا بين النسخ بمعناه الخاص به، وبين ما هو داخل في عموم النسخ كمصطلح عام، مثل: تخصيص العام، وتقييد المطلق، وتدَرُّج الأحكام التشريعية.

الخلاصة:

- النسخ بمعناه الخاص عند المحدثين "رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر عنه" واقع في قليل من أي القرآن.
- من ظنوا أن الآيات المنسوخة، قاربت الستمائة آية - إنما يتحدثون عن النسخ بمعناه العام، الذي عُرف عند الصحابة الكرام، وهو ما يطرأ على النص من تخصيص أو تقييد أو تدَرُّج، غير أن سوء الفهم وخبث النوايا يؤديان إلى هذه المغالطات.
- نضيف إلى ذلك أن الآيات التي ادعوا أنها منسوخة ليست منسوخة طبقًا لعلم الأصول والفقه، وإنما زعموا أنها منسوخة عن جهل وعناد، وغرضهم في ذلك التشكيك في صحة القرآن الكريم، وهو ما لم يبلغوه ولن يبلغوه.

١. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص١٢٨، ١٢٩ بتصرف يسير.

الشبهة العشرون

ادعاء أن أنواع النسخ في القرآن فيها من الاضطرابات ما ينفي وقوعها أصلا(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين وقوع الاضطراب وعدم الانضباط في أنواع النسخ الثلاثة في القرآن الكريم، ومن هنا يثيرون التساؤلات حولها، حائكين حول الأنواع الثلاثة كثيرًا من الشبهات، ومِنْ ثَمَّ يقولون: إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان تلازم المنطوق والمفهوم، ولذا لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر، فكيف يكون هناك نسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم؟ ويقولون: إن نسخ الحكم دون التلاوة يستلزم تعطيل الكلام الإلهي، وهذا لا يكون في حق الله، كما يقولون: إن بقاء التلاوة بعد نسخ الحكم يُوقع في رُوع المكلف بقاء هذا الحكم، وهذا توريط وتلبيس على العبد.

ثم يكملون هذه السلسلة بقولهم: إن الآية دليل على الحكم، فلو نسخت دونه لأشْعَرَ ذلك بارتفاع الحكم، وهذا بدوره مُلبس على المكلف، ويؤدي إلى توريطه في اعتقاد فاسد. ثم يحكمون هذه السلسلة من الأقوال الملبِسة المشكِّكة بقولهم: إن نسخ التلاوة مع بقاء الحكم عبث لا يليق بالشارع الحكيم؛ لأنه من التصرفات التي لا تُعقل لها فائدة.

(*) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق. مباحث في علوم القرآن، منَّاع القطان، مرجع سابق.

ويرمون من وراء هذه المطاعن جميعها وهذه التساؤلات إلى وَصْم التشريع بالعَبَث وإنكار وقوع النسخ في القرآن، للتوصل إلى التشكيك في سلامة القرآن وتمامه وعصمته.

وجها إبطال الشبهة:

١) النسخ واقع في القرآن بأنواعه الثلاثة، وقد أجمع جمهور المسلمين على ذلك لتوافر الأدلة والروايات الصحيحة على وقوعها جميعًا، أما ما حاكه المدَّعون من أقوال وتساؤلات بغرض التشكيك فهي مردودة بأدلة عقلية ونقلية.

٢) للنسخ في القرآن الكريم حِكَم ومقاصد عامة فضلا عن الحِكَم والمقاصد المنوطة بنوع بعينه من أنواع النسخ، وعدم العلم بهذه الحكم لا ينفي وجود النسخ؛ إذ ليس الجهل بالشيء دليلًا على عدمه.

التفصيل:

أولا. النسخ في القرآن واقع بأنواعه الثلاثة:

النسخ هو وقف العمل بحكم شرعي أفاده نص شرعي سابق من القرآن الكريم أو من السنة النبوية المطهرة، وإحلال حكم آخر محله، أفاده نص شرعي آخر لاحق من الكتاب أو السنة؛ لحكمة قصدها الشرع، مع صحة العمل بحكم النص السابق قبل ورود النص اللاحق.

ولا ريب أن المنطق السليم والعقل حاكمان بوقوع النسخ في القرآن الكريم؛ ذلك لأن المنطق السليم يقرر جواز وقوع النسخ عقلًا؛ لأنه لا يترتب على وقوعه محال، والجواز العقلي يكفيه هذا، وقد أتينا على ذكر ذلك في مواضع سابقة®.

أما عن أنواع النسخ في القرآن، فإن الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني تحدَّث عنها في كتابه "مناهل العرفان" فقال:

النسخ الواقع في القرآن أنواع ثلاثة:

- نسخ التلاوة والحكم معًا.
- نسخ الحكم دون التلاوة.
- نسخ التلاوة دون الحكم.

أما نسخ الحكم والتلاوة جميعًا، فقد أجمع عليه القائلون بالنسخ من المسلمين، ويدل على وقوعه سمعًا ما ورد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يُحَرِّمْنَ، ثم نُسِخْنَ بخمس معلومات، وتُوُفِّي رسول الله ﷺ وهن فيما يُقْرأ من القرآن"[1]. وإذا كان موقوفًا على عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإن له حكم المرفوع؛ لأن مثله لا يقال بالرأي، بل لا بد فيه من توقف جملة: "عشر رضعات معلومات يحرمن"، ليس لها وجود في المصحف حتى تُتْلى، وليس العمل بما تفيده من الحكم باقيًا، وبذلك يثبت وقوع نسخ التلاوة والحكم جميعًا، وإذا ثبت وقوعه ثبت جوازه؛ لأن الوقوع أول دليل على الجواز، وبطل مذهب المانعين لجوازه شرعًا.

وأما نسخ الحكم دون التلاوة، فيدل على وقوعه آيات كثيرة، منها: أن آية تقديم الصدقة أمام مناجاة

® في "وقوع النسخ في القرآن" طالع: الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء.

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات (٣٦٧٠).

الرسول ﷺ، وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾ (المجادلة: ١٢)، منسوخة بقوله تعالى: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (المجادلة)، على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية، مع أن تلاوة كلتيهما باقية.

ومنها أن قوله ﷻ: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ ﴾ (البقرة: ١٨٤)، منسوخ بقوله ﷻ: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ (البقرة: ١٨٥)، على معنى أن حكم هذه منسوخ بحكم تلك، مع بقاء التلاوة في كلتيهما كما ترى.

وأما نسخ التلاوة دون الحكم، فيدل على وقوعه ما صح عن أُبَي بن كعب أنه قال: "كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة أو أكثر"[1].

وإذا ثبت وقوع هذين النوعين كما ترى، ثبت جوازهما؛ لأن الوقوع أعظم دليل على الجواز، كما هو مقرر، وبذلك بطل ما ذهب إليه المانعون له من ناحية الشرع، ويبطل كذلك ما ذهب إليه المانعون له من ناحية العقل، وهم فريق من المعتزلة شذ عن الجماعة، فزعم أن هذين النوعين مستحيلان عقلًا.

ويمكنك أن تُفحِمَ هذا الفريق من المعتزلة بدليل على الجواز العقلي الصرف لهذين النوعين، فتقول: إن ما يتعلق بالنصوص القرآنية من التعبد بلفظها وجواز الصلاة بها وحُرْمَتِهَا على الجُنُبِ في قراءتها ومَسِّها ـ شبيه كل الشبه بما يتعلق بها من دلالتها على الوجوب والحرمة ونحوهما، في أن كلًّا من هذه المذكورات حكم شرعي يتعلق بالنص الكريم، وقد تقتضي المصلحة نَسْخَ الجميع، وقد تقتضي نَسْخَ بعض هذه المذكورات دون بعض، وإذن يجوز أن تُنْسَخَ الآية تلاوة وحُكْمًا، ويجوز أن تُنْسَخَ تلاوة لا حكمًا، ويجوز أن تُنْسَخ حكمًا لا تلاوة، وإذا ثبت هذا بطل ما ذهب إليه هذا الفريق من الاستحالة العقلية للنوعين الآخرين.

وبعد أن ذكر الأنواع الثلاثة، أجاب عن شبهات المنكرين المانعين، وهو يعْرضها واحدة واحدة؛ ليَرفَعَ الغشاوة عن أعين المتوهمين.

الشبهة الأولى ودفعها:

يقولون: إن الآية والحُكْم المستفاد منها متلازمان تلازم المنطوق والمفهوم، فلا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر.

والجواب: أن التلازم بين الآية وحكمها مشروط فيه انتفاء المعارِض وهو الناسخ، أما إذا وُجِدَ الناسخ فلا تلازم، والأمر حينئذ للشارع الحكيم، إن شاء رفع الحكم وأبقى على التلاوة، وإن شاء عكس، وإن شاء رفعهما معًا، على حسب ما تقتضيه الحكمة أو المصلحة، ونظير ذلك، أن التلازم بين منطوق اللفظ ومفهومه مشروط فيه انتفاء المعارِض، أما إذا وُجِدَ منطوق معارِض للمفهوم، فإن المفهوم حينئذ يعطل، ويبقى العمل بالمنطوق وحده.

الشبهة الثانية ودفعها:

يقولون: إن نسخ الحكم دون التلاوة، يستلزم

---

[1]. صحيح: أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الحدود، باب الزنا وحده (٤٤٢٨)، وصححه الحاكم في مستدركه، كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب (٣٥٥٤)، ووافقه الذهبي في التلخيص.

تعطيل الكلام الإلهي وتجريده من الفائدة، وهذا عيب لا يرضى به عاقل لأقل نوع من كلامه، فكيف يرضى به الله لكلامه؟

والجواب: أنا لا نسلم بهذا اللزوم، بل الآية بعد نسخ حكمها دون تلاوتها، تبقى مفيدة للإعجاز، وتبقى عبادة للناس، وتبقى تذكيرًا بعناية الله ورحمته بعباده، إذ قد سنَّ لهم في كل وقت ما يساير الحكمة والمصلحة من الأحكام، يضاف إلى ذلك أن الآية بعد نسخ حكمها لا تخلو غالبًا من دعوة إلى عقيدة، أو إرشاد إلى فضيلة، أو ترغيب في خير، ومثل ذلك لا يُنْسَخ بنسخ الحكم، بل تبقى الآية مفيدة له؛ لأن النسخ لا يتعلق به.

الشبهة الثالثة ودفعها:

يقولون: إن بقاء التلاوة بعد نسخ الحكم - يوقع في روع المكلف بقاء هذا الحكم، وذلك تلبيس وتوريط للعبد في اعتقاد فاسد، ومُحَال على الله أن يشكك أو يورط عبده.

والجواب: أن ذلك التلبيس وهذا التوريط، كان يصح به ادعاؤهما واستلزام نسخ الحكم دون التلاوة لهما، لو لم ينصب الله دليلًا على النسخ، أما وقد نصب عليه الدلائل، فلا عذر لجاهل ولا محل لتوريط ولا تلبيس؛ لأن الذي أعلن الحكم الأول بالآية وشرعه، هو الذي أعلن بالناسخ أنه نسخه ورفعه، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)﴾ (الأنعام).

الشبهة الرابعة ودفعها:

يقولون: إن الآية الكريمة دليل على الحكم، فلو نسخت دونه لأشعر نسخها بارتفاع الحكم، وفي ذلك ما فيه من التلبيس على المكلف، والتوريط له في اعتقاد فاسد.

وندفع هذه الشبهة: بأن تلك اللوازم الباطلة تحصل لو لم ينصب الشارع دليلًا على نسخ التلاوة، وعلى إبقاء الحكم، أما وقد نصب الدليل على نسخ التلاوة وحدها، وعلى إبقاء الحكم وتقرير استمراره كما في رجم الزناة المحصنين، فلا تلبيس من الشارع على عبده ولا توريط[1] ®.

ثانيًا. للنسخ في القرآن حِكَم ومقاصد:

إذا كان الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله ﷻ وتسليم النفس والأمر إليه بالسمع والطاعة في كل ما يأمر به، إذا كان كذلك، فإنه على كل مسلم أن يسلِّم بوقوع النسخ في القرآن ما دامت قد أتت النصوص به، حتى لو لم تتبين لنا الحكمة من هذا النسخ.

ومع أنَّنا لسنا مكلَّفين بمعرفة الحكمة من كل تشريع، إلا أن البحث عن هذه الحكم من مُلَح العلم ومما يزيد القلب طمأنينة بسلامة هذا التشريع وخلوِّه من التناقض والاختلاف، والخلل والانحراف، وصلاحيته لكل الناس في جميع العصور على السواء[2].

لما كانت شريعة الإسلام التي أَرْسَلَ الله تبارك وتعالى بها النبي محمدًا ﷺ للناس كافة وللبشرية عامة، كانت هذه الرسالة ناسخة لكل ما تقدمها من الشرائع؛

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٩: ١٧٢.

® في "وقوع النسخ في القرآن" طالع: الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء.

٢. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٣٢ بتصرف يسير.

لأنها الشريعة المتوافقة مع الفطرة: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠).

ولما كان الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام لا يمكن أن يتم طفرة، أو بين عشية وضحاها، كان لا بد من بعض الأحكام الانتقالية المؤقتة في الشريعة الخاتمة؛ ومن هنا كانت حكمة النسخ في الشريعة الإسلامية، فعلى الرغم من أن الشريعة الإسلامية نسخت الشرائع السابقة لها، ومن أنها باقية خالدة إلى يوم القيامة، ولا يصح نسخها بأخرى - فإن مدة نزول القرآن، وهي مدة التحول من الجاهلية إلى الإسلام، كان لا بد لها من أحكام خاصة، حتى إذا انتهت هذه المدة انتهى النسخ، ومن هنا كان النسخ خاصًّا بتلك المدة الزمنية التي كان الوحي يتنزل فيها، وبانقطاع الوحي انقطع النسخ.

وأما الأحكام التي نسخت في الشريعة الإسلامية، فقد كانت الحكمة في بعضها التدُّرج في التشريع، وذلك في الأحكام الشاقة على النفوس، سواء أكانت منهيَّات - كتحريم الخمر والزنا، أم مأمورات - كتشريع الصوم والجهاد، وكانت الحكمة في بعضها مراعاة مرحلة الانطلاق والتأسيس التي تحتاج إلى جهد غير عادي، ومن هنا كان فرض قيام الليل، ووجوب الثبات أمام عشرة من المشركين، ثم خُفِّفَ ذلك بعد أن كثر عدد المسلمين وازدادت قوتهم، فعاد الأمر إلى طبيعته المعتادة، فأصبح قيام الليل سنة، والوقوف أمام اثنين من المشركين هو الواجب[1].

نستطيع الآن أن نلخص حكمة النسخ فيما يأتي:

- مراعاة مصالح العباد.
- تطور التشريع إلى مرتبة الكمال حسب تطور الدعوة وتطور حال الناس.
- ابتلاء المكلَّف واختباره بالامتثال وعدمه.
- إرادة الخير للأمة والتيسير عليها؛ لأن النسخ إن كان إلى أشق ففيه زيادة الثواب، وإن كان إلى أخف ففيه سهولة ويسر[2].

هذا عن حكمة النسخ بعامة، وإذا كان للنسخ عامة كل هذه الحِكَم والمقاصد، فإن القائلين بعدم وقوع النسخ يتساءلون: ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم - وهلَّا بقيت التلاوة للجمع بين حكم الآية وثواب تلاوتها؟

نقل الزركشي عن ابن الجوزي إجابة عن هذا التساؤل قائلًا: "إنما كان كذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة في المسارعة إلى بذل النفوس بطريقة الظن من استفصال لطلب طريق مقطوع به، فيُسرعون بأيسر شيء، كما سارع الخليل إلى ذَبْح ولده بمنام، والمنام أدنى طرق الوحي"[3].

وقد يدَّعي المانعون أن نسخ التلاوة مع إبقاء الحكم، عبث لا يليق بالشارع الحكيم، لأنه من التصرفات التي لا تعقل لها فائدة.

يقول الشيخ عبد العظيم الزرقاني مجيبًا عن هذا: ندفع هذه الشبهة بجوابين:

---

١. البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، أحمد بن منصور آل سبالك، مرجع سابق، ص١٩٥ بتصرف يسير.

٢. مباحث في علوم القرآن، منَّاع القطَّان، مرجع سابق، ص٢٣٢.

٣. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٧.

أحدهما: أن نسخ الآية مع بقاء الحكم ليس مجردًا من الحكمة، ولا خاليًا من الفائدة، حتى يكون عبثًا، بل فيه فائدة أي فائدة، وهي حصر القرآن في دائرة محدودة، تيسر على الأمة حفظه واستظهاره، وتسهل على سواد الأمة التحقق فيه وعرفانه، وذلك سور محكم، وسياج منيع، يحمي القرآن من أيدي المتلاعبين فيه بالزيادة أو النقص؛ لأن الكلام إذا شاع وذاع وملأ البقاع، ثم حاول أحد تحريفه، سرعان ما يعرف، وشذ ما يقابل بالإنكار، وبذلك يبقى الأصل سليمًا من التغيير والتبديل، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

وخلاصة ذلك: أن حكمة الله تعالى قضت أن تنزل بعض الآيات الكريمة في أحكام شرعية عملية، حتى إذا اشتهرت تلك الأحكام، نسخ سبحانه هذه الآيات في تلاوتها فقط؛ رجوعًا بالقرآن الكريم إلى سيرته من الإجمال، وطردًا لعادته في عرض فروع الأحكام من الإقلال؛ تيسيرًا لحفظه وضمانًا لصونه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ (البقرة).

ثانيهما: أنه على فرض عدم علمنا بحكمة هذا النوع من النسخ ولا فائدته، فإن عدم العلم بالشيء لا يصلح حجة على العلم بعدم ذلك الشيء، وإلا فمتى كان الجهل طريقًا من طرق العلم؟ ثم إن الشأن في كل ما يصدر عن العليم الحكيم الرحمن الرحيم، أن يصدر لحكمة أو لفائدة، نؤمن بها وإن كنا لا نعلمها على التعيين، وكم في الإسلام من أمور تعبدية، استأثر الله تعالى بعلم حكمتها، أو أطلع عليها بعض خاصته من المقربين منه والمحبوبين لديه: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾ (الإسراء).

ولا بدع في هذا، فربُّ البيت قد يأمر أطفاله بما لا يُدْرِكون فائدته؛ لنَقْص عقولهم، على حين أنه في الواقع مفيد، وهم يأتمرون بأمره وإن كانوا لا يدركون فائدته، والرئيس قد يأمر مرءوسيه بما يعجزون عن إدراك سِرِّه، وعلى حين أن له في الواقع سرًّا وحكمة، وهم ينفذون أمره، وإن كانوا لا يفهمون سره وحكمته.

كذلك شأن الله مع خلقه فيما خفي عليهم من أسرار تشريعه، وفيما لم يدركوا من فائدة نسخ التلاوة دون الحكم، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾ (النحل)[1].

وإذا كنا قد خلصنا وانتهينا إلى مثل هذه الحكم والمقاصد، وجدنا من يبتهج فرحًا بتساؤل ظنَّه توصُّلًا إلى مالم يُتوصل إليه، وحسبه المانع للنسخ شيئًا قويًّا يدحض الحق الأبلج " يحسبه الظمآن ماءً"، فراح المدَّعى يقول: إذا كان الأمر كذلك في نسخ التلاوة مع إبقاء الحكم، فما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ وغدا يقول: إن بقاء تلاوة الآية مع نسخ الحكم فيه إيهام ببقاء الحكم وتعريض المكلف للجهل والغلط.

أما عن السؤال عن حكمة رفع الحكم مع بقاء التلاوة، فالجواب - كما ذكره الزركشي - من وجهين:

أحدهما: أن القرآن كما يُتْلَى ليُعْرَف الحُكْم منه والعمل به، فيُتْلَى لكونه كلام الله ﷻ فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص١٧٣.

وثانيهما: أن النسخ غالبًا يكون للتخفيف، فأبقيت التلاوة تذكيرًا بالنعمة ورفع المشقة، وأما حكمة النسخ قبل العمل، كالصَّدقة عند النَّجْوى فيثاب على الإيمان به، وعلى نية طاعة الأمر[1].

وأما شبهة إيهام بقاء الحكم، وتعريض المكلَّف للجهل والخلط، فهي مردودة بأن النسخ لا يُصَار إليه إلا بدليل معلوم للمكلَّف، وإذا علم الدليل الناسخ زال الجهل، وبَعُدَ احتمال الخلط في الأحكام[2]®.

وأخيرًا نقول: إذا كنا مأمورين بالتسليم لكل تشريع حتى ولو لم نعلم حكمته، فما بالنا وقد علمنا هذه الحكم الجمة والمقاصد العظيمة؟ وهذه الحكم كلها لا ينفي وجودها قصر نظر بعض الناس عنها:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضوء الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ
ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

الخلاصة:

- النسخ واقع في القرآن الكريم، والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن والسنة، وجمهور العلماء يقولون بأنواعه الثلاثة؛ وذلك لتوافر الأدلة على وقوع الأنواع الثلاثة في القرآن.
- إذا ثبت بالنصوص وقوع الأنواع الثلاثة في القرآن وجب التسليم بها، إلا أن المانعين يوردون شبهات سهلة النقض، نوجزها رادين عليها فيما يأتي:
  - قولهم إن الآية والحكم المستفاد منها متلازمان تلازم المنطوق والمفهوم ولا يجوز انفكاك أحدهما عن الآخر - مردود بأن هذا التلازم مشروط بانتفاء المعارض وهو الناسخ، والآمر به، يفعل ما تقتضيه الحكمة أو المصلحة.
  - قولهم: إن نسخ الحكم دون التلاوة يستلزم تعطيل الكلام الإلهي وتجريده من الفائدة وهذا عيب يتنزه عنه الله - مردود بأن تلاوة الآية بعد نسخ حكمها تبقى مفيدة للإعجاز، وتبقى عبادة للناس، وتذكيرًا بعناية الله ورحمته بعباده؛ إذ سنَّ لهم في كل وقت ما يساير الحكمة والمصلحة، كما أن الآية بعد نسخ الحكم لا تخلو من دعوة إلى عقيدة أو إرشاد إلى فضيلة.
  - قولهم: إن بقاء التلاوة بعد نسخ الحكم يوقع المكلف في لبس - مردود بأن هذا حادث لو لم يورد الله دليلًا على النسخ، أما وقد نصب الله الدلائل، فلا عذر لجاهل، ولا محل لتوريط أو تلبيس؛ لأن الله الذي أعلن الحكم الأول بالآية وشرعه، هو الذي أعلن بالناسخ أنه نسخه ورفعه.
  - قولهم: إن نسخ الآية دون الحكم يوقع التلبيس على المكلف؛ لأن الآية دليل على الحكم - مردود بأن هذه اللوازم باطلة؛ لأن الله قد نصب الدليل على نسخ التلاوة وإبقاء الحكم.
- النسخ في القرآن له حِكَمٌ عظيمة، كمراعاة مصالح العباد، وتطور التشريع إلى مرتبة الكمال، وابتلاء المكلَّف واختباره بالامتثال وعدمه، وإرادة الخير للأمة والتيسير عليها، وهذه حكم ومقاصد عامة.
- ثمة حكم ومقاصد خاصة بكل نوع بعينه، فمثلًا قضت حكمة الله أن تنزل بعض الآيات في أحكام

---

1. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مرجع سابق، ص٣٩.
2. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٨٩.

® في "حِكَم النسخ ومقاصده" طالع: الوجه الثالث، من الشبهة السابعة عشرة، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة الثلاثين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

شرعية عملية، حتى إذا اشتهرت تلك الأحكام، نسخها الله تلاوةً فقط؛ رجوعًا بالقرآن إلى سيرته من الإجمال، وطردًا لعادته في عرض فروع الأحكام من الإقلال، تيسيرًا لحفظه وضمانًا لصونه.

- وأما رفع الحكم مع بقاء تلاوته، فحكمته الإثابة على التلاوة، وتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم برفعه الحرج والمشقة عنهم.
- إذا كنا مأمورين بالتسليم والامتثال لكل تشريع من الله تعالى سواء أعلمنا حكمته أم لم نعلمها، فإن هذه الحكم والمقاصد التي ذكرناها في النسخ عامة وفي نوع بعينه خاصة، تقودنا إلى التسليم بوقوع النسخ في القرآن الكريم بأنواعه الثلاثة، دون اضطراب أو خلل.

الشبهة الحادية والعشرون

الزعم أن القراءات القرآنية ليست وحيًا من عند الله(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن تعدد القراءات ليس وحيًا من عند الله نزل به الروح الأمين على قلب النبي ﷺ، قائلين: إنها مجرد تخيُّلات توهَّمها علماء المسلمين، وهم بذلك يضعون المبررات لإثبات وجود التحريف في القرآن الحكيم، رامين من وراء هذا وذاك إلى الطعن في سلامة القرآن الكريم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القراءات القرآنية وحي من عند الله ﷻ؛ ولذلك أقرها النبي ﷺ ولم ينكر على أصحابه القراءة بها؛ فهي رخصة من الله لهم.

٢) لقد تم تأصيل القراءات بعد وفاة الرسول ﷺ بوصفها علمًا لا يستهان به، والأمة أجمعت على قرآنيتها وتلقتها بالقبول.

٣) هذا الاختلاف لا يمس أصلًا ولا فرعًا من التشريع، فالقراءات لم تُحَرِّم حلالًا ولم تُحِلَّ حرامًا، ولا تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات.

التفصيل:

أولا. القراءات وحي من الله:

مما يدل على أن القراءات القرآنية وحي من الله ﷻ إقرار الرسول ﷺ لهذا الاختلاف حال حياته، فقد حدث هذا الاختلاف في عهد الرسول ورفع أمره إليه فأقره، وما كان النبي ليقرَّ شيئًا إلا بوحي من الله تعالى.

فالمعروف أن النبي ﷺ تلقى القرآن بحروفه السبعة وقراءاته التي رواها عنه صحابته، وسمعوها منه شفاهة قبل جمع القرآن كتابةً، فقد جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: "أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[1].

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، مرجع سابق.

® في "تعدد القراءات القرآنية" طالع: الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء. والشبهة الستين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٧٠٥)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٣٩).

وجاء عن عمر بن الخطاب أيضًا أنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبَّرْتُ حتى سلَّم، فلَبَّبْتُه بردائه، فقلتُ: "من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ" ؟ قال: "أقرأنيها رسول الله ﷺ"، فقلت: "كَذَبْتَ، فإن رسول الله أقرأنيها على غير ما قرأت".

فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت: "إني سمعت هذا يقرأ الفرقان على حروف لم تُقْرِئنيها"، فقال رسول الله ﷺ: "أرسله، اقرأ يا هشام"، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ.

فقال رسول الله ﷺ: "كذلك أُنْزِلت"، ثم قال: "اقرأ يا عمر"، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله: "كذلك أنزلت. إن هذا القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه"[1].

وهذا دليل قاطع على أن القرآن وحي من الله، واختلاف القراءات نزل هكذا من عند الله لحكمة جليلة ـ عرضناها فيما سبق ـ والقراءات هي أيضًا قرآن، فلماذا الجدال؟ وفي أي شيء يجادلون؟ ومن يحاسبون؟ الله الذي خلق الكون بأسره وهو أعلم بما خلق، وما كان لرسول الله ﷺ أن يضيق على أمته واسعًا، بل هو الذي كان يطلب من الله التيسير بتلك الأحرف السبعة كما سبق.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٧٠٦) وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٣٦).

ما مصير الأحرف السبع بعد وفاة الرسول ﷺ؟

هل الأحرف السبعة رخصة للمسلمين، زالت بزوال سببها، وهو تعدد اللهجات العربية وقت نزول القرآن، أم أنها عزيمة باقية إلى يوم الدين، شأنها شأن بقية الأحكام الشرعية؟

للإجابة على ذلك نقول: إنه من المتفق عليه بين علماء الأمة أنه لا يجوز أن يُقرأ القرآن الكريم إلا بالقراءة المتواترة إلى رسول الله ﷺ، التي تلقاها الناس خلفًا عن سلف مشافهة من أفواه القراء، وتعلمًا من القواعد التي وضعوها لذلك، وهذه القراءات المتواترة محصورة اليوم في القراءات العشر المعروفة، المشهورة برواياتها وطرقها واصطلاحاتها وضوابطها، وغير هذه القراءات العشر قراءات شاذَّة يَحْرُم القراءة بها عند جميع أهل العلم.

إذن فسواء بقيت الأحرف السبع أم نسخت، فلا مجال للقراءة بغير القراءات المذكورة المشار إليها، هذا ما اتفق عليه العلماء، أما الاختلاف فكان في: هل نسخت أم لا، ولهم في هذا الأمر مذهبان مشهوران:

الأول: أن الأحرف السبع زالت بزوال العذر المسبب لها، وذهب إلى هذا جماهير الفقهاء، واحتجوا لذلك بأن المصاحف العثمانية لم تشتمل على الأحرف السبع، واقتصرت على حرف قريش، وكان ذلك بمشورة الصحابة ﷺ الذين استشارهم عثمان في هذا الأمر ثم لم يخالفهم أحد بعد ذلك.

الثاني: وذهب بعضهم ـ ومنهم الإمام الرازي وابن قتيبة ـ إلى أن الأحرف السبعة عزيمة باقية ولم تنسخ، واحتجوا لذلك بأن المصاحف العثمانية نقلت من مصحف الصديق المشتملة على الأحرف السبعة، وأن

الناس ما زالوا مختلفين في لهجاتهم[1].

وهنا يجب أن نذكر أمرًا مهمًّا، وهو أن القراءات السبعة ليست هي الأحرف السبع - وإن أوهم التوافق العددي الوحدة بينهما - التي نزل بها القرآن الكريم على النبي ﷺ، والتي كان يقرأ بها النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، بل هي بعض من الأحرف السبع، وإلا فالقراءات السبعة إنما اشتهرت على رأس المائتين بسبب إقبال الناس على بعض الأئمة دون غيرهم لشهرتهم في العلم والفقه والورع، ولتفرغهم للإقراء والتعليم، وأيضًا لتوافر التلاميذ الذين اعتنوا بها ونشروها دون غيرها.

ثانيًا. القراءات بعد وفاة الرسول ﷺ:

لقد عُني الصحابة ﷺ بالقراءات وحرصوا على ألا يدخل فيها ما ليس منها؛ لأنها كلام الله تبارك وتعالى وذلك في حياة الرسول ﷺ وبعد وفاته، ففي حديث عمر بن الخطاب ﷺ واحتكامه إلى رسول الله ﷺ بعد سماعه سورة الفرقان بقراءة أخرى من "هشام بن حكيم" - ما يدل على حرصهم على أن يحفظوا القرآن الكريم كما أنزل دون تحريف، وانتشر الصحابة ﷺ في الأمصار بعد ذلك يعلمون الناس.

ومن هنا جاء الاختلاف تبعًا لاختلاف اللهجات، فتصدى العلماء لهذه القضية؛ حتى لا تتسع الدائرة ويصبح من الصعب إغلاقها، فرأيناهم قسَّموا هذه القراءات إلى: متواترة، وقراءة آحاد، وقراءات شاذة، وجعلوا المتواترا السبع، وقراءات الآحاد الثلاثة المتممة لعشرها، ثم ما يكون من قراءات الصحابة، وما بقي فهو شاذ.

والقراء السبعة المشهورون هم: أبو عمرو بن العلاء، وابن كثير، ونافع المدني، وابن عامر الشامي، وعاصم الكوفي، وحمزة الكوفي، والكسائي، أما الثلاثة الباقون فهم: أبو جعفر المدني، ويعقوب البصري، وخلف بن هشام.

والسبب في الاقتصار على السبعة - مع أنه في أئمة القراء من هو أجل منهم قدرًا أو مثلهم، عدد أكثر من السبعة - هو أن الرواة عن الأئمة كانوا من الكثرة بمكان، فلما تقاصرت الهمم اقتصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه، فأفردوا من كل مصر إمامًا واحدًا.

ثالثًا. الاختلاف في القراءات لا يمس أصلا من أصول الدين ولا فرعًا من فروعه:

هذه الاختلافات في القراءة لم تحل حرامًا ولا تحرم حلالًا، ولا تتعلق بالعقائد ولا العبادات ولا المعاملات، ولم تُثر بين المسلمين حربًا، ولا اعتبرها أحد شبهة على الكتاب الإلهي، فكل كلام في هذا الموضوع من قبيل العبث أو الفهم الخاطئ لطبيعة هذه القراءات والحكمة من تعددها، فلا يُقام له وزن عند المسلمين أو عند سواهم®.

---

١. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيمي، مرجع سابق، ص٦٩، ٧٠.

® في "عدم تأثر العقيدة وأصول الشرع باختلاف القراءات" طالع أيضًا: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء.

الخلاصة:

- القراءات القرآنية وحي من عند الله تبارك وتعالى تيسيرًا وتسهيلًا على الأمة، ولم يترتب عليها أي اختلاف في فهم المسلمين، ولم تحدث بسببها أية فرقة بين الأمة، وإلا فما النزاع الذي حدث بين الأمة بسبب القراءات، ومتى حدث؟ وكيف حدث؟ إنه محض افتراء وادعاءات كاذبة لا تصمد أمام الحقيقة والبرهان.
- الأحرف السبع رخصة زالت بزوال سببها ـ على أرجح الأقوال ـ والقراءات العشرة إنما تواتر بعضٌ منها، مما يدل على أنها لم تؤد إلى أي اختلاف في معاني القرآن ولا في أحكامه، ولا حدث بسببها أي نزاع بين المسلمين.
- هذا الاختلاف لا يمس أصلًا من أصول الدين ولا حتى فرعًا من فروعه، فالقراءات لم تحرم حلالًا ولا أحلَّت حرامًا، ولا تتعلق بالعقائد والعبادات والمعاملات، وإلا فما العقائد التي اختلف المسلمون فيها، وكان مرد النزاع فيها اختلاف القراءات؟
- لقد اهتم المسلمون بتأصيل القراءات بعد وفاة النبي ﷺ ولم يقبلوا منها إلا ما أجمعت الأمة على أنها قرآن وتلقتها بالقبول.

الشبهة الثانية والعشرون

الزعم أن تعدد قراءات القرآن نوع من الاختلاف والتحريف(*) ®

مضمون الشبهة:

يتوهم بعض الطاعنين أن تعدد قراءات القرآن الكريم يدل على الاختلاف فيه، وأن هذا ـ في رأيهم ـ نوع من التحريف؛ قاصدين الطعن في تعدد القراءات والحكمة من هذا التعدد، ومن ثم التشكيك في عصمة القرآن.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن تعدد القراءات لا يعني الاختلاف والتغاير؛ بل إن النظرة المنصفة لهذا التعدد وما نِيْطَ به من حِكم من شأنها أن تبين بجلاء ووضوح ما في هذا التعدد من إعجاز وبيان.

٢) تعدد القراءات لا ينتج عنه أي اختلاف في أصول الدين ولا فروعه، إنما هي طرق متنوعة في الأداء الصوتي أكثر منها في البنية الصرفية أو التركيب النحوي، وهي مضبوطة بضوابط وضعها العلماء.

٣) تعدد القراءات وحي من عند الله ﷻ ووقف منقول عن الرسول ﷺ، وليس تبعًا لأهواء البشر وأذواقهم.

(*) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، مرجع سابق. الإسلام في تصورات الغرب، محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٧م. مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، مرجع سابق.

® في **"تعدد القراءات القرآنية"** طالع: الشبهة العشرين، من هذا الجزء. والشبهة الستين، من الجزء الثاني (لغة القرآن الكريم).

٤) تعدد القراءات القرآنية لا يشمل إلا كلمات وألفاظًا محصورة فقط في بعض الآيات.

٥) قراءة الكلمة القرآنية على أكثر من وجه نحوي أو صرفي، يساعد على أداء المعاني ما دام قد أقرَّها رسول الله ﷺ، وهذا لا يعني تضاد المعاني أو تناقض المدلولات.

التفصيل:

أولا. تعدد القراءات لا يعني اختلافها، وهو لحكم جليلة:

لم يعرف هؤلاء الطاعنون شيئًا عن المفهوم الحقيقي والمعنى الاصطلاحي لعلم القراءات، فأخذوا بظاهر اللفظ من ناحية اللغة، وحسبوا أن تعدد القراءات يعني تغايرها، كما يدل عليه ظاهر لفظ "تعدد" في العرف اللغوي العام.

بينما كلمة "تعدد" هنا ـ في اصطلاح هذا العلم ـ لا تعني الاختلاف والتغاير المؤدي إلى اختلاف المعاني وتغايرها، لأننا إذا بحثنا في جميع القراءات لن نلحظ أي اختلاف أو تغاير ذي بال في المعاني أو الألفاظ.

من هنا فإننا نوجه عناية هؤلاء المدَّعين إلى ضرورة مطالعة هذا العلم ومُدارسته ومعرفة قواعده وأصوله، ونحن على يقين من أنهم بعد ذلك سوف يهتدون إلى يقين لا شك فيه بأنه لا خلاف بين القراءات، وأن تعددها لا يغير في المعاني ولا فيما يترتب على ذلك من الأحكام.

وعن أسباب تعدد القرءات ونزول القرآن الكريم على سبعة أحرف يقول المحقق ابن الجزري: وأما سبب وروده على سبعة أحرف، فللتخفيف عن هذه الأمة وإرادة اليسر بها، والتهوين عليها شرفًا لها، وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها، وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق، حيث أتاه جبريل فقال: "إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف"، فقال ﷺ: "أسأل الله معافاته ومعونته؛ فإن أمتي لا تطيق ذلك"، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف[1]، ثم قال: "وكما ثبت أن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف، وأن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد، وذلك أن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة، والنبي ﷺ بعث إلى جميع الخلق، أحمرهم وأسودهم، عربيِّهم وعجميِّهم، وكانت لغات العرب ـ الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم ـ مختلفة وألسنتهم شتى، ويَعْسُر على أحدهم الانتقال من لغة إلى غيرها، أو من حرف إلى أحرف، بل قد يكون أحدهم لا يقدر على ذلك، ولو بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتابًا، كما أشار إليه النبي ﷺ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطِّباع.

ونحيطك علمًا هنا بأن لهذا الاختلاف والتعدد فوائد أخرى، منها:

١. جمع الأمة الإسلامية الجديدة على لسان واحد

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب ﷺ (٢١٢١٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٤٨٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٤٧٨).

يوحِّد بينها، وهو لسان قريش الذي نزل به القرآن الكريم، والذي انتظم كثيرًا من مختارات ألسنة القبائل العربية، التي كانت تختلف إلى مكة في موسم الحج وأسواق العرب المشهورة.

فكان القرشيون يَسْتَمْلِحون ما شاءوا، ويصطفون ما راق لهم من ألفاظ الوفود العربية القادمة إليهم من كل صَوْب وحَدَب، ثم يُصْقِلونه ويُهَذِّبونه ويُدخلونه في دائرة لغتهم المرنة، التي أذعن جميع العرب لها بالزعامة وعقدوا لها راية الإمامة، وعلى هذه السياسة الرشيدة نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف، يصطفي ما شاء من لغات القبائل العربية على نمط سياسة القرشيين، بل أوفق، ومن هنا صح أن يقال: إنه نزل بلغة قريش؛ لأن لغات العرب جمعاء تمثلت في لسان القرشيين بهذا المعنى، وكانت هذه حكمة إلهية سامية، فإن وحدة اللسان العام من أهم العوامل التي تساعد على وحدة الأمة، خصوصًا أول عهدها بالتوثب والنهوض.

٢. الجمع بين حكمين مختلفين بمجموع القراءتين، كقوله ﷻ: ﴿فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، قُرئ بالتخفيف والتشديد في حرف الطاء من كلمة "يطهرن" ولا ريب أن صيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة في طهر النساء من الحيض؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أما قراءة التخفيف فلا تفيد هذه المبالغة، ومجموع القراءتين يحكم بأمرين هما:

- أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر، وذلك بانقطاع الحيض.
- أنها لا يقربها زوجها أيضًا إلا إذا بالغت في الطهر، وذلك بالاغتسال، فلا بد من الطهرين كليهما في جواز قربان النساء، وهو مذهب الشافعي ـ رحمه الله ـ ومن وافقه.

٣. الدلالة على حكمين شرعيين، ولكن في حالين مختلفين، كقوله ﷻ في بيان الوضوء: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾ (المائدة: ٦)، قرئ بنصب (أرجلكم) وبجره، فالنصب يفيد طلب غسلها؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ المنصوب، وهو مغسول، والجر يفيد طلب مسحها؛ لأن العطف حينئذ يكون على لفظ (رءوسكم) المجرور وهو ممسوح، وقد بين الرسول ﷺ أن المسح يكون للابس الخف، وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخف.

٤. دفع توهم ما ليس مرادًا كقوله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩)، وقُرئ (فامضوا إلى ذكر الله)، القراءة الأولى يتوهم منها وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة، ولكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم؛ لأن المضي ليس من مدلوله السرعة.

٥. بيان لفظ مبهم نحو قول الله ﷻ: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ (القارعة)، وقرئ: "كالصوف المنقوش"، فبيَّنت القراءة الثانية أن العهن هو الصوف.

٦. تجلية عقيدة ضلَّ فيها بعض الناس، نحو قوله تعالى في وصف الجنة وأهلها: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ (الإنسان). جاءت القراءة بضم الميم

وسكون اللام في لفظ "وملكًا كبيرًا"، وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه، فرفعت هذه القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه الحق في عقيدة رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة؛ لأنه ﷻ هو الملك وحده في تلك الدار: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ (غافر).

٧. تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، وذلك ضرب من ضروب البلاغة، يبتدئ من جمال هذا الإيجاز، وينتهي إلى كمال الإنجاز أضف إلى ذلك: ما في تنوع القراءات من البراهين الساطعة، والأدلة القاطعة على أن القرآن كلام الله، وعلى صدق من جاء به، وهو رسول الله ﷺ، فإن هذه الاختلافات في القراءة - على كثرتها - لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاده، ولا إلى تهافت وتخاذل، بل القرآن كله - على تنوع قراءاته - يُصدِّق بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، ويشهد بعضه لبعض، على نمط واحد في علوِّ الأسلوب والتعبير، وهدف واحد من سمو الهداية والتعليم، وذلك - من غير شك - يفيد تعدد الإعجاز لتعدد القراءات والحروف.

معنى هذا أن القرآن الكريم يُعْجِز إذا قرئ بهذه القراءة، ويعجِز أيضًا إذا قرئ بقراءة ثانية، ويعجز أيضًا إذا قرئ بقراءة ثالثة، وهَلُمَّ جرًّا، ومن هنا تتعدد المعجزات، بتعدد تلك الوجوه والحروف، ولا ريب أن ذلك أدل على صدق محمد ﷺ؛ لأنه أعظم في اشتمال القرآن الكريم على مناحٍ جمَّة في الإعجاز وفي البيان، على كل حرف ووجه، وبكل لهجة وبيان، يقول تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ (الأنفال)[1].

بالإضافة إلى ما سبق، يؤكد د. محمد محمد أبو شهبة على مزيد من المعاني والحكم في هذا الشأن، قائلًا: "إن هذه التوسعة والإباحة في القراءة بأي حرف من الحروف السبع، إنما كانت في حدود ما نزل به جبريل عليه السلام، وما سمعوه من النبي ﷺ، وذلك بدليل أن كلًّا من المختلفين كان يقول: أقرأنيها رسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ كان يعقب على قراءة كل من المختلفين بقوله: "هكذا أنزلت"، ولا يتوهَّمنَّ متوهِّم أن التوسعة إنما كانت باتباع الهوى والتشهِّي، فذلك ما لا يليق أن يفهمه عاقل، فضلًا عن مسلم؛ إذ الروايات الواردة تردُّه وتبطله، إن هذه التوسعة مظهر من مظاهر الرحمة والنعمة، فلا ينبغي أن تكون مصدر اختلاف ونقمة، أو أن تكون مثيرة للشك أو مضعفة لليقين، فقد حذَّرهم الرسول ﷺ من الاختلاف... ومن الشك في القرآن الكريم كما في حديث عمرو بن العاص: "نزل القرآن على سبعة أحرف، على أي حرف قرأتم فقد أصبتم، فلا تتماروا فيه؛ فإن المِراء فيه كُفْر"[2].

هكذا بانت الحِكَم البليغة، والعلل المبينة من تعدد القراءات، فهي نعمة كما أرادها مُنَزِّل الكتاب، وليست نقمة كما صوَّر الزاعمون أنها دليل على التحريف

---

١. مناهل العرفان، الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص١٢٠: ١٣٠ بتصرف.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، بقية حديث عمرو بن العاص عن النبي ﷺ (١٧٨٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، باب في تعظيم القرآن، فصل في ترك المماراة في القرآن (٢٢٦٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٢٢).

وشاهد على التبديل[®].

ثانيًا. تعدد القراءات لا ينتج عنه أي اختلاف في أصول الدين أو فروعه، إنما هي طرق أداء صوتية أكثر منها اختلافات صرفية ونحوية:

إننا إذا نظرنا إلى الأمور التي تتمايز فيها كل قراءة عن أخرى سوف يتضح لنا أن ذلك على ضربين هما:

١. **الأصول**: وهي المبادئ العامة في طريقة الأداء الصوتية فقط عند كل قارئ ومن يروي عنه من الرواة والنقلة الآخذين منه، فمنهم من يمد بعض الحروف - حروف العلة إذا تلاها همز أو سكون - ومنهم من يقصرها، ومنهم من يُرقِّق بعض الحروف ومنهم من يفخمها، كذا الحال في إدغام بعض الحروف في بعض، والإمالة، والفتح، والسكت على كل ساكن صحيح بعده همزة أو نقلة... إلخ.

وعلى هذا الأساس يسير القارئ في القرآن كله لا يتعدى القواعد التي يقرأ بها ولا يحيد عنها، فأي اختلاف وأي تحريف في المعاني والأحكام، ينتج عن مجرد نطق حرف مفخمًا عند بعض ومرققًا عند آخرين؟! وأي اختلاف وأي تحريف يترتب على إمالة حرف، أو فتحه، أو السكت عليه، أو عدم السكت عليه، أو إدغامه فيما بعده أو إظهاره؟!

٢. **الفرش (المفردات)**: وهذا هو التمايز الثاني في طريقة أداء كل قراءة عن الأخرى، وإن كان الأصل في هذا النوع هو تغير في بنية الكلمة، أو في حركتها الأخيرة إلا أنه دائمًا راجع إلى أساليب العرب في كلامها وطرق بيانها، وإذا دققنا النظر فيه من الناحية الصوتية وجدناه أيضًا تغايرًا في الأداء الصوتي أو النبرة العرفية عند كل قوم خصوصًا إذا كان التصريف في بنية الكلمة، كمن ينطق كلمة "بئيس" "بيئس" أو "بيس" أو يشدد النبر الصوتي في أدائه على بعض الكلمات كمن ينطق كلمة "يَطْهُرن" بسكون دون تشديد أو "يَطَّهرن" بالتشديد مع الفتح.

أما إذا كان الاختلاف في حركات أواخر الكلمات أي في الإعراب، فهذا لا يترتب عليه، أي اختلاف في المعاني، إلا كونه تنوعًا في الأساليب المؤدية كلها إلى معنى واحد وحكم واحد، ومثال ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ (الكهف)، ببناء الفعل "نُسير" للمعلوم وعليه تكون لفظة "الجبال" مفعول به منصوب، فمنهم من قرأها: "ويوم تُسير الجبالُ" ببناء الفعل "تُسير" للمجهول، وعليه تكون لفظة "الجبال" نائب فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة، وعلى هذا يقاس كل تمايز في المفردات بين القراء، فنحن نلاحظ أن المعنى واحد بين "نُسير الجبال" و "تُسير الجبال".

حتى إن بعض الأحكام الفقهية اليسيرة التي استنبطها بعض الفقهاء في أحيان قليلة جدًّا، معتمدين على بعض القراءات في جانبها الإعرابي، لم يكن دليلها الوحيد هو هذا الوجه من القراءة فقط، كما لم يكن هذا الدليل هو الحاسم في توجيه ذلك الحكم واستنباطه، ومثال ذلك من قال بعدم جواز وطء المرأة بعد الحيض حتى تغتسل، اعتمادًا على قراءة: "يطهرن" بتشديد الطاء، حيث دلت شواهد ونصوص أخرى من السنة على هذا الحكم أيضًا، فهو بمثابة مُعَضِّد ومظاهر للأدلة

® في "ربانية القراءات القرآنية والحكمة من تعددها" طالع: الوجه الثامن، من الشبهة الأولى، من هذا الجزء.

الواردة في إثبات هذا الحكم.

إذا توصلنا بعد هذا البيان إلى نتيجة مفادها أن تعدد القراءات لا يترتب عليه أي اختلاف في المعاني والأحكام، لا في أصول الدين ولا في فروعه، فإنه يجدر بنا أن نشير إلى أمر هام جدًّا، وهو أن العلماء لم يتركوا الأمر هملًا والباب مفتوحًا لقبول كل ما يُسْمَع من القراءات، بل وضعوا شروطًا استنبطوها بعد النظر الدقيق والفحص العميق، فيما يصح وما لا يصح من هذه القراءات، ومن ثم فإنهم قبلوا بعضها، وحكموا على بعضها بالشذوذ وعدم القبول، هذه الشروط هي:

- موافقة العربية ولو بوجه.
- صحة سندها بحيث لا يجوز ردها.
- موافقة أحد المصاحف العثمانية.

ثالثًا. تعدد القراءات وحي من عند الله ﷻ، ووقف منقول عن الرسول ﷺ، وليس تبعًا لأذواق البشر أو قواعد لغتهم:

فقد تواترت الأدلة على نزول القرآن على سبعة أحرف، ومن ذلك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[1].

وعن أُبيّ بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة[2] بني غفار، قال: فأتاه جبريل فقال: "إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف"، فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك"، ثم أتاه الثانية فقال: "إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على حرفين"، قال: "أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك"، ثم جاءه الثالثة فقال: "إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على ثلاثة أحرف"، فقال: "أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك"، ثم جاءه الرابعة فقال: "إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على سبعة أحرف، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا"[3].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدتُ أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلَّم، ثم لبَّبْتُه بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فقال رسول الله ﷺ: "أرسله يا عمرﷺ، اقرأ يا هشام"، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، فقال رسول الله ﷺ: "هكذا أُنْزِلَت"، ثم قال رسول الله ﷺ: "اقرأ يا عمرﷺ"، فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: "هكذا أُنْزِلَت"، ثم قال رسول الله ﷺ: "إن هذا القرآن أُنْزِل على سبعة أحرف، فاقرأوا

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٧٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٣٩).
2. الأضاة: مستنقع الماء.
3. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٤٣).

ما تيسر منها"[1] [2].

رابعًا. مواطن اختلاف القراءات محصورة:

يجدر بنا أن نذكر أن تعدد القراءات لا يشمل آيات القرآن الكريم كاملًا، ولا حتى كلمات كل آية، بل يختص ببعض الكلمات في بعض الآيات، وهناك كثير من الآيات خلت من تعدد القراءات خلوًّا تامًّا. وهذا مثال يتضح منه الكلام في القراءات القرآنية، قوله ﷻ: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ (الفاتحة)، والشاهد في الآية كلمة ﴿ مَٰلِكِ ﴾، وفيها قراءتان:

- "مالك" اسم فاعل من "مَلَكَ" وهي قراءة حفص وآخرين.
- "مَلِك" صفة لاسم فاعل، وهي قراءة نافع وآخرين، ومعنى الأولى "مالك" القاضي المتصرف في شئون يوم الدين وهو يوم القيامة، أما معنى الثانية: "مَلِك" من بيده الأمر والنهي ومقاليد كل شيء، ما ظهر منها وما خفي، وهو أعم من معنى "مالك".

وكلا المعنيين لائق بالله ﻷ، وهما مدح لله ﻷ ولما كانت هذه الكلمة تحتمل القراءتين كتب في الرسم هكذا: ﴿ مَٰلِكِ ﴾ بحذف الألف بعد حرف الميم، مع وضع شرطة صغيرة رأسية بين الميم واللام، ليصلح رسمها للنطق بالقراءتين[3].

خامسًا. تعدد القراءات يثري المعنى:

إن الكلمة التي تقرأ على وجهين أو أكثر يكون لكل قراءة معنى مقبول يزيد المعنى ويُثْريه، فالقراءات القرآنية لا تؤدي إلى خلل في آيات الكتاب العزيز، ويجب أن نعرف أن القراءات الصحيحة مسموعة من سيدنا جبريل ؑ، من محمد ﷺ ومن كَتَبَة الوحي لعموم المسلمين في صدر الإسلام الأول، ثم شيوخ القرآن في تعاقب الأجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وليست كتابة القرآن في مصاحف هي الأصل، ولن تكون، لقد سمع المسلمون من محمد ﷺ "فتبينوا" و "فتثبتوا" في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ (الحجرات: ٦) بالباء والياء والنون، وسمعوها "فتثبتوا" بالتاء والثاء والباء والتاء، وكلا القراءتين موحًى به من عند الله.

وبين معنيي اللفظين في القراءتين علاقة وثيقة، لأن التبين ـ وهو مصدر "فتبينوا" ـ هو التفحص والتعقب في الخبر الذي يذيعه الفاسق بين الناس، وهذا التبين هو الطريق الموصل للتثبت؛ فالتثبت هو ثمرة التبين، ومن تبين فقد تثبت، ومن تثبت فقد تبين. فقراءات القرآن وجه شديد الإشراق من وجوه الإعجاز ولو كره الحاقدون.

ونختم كلامنا بذكر شهادتين من المستشرقين المنصفين، أولهما المستشرق "لوبلوا " الذي قال: "إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر"، والثاني المستشرق " د. موير " الذي قال: "إن المصحف الذي جمعه عثمان ﷺ، قد تواتر

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين (٦٥٣٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٣٦).

٢. مباحث في علوم القرآن، القطان، مرجع سابق، ص١٤٩.

٣. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٤٢، ٤٣.

انتقاله من يد ليد، حتى وصل إلينا بدون أي تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير يذكر، بل نستطيع أن نقول: إنه لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا، والذي يرجع إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ"[1].

الخلاصة:

- تعدد القراءات لا يعني اختلاف القرآن ولا تحريفه، ولكن مكمن الوهم لدى هؤلاء المدعين أنهم لا يعرفون شيئًا عن علم القراءات، فظنوا أن التعدد يعني الاختلاف، وليس الأمر كذلك، إنما هو نطق ألفاظ القرآن، كما نطقها النبي ﷺ على وجوه من التصريف والإعراب والكيفية الصوتية من تشديد وتخفيض، وفتح وإمالة، ونحوها.
- كما أن للتعدد حِكَمًا، منها: التيسير على الأمة ذات اللهجات المتعددة والألسنة المتباينة؛ حتى لا يَشُقَّ عليها التزام وجه واحد في القراءة.
- تعدد القراءات لم يترتب عليه أي اختلاف لا في أصول الدين ولا في فروعه، وإنما هي طرق أداء صوتية، أكثر منها نحوية وصرفية، لم ينتج عنها أي اختلاف في المعاني ولا الألفاظ.
- تعدد القراءات وحي من عند الله ﷻ ما كان للنبي محمد ﷺ ولا لأمته من بعده أن يخترعوه من تلقاء أنفسهم، بل هو تيسير ورحمة من الله لعباده، وهي كلها مسموعة من جبريل ﷺ لرسول الله ﷺ، ومنه لعامة المؤمنين، ثم شيوخ القرآن في الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.
- إن تعدد القراءات لا يشمل إلا كلمات محصورة في بعض الآيات التي يعلمها أهل هذا الفن، كما أن الكلمات التي تقرأ على وجهين أو أكثر يكون لكل قراءة معنى مقبول يزيد المعنى ويثْريه.

الشبهة الثالثة والعشرون

دعوى أن نزول القرآن على سبعة أحرف يتعارض مع نزوله بلغة قريش وحدها (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن نزول القرآن الكريم على سبعة أحرف، ينافي ما هو مقرر من أن القرآن نزل بلغة قريش وحدها، ثم إنه يؤدي إلى ضياع الوحدة التي يجب أن تسود الأمة الواحدة باجتماعها على لسان واحد وكتاب واحد.

وجه إبطال الشبهة:

الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن الكريم غالبًا من لغة قريش؛ فقد كانت مجتمع اللهجات، ومن ثم كان اختيارها موضعًا لنزول القرآن، كما أن تعدد القراءات أدعى للوحدة؛ لتفادي المفاخرة والتنازع بين القبائل، وهذا على خلاف ما ادعاه بعضهم من كونه

١. المرجع السابق، ص٤٨: ٥٣ بتصرف.

(*) مناهل العرفان، الزرقاني، مرجع سابق.

يؤدي إلى ضياع الوحدة.

التفصيل:

الوجوه السبعة موجودة في لغة قريش:

الوجوه السبعة وجدت في قريش قبل نزول القرآن، وهي من لغتها غالبًا، فكلها واقعة في لغة قريش قبل نزول القرآن، ذلك أن قريشًا كانت قبل مهبط الوحي والتنزيل قد داورت بين لغات العرب جميعها وتداولتها، وأخذ أهلها ما استملحوه من هؤلاء وأولئك في أسواق العرب ومواسمهم ووقائعهم وحجهم وعمرتهم، ثم استعملوه وأذاعوه، بعد أن هذَّبوه وصقلوه، وبهذا كانت لغة قريش مجمع لغات مختارة ومنتقاة من بين لغات القبائل كافة، وكانت سببًا من أسباب انتهاء الزعامة إليهم واجتماع أوزاع العرب عليهم، ومن هنا شاءت حكمة العليم الحكيم أن يطل عليهم القرآن من هذا الأفق، وأن يطل عليهم من هذه السماء: سماء قريش ولغتها التي منحتهم مقامهم، وخاطبهم بهذا اللسان العام لهم الذي يضم شعرهم ونثرهم، وقد تم له ما أراد بفضل هذه السياسة الرشيدة التي جاءتهم بالإعجاز البياني من جنس ما برعوا فيه، فهي (أي العربية) أفصح اللغات، والقرآن أفصح الكتب، وليس هذا تعصبًا فقد أثبته الغرب والعرب قاطبة، ومن هنا يتبين لنا أن لسان قريش جمع الألسنة العربية كافة.

إلى هذا التفسير ذهب د. محمد أبو شهبة في ترجيحه للمراد بالأحرف السبع، وناقش الشبهات التي يثيرها هذا التفسير فقال: "المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة، وإن شئت فقل: سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة، تختلف فيها الألفاظ والمباني مع اتفاق المعاني، أو تقاربها وعدم اختلافها وتناقضها، وذلك مثل: هَلُـمَّ، وأَقْبِل، وتعالَ، وإلي، ونَحْوِي، وقَصْدِي، وقُرْبِي، فإن هذه ألفاظ سبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد، وهو طلب الإقبال.

وليس معنى هذا أن كل كلمة كانت تقرأ بسبعة ألفاظ من سبع لغات، بل المراد: أن غاية ما ينتهي إليه الاختلاف في تأدية المعنى هو سبع، فالمعنى الذي تتفق فيه اللغات في التعبير عنه بلفظ واحد يُعَبَّر عنه بهذا اللفظ فحسب، والذي يختلف التعبير عنه بلفظين وتدعو الضرورة إلى التوسعة يُعَبَّر عنه بلفظين، وهكذا إلى سبع. ومن أمثلة ذلك من القرآن قوله ﷻ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ (يس: ٢٩)، وقد قرأ ابن مسعود: إلا زَقْية واحدة، وقوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩) قد قرأ عمر بن الخطاب ﷺ: "فامضوا إلى ذكر الله، ومثل ما جاء عن ورقاء عن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب، أنه كان يقرأ: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ (الحديد: ١٣): (للذين آمنوا أمهلونا) (للذين آمنوا أخرونا) (للذين آمنوا ارقبونا) وبهذا الإسناد عن أبي أنه كان يقرأ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ (البقرة: ٢٠): (سعوا فيه).

ولا يقال: إن بعض هذه الحروف لا يقرأ بها اليوم؛ لأنا نقول: إن هذا هو معنى الأحرف السبع، ونحن لا ندعي بقاءها كلها إلى اليوم، وهذا الرأي يتفق والروايات السابقة الدالة على اختلاف الصحابة في كلمات من القرآن وتنازعهم، ورفع الأمر إلى رسول الله ﷺ ثم إقرار الرسول كلًّا على قراءته، يوافق الأصول

التي استنتجناها من هذه الروايات، فالغرض من النزول على سبعة أحرف التيسير ورفع الحرج عن الأمة بالتوسعة في الألفاظ، ما دام المعنى واحدًا، فقد كانوا أمة أمية، وكانت لغاتهم متعددة، وكان يشق على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ له إلا بمشقة عظيمة، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة وتذليل للسان وتغيير للعادة، فمن ثم جعل الله لهم متسعًا في اللغات بقراءة المعنى الواحد بألفاظ مختلفة.

وقد استمر الأمر على هذا حتى كثر فيهم من يقرأ ويكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ وهو لسان قريش، لا سيما بعد أن صارت لقريش السيادة الدينية والدنيوية معًا، وقدروا على النطق بلغة قريش، التي هي أعذب اللغات وأسهلها وأطوعها للألسنة، فلم يسعهم أن يقرءوا بخلافها، لا سيما وقد زالت الضرورة وأصبحت التوسعة في القراءة بالأحرف السبع مثار اختلاف وتنازع، فقد حدث في عهد الخليفة الثالث عثمان ﷺ أن اجتمع أهل الشام مع أهل العراق في غزوة أرمينية، وكانت قراءاتهم مختلفة، فصار بعضهم يُخَطِّئ بعضًا، ويقول كل منهم: حرفي الذي أقرأ به خير من حرفك.

فجاء حذيفة بن اليمان إلى عثمان، وقال: يا أمير المؤمنين، أدرك المسلمين قبل أن يختلفوا في كتابهم اختلاف اليهود والنصارى، وحدث أيضًا: أنه كان المعلم يعلم قراءة رجل، والآخر يعلم قراءة رجل آخر، فصار الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع هذا الخلاف إلى المعلمين، وكاد أن يكفر بعضهم بعضًا، فقال عثمان: أأنتم عندي تختلفون؟ فمن نأى من الأمصار كان أشد اختلافًا.

فرأى الخليفة الراشد عثمان ـ ونعم ما رأى ـ على ملأ من الصحابة، ومشورة من أهل الرأي منهم أن يجمع الناس على حرف واحد، حتى تضيق شقة الخلاف ويقل التنازع، فجمع المصحف وكتبه على حرف واحد هو حرف قريش، ونسخ منه نسخًا أرسل بها إلى الأمصار، وحرَّق ما عدا هذا المصحف الذي أمر بجمعه، وعزم على كل من كان عنده مصحف يغاير المصاحف العثمانية أن يحرقه، فاستوثقت ـ اجتمعت وانضمت ـ له الأمة بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فالتزمت القراءة بحرف قريش، وتركت القراءة بالأحرف الست الباقية، التي عزم عليها إمامها العادل الراشد أن تتركها امتثالًا لأمر الإسلام في طاعة أولي الأمر ورعايةً منهم لمصلحتهم ومصلحة الأمة ممن يأتي بعدهم، حتى درست معرفة هذه الأحرف الست من الأمة وعفت آثارها.

فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها وعفاء آثارها، وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود منهم لصحتها وصحة شيء منها، فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح، دون ما عداه من الأحرف الباقية®.

وإلى هذا الرأي ذهب الجماهير من سلف الأمة وخَلَفها، فذهب إليه الأئمة سفيان بن عيينة وابن جرير

® في "**جمع القرآن في عهد عثمان وأسبابه**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة والثلاثين، من الجزء الرابع (التاريخ الإسلامي٢). والوجه الثالث، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء.

الطبري ودافع عنه دفاعًا شديدًا في مقدمة تفسيره، والطحاوي وابن وهب وخلائق كثيرون، واختاره القرطبي ونسبه ابن عبد البر لأكثر العلماء، وسنورد الشبه التي أُثيرت حوله ونجيب عنها؛ حتى يتبين لنا أنه الرأي المروي والمختار.

الشبهة الأولى:

إن قال قائل: في أي موضوع من القرآن نجد حرفًا واحدًا مقروءًا بسبع لغات مختلفات الألفاظ، متفقات المعاني، حتى يصح لنا أن نفسر الحروف السبع بوجوه ولغات سبعة؟

والجواب: أننا لم ندَّعِ أن ذلك موجود اليوم، وإنما قلنا: هذا هو معنى الحديث، ثم جَدَّت ضرورات اضطرت الأمة أن تقتصر على حرف واحد منها، هو حرف قريش. وإنما لم أقل في الجواب إن في القرآن ما يُقرأ على سبعة أوجه مثل: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (المائدة:٦٠)، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ (الإسراء: ٢٣)، ﴿وَجِبْرِيلَ﴾ (البقرة:٩٨)؛ لأن الاختلاف في هذا اختلاف قراءات: وهو أداء اللفظ الواحد بطرق مختلفة، وليس اختلاف حروف، أي ألفاظ وكلمات، على ما بيَّنا في المذهب المختار، والقراءات الثابتة على اختلافها ترجع إلى حرف واحد، هو حرف قريش الذي جمع عثمان عليه المصاحف.

الشبهة الثانية:

إن قيل: أين ذهبت الأحرف الست الباقية مع أن رسول الله ﷺ قرأ بها وأمرهم بقراءتها، وأنزلهن الله من عنده على نبيه؟ أنسخت هذه الأحرف الست الباقية فرفعت؟ وإذا كان، فما الدليل على نسخها ورفعها؟

والجواب: أن الأحرف الست الباقية لم تُنْسَخْ ولم تُرْفَعْ، ولم تُضَيِّعها الأمة، وإنما الأمة أُمِرَت بحفظ القرآن الكريم، وخُيِّرَت في حفظه وقراءته بأي تلك الأحرف السبع شاءت، كما أمرت إذا حَنَثَت في يمين وهي موسرة أن تكفر بأي الكفارات الثلاثة شاءت: إما بعتق، أو إطعام، أو كسوة، فلو أجمعت الأمة جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث دون ما عداها، كانت مُصِيبة مُؤَدِّية في ذلك الواجب عليها من حق الله، ووصفت بأنها مطيعة لا عاصية. فكذلك الأمة أُمِرَت بحفظ القرآن وقراءته، وخُيِّرَت في قراءته بأي الأحرف السبع شاءت، فرأت لعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد، قراءته بحرف واحد وترك ما عداه. فإن قيل فما العلة؟ قلنا: هو ما قدمنا من أن الأحرف السبع التي جعلت للتيسير ورفع الحرج، أضحت سببًا للنزاع والاختلاف، بل التكفير على نحو ما قلنا آنفًا.

الشبهة الثالثة:

إن قيل: كيف يلتئم هذا الرأي الذي اخترتموه في تأويل الحديث مع ما أُثِرَ عن عثمان رضي الله عنه أنه دعا زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرَّهْط القرشيين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش؛ فإنما نزل بلسانهم"[1].

قلنا في الجواب: إن قول عثمان محمول على ابتداء نزوله، وهو الحرف الأول الذي نزل به جبريل وطلب النبي ﷺ الزيادة عليه، فقد نزل جبريل بهذا الحرف

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش (٣٣١٥).

أولًا، ثم كان يأتي بالحروف في عرضاته القرآن مع النبي كل عام في رمضان، فكان يُنزل الله ﷻ في هذه العَرْضات ما شاء أن ينزل من ألفاظ اللغات الأخرى، التي تدعو إليها الحاجة، ثم كان أن استقر الأمر آخرًا بعد زوال الضرورة على هذا الحرف، وهو لغة قريش، أو يكون مراد عثمان: أن معظمه وأكثره نزل بلغة قريش.

نقل الإمام أبو شامة عن بعض الشيوخ أنه قال: أُنْزِل القرآن أولًا بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يُكَلَّف أحد منهم الانتقال من لغة إلى أخرى للمشقة، ولما كان فيه من الحمية، ولطلب تسهيل فهم المراد، كل ذلك مع اتفاق المعنى، وعلى هذا يتنزل اختلافهم في القراءة كما تقدم، وتصويب رسول الله كلا منهم.

قال الحافظ ابن حجر معلقًا: وتتمة ذلك أن يقال: إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي، أي أن كل واحد يغير الكلمة بمرادفها في لغته، بل المراعَى في ذلك السماع من النبي ﷺ، ويشير إلى ذلك قول كل من عمر وهشام في حديث: أقرأني النبي ﷺ.

الشبهة الرابعة:

قالوا: لو كانت الحروف السبع هي لغات سبعة من لغات العرب المشهورة، فكيف اختلفت قراءة عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم ـ رضي الله عنهما ـ وهما قرشيان، ولغتهما واحدة؟

والجواب: أن العبرة في القراءة بالحروف هو السماع من النبي ﷺ لا أن يقرأ كل واحد بهواه، على حسب ما يتسهل له من لغته، وإنكار بعضهم على الآخر لم يكن لأن المنكر سمع ما ليس من لغته فأنكره، وإنما كان لأنه سمع خلاف ما أقرأه النبي ﷺ، وجائز جدًّا أن يكون أحدهما سمع من النبي ﷺ حروفًا بغير لغة قريش فحفظها، وسمع الآخر حروفًا بلغة قريش فحفظها، وثبت كل واحد منهما على ما سمع من النبي، فمن ثم اختلفا مع كونهما قرشيين، وكون بعض الناس يعرف غير لغته الأصلية وتتسهل له وينطق بها كما ينطق بها أهلها أمر مشاهد معروف، وهل قال أحد: إن كل واحد من العرب كان يلتزم القراءة بلغته دون غيرها حتى يستشكل ذلك.

ولو كان الأمر كذلك، لقال عمر لهشام: لقد قرأت بغير لغة قومك، ولكنه لم يحدث، وإنما أنكر عليه حروفًا لم يُقرئه إياها رسول الله ﷺ.

الشبهة الخامسة:

كيف تقولون: إن الحرف الذي استقر عليه الأمر آخرًا هو حرف قريش، مع أن في القرآن كثيرًا من الكلمات بغير لغة قريش مثل: ﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ فقد قيل: إنها بلغة اليمن، ومثل: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ (الرعد: ٣١)، أي: أفلم يعلموا بلغة هوازن، و﴿مُرَٰغَمًا﴾ أي: متفسحًا بلغة هذيل، إلى غير ذلك من الكلمات، وقد ذكر السيوطي في (الإتقان) في النوع السادس والثلاثين ـ مما ورد في المراد بالأحرف السبع ـ الكثير من ذلك.

والجواب عن هذا: أن ما ورد من هذه الألفاظ، وإن كانت في الأصل من غير لغة قريش، لكن قريشًا أخذتها واستعملتها حتى صارت قرشية بالاستعمال، ومعروف

أن مركز قريش هيَّأ لها أن تأخذ من اللغات الأخرى أعذبها وأسلسها.

إن هذه الكلمات التي ذكرتموها مما توافقت فيه لغة قريش وغيرها، إلا أنها عند غير قريش أشهر وأعرف، وتوافق اللغات في بعض الكلمات أمر غير مستنكر ولا مستغرب، وأيًّا كان الحال، فوجود هذه الكلمات في القرآن لا ينافي كون القرآن بلغة قريش.

مثل هذه الكلمات التي جاءت في القرآن، وقيل: إنها غير عربية في الأصل، كالمشكاة والقسطاس وإستبرق ونحوها، فإنها إما صارت عربية بالاستعمال، أو أنها مما توافقت فيه لغة العرب وغيرهم، ولم يطعن وجودها في كون القرآن عربيًّا مبينًا.

الشبهة السادسة:

إن قيل: ما اللغات السبعة التي نزل بها القرآن؟ ومن أي ألسن العرب كانت؟

قلنا: لا حاجة بنا اليوم إلى معرفة الألسن الست الأخرى، ولا إلى القراءة بها بعد أن اندرست وعفت آثارها، وبحسبنا هذا اللسان الباقي، وهو لغة قريش، وكل ما قيل في تعيين اللغات السبعة لم يثبت بطريق صحيح، والذي نراه: أنه كان نزل على لغات العرب المشهورة وأفصحها، وليس في البحث عن تحديدها كبير عناء ما دام أن الحرف الباقي ـ وهو حرف قريش ـ أفصحها وأعذبها وأسلسها، وما دامت الأحرف الأخرى قد اندرست ولم يبق منها شيء.

ولكي تزداد يقينًا بأن قريشًا أفصح العرب ولسانهم أفصح الألسنة وأعذبها، ننقل لك بعض ما قاله الأئمة في هذا المقام: قال ابن فارس في "الصاحبي في فقه اللغة"، عن إسماعيل بن أبي عبيد، قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم، أن قريشًا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم نبي الرحمة محمدًا ﷺ، فجعل قريشًا قُطَّان حَرَمه وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم، ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم وتسميتها أهل الله؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل عليه السلام، لم تشبهم شائبة، ولم تنقلهم عن مناسبهم ناقلة، فضيلة من الله عز وجل لهم وتشريفًا؛ إذ جعلهم رهط بيته الأدنين وعترته الصالحين.

وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفة قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر تسمعه من أسد وقيس... وقال الفراء: كانت العرب تحضر الموسم كل عام، وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ.

ولو نزل القرآن بغير لغة قريش لكان هذا سببًا للمشاحنات، وإظهارًا للعصبيات التي جاء الإسلام ليقضي عليها، ولذهب أهل كل قبيلة بلغتهم، ولَعَلا بعضهم على بعض.

وقال أبو نصر الفارابي: "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعًا، وأبينها إبانة عما في النفس"[1].

ثم إننا نسأل هؤلاء عن مدى علمهم باللهجات العربية، وماذا يعرفون عنها وماذا يدرون عن لسان كل قوم من العرب، حتى يدَّعوا أن الأحرف السبع تنافي لغة قريش، كان ينبغي عليهم أولًا أن يدرسوا لهجات العرب، ومنها قريش، ثم يدَّعوا ما شاءوا!

الخلاصة:

- الأحرف السبع جُعِلَت للتيسير ورفع الحرج، فلما أضحت سببًا للنزاع والاختلاف اقتُصِرَ على حرف قريش، الذي كان قاسمًا مشتركًا بين لهجات قبائل العرب.
- الوجوه السبع نزل بها القرآن الكريم من لغة قريش غالبًا؛ لأنها متعددة اللهجات، والدليل على ذلك أن الذين قرءوا بها قبل انتشار الإسلام في بقاع الأرض هم القرشيون قبل غيرهم، والذين كانوا يحتكمون إلى النبي ﷺ في ذلك فيقرهم جميعًا كلًّا بحرفه، كما في حديث عمر وهشام بن حكيم الذي سبق ذكره.
- تعدد القراءات أدعى للوحدة لتفادي المفاخرة والتنازع بين القبائل، وذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالأحرف السبع سبع لغات من لغات العرب في المعنى الواحد، على معنى أنه حيث تختلف لغات العرب في التعبير عن معنى من المعاني يأتي القرآن منزلًا بألفاظ على قدر هذه اللغات لهذا المعنى الواحد، وحيث لا يكون هناك اختلاف فإنه يأتي بلفظ واحد أو أكثر، واختلفوا في اللغات السبعة، إلا أن أكثره بلغة قريش؛ لأنها أفصح لغاتهم.

1. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، ص ١٧٤: ١٨٤ بتصرف يسير.

الشبهة الرابعة والعشرون

توهم أن الأحرف السبع ما هي إلا القراءات السبعة المعروفة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشتبه عليهم أنه لا معنى للأحرف السبع، التي نزل بها القرآن إلا تلك القراءات السبعة المنقولة عن الأئمة السبع المعروفين عند القرَّاء.

وجها إبطال الشبهة:

١) الأحرف التي نزل بها القرآن أعم من القراءات المنسوبة إلى الأئمة السبعة، وإنما كان القراء المشاهير سبعة لاختيار "مجاهد" لهم.

٢) لقد أقر الرسول ﷺ أن الأحرف سبع قبل أن يُخلق القراء السبع بدهور، فاتفاق العددين محض مشابهة، ولا وجه للربط بينهما وإن أوهم التوافق العددي بينهما.

التفصيل:

أولا. الأحرف السبع أعم من القراءات السبعة:

الأحرف التي نزل بها القرآن أعم من تلك القراءات

(*) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق.

المنسوبة للأئمة السبعة القراء عمومًا مطلقًا، وأن هذه القراءات أخص من تلك الأحرف السبع النازلة خصوصًا مطلقًا؛ ذلك لأن الوجوه التي أنزلها الله عليها كانت تنتظم كل وجه قرأه الرسول ﷺ وأقرأه أصحابه؛ وذلك ينتظم القراءات السبعة المنسوبة إلى هؤلاء الأئمة السبعة، كما ينتظم ما فوقها إلى العشرة، وما بعد العشرة، وما كان قرآنًا ثم نسخ ولم يصل إلى هؤلاء القراء جميعًا، وقد اقتصروا على السبع مما وافق خط المصحف تسهيلًا؛ لتقاصر الهمم[1].

هذا، والقراءات أكثر من سبع، بل إن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرين جدًّا، "فلما تقاصرت الهمم اختصروا مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه، وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى من اشتهر بالثقة والأمانة، وطول العمر في ملازمة القراءة، والاتفاق على الأخذ منه فأفردوا من كل مصر إمامًا"[2]، فهذه القراءات السبعة، بل معها ثلاثة أخر متواترة صحيحة، كل هذا يعتبر بعضًا أو جزءًا من الأحرف السبع، وليس كلها.

كما أن الذي جعل الأحرف السبع هي القراءات السبعة أخطأ؛ لأنه بذلك جعل القراءات السبعة هي القرآن، وهذا غير صحيح؛ لأن القرآن غير القراءات، فالقرآن: هو الوحي المنزَّل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، أما القراءات، فهي اختلاف في كيفية النطق بألفاظ الوحي، من تخفيف أو تثقيل أو مد أو نحو ذلك، قال أبو شامة: "ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أُريدت في الحديث، وهو خلاف أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل".

وقال الطبري: "وأما ما كان من اختلاف القراءة في رَفْع حرف وجرِّه ونصبه، وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف إلى آخر مع اتفاق الصورة، فمن معنى قول النبي ﷺ: "أُمِرْتُ أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف" بمَعْزِل؛ لأنه معلوم أنه لا حَرْفَ من حروف القرآن الكريم - مما اختلفت القراءة في قراءته بهذا المعنى - يوجب المِراء به كُفْرَ المماري به في قول أحد من علماء الأمة، وقد أوجب ﷺ بالمراء فيه الكفر، من الوجه الذي تنازع فيه المتنازعون إليه وتظاهرت عنه بذلك الرواية"[3].

وقال أبو بكر بن العربي: "ليست هذه السبعة متعينة للجواز حتى لا يجوز غيرها".

وقال مكي بن أبي طالب: "هذه القراءات - التي يُقرأ بها اليوم وصحَّت رواياتها عن الأئمة - جزء من الأحرف السبع التي نزل بها القرآن... ثم قال: "وأما من ظن أن قراءة هؤلاء القراء كنافع وعاصم هي الأحرف السبع - التي في الحديث - فقد غلط غلطًا عظيمًا".

كما أن القراءات السبعة التي تُنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست منحصره في السبع المشهورة، وأنه لا يجوز بحال من الأحوال أن تكون مرادة من الحديث، وكيف يمكن أن تكون القراءات السبعة المشهورة هي

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص١٦٢ بتصرف.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص١٦٥.

٣. المرجع السابق، ص١٥٨، ١٥٩.

المرادة من الحديث، وهي إنما عرف كونها سبعة من قِبَل أن رُواتها المشهورين سبعة، وهذا شيء علم بعد زمن النبي ﷺ بثلاثة قرون تقريبًا، على يد "ابن مجاهد"؟ فغير معقول أن يخبر النبي ﷺ بنزول القرآن على حروف لم تُعْرف ولم تشتهر إلا بعده بقرون"[1]، ثم كيف يُعطَّل نص رسول الله ﷺ حتى هذا الزمن المتأخر؟!

فالقراء السبعة لم يكونوا قد خُلِقُوا ولا وُجِدُوا حين نطق الرسول ﷺ بهذا الحديث الشريف، ومحال أن يفرض الرسول ﷺ على نفسه، وعلى أصحابه ألا يقرءوا بهذه الأحرف السبعة النازلة إلا إذا علموا أن هؤلاء القراء السبعة قد اختاروا القراءة بها، على حين أن بين العهدين بضعة قرون! كما أن هؤلاء القراء وسواهم قد أخذوا عن النبي ﷺ عن طريق أصحابه، ومن أخذ عنهم إلى أن وصلوا إليهم.

قال المحقق ابن الجزري: "فلو كان الحديث منصرفًا إلى قراءات السبعة المشهورين أو سبعة غيرهم من القراء الذين ولدوا بعد التابعين؛ لأدَّى ذلك إلى أن يكون الخبر عاريًا عن الفائدة إلى أن يولد هؤلاء السبعة، فتؤخذ عنهم القراءة، وأدى أيضًا إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأ إلا بما يعلم أن هؤلاء السبعة من القراء إذا ولدوا وتعلموا اختاروا القراءة به، وهذا باطل، إذ طريق أخذ القراءة أن تؤخذ من إمام ثقة، لفظًا عن لفظ، إمامًا عن إمام، إلى أن يتصل بالنبي ﷺ"[2].

ثانيًا. المراد بالأحرف السبعة - سبع لغات من لغات العرب المشهورة:

ذهب أكثر علماء الأمة سلفًا وخلفًا إلى "أن المراد بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن - سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة، وإن شئت فقل: سبع لغات من لغات العرب المشهورة في كلمة واحدة، تختلف فيها الألفاظ والمباني مع اتفاق المعاني، أو تقاربها وعدم اختلافها وتناقضها، وذلك مثل: هلم، وأقبل، وتعال، وإلي، ونحوي، وقصدي، وقربي، فإن هذه ألفاظ سبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد، وهو طلب الإقبال.

وليس معنى هذا أن كل كلمة كانت تقرأ بسبعة ألفاظ من سبع لغات، بل المراد: أن غاية ما ينتهي إليه الاختلاف في تأدية المعنى هو سبع، فالمعنى الذي تتفق فيه اللغات في التعبير عنه بلفظ واحد يُعبر عنه بهذا اللفظ فحسب، والذي يختلف عنه التعبير عنه بلفظين، وتدعو الضرورة إلى التوسعة يُعَبَّر عنه بلفظين، وهكذا إلى سبع"[3].

وهذا هو الرأي المختار الذي اتفق عليه جمهور علماء الأمة، وهو الذي تسانده الأدلة الصحيحة، فعن أُبَي بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا أُبَي، إني أُقْرِئْتُ القرآن، فقِيْلَ لي: على حرف أو حرفين؟ فقال الملك الذي معي: قل على حرفين، قلت: على حرفين، فقيل لي: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال الملك الذي معي: قل على ثلاثة، قلت: على ثلاثة، حتى بلغ سبعة أحرف، ثم قال: ليس منها إلا شافٍ كافٍ، إن قلت: سميعًا عليمًا،

---

1. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد بن محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص١٩٦، ١٩٧ بتصرف.
2. مناهل العرفان، الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص١٦٢، ١٦٣ بتصرف يسير.
3. المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن أبو شهبة، مرجع سابق، ص١٧٦.

عزيزًا حكيمًا، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب"[1].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[2].

وغير ذلك من الأحاديث الثابتة، التي إليها ذهب جماهير العلماء من سلف الأمة وخلفها.

وتتلخص حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف في أمور:

- تيسير الحفظ والقراءة على قوم أميين، فلكل قبيلة منهم لسان، ولا عهد لهم بحفظ الشرائع، فضلًا عن أن يكون ذلك مما ألفوه، وهذه الحكمة نصَّت عليها الأحاديث، ففي حديث أُبي قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: "يا جبريل، إني بُعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قط "، قال: "يا محمد، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف"[3].

- وفي رواية: "أقرأني جبريل على حرف، فلم أزل أستزيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[4].

- إعجاز القرآن للفطرة اللغوية عند العرب، فتعدد مناحي التأليف الصوتي للقرآن يكافيء الفروع اللسانية التي عليها فطرة اللغة في العرب، حتى يستطيع كل عربي أن يوقع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري، ولهجة قومه مع بقاء الإعجاز الذي تحدى به الرسول ﷺ العرب، ومع اليأس من معارضته لا يكون إعجازًا للسان دون آخر، وإنما يكون إعجازًا للفطرة اللغوية نفسها عند العرب.

- إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه، فإن تقلب الصور اللفظية في بعض الأحرف والكلمات يتهيأ معه استنباط الأحكام التي تجعل القرآن ملائمًا لكل عصر؛ ولهذا احتج الفقهاء في الاستنباط والاجتهاد بقراءات الأحرف السبعة[5].

الخلاصة:

- الأحرف السبع ليست هي القراءات السبعة، إنما القراءات السبعة - بل العشرة المتواترة الصحيحة عن النبي ﷺ - جزء أو بعض من الأحرف السبع؛ لأن القراءات كانت أكثر من ذلك بكثير، لكن اشتهرت السبعة لتوافر حملتها وناقلوها وشهرة أئمتها في الدين والعلم، واكتفى الناس بها - عندما قصرت الهمم - مما يوافق خط المصحف على ما يسهل حفظه.

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث سليمان بن هبرد عن أبي بن كعب ﷺ (٢١١٨٧)، وأبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٤٧٧).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب ما أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٧٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٣٩).

٣. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب القراءات، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٢٩٤٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٩٤٤).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة (٣٠٤٧)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٣٩).

٥. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص١٦٠، ١٦١ بتصرف يسير.

• من غير المعقول أن تكون القراءات السبعة هي المرادة بالأحرف السبع في الحديث؛ لأنه لم تُعْرف سبعة إلا بعد زمن النبي ﷺ بثلاثة قرون، فمن غير المعقول أن يخبر ﷺ بنزول القرآن على حروف لم تُعرف ولم تُشتهر إلا بعده بقرون.

• جمهور علماء الأمة على أن المراد بالأحرف السبع ـ سبع لغات من لغات العرب، كما أن مجيء القرآن على سبعة أحرف له حِكَمٌ عظيمة وجليلة، منها التيسير، وكمال الإعجاز للفطرة اللغوية، وإثراء المعاني والدلالة.

الشبهة الخامسة والعشرون

دعوى ضياع جزء من القرآن وتحريفه لاختلاف القراءات(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن بعض آيات القرآن تختلف في لفظها، كقوله تعالى: ﴿قُتِلُوا﴾ (محمد: ٤)، وفي قراءة أخرى: (قَاتَلُوا)، مما حمل العلماء والمفسرين على الاختلاف في أمور الجهاد، ويستدلون بهذا على دعواهم تحريف القرآن، مدَّعين أن أبا موسى الأشعري قال ـ آسفًا ـ لخمسمائة من القراء في البصرة: إننا كنا نقرأ سورة بطول السهم وحده، أما الآن فقد نسيتها ما عدا بعض الآيات.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم تصح هذه الرواية عن أبي موسى، وحتى إن صَحَّتْ فهي لا تعني ضياع أي شيء من القرآن.

٢) لقد تحرَّى الصحابة رضي الله عنهم في الحفاظ على القرآن من التحريف والضياع أعلى درجات الدقة والتثبت.

٣) إن قراءة لفظ ﴿قُتِلُوا﴾ في سورة محمد وروده في قراءة أخرى(قَاتَلُوا) صحيح لا شك فيه، وكذلك ورد اللفظ في سورة الحج ﴿يُقَتَّلُونَ﴾ و(يُقَاتِلُون) بفتح التاء وكسرها وكلاهما صحيح، ولكل لفظ معنى واضح لا غموض فيه.

التفصيل:

أولا. هذه الرواية عن أبي موسى لم تصح، وإن صحت، فهي لا تعني ضياع أي شيء من القرآن الكريم:

إن هذه الرواية التي استدلَّ بها هؤلاء المغالطون المشككون عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه غير صحيحة؛ لأنها لم تشتهر عنه، ولم تَرِدْ في الكتب المهتمة بهذا الشأن، بل توافرت العوامل الدالة على وهنها؛ إذ إنها لم تذكر اسم السورة التي نسيها أبو موسى، وقد كان يتحدث إلى خمسمائة من القراء، وهم أحفظ الناس لكتاب الله تعالى، فهلَّا ذكرها أحدهم، وعلى افتراض أنهم جميعًا لا يحفظونها، فهلَّا سافر أحدهم إلى مدرسة الكوفة أو مدرسة مكة أو مدرسة المدينة أو مدرسة الشام؛ ليحفظ هذه السورة؟!

وقد كانوا يقطعون آلاف الأميال في الصحراء من أجل الحصول على مسألة في الفقه، أو معرفة حديث عن الرسول ﷺ، كما أن عامة أهل الأمصار، كانوا يلتقون في مواسم الحج والجهاد، أفلم يكن من البدهي أن يسأل عن هذه السورة أحد هؤلاء القراء حتى يحفظها، وهذا مجال اهتمامهم واختصاصهم؟! وإذا لم

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق.

يبحث عنها القراء فمن يبحث عنها؟

وكذلك يجب أن نعلم هل كانت هذه الرواية قبل توحيد سيدنا عثمان رضي الله عنه للمصحف أم بعده؟ فإذا كانت قبله، فإن بقية الجموع الغفيرة من أصحابه لا شك سيكونون قد سجلوها في مصحف عثمان رضي الله عنه، وإن كانت بعد عمل مصحف عثمان رضي الله عنه، فلا يضير على هذه السورة أو غيرها أن نسيها أبو موسى أو غيره؛ لأنها ستكون حينها محفوظة في مصحف عثمان رضي الله عنه، بالإضافة إلى صدور آلاف القراء على مستوى العالم الإسلامي.

ثانيًا. تحوُّط الصحابة في الحفاظ على القرآن:

لم تُعْنَ أمة في العالم بكتاب سماوي أو أرضي عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم، ولم يُحطْ كلام إلهي أو بشري بمثل ما أُحيطت به آياته من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس؛ فقد كانت تنزل الآية أو الآيات فتنتقش في صدر النبي ﷺ، فيتلوها ساعة نزولها على الآلاف من المحيطين به، فيسارعون إلى استظهارها ليتلوها تعبُّدًا ويُصلُّوا بها، ولا يكتفي النبي ﷺ بذلك فيأمر كُتَّابًا له بكتابتها، ويحتفظ بها في داره مع أمثالها[1].

لقد عنيت الأمة الإسلامية بالقرآن عناية فائقة، فحفظوا لفظه وفهموا معناه، واستقاموا على العمل به، وعكفوا على جمعه حتى لقد أضحت هذه العناية بحق أروع مظهر عرفه التاريخ لحراسة كتاب هو سيد الكتب وأجلها، وأبعدها عن التحريف والتغيير، وبذلك هيَّأ الله تعالى الأسباب المتكاثرة لحفظ كتابه، وهل هذا إلا مصداق لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ⁽٩⁾ ﴾ (الحجر)[2].

المعروف أن أصحاب الحديث كانوا يجولون الأقطار الشاسعة وراء سماع الأحاديث ممن يحفظون شيئًا منها طلبًا لجمعها، وكانوا يبذلون في سبيل ذلك أنفسهم ونفائسهم، حتى إنه لتروى عنهم فيها الأعاجيب التي لم تتفق لمجتهدي أمة من الأمم، فهل كان كلام أبي موسى لا يدفع هؤلاء الحفاظ للبحث عن تلك الآيات المفقودة، وأصحاب الرسول ﷺ لا يزالون أحياء، فكانوا يرحلون إلى المدينة وغيرها ينقبون عن حفَّاظ تلك السور حتى يجمعوا ما تشتت من الآيات؟

وكيف يُعقل أن أبا موسى لم يلقن الخمسمائة من القراء الذين قابلهم الآيات التي ما زالت عالقة بذاكرته منها؟ وكيف لم يطلبها منه أولئك القراء؟!

إن القضية لدليل على أن ما وصل الناس هو القرآن؛ فلو وجد فيه أبو موسى أو الخمسمائة شيئًا لقالوا، ولما وجدنا منهم أسفًا فقط.

ثالثًا. قراءة اللفظ في سورة محمد:

أما قراءة اللفظ في سورة محمد بين: ﴿قُتِلُوا﴾ و(قَاتَلُوا)، فهي قراءات صحيحة متواترة، وليس بينها أي خلاف في المعنى؛ لأن الذين ﴿قُتِلُوا﴾ هم أصحاب رسول الله الذين استُشْهِدُوا في الغزوات، ومعهم كل من خرج على هذه النية، وكذلك الذين (قَاتَلُوا) هم أصحاب رسول الله ﷺ، سواء من قضى نحبه منهم أو من كان ينتظر، والثانية (قَاتَلُوا) قراءة الجمهور، والأولى ﴿قُتِلُوا﴾ قراءة حفص عن عاصم وأبو عمرو.

---

١. المرجع السابق، ص٣٦١.

٢. انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص١٦، ١٧.

وكذلك ورود اللفظ في سورة الحج أيضًا بين: ﴿يُقْتَلُونَ﴾ و(يَقَاتِلُونَ) بفتح التاء وكسرها، كلاهما صحيح متواتر، والمعنى لا يختلف؛ لأن المراد بالذين ﴿يُقْتَلُونَ﴾ هم أصحاب النبي ﷺ، فهم الذين (يُقَاتِلُونَ) الكفار، وهم الذين ﴿يُقْتَلُونَ﴾ من الكفار، فأي خلاف في هذا إذن؟ وبالأول ﴿يُقْتَلُونَ﴾ قرأ كل من نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر، وبالثاني (يُقَاتِلُونَ) قرأ الباقون.

فالقرآن أنزله الله ﷻ على سبعة أحرف، وقد كان هذا الأمر معلومًا وثابتًا لدى المسلمين منذ عهد النزول، فقد جاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[1].

وكانت قراءات القرآن الكريم معروفة في عصر الصحابة ﷺ، وقد تلقوها جميعًا عن النبي ﷺ، ولقد كان مصحف عثمان ﷺ غير منقوط ولا مشكول، مما يجعله يحتمل وجوه القراءات، ولا يجعل القارئ يعتمد على المكتوب، بل يتلقى المقروء ليصل السند إلى رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: إن الخط في عصر النبي ﷺ كان غير منقوط ولا مشكول، وهذا دليل على أن العربية لغة إفصاح وبيان وتعبير، وتَوافق بين ألفاظها، وتآخٍ بين أساليبها، فلا تعتمد على المكتوب، بل تعتمد على المقروء ونغماته وتآخي عباراته، من غير تَجافٍ في اللفظ عن المعنى ولا في المعنى عن اللفظ[2].

ولقد كان نزول القرآن على تلك الأحرف السبع لِحِكَمٍ أرادها الله، منها: التيسير على الأمة الإسلامية كلها، خصوصًا الأمة العربية التي شوفهت بالقرآن، فإنها كانت قبائل كثيرة مختلفة اللهجات، ولو أخذت كلها بقراءة القرآن على حرف واحد، لشق ذلك عليها، ويتضح هذا فيما جاء عن أُبي بن كعب أنه قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المِرَاء[3]، قال: فقال رسول الله ﷺ لجبريل: "إني بعثت إلى أمة أميين، فيهم الشيخ العاصي، والعجوزة الكبيرة، والغلام"، قال: "فمُرْهُم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف"[4].

كما أن وجوه الإعجاز تتعدد بتعدد القراءات والحروف، فمعنى هذا أن القرآن الكريم يُعْجِزُ إذا قرئ بهذه القراءة، و يُعْجِزُ أيضًا إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ويُعْجِزُ أيضًا إذا قُرِئَ بهذه القراءة الثالثة... وهَلُمَّ جَرًّا، ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والأحرف®!

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٧٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (١٩٣٩).

٢. المعجزة الكبرى: القرآن، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص ٣٨.

٣. أحجار المِرَاء: موضع بمكة، كانت قريش تتمارى عندها، وهي صُفي السِّبَاب.

٤. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث زر بن حبيش عن أبي بن كعب ﷺ (٢١٢٤٢)، والترمذي في سننه، كتاب القراءات، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٢٩٤٤)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢٩٤٤).

® في **"ربانية القراءات القرآنية والحكمة من تعددها"** طالع: الوجه الثامن، من الشبهة الأولى. والوجه الأول، من الشبهة الثانية والعشرين، من هذا الجزء.

الخلاصة:

- الرواية التي نُسِبت إلى أبي موسى الأشعري ﷺ ليست صحيحة، ولا يقبلها عقل ألبتة، فهل يُعقل أن يقول هذا الكلام لخمسمائة من القراء ممن جرَّدوا أنفسهم للقرآن، ثم لا يكون ردُّ فعلهم سوى التأسُّف من ضياع هذا الكتاب؟

- لا صحة لقول من قال بتحريف القرآن بحجة اختلاف بعض ألفاظه في القراءات القرآنية؛ لأن القرآن نزل على سبعة أحرف تيسيرًا ورفعًا للمشقة والحرج في القراءة، وبيانًا لأحكام وألفاظ قد ترد مبهمة، هذا فضلًا عن أن ما يزعمونه اختلافًا ليس فيه شيء من الاختلاف؛ فإن الكلمات التي ظَنُّوها كذلك متفقة في معانيها على الرغم من اختلاف ألفاظها.

الشبهة السادسة والعشرون

دعوى عدم وجود نص موحد للقرآن؛ لاختلاف مصاحف الصحابة(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أنه لا يوجد نصٌّ موحَّدٌ للقرآن الكريم، بل هناك نصوص كثيرة مختلفة، زيادةً ونقصانًا وترتيبًا فيما يُسمى بمصاحف الصحابة، منها مصحف علي بن أبي طالب ﷺ، ومصحف عبد الله بن مسعود ﷺ وغيرهما؛ مما يدل على اختلاف هذه المصاحف مع مصحف عثمان ﷺ الذي وحَّد نصه وجمع عليه المسلمين. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في سلامة القرآن وعصمته من التحريف والتبديل.

وجوه إبطال الشبهة:

1) لا يجب أن نقارن مصاحف الصحابة ـ التي وضعوها لأنفسهم تحت ظروف خاصة ـ بمصحف عثمان ﷺ الذي نقل متواترًا وأجمعت عليه الأمة.

2) الصحابة أجمعوا على مصحف عثمان ﷺ، حال حياته وبعد مماته، ومنهم علي ﷺ وابن مسعود ﷺ.

3) لماذا لم يعلن علي ﷺ مصحفه على الناس بعدما آل إليه الأمر، ويرفض ما لم يرضه من مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

4) هذه الزيادات التي في مصاحف الصحابة لا تعدو كونها تفسيرًا للقرآن، أو قراءة شاذة أو خاصة.

5) هذه المصاحف مشكوك في صحتها ونسبتها إلى الصحابة؛ لأن نصوصها لم تبلغنا، بل بلغنا بعض الروايات عن ترتيب سورها وأوجه قراءتها.

6) إن المطالِع لأقوال العلماء من أئمة التفسير والقراءات فيما نُسِبَ إلى ابن مسعود ﷺ وغيره من الصحابة من مصاحف ـ ليقف على حقيقة ما قررناه سالفًا من كون قراءاتهم تلك تفسيرية أو شاذة.

7) نقد العلماء كتاب "المصاحف" لابن أبي داود الذي ورد به الحديث عن مصاحف الصحابة الكرام واختلافها؛ وذلك لمخالفة كثير مما جمعه لما هو مُجْمَع عليه.

التفصيل:

أولا. مصاحف بعض الصحابة لها ظروفها الخاصة:

لا يصح أن نضع ما جمعه بعض الصحابة من القرآن

(*) المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق.

في صحف خاصة وفي ظروف خاصة في مقابل المصحف الإمام الذي اجتمع عليه الصحابة جميعًا؛ ليكون بين أيدي الأمة، وذلك لأنهم دوَّنوا هذه الصحف حسب ظروفهم، وباعتبارها مصاحف خاصة بهم، وليست للناس. ألا ترى زيد بن ثابت حين كُلِّف بكتابة القرآن كنسخة رسمية يقول: "فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرني به - أي أبو بكر ﷺ - من جَمْع القرآن"، ثم إن أصحاب المصاحف لم يُلْزموا أحدًا بترتيبها؛ فإن أحدهم قد يكون في سَرِيَّة، أو غير ذلك من الأمور، فَيَتَغَيَّب عن الرسول ﷺ مدة ينزل فيها وحي الله، فإذا رجع أخذ في جمع ما تيسر له مما فاته، فيقع فيما كتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه، كما يقول صاحب كتاب المباني:

"ولو كان أصحاب المصاحف من الصحابة يعتقدون أن ترتيبهم الأكمل والأصح، لخالفوا عثمان ﷺ، وأعلنوا ذلك للمسلمين، واستمسكوا بترتيب مصاحفهم، ولم يأخذوا بترتيب المصحف العثماني، لكن شيئًا من هذا لم يُنْقَل إلينا، وإنما الذي نُقِلَ هو إجماعهم على مصحف عثمان ﷺ دون مخاصمة في تقديم أو تأخير، أوزيادة أو نقصان، إن المرء ليعجب حين يجد مؤلفينا - غفر الله لهم - يقابلون ترتيب مصاحف الصحابة الخاصة بتريب المصحف العثماني وليصف هذا بأنه أكمل، ويدع للقارئ الحكم على عمل خاص للصحابة، ويأتي بعد ذلك نفر يؤصل هذه المقابلة كابن النديم في الفهرست، واليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب في تاريخه، والشهرستاني: محمد بن عبد الكريم المتوفَّى سنة ٥٤٨هـ في مقدمة تفسيره وغيرهم، حتى يصل الأمر إلى أن يأتي بعض المعاصرين فيضع هذا الترتيب في قوائم يعارض بعضها بعضًا.

بل يؤلف بعضهم كتبًا خاصة باختلاف مصاحف الصحابة، معتمدين على كتاب حققه أحدهم، هو كتاب "المصاحف" لابن أبي داود، وإذا كانت مصاحف الصحابة التي دونوها مصاحف خاصة لأنفسهم أمرًا معلومًا للكافة بما فيهم هؤلاء المدَّعون، فإن المقارنة بين بعضها أو بينها وبين المصحف الإمام في ترتيب المصحف حكم جائر، وأكثر من ذلك جورًا وشططًا أن يقول بعضهم: "ما جمعه واحد لم يتفق حرفيًّا مع ما جمعه الآخرون".

وراح هؤلاء يتلمسون القراءات الشاذة والروايات التفسيرية، ويثبتونها على أنها قرآن، حتى جمعوا ما يملأ حوالي ثلاثمائة وستين صفحة ألحقوها بكتاب المصاحف الذي حققه أحدهم، والذي لا يتجاوز مائتين وثلاثًا وعشرين صفحة، ولا يَنْسَوا أن يثبتوا تلك الاختلافات التي ترجع إلى الرسم الإملائي كلمة (ٱلصَّلَوٰة) بالألف واللام، (اصلوة) بدون اللام، وإلى نطق الكلمة والوقوف عليها كقوله "نوحا" بدون تنوين أو "نوحًا" بالتنوين، وإلى النقط والإعجام كقوله "يطوف" بالياء التحتية و "تطوف" بالتاء، وغير ذلك.

لقد تكفل الله ﷻ بحفظ القرآن وجمعه وقرآنه، وميَّز أمة محمد ﷺ عن سائر الأمم بأن جعل القرآن في صدورهم، ولذلك نجد في كل عصر ومصر منذ البعثة النبوية إلى الآن مَن يُصَوِّب خطأ القارئ، أو الكاتب للقرآن في أي محفل من المحافل "حتى إنهم لو وجدوا في المصحف حرفًا زائدًا لأنكروه، وكذلك لو بُدِّلَ

حرف عن موضعه، إلا أن يكون فيما يجري مجرى التقديم والتأخير، أو كان بمنزلة قولهم "عذاب عظيم" بدلًا من "عذاب أليم"، أو قوله "سميع بصير" بدلًا من "عليم حكيم"، أو نحو ذلك فإن هذا قد يشتبه على من لا يحفظ القرآن ظاهرًا.

لكن صاحب كتاب "المصاحف" المولَع بذِكْر الروايات المتناقضة والمختلفة يضع هذا العنوان "باب اختلاف مصاحف الصحابة"، ويقول تحته: "إنما قلنا مصحف فلان لما خالف مصحفنا هذا من الخط أو الزيادة أو النقصان"، ثم ينسب ذلك إلى أبيه كما جاء في كتاب" التنزيل" من سنن أبي داود.

وإذا قبلنا المخالفة في الخط فكيف نقبل الزيادة أو النقصان في القرآن؟! وكيف ينسب إلى بعض الصحابة الكرام ﷺ مصاحف فيها زيادة عن القرآن أو نقصان؟! إنه إن صحت نسبة هذه المصاحف أو بعضها إلى الصحابة فإن ما نُسب إليهم لا يعدو أن يكون بعض الروايات التفسيرية، أو بعض أوجه القراءات الخاصة أو الشاذة، أو ترتيبًا خاصًّا لسور القرآن حسبما تيسر للصحابي.

فهل يجوز في مثل هذا أن تضع عنوانًا ضخمًا يوحي باختلاف المصاحف، وكأنها قرآن آخر غير قرآننا، قرآن أنقص في بعض الجوانب وأكمل في بعضها الآخر من المصحف الإمام؟! وهل يجوز لابن أبي داود أو غيره - غفر الله لنا ولهم - أن يصدر عنوانه هذا (بمصحف عمر بن الخطاب ﷺ) الذي أشار بجمع المصحف الإمام، ولا يذكر سوى ثلاثة أوجه من القراءات لثلاث آيات.

فكيف يقبل عاقل أن يقال: إن قراءة ثلاث آيات بوجه خاص يجوِّز لأحد أن ينسب لقارئها مصحفًا خاصًّا به ليشعر باستقلاله عن المصحف الإمام، والأعجب من هذا أن يذكر ابن أبي داود بعد مصحف عمر ﷺ "مصحف علي بن أبي طالب ﷺ"، ثم لا يذكر إلا رواية واحدة يدرجها تحته، وهي تقرر أنه قرأ الآية رقم ٢٨٥ من سورة البقرة هكذا: (آمن الرسوا بما أنزل إليه من ربه وآمن المؤمنون)، وواضح أنها رواية تفسيرية من أجلها يضع أبو بكر عبد الله بن أبي داود مصحفًا خاصًّا لعلي بن أبي طالب ﷺ.

قد يرى بعض المؤلفين إطلاق لفظ "مصحف فلان" على بعض القراءات التي تنسب إليه، كما نسب إلى حمزة بن عبد المطلب مصحفًا، وهو الذي استشهد في غزوة أحد قبل اكتمال القرآن بثمانية أعوام، فهذا نوع من الاصطلاح".

لكنه اصطلاح من بعضهم غير دقيق وخطره عظيم؛ إذ يوهم الاختلاف بين مصاحف الصحابة والمصحف الإمام، بل يعمقه ويُشْعِرُ باستقلالية كل مصحف، حتى ليُوضَع لمصحف أبي موسى الأشعري ﷺ اسم يشعر بذلك فيسمى "لباب القلوب"، ولم يذكر ابن أبي داود "للباب القلوب"، سوى أربع صور من الاختلاف، اثنان منها يُخَرَّجان على أنهما قراءتان، والأخريان على أنهما روايتان تفسيريتان، فهل من أجل هذه السور الأربع يسمى مصحف أبي موسى ﷺ بلباب القلوب مما يشعر بتميزه باسم خاص يضاف إلى رصيد تاريخ القرآن من النسخ القديمة؟

أمَّا مصحف عبد الله بن عمرو ﷺ، الذي ذكر ابن

أبي داود عن أبي بكر بن عياش أنه رأى مع حفيد لعبد الله بن عمرو مصحف جده، وأن فيه حروفًا تخالف حروفنا، أما هذا المصحف فلم تذكر فيه رواية واحدة عن هذه الحروف التي تخالف حروفنا.

ثانيًا. الصحابة أجمعوا على مصحف عثمان ﷺ حال حياته وبعد مماته وفيهم علي وابن مسعود:

أجمع الصحابة ﷺ على المصحف الإمام ولم يتخلف عبد الله بن مسعود عن ذلك الإجماع، وقد انتهت إليهم قراءات الأئمة السبعة.

وإذا قمنا بإحصاء القراءات التي تصل إلى الصحابة من كتاب "الإقناع في القراءات السبع" لأبي جعفر الأنصاري ابن الباذش المتوفى سنة ٥٤٠ هـ، لوجدناها كما يأتي:

- علي ﷺ: تنتهي إليه خمس قراءات من قراءات الأئمة السبعة.
- ابن مسعود ﷺ: تنتهي إليه ثلاث قراءات من قراءات الأئمة السبعة.
- ابن عباس ﷺ: تنتهي إليه خمس قراءات من قراءات الأئمة السبعة.
- أبي بن كعب ﷺ: تنتهي إليه ثلاث قراءات من قراءات الأئمة السبعة.
- زيد بن ثابت ﷺ: تنتهي إليه قراءتان من قراءات الأئمة السبعة.
- عثمان بن عفان ﷺ: تنتهي إليه قراءتان من قراءات الأئمة السبعة.
- أبو هريرة ﷺ: تنتهي إليه قراءة واحدة من قراءات الأئمة السبعة.
- أبو الدرداء ﷺ: تنتهي إليه قراءة واحدة من قراءات الأئمة السبعة.

ويُلاحَظ أن هذا الاتصال حسب سلسلة السند التي ذكرها ابن الباذشي؛ لذا نجد بعض الحفاظ من القراء يختلف في العدد زيادة أو نقصانًا حسب اتصال السند إليهم.

تلك الإحصائية من كتاب ابن الباذشي تنقض تلك الدعوى التي ادعاها ابن أبي داود وأمثاله قديمًا، ونفخ فيها بعض المستشرقين حديثًا، دعوى اختلاف مصاحف الصحابة (الخاصة) عن المصحف العثماني.

ثالثًا. لماذا لم يعلن علي ﷺ مصحفه على الناس بعد توليه الخلافة، ويرفض مصحف عثمان ﷺ؟!

لقد كانت لدى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ حين تولى الخلافة فرصة أن يعلن على الناس ما لم يرضه من أوجه الاختلاف بين مصحفه والمصحف الإمام، أو أن يضيف الناقص إليه ويحذف الزائد، وقد نِيْطَت به هذه المسئولية الكبرى، ويستحيل أن يكتم علي ﷺ شيئًا يتعلق بالقرآن الكريم، ولكن ذلك لم يحدث، إنما حدث منه الرضى التام بما صنع عثمان ﷺ من تحريق المصاحف، وجمع الناس على المصحف الإمام، حتى إن أبا بكر عبد الله بن أبي داود الذي نسب إلى علي بن أبي طالب ﷺ مصحفًا - يذكر بنفسه أن عليًّا ﷺ قال حين حرق عثمان ﷺ المصاحف: "لو لم يصنعه لصنعته".

رابعًا. هذه الزيادات - إن صحَّت - لا تعدو كونها تفسيرًا للقرآن أو قراءة شاذة أو خاصة:

إن ما رُوي عن بعض الصحابة ﷺ - إن صحت

نسبته إليهم - لا يخرج عن كونه روايات تفسيرية لبعض الآيات الكريمة، وإنها روايات آحاد لا ترقى أن تكون قرآنًا، فإن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وقد تُحمل هذه الروايات قراءات شاذة لا تُعَدُّ من القرآن كذلك.

لقد قرر العلماء عقلًا وقلبًا، دراسة وتمحيصًا، وأقرت الأمة الإسلامية كذلك أن هذا القرآن الذي بين أيدينا، وتناقلته الأجيال حفظًا في الصدور وكتابة في السطور - منذ جَمْع الصحابة له، بما فيهم هؤلاء الصحابة الذي نُسِبَتْ إليهم مصاحف خاصة تختلف عن المصحف الإمام، هذا القرآن الذي وثِّق بمحضر من الصحابة جميعًا، وأقروا بكماله - يستحيل أن يقع فيه تحريف في حرف واحد، إذ كان كل حرف من حروفه مجمعًا على صدقه، وما كانت هذه الأمة لتجتمع على ضلالة عقلًا واصطلاحًا؛ بل يستحيل أن يقع فيه تحريف لكفالة الله وحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

ثم إن الجمع الأول للقرآن في عهد أبي بكر ﷺ، إنما تم عن طريق استنساخ ما في صدور الصحابة وما في صحفهم، فقد جاء من طريق يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي حاطب: "عن عمر أنه قال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئًا حتى يشهد شاهدان"[1].

فهذه الصحف التي كانت بين يدي الصحابة، والتي كتبوها لأنفسهم هي التي استنسخ منها المصحف الإمام، ثم إن عثمان ﷺ "أمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسل به إلى الأمصار فكيف يقال بعد ذلك: "باختلاف مصاحف الصحابة عن المصحف الإمام".

خامسًا. هذه المصاحف مشكوك في صحتها فضلا عن نسبتها إلى الصحابة:

إن نصوص هذه المصاحف لم تبلغنا، بل بلغنا بعض الروايات عن ترتيب سورها، أو أوجه قراءاتها، وبعض الروايات التفسيرية بعد أن أحرق عثمان ﷺ المصاحف المخالفة بمدة طويلة، مما يجعلنا نحذر كل الحذر في قبول هذه الروايات والتي كانت مستندًا لما سُمِّي بعد اختلاف مصاحف الصحابة.

سادسًا. أقوال العلماء فيما نسب إلى ابن مسعود ﷺ وغيره من الصحابة من مصاحف:

هذا أحد أئمة التفسير والقراءات أبو حيان الأندلسي يقول في تفسيره معلقًا على ما نسب إلى عبد الله بن مسعود ﷺ من أنه قرأ: (فالصوالح قوانت حوافظ للغيب بما حفظ الله فأصلحوا إليهن)[2]. "وينبغي حملها على التفسير؛ لأنها مخالفة لسواد الإمام، وفيها زيادة، وقد صح عنه النقل الذي لا شك فيه أنه قرأ وأقرأ على رسم السواد، فلذلك ينبغي أن تُحمَل هذه القراءة على التفسير".

في كثير من المواضع التي نُسِبَتْ فيها قراءة بالزيادة

١. أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، كتاب جمع عمر بن الخطاب ﷺ القرآن في المصحف، باب من كان تلقى من رسول الله ﷺ (٢٧)، وعلاء الدين البرهان فوري في كنز العمال، حرف الهمزة، كتاب الأذكار من قسم الأفعال من حرف الهمزة، باب في لواحق التفسير، جمع القرآن (٤٧٥٩).

٢. الآية كما جاءت في مصحف الإمام: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (النساء: ٣٤).

أو النقصان، أو التغيير يقول مثل ذلك، فيحكم على القراءات المخالفة التي نُسِبَتْ إليه أو إلى غيره بأنها روايات تفسيرية، ولا تعد قرآنًا لأنها تخالف ما عليه السواد الأعظم من المسلمين.

يقول عند قوله ﷻ في سورة البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ (البقرة: ٣٦). وحكوا أن عبد الله بن مسعود قرأ: (فوسوس لهما الشيطان عنها)، وهذه القراءة مخالفة لسواد المصحف المجمع عليه، فينبغي أن تجعل تفسيرًا، كذا ما ورد عنه وعن غيره مما خالف سواد المصحف، وأكثر قراءات عبد الله ﷺ، إنما تنسب إلى الشيعة، وقد قال بعض علمائنا: إنه صح عندنا بالتواتر قراءة عبد الله ﷺ غير ما ينقل عنه، مما وافق السواد فتلك إنما هي آحاد، وذلك على تقدير صحتها فلا تُعَارض ما ثبت بالتواتر".

وإذا كان هذا رأي أبي حيان (المتوفى سنة ٧٤٥ هـ) فإن مكي بن أبي طالب (المتوفى سنة ٤٣٧هـ) يرى أن هذه القراءات المخالفة لخط المصحف هي "منسوبة" إلى ابن مسعود ﷺ، وقد ينسب إلى الإنسان ما لم يصح عنه، كما قال الإمام مالك وغيره.

يقول في بيان قوله ﷺ: "من أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنْزِل، فليقرأ على قراءة ابن مسعود".[1] ونحن نقرأ بذلك من قراءته، ونتولى ذلك ونرويه ونرغب اليوم فيه ما لم تخالف قراءته المصحف، فإن خالف المصحف، لم نكذب بها ولم نقرأ بها؛ لأنها خارجة عن الإجماع، منقولة بخبر الآحاد، والإجماع أولى من خبر الآحاد، ولأنا لا نقطع أنها قراءة ابن مسعود ﷺ على الحقيقة؛ إذ لم يصحبها إجماع.

ولذلك قال مالك وغيره: القراءة التي تُنْسَب إلى ابن مسعود ﷺ، فقال: تُنسب إليه، ولم يقل: قراءة ابن مسعود ﷺ، والشيء قد ينسب إلى الإنسان وهو غير صحيح عنه. وينقل عن إسماعيل بن إسحاق القاضي (المتوفى ٢٨٢هـ) عدم جواز القراءة مما نسب إلى ابن مسعود ﷺ وغيره؛ لأنه لا يقين؛ فيقول: "ما ورد من قراءة ابن مسعود ﷺ وغيره - يعني مما يخالف خط المصحف - ليس ينبغي لأحد أن يقرأ به اليوم؛ لأن الناس لا يعلمون علم اليقين أنها قراءة ابن مسعود ﷺ، وإنما هو شيء يرويه بعض من يحمل الحديث، ولا يجوز أن يعدل عن اليقين إلى ما لا يعرف يقينه".

واليقين الذي يشير إليه إسماعيل القاضي هو أن قراءة هؤلاء الصحابة - ابن مسعود ﷺ وغيره - لا يخالف بعضها بعضًا، وهذا ما ذكره صاحب كتاب "المباني في نظم المعاني" الذي يقول فيه المؤلف - رحمه الله -: "وقد جاء عن محمد بن كعب القرظي قال: رأيت مصاحف ثلاثة: مصحفًا فيه قراءة عبد الله بن مسعود ﷺ، ومصحفًا فيه قراءة أُبي ﷺ، ومصحفًا فيه قراءة زيد ﷺ، فلم أجد في كلٍّ منها ما يخالف بعضها".

فما نسب إلى عبد الله بن مسعود ﷺ وغيره من قراءات تخالف المصحف الإمام - لا يصح، وما نُسِبَ

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (٤٢٥٥)، وابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل عبد الله بن مسعود ﷺ (١٣٨)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١٣٨).

من انفراد بعض الصحابة بمصاحف خاصة تخالف ما أجمع عليه الصحابة، وما وافق السواد - أمر مشكوك فيه كما يقول أبو حيان -، بل قد يكون من وضع بعض الزنادقة الملحدين.

يقول صاحب كتاب "المباني": قال الشيخ محمد بن الهيصم - رحمه الله -: وليس يُعْرَف لأُبي ﷺ مصحف يخالف هذا المصحف، إلا ما يُنسب إليه بخبر الواحد دون الجمع الذي يلزم اليقين، إنما كانت قراءته هذه القراءة التي عليها العامة، قال: وقد ذكر بعض مشايخنا - رحمهم الله - أنه رأى مصحفًا منسوبًا إلى أُبي ﷺ خالف بعض حروفه حروف هذا المصحف، لكنا لا نؤمن أن يكون ذلك من جهة من يحب الافتخار بالغريب، فإن هذه بليَّة قد أضرت بالدين، وأخلَّت بمصالح المسلمين، وطرقت الملحدين إلى الطعن في أركان الإسلام، وسهلت عليهم الشغب في أموره.

إلى أن يقال: فعلى هذا النحو لا يؤمن أحدهم - أحد عبيد أرباب الأموال وأبناء الدنيا - أن يعمد إلى مصحف فيقدم منه سورًا ويؤخر أخرى، ويُحرِّف ألفاظًا، ثم يزعم أنه مصحف علي ﷺ، أو مصحف عبد الله ﷺ، أومصحف أُبي ﷺ، وليس غرض البائس من ذلك إلا أن يحمله إلى بعض الملوك فيقول: إن خزانة مثلك يجب أن لا تخلو من نسخة من كل مصحف ليستخرج من حطامه شيئًا، ولايبالي بما كان من جناية على الدين وأهله، فمن سبيل العاقل أن لا يجعل نفسه عُرْضَة التُّرَّهات فتَهْوسه، فإن الحق أَبْلَج، والباطل لَجْلَج، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تلك هي حقيقة مصاحف الصحابة واختلافها التي حاول المدَّعون أن يضخِّموا أمرها، وأن يُحيُوا ما خمد منها، بالثناء العاطر على أبي بكر عبد الله بن أبي داود ومروياته ومحاولة إحياء فتنة أطفأها الله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ (التوبة)[1].

سابعًا. نقد كتاب "المصاحف" لابن أبي داود الذي ورد به الحديث عن مصاحف الصحابة واختلافها:

إن كتاب "المصاحف" لابن أبي داود - أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني المتوفى ٣١٦هـ، وهو ابن المُحدِّث أبي داود صاحب السنن المعروف - هو أحد المصنَّفات التي أُلِّفت عن المصاحف التي وُجِدَت قبل المصحف الإمام الذي جمع الناس عليه ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ، وشاء الله تعالى ألا يبقى منها إلا كتاب "المصاحف" لابن أبي داود، وهذه الكتب أحيا مؤلفوها - غفر الله لهم - خلافًا عمل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ على وَأْده وقطعه حين جمع الناس على مصحف واحد هو المصحف الإمام.

لقد كان لبعض الصحابة مصاحف خاصة بهم، كمصحف علي ﷺ ومصحف عبد الله بن مسعود ﷺ، ومصحف أُبي بن كعب ﷺ، ومصحف ابن عباس - رضي الله عنهما -، ووجد في مصاحفهم بعض الاختلاف عن المصحف الإمام، لكن هذا الاختلاف لا يعدو أن يكون زيادة ألفاظ مدرجة في المصحف كنوع من التفسير والبيان، كما ذكر السيوطي؛ حيث قال: "ما زِيدَ في القراءات كقراءة سعد بن أبي وقاص "وله أخ أو أخت من أم" - أخرجها سعيد بن منصور، وقراءة ابن

١. المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، مرجع سابق، ص٦٠: ٧٢ بتصرف.

عباس - رضي الله عنهما - "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم في مواسم الحج" - أخرجها البخاري. وقراءة ابن الزبير - رضي الله عنهما - "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون بالله على ما أصابهم".

قال عمرو: فما أدري، أكانت قراءته أم تفسيره، أخرجه سعيد بن منصور، وأخرجه الأنباري، وزعم أنه تفسير، وأخرج عن الحسن ﷺ أنه كان يقرأ: (وإن منكم إلا واردها، الورود: الدخول). قال الأنباري: قوله: الورود: الدخول تفسير من الحسن ﷺ لمعنى الورود، وغلط فيه بعض الرواة فأدخله في القرآن، فهذه الزيادات ليست قرآنًا، وإنما هي بدايات لـ "علم التفسير".

أمّا ما روي من وجوه القراءة الشاذة التي تزيد أو تنقص من القرآن الذي بين أيدينا، فإن المسلمين يقطعون بأنه ليس قرآنًا، لكن بعض المغرضين حاول أن يوهم أن قرآننا ليس واحدًا، وأن المصاحف مختلفة فيما بينها معتمدين على كتاب "المصاحف" متصوِّرين أن قرآننا قد مَرَّ بمراحل تطورية، كما مَرَّ الإنجيل والتوراة من قبل، لكن إذا صَدَقَ هذا على كتابهم المقدس، فإنه لا يَصْدُق - قَطْعًا - على القرآن.

يقول د. عبد الصبور شاهين في كتابه "تاريخ القرآن": "نقرر أن ما تحصل لدينا من الروايات التي أعثرنا عليها البحث في مصادر القراءات الشاذة التي اعتمدنا عليها، وكذلك ما رتبه من اعتمد على مادة كتاب "المصاحف" للحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦) - كل ذلك ليس بقرآن، وإنما هو من الباب الذي ذكرنا (القراءات الشاذة أو التفسيرية)، ونحن نرى أن تلك الزيادات البيانية كانت ضرورية، وأن وجودها كان طبيعيًّا في تلك الظروف التاريخية، وهي في نظرنا تُعَدُّ الملامح الأولى لما عُرِفَ من بعد بـ "علم تفسير القرآن".

فالموضوع الذي اعتمد عليه المُدَّعون حقيقته واهية؛ لأن الأصل الذي ارتكزوا عليه واهٍ كذلك، نعني كتاب " المصاحف " نفسه، الذي ألفه ابن أبي داود.

فمن المعلوم أن أقدم ما وصل إلينا من المصنفات التي تتحدث عن المصاحف واختلافاتها - هو كتاب: اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر (المتوفى ١١٨هـ) أي: بعد مقتل عثمان ﷺ (المتوفى ٣٥هـ) بحوالي ثلاث وثمانين سنة - أي بعد ثلاثة أجيال من القراء، أجمعت الأمة فيها على كل لفظ ورد في المصحف الإمام، كما أجمع الصحابة ﷺ من قبل على عمل عثمان ﷺ حين جمعهم على المصحف الإمام وحرق ما عداه.

إن بعض النصوص من كتاب المصاحف نفسه الذي يحاول المغرضون به الكيد للإسلام وأهله - تُبَيِّنُ تضافر الصحابة واجتماعهم على عمل عثمان واستحسانهم له، فهذا علي بن أبي طالب ﷺ - أحد الذين لهم مصحف خاص - يقول حين حرق عثمان ﷺ المصاحف: "لو لم يصنعه لصنعته"، ثم يذكر المؤلف عن مصعب بن سعد قوله: "أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان ﷺ المصاحف فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد".

ويعلق ابن أبي داود نفسه على قراءة أُبي بن

كعب ﷺ: "فصيام ثلاثة أيام متتابعات "في كفارة اليمين - وواضح أن الزيادة هنا تفسيرية، ولكنها انقلبت عند بعض الرواة قراءة قرآنية - بقوله: "لا نرى أن نقرأ القرآن إلا لمصحف عثمان، الذي اجتمع عليه أصحاب النبي ﷺ، فإن قرأ إنسان بخلافه في الصلاة أمرته بالإعادة.

فإذا كان هذا رأي ابن أبي داود نفسه، فإنا نسأل لماذا - إذن - أجهدت نفسك بجمع هذه الروايات العجيبة، وأحييت خلافًا أراد أمير المؤمنين عثمان والخليفتان قبله والصحابة ﷺ وَأْدَه وشجبه؟! لماذا أحييت هذه الروايات التي اختلط فيها الحق بالباطل، والتي لم تنتشر إلا بعد اتساع الفتن وتألب الأحداث، ورجوع بعض الناس من النفاق إلى أشد من الأعرابية الأولى، وإن أكثر هذا مما أكثرته الملاحدة، وتزيدت به الفئة الغالبة كما يقول الأديب مصطفى صادق الرافعي.

إن مصحف عثمان ﷺ يجب أن تكون كل قراءة قرآنية متفقة مع نصه، وإنَّ الشك فيه كفر، وإنَّ الزيادة عليه لا تجوز، وأنّه القرآن المتواتر الخالد إلى يوم القيامة، كل أولئك حقائق ثابتات تواترت في الأجيال جيلًا بعد جيل.

الخلاصة:

- لا يجب أن نقارن مصاحف الصحابة ﷺ التي جمعوها لأنفسهم تحت ظروف خاصة بمصحف عثمان ﷺ الذي أجمعت الأمة عليه رسميًّا؛ لأنهم لم يلتزموا جميعًا جمع القرآن الكريم ولا ترتيبه على نسق واحد، وإنما كان جمع كل واحد وترتيبه حسبما تيسر له.
- الصحابة أجمعوا على مصحف عثمان ﷺ حال حياته وبعد مماته، ومنهم علي وابن مسعود - رضي الله عنهما -، وقد قال علي ﷺ حين أحرق عثمان ﷺ المصاحف: " لو لم يصنعه لصنعته ".
- لماذا لم يُعْلِن علي ﷺ مصحفه على الناس بعدما آل إليه الأمر، ويرفض ما لم يرضه من مصحف الإمام، إن كان هناك خلاف بين مصحفه ومصحف عثمان ﷺ.
- هذه الزيادات - إن صحت - لا تعدو كونها تفسيرًا للقرآن أو قراءة شاذة أو خاصة؛ وإذ إنها روايات آحاد لا ترقى أن تكون قرآنًا؛ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر.
- هذه المصاحف مشكوك في صحة نسبتها إلى الصحابة؛ لأن نصوصها لم تبلغنا، بل بلغتنا بعض الروايات عن ترتيب سورها وأوجه قراءتها.
- أقوال العلماء فيما نُسب إلى ابن مسعود ﷺ وغيره من الصحابة من مصاحف - أنها إما روايات غير صحيحة أصلًا، أو روايات تفسيرية في مصاحفهم.
- نقد كتاب "المصاحف" لابن أبي داود الذي ورد به الحديث عن مصاحف الصحابة واختلافها يُبَيِّن أنه كان حاطب ليل، حتى إن بعض النصوص من كتاب المصاحف نفسه الذي يحاول المغرضون به الكيد للإسلام وأهله - تبيِّن تضافر الصحابة واجتماعهم على عمل عثمان واستحسانهم له.

الشبهة السابعة والعشرون

التشكيك في تواتر القرآن الكريم(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن الكريم ليس متواترًا بصورة يمكن الاطمئنان إليها، ويرون أن رواية القرآن الكريم كرواية الحديث، والحديث منه المتواتر، والآحاد، والضعيف، والموضوع، ويستدلون على ذلك بما يأتي:

- وجود آيات لم ترد إلا برواية رجل أو رجلين.
- اختلاف المسلمين حول البسملة: هل هي من القرآن أم لا.
- عدم موافقة عبد الله بن مسعود على مصحف عثمان رضي الله عنهما.

ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في سلامة القرآن والتشكيك في تواتر نصه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) للقراءة الصحيحة ضوابط وأركان، وضعها العلماء وهي متحققه في القراءات العشر.

٢) لقد تكفل الله ﷻ بحفظ الوحي - قرآنًا وسنة - فأما القرآن فقد حُفِظَ في الصدور وجُمِعَ في المصحف والرسول على قيد الحياة، ثم جُمِعَ في مصحف واحد في عهد أبي بكر ﷺ، ثم وُحِّدَ المسلمون على مصحف واحد في عهد عثمان ﷺ، فحُفِظَ كما أُنْزِلَ من عند الله تعالى ولم ينقص منه حرف أو يُزاد فيه حرف حتى يُنقَّح صحيحه من ضعيفه. وأما السنة النبوية فقد قيَّض الله لها جهابذة قاموا بغربلتها وتصفيتها وتنقيحها فميَّزوا الصحيح من غيره.

٣) اختلاف الروايات المكتوبة، والروايات المحفوظة للقرآن في درجة التواتر، فالآيات التي وردت برواية رجل أو رجلين كانت مكتوبة بالإضافة إلى حفظها، وهذا يقوي روايتها.

٤) الخلاف حول البسملة لا يطعن في صحة تواتر القرآن؛ لأنها من الأمور الاجتهادية التي لا يكفر مثبتها ولا منكرها.

٥) رواية ابن مسعود لا تطعن في صحة تواتر المصحف العثماني، وقد رجع ابن مسعود ومدح صنيع عثمان بعد ذلك.

التفصيل:

أولا. ضوابط وشروط القراءة المقبولة الصحيحة:

- التواتر، ومعناه: نقل جماعة عن جماعة تحيل العادة تواطؤهم على الكذب من أول السند إلى منتهاه.
- موافقة أحد المصاحف العثمانية.
- موافقة وجه من أوجه اللغة العربية.

والشروط الثلاثة متحققة في قراءات الأئمة العشرة الذين نسبت إليهم وجوه اختلاف ألفاظ القرآن الكريم، نقلًا عن التابعين عن الصحابة، عن رسول الله ﷺ عن جبريل عليه السلام عن رب العزة ﷻ.

إن هذه القراءات أبعاض القرآن وأجزاؤه، وقد ثبت القرآن كله بجميع أبعاضه وأجزائه بطريق التواتر،

(*) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق. بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارت، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة، د. ت. موسوعة القرآن العظيم، عبد المنعم الحنفي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٤م.

فيكون كل جزء منه ثابتًا بطريق التواتر، ضرورة ثبوت الأجزاء بثبوت الكل، فمثلًا قراءة لفظ "الصراط" بالصاد بعض من القرآن، وقراءته بالسين بعض آخر منه، فكلتا القراءتين متواترة؛ إذ الطريق الذي وصلت إلينا منه إحدى القراءتين هو الطريق نفسه الذي وصلت إلينا منه القراءة الأخرى، فيكون كل منهما قرآنًا، وإلا لو قلنا: إن إحدى القراءتين متواترة دون الأخرى ـ وطريق ورودهما واحدة ـ لكان ذلك تحكمًا باطلًا، وترجيحًا لإحدى المتساويتين على الأخرى دون مرجح، وهو باطل، فحينئذ تكون القراءتان متواترتين وهو المطلوب.

على أنه إذا انتفى التواتر عن القرآن كله يستلزم ذلك ضرورة انتفاء الكل بانتفاء جزء منه، وانتفاء التواتر عن القرآن باطل، فبطل ما أدى إليه انتفاء التواتر عن بعض القراءات، وثبت نقيضه وهو ثبوت التواتر في الجميع ـ كما ترى ـ وهو المطلوب[1].

ثانيًا. تكفل الله تعالى بحفظ القرآن:

لقد نزل القرآن الكريم من قِبَل الله ﷻ على قلب رسول الله ﷺ بواسطة أمين السماء جبريل ؑ ولم ينزل من القرآن شيء بعد وفاة النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه شيء من الوحي يقرؤه على الصحابة ﭫ، وكان الصحابة يحفظون ما يسمعونه من الرسول ﷺ لفظًا وأحكامًا، وقد جاء عن عمر بن الخطاب ﭬ أنه كان يسمع العشر آيات من القرآن فلا يتعداها إلى غيرها إلا إذا عرف كل ما يتعلق بهذه الآيات، فكان حفظ الصحابة للقرآن حفظًا سليمًا، ومتواترًا جيلًا بعد جيل.

وهكذا تكفل الله ﷻ بحفظ آيات القرآن الكريم من الضياع أو التحريف أو النسيان، ولم يترك هذه المهمة لأحد من البشر، حتَّى ولو كان رسولًا في مكانة رسول الله ﷺ، بل قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر)، وقال تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ (النساء)، وغير ذلك من الآيات التي تؤكد حفظ القرآن الكريم من قِبَل الله ﷻ وعدم سقوط أي جزء من أجزائه أو آية من آياته أو كلمة من كلماته.

وقد احتاط النبي ﷺ والصحابة ﭫ لهذا الكتاب غاية الاحتياط، فلم يكتفوا بحفظه في الصدور وعلى صفحات القلوب، وإنما جمعوا إلى الحفظ الكتابة على ما أتيح لهم حينذاك، وبذلك اجتمع للقرآن الوجودان: الوجود في الأذهان والصدور، والوجود في الكتابة والسطور[2].

وحول ثبوت النص القرآني بالتواتر المفيد للقطع واليقين ـ مما يؤكد حفظ الله التام له، وعدم المساس به من قِبَل يد التحريف والتبديل ـ يقول د. محمد بن محمد أبو شهبة: لم يعرف التاريخ في عمره الطويل كتابًا أحيط بسياجات من العناية والرعاية مثل ما عُرف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا ثبت في جملته وتفصيله بالتواتر المفيد للقطع واليقين مثل ما عُرف ذلك للقرآن الكريم، ولا كتابًا أوجب الله حفظه على الأمة كلها غير القرآن

---

١. دراسات حول القرآن والسنة، د. شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص٢٦، ٢٧ بتصرف.

٢. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٣٨٦ بتصرف.

الكريم، ولا كتابًا سلم من التحريف والتبديل غير القرآن الكريم.

ولم يكن المعوَّل عليه في حفظ القرآن الكريم وتلقيه، الأخذ من الرقاع والصحف والمصاحف، وإنما كان المعول عليه الأول: التلقي الشفاهي، والأخذ بالسماع، فالنبي ﷺ أخذ عن أمين الوحي جبريل عليه السلام، وعن النبي ﷺ أخذ كثير من الصحابة النجباء العدول الضابطين الأمناء، وعن الصحابة أخذ الآلاف من التابعين الفضلاء، وهكذا نقله العدد الكثير عن العدد الكثير، حتى وصل إلينا كما أنزله الله من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تحريف، مصداقًا لقول الحق عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر)، وقد كان من أسباب توثيق النص القرآني حفظ النبي ﷺ للقرآن، وحفظ الصحابة له.

وكان النبي ﷺ شديد العناية بحفظ القرآن، وحريصًا على تَلَقُّفه من جبريل عليه السلام، حتى بلغ من شدة عنايته به وحرصه عليه أنه كان يُحَرِّك به لسانه أكثر من المعتاد عند قراءته، ويعالجه أشد المعالجة حتى كان يجد في ذلك شدة، يقصد بذلك استعجال حفظه خشية أن تَفلِت منه كلمة، أو يَعْزُب عنه حرف حتى طَمْأنه ربُّه، ووعده أن يحفظه له في صدره، وأن يُقْرِئه لفظه، وأن يُفْهِمه معناه، فأنزل عز وجل قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ (القيامة)، أي: جمعه لك في صدرك، وإقراره لك بواسطة أمين الوحي جبريل، فإذا قرأه جبريل فأنصت، حتى إذا فرغ فاقرأ عليه ما سمعت منه.

ثم إنا سنتكفل لك أيضًا ببيان تفسيره، وتوضيح ما أجمل منه وإزالة إشكال ما عسى أن يستشكل منه، وهو ضمان من الله عز وجل أن يحفظ القرآن في قلب نبيه، فلا تتفلَّت منه كلمة أو حرف، وقد ورد تفسير هذه الآيات عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، وكان من الدواعي القوية لحفظ النبي ﷺ القرآن وتثبيته في قلبه الشريف - معارضة جبريل عليه السلام النبي ﷺ بالقرآن، أي عرضه عليه في رمضان من كل عام، وقد جاء عن ابن عباس أنه قال: " كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فَلَرَسُول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المُرْسَلة "[1]. "فكان جبريل عليه السلام يقرأ والنبي يسمع حينًا، والنبي ﷺ يقرأ وجبريل عليه السلام يسمع، حتى كان العام الذي تُوفِّي فيه الرسول ﷺ فعارضه جبريل عليه السلام بالقرآن مرتين، وقد شهد العَرْضَة الأخيرة أحد مشاهير كتاب الوحي لرسول الله ﷺ، هو زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه"[2].

وكان القرآن شغل النبي ﷺ الشاغل في صلاته، وتهجده، وفي سره وعلانيته، وفي حضره وسفره، وفي وحدته وبين صحابته، وفي عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، لا يغيب عن قلبه، ولا يألو جهدًا في تعهده وتكراره والائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه،

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٦١٤٩).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ (٤٧١٢) بلفظ: كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة.

والاعتبار بمواعظه وقصصه، والتأثر بأمثاله وحكمه، والتأدب بآدابه وأخلاقه، وتبليغه للناس كافة.

كما كان أعلم الناس بأسباب نزوله ومواقع تنزلاته، ومدلول خطاباته، وأحكامه وآدابه، وحدوده ومعالمه وظاهره وباطنه، فمن ثم كان أشد الناس حفظًا له، وإجادة لقراءته ومعرفة لحروفه وقراءاته، وكان المرجع الأول للمسلمين في حفظ القرآن وفهمه، والوقوف على معانيه وأسراره ومراميه، والتثبت من نصوصه وحروفه وقراءاته.

ومن خصائص هذا الكتاب السماوي الكريم أن الله ﷻ كلف الأمة الإسلامية بحفظه كله، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت بهم التواتر المفيد للقطع واليقين على هذا الوضع، وبهذا الترتيب الذي وجد، ويوجد في المصاحف العثمانية من لدن الصحابة إلى اليوم، فإن لم يحفظه عدد يثبت بهم التواتر أثمت الأمة كلها.

بخلاف التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى - عليهما السلام - وغيرها مما أنزله الله ﷻ فلم تكلف أممها بحفظها عن ظهر قلب، بل ترك ذلك لاختيار من يريد، فمن شاء حفظ ما شاء، واعتمد في القراءة على المكتوب، وهذا الأخير هو الأعم الأغلب من شأن بني إسرائيل وغيرهم، ولم تتوافر الدواعي لحفظ هذه الكتب والصحف كما توافرت للقرآن الكريم.

فمن ثم لم يكن لها من ثبوت النص القطعي الموثوق به مثل ما للقرآن العظيم، ومن هنا سهل التحريف والتبديل في التوراة والإنجيل من الأحبار والرهبان والقسس، وبعضها كالصحف ضاع بمرور الزمن ولم يبق له وجود.

والسبب في أن الله ﷻ كلف الأمة المحمدية بحفظ القرآن العظيم، ولم يكلف الأمم السابقة بحفظ كتبها وصحفها، أن هذه الكتب لم تكن معجزة بلفظها، ولم يشأ الله ذلك لحكمة يعلمها، بخلاف القرآن الكريم، فقد شاء الله ﷻ - وله الحكمة البالغة - أن يكون معجزًا بلفظه، فضلًا عن معانيه، فكان من الضروري المحافظة على النص بالطريق المفيدة للقطع واليقين، وليس ذلك إلا بأن يحفظه عدد كثير من كل جيل وعصر، يستحيل على مجموعهم الكذب والغلط والسهو، وهو ما يُعرف في علم الرواية بـ "التواتر"، وقد وفَّر الله له من الدواعي إلى حفظه ما لم يتوافر لغيره من الكتب السماوية، بل الأرضية.

وأيضًا من الحكم أن القرآن هو الأصل الأصيل للدين العام الخالد الباقي ما بقي إنسان على وجه هذه الأرض، وهو الإسلام، فكان لا بد من المحافظة على كتابه، ليخلد خلود هذا الدين الذي يعتبر القرآن أصلًا له، بخلاف التوراة والإنجيل، فقد كانا كتابين لدينين يمثلان طورين خاصين محدودين بحدود الزمان والمكان، من الأطوار التي مرت بها الأديان السماوية، حتى وصلت إلى الاكتمال في دين الإسلام، قال ﷺ: "وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة"[1].

وكان النبي ﷺ إذا نزلت عليه الآية أو الآيتان، أو الخمس أو العشر، أو السورة يقرؤها على أصحابه

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أبواب المساجد، باب قول النبي ﷺ: "جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا" (٤٢٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب منه (١١٩١) بلفظ: كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى كل أحمر وأسود.

ويحفظهم إياها ويفقههم بها، ويبين لهم طريقة أدائها وآداب تلاوتها؛ كي يحفظوا اللفظ، ويفقهوا المعنى، ويلتزموا ما نزل عملًا وسلوكًا ويستقيموا عليه.

وقد أحلَّ الصحابة ﷺ القرآن المحل الأول من نفوسهم وأنزلوه المنزلة اللائقة به، يتنافسون في حفظ لفظه، ويتسابقون في فقه معناه، وجعلوه متعبدهم في ليلهم، وصاحبهم في أسفارهم، وأنيسهم في وحدتهم، وصديقهم الصدوق في منشطهم ومكرههم، ومستشارهم الأمين في شئون دينهم ودنياهم، وما ظنك بكتاب تلاوته عبادة، والاشتغال به من أعظم القربات إلى الله، وعزهم لا يكون إلا به، وسعادتهم في الدنيا والآخرة لا تتحقق إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه؟!

لقد كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّرَ أميرًا على قوم يقدم أكثرهم قراءة للقرآن الكريم، وإذا بعث بعثًا جعل إمامهم في صلاتهم أكثرهم قراءة للقرآن، بل إذا جمع بين اثنين أو أكثر في قبر لضرورة - كما حدث في شهداء أحد - سأل: أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أُشِيرَ إليه قدمه في اللحد.

ولم يكن همهم من القراءة مجرد الحفظ من غير تدبر وفهم، وإنما المراد الحفظ والفهم، والعلم والعمل بما حفظوه وعلموه، جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن؛ كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا عن النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم والعمل جميعًا، فالقراء في الصدر الأول كانوا فقهاء فاهمين، وعلماء عاملين، اعتمادهم في الحفظ على التلقي الشفاهي.

وكان اعتمادهم ﷺ في الحفظ على التلقي والسماع من النبي ﷺ أو ممن سمعه من النبي ﷺ من الصحابة، لا سيما القارئين المجيدين منهم: كعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأُبي بن كعب، وزيد بن ثابت ﷺ، وأمثالهم.. وما كانوا يعتمدون في حفظه على المكتوب في عهد النبي ﷺ ولا على النقل من الصحف والمصاحف بعد كتابتها في عهد ذي النورين عثمان ﷺ. وكذلك من جاء بعد الصحابة من التابعين وتابعي التابعين ومن بعدهم، كان اعتمادهم على التلقي الشفاهي من الشيوخ أو العرض، والقراءة عليهم، وهذا هو الغالب من شأنهم، ولا تزال هذه السنة في حفظ القرآن متبعة وملتزمة لدى القراء المجيدين إلى عصرنا هذا، وبذلك بقيت سلسلة الإسناد متصلة بالقرآن، وستبقى بإذن الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها[1] ®.

ثالثًا. التواتر بين المحفوظ والمكتوب:

أما من قال: كيف يكون القرآن متواترًا كله مع أن زيد بن ثابت قال في حديثه عن جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ: "فتتبعتُ القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره"[2].

---

١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص ٣٨٦: ٣٩٣ بتصرف يسير.

® في "**حفظ الله لوحيه الأخير**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠١)، وفي مواضع أخرى.

وقال عند ذكره لكتابة المصحف في عهد عثمان ﷺ: "ففقدت آية من الأحزاب كنتُ أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري، فألحقناها في سورتها في المصحف".[1] فهاتان الروايتان ـ في ظنهم ـ تدلان على اعتماده ﷺ في جمع القرآن على الروايات الأحادية.

والجواب: إن هذا الذي ورد في الروايتين لا ينفي تواتر القرآن؛ لأن الاعتماد في جمع القرآن كان على الحفظ والكتابة، وكان غرضهم من ذلك زيادة التوثق والاطمئنان، وأن ما كتبوه إنما هو من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

فقول زيد بن ثابت ﷺ: لم أجدهما، أي: لم أجدهما مكتوبتين، وهذا لا ينافي أنهما كانتا محفوظتين عند جمع يثبت بهم التواتر، والتواتر إنما هو في الحفظ لا في الكتابة، يدل على ذلك قول زيد في الرواية الثانية "ففقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله يقرأ بها " فهو إذن كان حافظًا لها ومتيقنًا لقرآنيتها ـ وكذلك من كانوا معه يحفظونها ـ ولكن كان يبحث عن أصلها المكتوب"[2].

إن كلام زيد بن ثابت هذا لا ينفي التواتر ولا يبطله؛ إذ إن الآيتين ختام سورة التوبة لم تثبت قرآنيتهما بقول أبي خزيمة وحده، بل تثبت بأخبار كثرة غامرة من الصحابة عن حفظهم في صدورهم، وإن لم يكونوا كتبوه في أوراقهم، فالذي انفرد به أبو خزيمة هو كتابة الآيتين لاحفظهما، وليست الكتابة شرطًا في التواتر، بل المشروط فيه أن يرويه جَمْع يُؤْمَن تواطؤهم على الكذب، ولو لم يكتبه واحد منهم، فكتابة أبي خزيمة الأنصاري كانت توثقًا واحتياطًا فوق ما يطلبه التواتر ويقتضيه، فكيف نقدح في التواتر بانفراده بها؟

كما أن كلام زيد فيما مضى من ختام سورة التوبة وآية الأحزاب ـ لا يدل على عدم تواترهما ـ حتى على فرض أنه يريد انفراد أبي خزيمة بذكرهما من حفظها، غاية ما يدل عليه كلامه ـ أنهما انفردا بذكرهما ابتداءً، ثم تذكر الصحابة ما ذكراه، وكان هؤلاء الصحابة جمعًا يؤمن تواطؤهم على الكذب، فدونت تلك الآيات في الصحف والمصحف بعد قيام هذا التواتر فيها[3].

رابعًا. الخلاف في البسملة خلاف اجتهادي سائغ:

إن اختلاف المسلمين حول قرآنية البسملة ـ التي تأتي في أوائل السور ـ أو عدم قرآنيتها ـ لا يستدعي أن يكفر بعضهم بعضًا؛ لأن مثل هذه الخلافات من الأمور الاجتهادية المختلف فيها بين العلماء، ومثل هذه الأمور الاجتهادية لا يكفر منكرها أو مثبتها، إنما يكفر من أنكر شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة، ومن ذلك فرضية الصلاة والزكاة والصوم والحج، وتوحيد الله تعالى، والإيمان بالملائكة والرسل والكتب والقدر... إلخ، فهذه الأمور هي التي يحكم على منكرها بالكفر، وعلى مثبتها بالإيمان.

أما قرآنية البسملة التي جاءت في سورة النمل على

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٧٠٢)، وفي موضع آخر.
2. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٨٥، ٢٨٦.
3. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص٢٣٣، ٢٣٤ بتصرف يسير.

لسان سليمان ﷺ، فهذا أمر ثابت ولا يقبل أي خلاف حوله، ومثل هذه الآية يحكم على منكرها بالكفر وعلى مثبتها بالإيمان؛ لأن هذه الآية متواترة عن كل المسلمين في كل عصر من عصور الدعوة الإسلامية، ونص هذه الآية هو قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ (النمل).

خامسًا. رواية ابن مسعود لا تطعن في التواتر من أي وجه:

ادعاء أن ابن مسعود ﷺ لم يوافق على مصحف عثمان ﷺ ادعاء باطل؛ لأن غاية ما ورد عنه قوله - إن صحت هذه الرواية -: "يا معشر المسلمين، أُعْزَلُ عن نسخ المصاحف، ويتولاه رجل - والله - لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر؟" يقصد زيد بن ثابت.

وكلام ابن مسعود ﷺ - إن صحت هذه الرواية عنه - لا يدل على الطعن في جمع القرآن، إنما يدل على أنه كان يرى في نفسه أنه هو الأولى أن يسند إليه هذا الجمع، وذلك لا ينافي أنه كان يرى في زيد الأهلية والكفاية للنهوض بما أسند إليه، وإن كان هو في نظر نفسه أكفأ وأجدر، غير أن المسألة تقديرية، ولا ريب أن تقدير أبي بكر وعمر وعثمان لزيد أصدق من تقدير ابن مسعود له؛ إذ توافرت في زيد مجموعة من المؤهلات والمزايا جعلته جديرًا بتنفيذ هذه الغاية السامية.

وخلاصة القول أن اعتراض ابن مسعود - على فرض صحة هذه الرواية - كان منصبًّا على طريقة تأليف لجنة الجمع، لا على صحة الجمع نفسه، مع أن كلمة ابن مسعود السالفة لا تدل على أكثر من أنه كان يكبر زيدًا بزمن طويل؛ إذ كان عبد الله مسلمًا وزيدٌ لا يزال ضميرًا مستترًا في صلب أبيه، وليس هذا بمطعن في زيد، فكم ترك الأول للآخر، ولو كان الأمر بالسن؛ لاختل نظام الكون.

ثم إننا لو سلمنا بصحة ما نقل عن ابن مسعود، وسلمنا أنه أراد الطعن في صحة جمع القرآن، لا نسلم أنه دام على هذا الطعن والإنكار، بدليل ما صح عنه أنه رجع إلى ما في مصحف عثمان، وحرق مصحفه في آخر أمره، حين تبين له أن هذا هو الحق.

وغير هذا وذاك أن كلام ابن مسعود - على فرض صحته وأنه أراد به الطعن في جمع القرآن، وأنه دام ولم يرجع عنه - لا يدل على إبطال تواتر القرآن؛ لأن التواتر يكفي في القطع بصحة مرويه أن ينقل عن جمع يُؤْمَن تواطؤهم على الكذب بشروطه، وليس من شروطه ألا يخالف فيه مخالف، حتى يقدح في تواتر القرآن أن يخالف فيه ابن مسعود ﷺ أو غيره، ما دام جمع غفير من الصحابة قد أقروا جمع القرآن على هذا النحو في عهد أبي بكر مرة، وفي عهد عثمان - رضي الله عنهما - مرة أخرى[1].

وبذلك اتحدت الصفوف واتفقت الكلمة، وتم الاتفاق على صحة تواتر مصحف عثمان بن عفان ﷺ دون غيره من المصاحف الأخرى®.

الخلاصة:

- وضع العلماء ضوابط للقراءة الصحيحة المقبولة، وهذه الضوابط هي: التواتر، وموافقة أحد المصاحف

---

١. المرجع السابق، ص٢٣٢، ٢٣٣ بتصرف يسير.

® في **"حقيقة موقف ابن مسعود من مصحف عثمان"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثالثة عشرة، من هذا الجزء.

العثمانية، وموافقة وجه من أوجه اللغة العربية، والشروط الثلاثة متحققة في قراءات الأئمة العشرة الذين نسبت إليهم وجوه اختلاف ألفاظ القرآن الكريم، نقلًا عن التابعين عن الصحابة عن رسول الله عن جبريل عن رب العزة ﷻ.

- لقد تكفَّل الله ﷻ بحفظ كتابه من الضياع أو التحريف أو النقص؛ لذلك هيَّأ ﷻ أسباب توثيق النص القرآني وسلامة تواتره، فحفظه النبي ﷺ والصحابة الكرام ﷺ، ثم تابعت الأمة السير على هذا المنهج في تبليغ القرآن وحفظه في الصدور قبل السطور جيلًا بعد جيل، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وصدق الله إذ يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

- الآيات التي وردت برواية رجل أو رجلين كانت آيات محفوظة في صدور الصحابة، والعبرة في التواتر بالحفظ لا بالكتابة.

- الخلاف الذي وقع بين المسلمين في البسملة لا يطعن في صحة تواتر القرآن؛ لأن هذا من الأمور الاجتهادية غير القطعية السائغ فيها الخلاف والتي لا يكفر مثبتها، أو منكرها.

- اعتراض ابن مسعود ﷺ على مصحف عثمان ﷺ ـ على فرض صحة الرواية التي تزعم ذلك ـ لا ينفي صحة تواتر مصحف الإمام؛ لأن شروط التواتر الصحيح متوافرة في هذا المصحف، وهي اجتماع عدد من المسلمين في كل طبقة على صحة هذا المصحف بحيث يؤمن تواطؤهم على الكذب.

المحور الثالث

شبهات حول القصص القرآني

الشبهة الثامنة والعشرون

اتهام القَصَص القرآني بالتشوش والاضطراب(*)

مضمون الشبهة:

يتهم بعض المتقولين القصص القرآني بالاضطراب والتشوش والتشوه، قائلين: إن القصص القرآني كان في أصله مجرد أساطير شوهها القرآن حين حكاها. ويرمون من وراء اتهامهم ذلك إلى وصم القرآن بالنقل المشوش المضطرب بغية الطعن في سلامته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الغرض من القصص القرآني ديني في المقام الأول، واقتضى ذلك أن تُعْرض منه الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض، فآخر حلقة تعرض ـ بحسب ترتيب السور ـ تتفق مع أظهر غرض ديني صيغت من أجله.

٢) إن ما ادَّعاه هؤلاء من اضطراب القصص القرآني لا يستند إلى دليل، وسرعان ما ينهدم أمام مطالعة سريعة لبلاغته وإعجازه.

٣) يختلف القصص في القرآن عنه في الكتاب المقدس، فالقرآن يحرص على تعظيم الأنبياء، ومنطقية القص وتسلسل الأحداث وإحكام الأسلوب، بخلاف العهدين القديم والجديد؛ إذ يوسعان الأنبياء تنقيصًا وازدراءً، ناهيك عما في قصصهما من ركاكة واضحة واضطراب حاد وتناقض ظاهر.

التفصيل:

أولا. بلاغة القصص القرآني سر من أسرار إعجازه:

إنه من المدهش حقًّا أن يقال مثل هذا الهراء عن القصص القرآني، لكن الواضح أن هؤلاء المغالطين لم يقرءوا القرآن بلغته المعجزة، ومِن ثَمَّ فهم يرددون هذا الكلام السقيم البعيد عن الصواب.

ولنا أن نتساءل: ما المشوش في قصص القرآن؟ إعجازه في نظمه، أم قوته في أسلوبه؟! أم تميزه عن غيره من سائر القصص بخصائص يعلو بها جلالة وقداسة، ويزداد بها بلاغةً وإعجازًا، ويعظم بها أهمية وتأثيرًا؟! أم مجيء هذا القصص في تكرار هادف معجز، حسبما يقتضيه السياق، مما يزيده سموًّا ورفعة؟! أم تلك الواقعية التاريخية في كل الحقائق الواردة فيها، من غير أن يصادمها عقل، ولا يخالفها نقل؟! أم شموليته المطلقة في حصر النفوس المخاطبة، وطباعها وخلالها ووجهاتها ومكامن نفوسها، وفي تنويع الأساليب والوسائل الملائمة لكل جنس وطريقة، وصدق الله العظيم إذ يقول عن هؤلاء وأمثالهم: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (التوبة).

إن الغرض من القصص القرآني غرض ديني في المقام الأول، هو هداية الناس؛ لذا اقتضى الأمر أن تُعْرَض منه الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض، فآخر حلقة تُعرض ـ بحسب ترتيب السور ـ تتفق مع أظهر غرض ديني صيغت من أجله القصة، فمثلًا قصة

(*) شبهات المعترضين ومفترياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، ماهر عبد الوهاب.

موسى عليه السلام ورد أول ذكر لها في سورة البقرة، وكان موضوعها ذبح البقرة وتشديد بني إسرائيل على أنفسهم فشدد الله عليهم، ثم جاء ذكر لها في سورة المائدة، وفيها عرض لحلقة التيه، فهؤلاء بنو إسرائيل قد أغدق الله عليهم نِعَمَه، وأملى لهم من رحمته، ثم هم في النهاية لا يحافظون على النعمة، ولا يدخلون الأرض المقدسة، فيتركهم الله في التيه لا مرشد لهم.

كل ذلك في أسلوب رائع، ومواقف متفرقة، لم تضعف بها سياقاتها، هذا ناهيك عما يرافق ذلك من تناسب واقعي لأحداث القصة، وتناسق فني في سياقاتها المتكررة والمتعددة، فإذا تبين هذا عُلِمَ ضَعْف هذه الشبهة ووَهَنها، وكذلك سقوطها، وتبين أيضًا أن ما يقوله أصحابها إنما هو قول بغير علم، وهو أقرب إلى أن يكون جعجعة لا تسمن ولا تغني من جوع، وأن الحق أحق أن يتبع لو كانوا يعلمون.

وحول إحكام القصص القرآني ومصداقية معانيه ووضوح دلالته، يقول د. إبراهيم خليفة، ردًّا على دعوى اضطراب القصص القرآن وتشويشه ـ: "وقد أخطأ بعض الباحثين عندما يطلبون في القصص القرآني أن يستكمل أركان القصة بالمعنى الحديث، التي هي مستمدة من الخيال ومبنية على قواعد فنون الكتابة؛ وذلك لأنهم لم يفرقوا بين القصة بمعنى الحكاية، والقصة بمعنى الخبر المُحَدَّث به على وجهه، والثاني هو المراد في القصص القرآني؛ لأن الأشخاص والزمان والمكان، ليست بالضرورة أركانًا للخبر المحدث به، فقد يُبْهَم المكان والزمان، كما في قوله ﷻ: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴾ (يوسف) وقد يبهم الزمان كما في قوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (يوسف)، وقد يبهم الشخص أو الأشخاص كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴾ (القلم).

فالذي يجب وجوده في القصص القرآني هو الحدث والعبرة، أما بقية عناصر القصة فإنها توجد بحسب الحاجة إليها وأهميتها فيها، فلو كان للشخصية مدخل كبير فإنها تذكر؛ كمريم ـ عليها السلام ـ في قصتها، والهدهد في قصة سبأ، وكثيرًا ما تأتي الشخصية بصورة التنكير كما في قصة النملة، وسماع سليمان عليه السلام، وقد يُهتم بإبراز الزمان كما في قصة أهل الكهف في قوله ﷻ: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴾ (الكهف)، وكذلك في قوله ﷻ: ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾ (البقرة: ٢٥٩)، فالزمان المذكور إنما يذكر بمقدار ما يحتاجه الحدث، وكذلك المكان، كمصر والأحقاف والكهف، وهذه تعد الميزة الأولى في القصص القرآني التي تميزه عن سائر القصص"[1].

ويقول أيضًا الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ: "ليس المهم تحديد مولد أو وفاة، ليس المهم تحديد موقع، أو حتى تحديد الشخص، فما يعنينا أن نعرف هوية ذي القرنين، أو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، المهم تقديم الشفاء النفساني والاجتماعي من خلال تاريخ صادق وقصص حق"[2].

---

١. الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة،١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦، ص١٧٨، ١٧٩.

٢. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، مرجع سابق، ص ١٥٨.

ثانيًا. دعوى لا تقوم على دليل:

إن الله تعالى أسماه قصصًا حقًّا، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ (آل عمران)، ووصفه بأحسن القصص قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ (يوسف)، ونسب القصص إليه تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾(النساء)، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ (النساء)، وإذا كان المعاندون لا يقتنعون بهذا، ولا يدينون دين الحق فنسألهم، ما دليلكم على دعواكم هذه؟ وما أساس الصدق عندكم؟ وهل التضارب الصارخ هو الصدق؟ ولماذا تثار هذه الأكاذيب غير المنظمة التي ما تواجه إلادييننا؟

إن القصص القرآني إذا اتُّهم بأنه مشوَّش فالسؤال: أين المواطن التي يستند هؤلاء إليها في هذه الدعوى؟ ولماذا يَعْتَبِر هؤلاء ما يقولونه هو الأصل، ولماذا يكذبون بالصحيح؟ ثم نقول لهم: إذا كان هذا القصص مشوشًا ومضطربًا في أسلوبه أو إعجازه أو بلاغته أو غير ذلك، فلماذ لم يُنْكِر العرب عليه ذلك، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان؟! حقًّا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ (آل عمران: ٦٢)، ونقول لهم أيضًا: إذا كانت الأهداف التي تقف وراء تقديم القصص في القرآن الكريم وفي الكتاب المقدس - هي العبرة والعظة، فأيَّة عبرة في قصص هو في حقيقته مُدَّعَى، ينسب إلى الأنبياء أفعالًا لا تَلِيق بمقامهم، من ذلك:

- جاء عن نوح ؑ: "وشرب من الخمر فسكر وتعرَّى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجا. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء، وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره، علم ما فعل به ابنه الصغير، فقال: «ملعون كنعان! عبد العبيد يكون لإخوته»". (التكوين ٩: ٢١ - ٢٥).
- وجاء عن لوط ؑ: "وقالت البِكْر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هَلُمَّ نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه، فنُحْيي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلًا». فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما". (التكوين ١٩: ٣١ - ٣٦).
- وجاء عن موسى ؑ: "وكلَّم الربُّ موسى في نفس ذلك اليوم قائلًا: «اصعد إلى جبل عَباريم هذا، جبل نَبُو الذي في أرض مُوآب الذي قُبالة أَرِيحا، وانظر أرض كنعان التي أنا أعطيها لبني إسرائيل مُلْكًا، ومُتْ في الجبل الذي تصعد إليه، وانضم إلى قومك، كما مات هارون أخوك في جبل هُور وضُمَّ إلى قومه. لأنكما خُنْتُماني في وسط بني إسرائيل عند ماء مَرِيبة قَادِش في بَرِيَّة صِين، إذ لم تُقدِّساني في وسط بني إسرائيل". (التثنية ٣٢: ٤٨ - ٥١).

- وجاء عن داود عليه السلام: "وكان عند تمام السنة، في وقت خروج الملوك، أن داود أرسل يُوآب وعبيده معه وجميع إسرائيل، فأخربوا بني عَمُّون وحاصروا رِبَّة. وأما داود فأقام في أورشليم. وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشي على سطح بيت المَلِك، فرأى من على السطح امرأة تستحمُّ. وكانت المرأة جميلة المنظر جدًّا. فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: «أليست هذه بَثْشَبَعَ بِنْتَ أَلِيعَامَ امرأة أُورِيَّا الْحِثِّيِّ؟». فأرسل داود رسلًا وأخذها، فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مُطَهَّرة من طَمْثها. ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: «إني حُبْلَى». فأرسل داود إلى يوآب يقول: «أَرْسِلِ إِلَيَّ أوريا الحثي».

فأرسل يوآب أوريا إلى داود. فأتى أوريا إليه، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب. وقال داود لأوريا: «انزل إلى بيتك واغسل رجليك». فخرج أوريا من بيت الملك، وخرجت وراءه حِصَّة من عند الملك. ونام أوريا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده، ولم ينزل إلى بيته. فأخبروا داود قائلين: «لم ينزل أوريا إلى بيته».فقال داود لأوريا: «أما جئت من السفر؟ فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟» فقال أوريا لداود: «إن التابوت وإسرائيل ويَهُوذا ساكنون في الخِيام، وسيدي يوآب وعبيدُ سيدي نازلون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك، لا أفعل هذا الأمر». فقال داود لأوريا: «أقم هنا اليوم أيضًا، وغدًا أُطْلِقُك».

فأقام أوريا في أورشليم ذلك اليوم وغده. ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره. وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده، وإلى بيته لم ينزل. وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريا. وكتب في المكتوب يقول: «اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة، وارجعوا من ورائه فيُضْرَب ويموت». وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه. فخرج رجال المدينة وحاربوا يوآب، فسقط بعض الشعب من عبيد داود، ومات أوريا الحثي أيضًا. فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب. وأوصى الرسول قائلًا: «عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب، فإن اشتعل غضب الملك، وقال لك: «لماذا دَنَوْتُم من المدينة للقتال؟ أما علمتم أنهم يَرْمُون من على السور؟ من قتل أَبِيمَالِكَ بن يَرُبُّوشَتَ؟ ألم تَرْمِه امرأة بقطعة رَحًى من على السور فمات في تَابَاص؟ لماذا دنوتم من السور»؟ فقل: «قد مات عبدك أوريا الحثي أيضًا».

فذهب الرسول ودخل وأخبر داود بكل ما أرسله فيه يوآب. وقال الرسول لداود: «قد تجبَّر علينا القوم وخرجوا إلينا إلى الحقل فكنَّا عليهم إلى مدخل الباب. فرمى الرُّماة عبيدك من على السور، فمات البعض من عبيد الملك، ومات عبدك أوريا الحثي أيضًا». فقال داود للرسول: « هكذا تقول ليوآب: لا يَسُؤْ في عينيك هذا الأمر؛ لأن السيف يأكل هذا وذاك. شدِّدْ قتالك على المدينة وأَخْرِبها. وشدِّده». فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رَجُلها، ندبت بَعْلها. ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته، وصارت له امرأة وولدت له ابنًا. وأما الأمر الذي فعله داود فقَبُح في عَيْنَي الرب". (صموئيل الثاني١١: ١ ٢٧).

ألا يدل ذلك على بُطْلان هذا القصص وإفْكه، وأنه

من عند غير الله، وفقًا لهذا المعيار القصصي: "العبرة".

أما القصص القرآني، فقد جاء في أوضح صورة، فلا تعمية فيه ولا اضطراب، ولا تشويش ولا خفاء، بل أحيانًا يقصه الحق سبحانه، ويدلل على صحته بآثار وجوده كما في قوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)﴾ (ص)، وقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨)﴾ (الصافات).

إن نظم القصص القرآني وإعجازه وبلاغته ووضوحه وقوته في التأثير لدليل على أنه من لَدُن حكيم خبير، الذي يعلم كل صغيرة وكبيرة، وشهادة المشركين للنظم القرآني - وهم أهل الفصاحة والبلاغة - لهي خير دليل على ربانيته، وحبكته الرائعة، كما قال الوليد بن المغيرة: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغْدِق،[1] وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه، وما هو بقول بشر".

ثالثًا. القصص بين القرآن والإنجيل:

إن مقارنة يسيرة بين بعض القصص في القرآن الكريم وما حكاه الكتاب المقدس، من شأنها أن تبين الفرق الشاسع بينهما، وتُثْبت ربانية القرآن وبشرية هذا الكلام المحرف، وتُبْطل الزعم باضطراب القصص القرآني وتشوشه، ونورد هنا مثالين عمليين تحليليين لقصتين من القرآن والإنجيل للوقوف على طريقة معالجة الكتابين لهما من حيث الإحكام والدقة والوضوح، فعن قصة إبراهيم في القرآن يقول الشيخ محمد أبو زهرة: "ذُكِرت قصة إبراهيم في القرآن عدة مرات، لتعدد العبر فيها، وإن إبراهيم كان أبا العرب، فقصصه له مقامه عند العرب، ونذكر من قصصه بعضه لا كله.

أول ما نذكر من قصة إبراهيم ﷺ هو ما يربطه بالعرب، وما كان شرف العرب به وبناء الكعبة، فقد ذكر هذا البناء الذي قام به، وعاونه فيه ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام - وبإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - تشرف العرب بأنهم من سلالتهما، وبالبيت الحرام الذي قام بأمر ربان، قول تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ (البقرة).

ثم بَيّن ﷻ من بعد ذلك بعث النبي ﷺ، وأنه كان استجابة لدعوة إبراهيم ﷺ، وبذلك تتبين الصلة بين الإسلام ودعوة إبراهيم ﷺ، فإذا كان العرب يفتخرون بإبراهيم ﷺ، فهذه دعوته قد استجيبت في محمد ﷺ.

---

[1] . الغَدَق: المطر الكثير العام. وأَغْدَق المطر يُغْدِق إغداقًا فهو مُغْدِق.

نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية في نبي الفطرة إبراهيم عليه السلام؛ إذ النفوس - ولو كانت مؤمنة - تتمتع بكثرة الدليل لتزداد إيمانًا، وإن كان أصل الإيمان قائمًا، فزيادة البينات تزيد المؤمن إيمانًا، وتزيد الجاحد كفرًا وعنادًا، واقرأ قصة طلبه زيادة الإيمان: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ (البقرة).

ومن قبل ذلك في الذكر كانت قِصَّته عليه السلام مع المَلِك عندما ناقشه في إثبات وجود الله تبارك وتعالى، وكيف استطاع إبراهيم عليه السلام أن يُفْحِمه؛ إذ هو لا يؤمن إلا بالمحسوس. قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة).

وترى في قصة إبراهيم عليه السلام مع الطير أنه صور النفس الإنسانية - ولو كانت نفس نبي مؤمن - تدعو إلى تكشُّف المجهول، وتَعَرُّف المستور، والمؤمنون هديهم الله تعالى، ومن لا يريدون الله ﷻ يُتْرَكون في غَيِّهم يَعْمَهون.

وفي قصة إبراهيم عليه السلام مع الملك نجد إبراهيم الأريب يأخذ بالطريق الذي يحسم الخلاف دون الطريق الذي يحدث لَجَاجة من غير إفحام؛ إذ الملك فهم أن القتل إماتة وتركه إحياء، فلم يسترسل رسول الله الفطين الأريب في تعريف للموت والحياة، بل عمد إلى ما يفحمه حسيًّا، فبُهِتَ الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين، ومن هذا نرى أنه ليس ثمة تكرار في المعاني والعبر والعظات، وإن كان الموضوع في الأحوال الثلاث يتعلق بإبراهيم عليه السلام[1].

قارن هذا الإعجاز المُحْكَم بالاضطراب الواضح والتناقض الحادّ الظاهر في كثير من قصص الإنجيل، الذي أشارت د. مريم زامل إلى بعضه بقولها تحت عنوان "تناقض الأناجيل": "ونودُّ في هذا الفصل أن نُقدِّم بعض هذه النماذج التفصيلية لما قرره ابن تيمية في هذا المقام من التناقض الواقع بين الأناجيل، بل بين الإنجيل الواحد بعضه مع بعض، استكمالًا لدراسة ابن تيمية للأناجيل وما قرَّره بشأنها من تحريف وتناقض، على سبيل المثال:

الاختلاف الواقع في الزمن في "قصة معجزة صيد السمك" بين إنجيلي لوقا ويوحنا؛ إذ يذكر إنجيل لوقا أحداث القصة أنها وقعت في أثناء رسالة عيسى عليه السلام في الجليل، أما إنجيل يوحنا، فيذكر أحداثها بأنها وقعت بعد قيامه من الأموات، وهذا تناقض فاضح وظاهر ممن يدَّعون أنهم يكتبون بإلهام، فيحصل منهم هذا التقديم والتأخير في توقيت الحوادث وتاريخ الوقائع.

الاختلاف الواقع بين إنجيل متى وبين إنجيل لوقا في مكان ظهور المسيح عليه السلام حيث يفهم من كلام متى أن أبوي المسيح - ويقصدان بهما يوسف النجار ومريم - كانا يقيمان في بيت لحم بعد ولادته، وأن هذه الإقامة كانت لمدة سنتين تقريبًا، وجاء المجوس إلى هناك

---

1. المعجزة الكبرى: القرآن، الإمام محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ص١٥٠: ١٥٢ بتصرف يسير

يريدون أن يسجدوا للرب، ثم ذهب يوسف ومريم إلى مصر هربًا من هيردوس، وأقاما فيها حتى وفاة هيردوس ثم رجعا وأقاما في الناصرة.

ويفهم من كلام لوقا أنهما ذهبا إلى أورشليم، بعد ولادة المسيح وقدما الذبيحة، وفي هذه الأثناء أخذ سمعان الممتلئ بروح القدس المسيح عليه السلام على ذراعيه في الهيكل أوصاه، وكذلك حنّة النبية بنت فَنُوئيل، وقفت تسبح ربها في تلك الأثناء، وأخبرت جميع المنتظرين في أورشليم، ثم عاد أبواه بعد ذلك إلى الناصرة، وأقاما فيها، وفي كل سنة من أيام العيد كانا يذهبان من الناصرة إلى أورشليم، وأن المسيح عليه السلام عندما بلغ الثانية عشرة من عمره أقام بدون علم أبويه ثلاثة أيام في أورشليم.

ويقول صاحب "إظهار الحق" تعليقًا على ذلك: "لو كان هيرودس وأهل أورشليم معاندين للمسيح عليه السلام، لما أخبر الرجل الممتلئ بروح القدس في الهيكل الذي كان مجمع الناس في كل حين، ولما أخبرت النبية بهذا الخبر في أورشليم، التي كانت دار السلطنة ليهرود، وقد سلَّم نورتن بهذا الاختلاف الحقيقي بين الإنجيلين، وحكم بأن بيان متى خطأ وبيان لوقا صحيح.

وقد أقر كولمان الدبلوماسي الألماني في كتابه "العهد الجديد" بهذا الاختلاف والتناقض بين إنجيلي متى ولوقا في مكان ظهور المسيح، والغريب أنهم يعترفون بالتناقض والخلل في كتبهم، ومع ذلك فهم يعتبرونه من المسوغات التي تبعث على الثقة في الكتاب المقدس، يقول الأب روجي تعليقًا على مكان ظهور المسيح عيسى عليه السلام: "إن هذا التفكك وهذا الغموض وهذا الاختلال يبعث على الثقة عنده"[1].

فيا كل من أودع الله الحكيم في رأسه عقلًا: أَيُّهما المُحْكَم وأيهما المُفكَّك المضطرب المشوَّش المتناقض؟!

الخلاصة:

- بلاغة القصص القرآني الجلية وإعجازه الباهر وإحكام نظمه الرائع - ووضوحه وقوته في التأثير كلها أمور ظاهرة لكل ذي عقل منصف وفهم سليم.
- اتهام القصص القرآني بالتشوش اتهام لا يقوم على دليل؛ فقد وصفه الله عز وجل بأحسن القصص: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (يوسف)، ثم أين تلك المواطن التي يستند إليها هؤلاء في هذه الدعوى، ولماذا لم ينكر العرب على هذا القصص القرآني اضطرابه وتشويشه، وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان.
- الفرق شاسع بين إحكام القصص القرآني، وبين اضطراب القصص في الكتاب المقدس وتناقضه وتشوشه، وإن مقارنة سريعة بين القصص القرآني والقصص في العهد القديم والجديد توضح مدى المفارقة بينهما، وتؤكد أن القصص القرآني قد جاء في أوضح صورة، فلا تعمية فيه ولا اضطراب، ولا تشويش ولا خفاء ولا غموض.

---

1. موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل، معهد البحوث بجامعة أم القرى، ١٩٩٧م، ط١، ص١٨٧ وما بعدها.

الشبهة التاسعة والعشرون

دعوى أن القصص القرآني قصص فني غير واقعي(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القصص القرآني نمط من أنماط القصة الفنية، التي لا يلتزم فيها المبدع الصدق أو نقل الواقع، بل له أن يُبْدِع ما يشاء ويُبَدِّل ما يريد وِفْق الحَبْكَة الفنية، ومن ثم فقد جاء القصص القرآني في ظنهم للعظة والتسلية، ولا يلزم منه تقرير حقيقة تاريخية، ويستدلون على ذلك بقصة أصحاب الفيل التي ينكرون حدوثها؛ وذلك بُغْيَة التشكيك في وقوع الحقائق التاريخية التي ينقلها القصص القرآني، ونسبته للأسطورية والخيالية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن المتأمل المنصف لما عليه القصص القرآني من التصوير الصادق والتعبير الواقعي - لَيُدرِك خلوه مما يسمونه بالخيال الفني أو عدم الواقعية في السرد. ناهيك عن أن هذا الزعم لا يستند إلى دليل يدعمه.

٢) قصة أصحاب الفيل واقعة تاريخية ثابتة، روتها كتب التاريخ، وأرَّخ بها العرب أحداثهم في تلك الحِقْبة.

٣) ثمة فارق كبير بين القصص القرآني والقصص الأدبي في الطبيعة والأهداف، كما أن الخيال فيهما مختلف تمامًا؛ فهو خيال فني في القصص الأدبي، تعبيري في القرآن.

(*) نظرات شرعية في فكر منحرف، سليمان بن صالح الخراشي، مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.

التفصيل:

أولا. القصص القرآني واقعي حقيقي يتناول ما هو ثابت تاريخيًّا، ولا دور للخيال أو الأسطورة فيه:

زعم المشركون قديمًا أن القصص القرآني - بوجه عام - إن هو إلا أساطير الأولين، وردد هذا الزعم - في ثوب عصري - المستشرقون المغالطون وتلامذتهم من المستغربين، الذين كان من روادهم في هذا المضمار "د. محمد أحمد خلف الله" في دراسته للدكتوراه بعنوان "الفن القصصي في القرآن" التي دارت حول فكرة أن القصص القرآني خيال أسطوري، وليس له ظل من الواقعية التاريخية بالضرورة، أي أنه أوهام تناقلتها الرواية القرآنية، كما تناقلتها الذاكرة البشرية، وليس من الضروري أن تكون أحداثها قد جرت على أرض الواقع بالفعل.

وقد تصدَّى لتفنيد هذه المزاعم مفكرون كثيرون، فعلى سبيل المثال، تحت عنوان "الميثولوجيا (الأسطورة) والعلم والقرآن" كتب د. محمد سعيد رمضان البوطي يقول: "فما الأسطورة إذن، وقبل كل شيء؟ هي حصيلة الأخيلة الشعبية التي تُرْوَى غالبًا على شكل قِصَص وحكايات، ولما كان الإنسان بفطرته الأصيلة يتمتع بخيال يتسع اتساع الطبيعة التي يعيش ويتقلب فيها، مقابل الواقع المحدود الذي يعيش محاصرًا في أقطاره، فقد كان من شأن هذا الخيال أن يجمح بصاحبه إلى ما وراء ذلك الواقع المحدود، سابحًا في أرجاء الطبيعة كلها دون أن تُقَيِّده شروط أو تَصُدّه حدود؛ ليكون ذلك عزاء وتعويضًا له عن واقعه الضيق الذي حُبِسَ في داخله، ولولا إطلالة الإنسان من داخل واقعه الذي

يعيش فيه على الطبيعة المحيطة به، من خلال نوافذ الخيال الذي متعه الله به، لتحول الواقع إلى سجن ضيق خانق، لا يُوْرِث صاحبه إلا الكَمَد والشقاء، مهما كان شأنه، ومهما كان نوع الحياة التي يعيشها.

إذن، فالأسطورة نسيج خيال تُصاغ في داخله، وتُرْوَى على أساسه، ويتلقاها الناس جيلًا بعد جيل، على هذا الأصل وبهذه الهُوِيَّة، وما من شعب من الشعوب إلا يحافظ من ثمرات خياله على قسط وافر من الحكايات والقصص الأسطورية المتنوعة، تأخذ لون الحضارة والثقافة اللتين تميَّز بهما، وقد ظلت هذه الحكايات معروفة محتفظة بطابعها الأسطوري، وتُرْوَى بدءًا من مصدرها الأول موسومة بهذا الطابع، ولم نسمع قط في تاريخ الأدب الأسطوري، أو ما يسمى بأدب الشعوب أن أسطورة من الأساطير انفصلت عن نسبها الموصول إلى جذور الأخيلة والوهم، ثم تسربت إلى قناة الأحداث والوقائع التاريخية، واتخذت طابع الحقيقة الراسخة.

لماذا يكون خبر الله الموحى به إلى رسله وأنبيائه عن كيفية نشأة الإنسان وتكاثره، وعن كيفية خلق الله ﷻ لآدم ـ أسطورة من الأساطير، ولا يكون خبر "مارك وداروين" عن الموضوع نفسه هو الآخر أسطورة من الأساطير؟ لماذا؟ وما الفرق؟ لماذا يُعدُّ خبر الله الموحى به إلى كثير من رسله وأنبيائه عن طوفان نوح وسفينته أسطورة من أساطير التاريخ، ولا يكون خبر علماء التاريخ الطبيعي عن الانفجار العظيم أسطورة من أساطير التاريخ أيضًا؟ إن كان الفرق أن في الناس من لا يصدق الوحي الإلهي ولا يلقي إليه بالًا، فإن في الناس كثيرين ممن لا يصدقون تصورات داروين، ولا يقيمون وزنًا لقصة "الانفجار العظيم" أو "النظرية السديمية" كتفسير لكيفية تَشَكُّل الكون والأرض أو ما يشبههما.

ومع ذلك، فإننا لا نُسَمِّي ـ من الناحية العلمية ـ شيئًا من نظريات التطور أو نظريات الباحثين في التاريخ الطبيعي أسطورة، مهما كانت بعيدة عن المنطق أو العلم؛ لأن مقومات هذه التسمية غير موجودة، ومن أهمها أن تكون موضوعة من قِبَل أصحابها على أنها أسطورة، فلماذا لا يفقه كثير من أدعياء الثقافة والعلم هذه الحقيقة العلمية الواضحة بصدد نظرتهم إلى أخبار الوحي الإلهي؟

إن لهم ولغيرهم أن يصدقوا أو لا يصدقوا شيئًا من أخبار الوحي الإلهي، بل لهم أن لا يؤمنوا بحقيقة الوحي ذاته، غير أن عليهم أن يعلموا أن عدم فهمهم أو تصديقهم لذلك ليس هو برهان كونه أسطورة وهمية كاذبة[١].

يؤكد المعنى نفسه مُفَرِّقًا بين القصص القرآني الواقعي، وبين القصص الروائي الأدبي الفني الخيالي ـ الشيخ محمد الغزالي حين يقول: "إن القصص القرآني سَرْدٌ واعٍ موجَّه للتاريخ الإنساني، ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق، بل الغرض منه التربية والتوعية، وتجديد المعاني بعد انتهاء أهلها لتكون عِظة دائمة، وقد شاع أدب القصة في عصرنا شيوعًا يستحق الدهشة، وامتلأت الأيدي بروايات يقرؤها حاملوها ليقطعوا الوقت أو يتلذذوا بحسن العرض، وجملة هذه الروايات من نَسْج الخيال، وقد تكون ذات مغزى جيد، وقد

١. هذه مشكلاتهم، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١١٣: ١١٥ بتصرف.

تكون إثارة وضيعة، والبَوْن شاسع بين هذه الأقاصيص، وبين التاريخ الذي يجسده القرآن الكريم، ويغزو به الألباب والبصائر؛ ليمحو الغفلة، ويرفع المستوى، ويضيء السبل، البون بعيد بعيد.

عندما يقول الله تعالى لنبيه: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾(هود)، فهو يقول ذلك في أعقاب سرد لواقع لا ريب فيه، فقد ذكر في هذه السورة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى، مع أممهم التي ظهرت في عصور متعاقبة، وانتظمتها أدواء التكذيب والمكابرة، حتى أهلكتهم أمة بعد أخرى، وهو يحكي ذلك إرهابًا للعرب المستكبرين وتسلية للنبي وتسرية له ﷺ، وفي موضع آخر يقول له: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ (٣٤) ﴾ (الأنعام)، فأين موضع الخيال في هذه الوقائع؟

وبعد أن قص الله تبارك وتعالى قصة يوسف، وشرح أطوار حياته منذ اخْتُطِفَ إلى أن صار عزيز مصر، قال تبارك وتعالى عنه وعن غيره من المسلمين: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ (يوسف)، فأين موضع الخيال هنا؟

إن اتهام القرآن بأنه يعرض خيالات فنية أو يمزج في سياقه بين الواقع والخيال ـ اتهام لا مُسَوِّغ له، وهو في نظرنا بلاهة نشأت عن اتباع المستشرقين، والمستشرقون يحسون ما في كتبهم من غثاثة وعوج وبُعد عن الحق، ويريدون الإيهام بأن القرآن لا يزيد على غيره! وهذا كذب لا يروج عند عاقل"[1].

بعد هذا الدفع النظري العام لشبهة أسطورية القصص القرآني وخياليتها ربما لزم هنا ـ زيادة في التوكيد على هذه المعاني ـ التوضيح بمثال تطبيقي تحليلي على بعض من قصص القرآن لإظهار مدى واقعيتها التاريخية من أسطوريتها الخيالية.

في مناقشة لآراء د. خلف الله وأمثاله، يقول د. عبد الجواد المحص في تحليله لقصة أهل الكهف: "لقد كان حريًّا بالدكتور خلف الله ومن جرى مجراه أن يكونوا موضوعيين في دراساتهم وبحوثهم، فلا يدَّعون اشتمال القرآن الكريم على القصص الأدبي الأسطوري؛ لأن الأساطير هي الأحاديث التي لا نظام لها، وهي الأباطيل والأحاديث العجيبة التي لم تقع في التاريخ ولا يقبلها العقل، حتى إن الناس اليوم إذا أرادوا نفي وجود شيء قالوا: إنه أسطوري، يعنون بذلك: أنه من الخيال المحض القائم على التلفيق والاختراع.

فالأساطير قصص خيالية صِرْفة تبعد عن التاريخ أكثر مما يبعد الوهم عن الحقيقة، وكل ذلك لم يشتمل عليه القرآن الكريم ـ كتاب العربية الأكبر؛ لأنه كتاب لا مكان للخيال القصصي فيه، ولا صلة للأساطير والخرافات به، بل إنه كان حريصًا على نفي الخيال القصصي عن قصصه؛ فقرر في مواضع عديدة منه أن قصصه ينبع عن الحق، وأن هذا القصص ليس حديثًا يُفْتَرَى، وأنه من وحي الله إلى نبيه ﷺ، ومن

---

1. مائة سؤال عن الإسلام، الغزالي، مرجع سابق، ص١٥٥، ١٥٦.

هذه المواضع قول الحق ﷻ عن أهل الكهف: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ (الكهف).

إننا إذا رُحْنا نبحث ـ مثلًا ـ عن الأسطورة في هذه القصة القرآنية لم نجد لشيء من ذلك أثرًا، وإنما نجد هذه الآية القرآنية التي تنصُّ نصًّا صريحًا وحاسمًا على أن القصة من واقع التاريخ الحق، لا صلة للأساطير بها، فمن المدهش حقًّا أن يصف القرآن الكريم هذه القصة بهذا الوصف الصريح الحاسم، ثم يظهر في البيئة العربية الإسلامية من يتجاهل ويتعامى عن هذه الحقيقة، ويُسْلِم قيادَه للمستشرقين فيدَّعي ما يدَّعون، ويزعم أن القرآن الكريم في ذلك قد سلك سبيل الآداب العالمية والأديان الكبرى، وأن القرآن لا يعيبه أن يشتمل على الأساطير؛ لأنه بذلك قد قعَّد القواعد وسنَّ السُّنَن.

لقد اشتملت قصة أهل الكهف ـ بالذات ـ على أمور تدل دلالة قوية على عدم صلتها بالأسطورة:

أولها: التقديم القرآني الرائع الذي يسبقها في السورة القرآنية التي احتوتها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ (الكهف)، فنجد أن المولى ﷻ يقول لمن يتعجب من هذه القصة، ويستبعد عقله وقوعها، ويرى فيها لونًا من الاعتماد على الأسطورة في الوصول إلى قلوب الناس وعقولهم، يقول لهؤلاء ومن جرى مجراهم: إن آية أصحاب الكهف والرقيم ليست بأغرب ولا أعجب من صنع الله في الأرض، وتزيينه لها ولأهلها بما أوجد فيها من أسباب الحياة ومظاهر النعم، ثم تحويل ذلك كله إلى حال أخرى يتبدل فيه منظر الأرض حين تصبح صعيدًا جرزًا، وأرضًا بيضاء لا نبات فيها ولا شجر، ولا حيوان ولا ثمر، فلو أن عاقلًا تفكر في هذا الذي يطرأ على الأرض وتراه العيون فيها يومًا بعد يوم، لما وجد في قصة أصحاب الكهف عجبًا، ولما وصل به التعجب إلى اعتقاد أنه أمام قصة مخترعة، يتخذ من الأسطورة متكأ.

وثاني هذه الأمور: أن الحق تبارك وتعالى لم يذكر أن أصحابها قد بُعِثُوا من موت ـ وإن كان البعث من الموت ليس على الله تعالى بمستغرب، كما في قصة العزير وحماره مثلًا ـ وإنما الذي أوضحته القصة أنهم بُعِثوا من نوم عميق طويل غشي عيونهم، بعد أن سُلِبوا أسباب التنبه والاستيقاظ، وضرب الله تبارك وتعالى على آذانهم في الكهف سنين عددًا، وفضلًا عن هذا، فإن القرآن الكريم قد أشار إلى أمر آخر مهم، هو أنهم قد أُحِيطوا بسائر أسباب الحفظ والصون، بحيث لم يتسرب إلى أجسادهم شيء من المتلفات أو المنبهات، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ (الكهف).

وكان الحق ﷻ يُقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، حتى ليحسبهم الإنسان أيقاظًا وهم رقود، ولو اطَّلع عليهم لولَّى منهم فرارًا ولمُلِئ منهم رُعْبًا، إلى آخر ما تحتويه هذه القصة من وقائع وأحداث تؤكد ـ بما لا يدع مجالًا لشك ـ أنها تقوم

على الحقائق، وترد على المستشرقين ومن نحا نحوهم مزاعمهم الكاذبة، من الواقع الفني الذي يعززه الإعلان والتنبيه.

وثالث ما يلفت النظر ويؤكد صدق هذه القصة: أننا نراها في كل جزئية من جزئياتها تُصوِّر الأمر كأنه مرئي بالحس، لا مذكورًا بالخبر وحده، فالقصة وإن كانت تتناول موضوعًا ماضيًا، فإنها تذكره في القرآن الكريم بطريقة معجزة فريدة، تجعل الإنسان ـ حين يقرؤها أو يستمع إليها ـ يشعر كأنه يعاين وقائعها، فيفهم مغزاها بدون التباس وبغير ارتياب.

لقد استهل القرآن الكريم القصة بقوله ﷻ: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾ (الكهف)، فهذا الاستهلال الرائع يجمع في لفظة واحدة بين الإيغال في الماضي والحضور في الذهن؛ لأن الابتداء بضمير الغائب في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يشدنا من أقصى الحاضر إلى الماضي، فإذا بنا نرى هؤلاء المتحدَّث عنهم في حالتهم التي هم عليها: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾

وبعد هذا الاستهلال الرائع يعرض القرآن الكريم القصة في مشاهد تتوالى كأنها تُرَى، فهؤلاء هم أصحاب الكهف قد آووا إلى الكهف راجين الرحمة والرشاد، مبتعدين عن الوثنية وآثامها، وساروا في غيبوبة كأنهم الموتى، وليسوا أمواتًا، وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود، ويقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، وترى الشمس إذا طلعت تزاور[1] عن كهفهم ذات اليمين وذات الشمال، وهم في فجوة من الجبل الذي فيه الكهف، وها هم بعد ثلاثمائة وتسع سنين يستيقظون من سباتهم العميق، ويتساءلون: كم قضوا من العمر في هذا الكهف؟ إلى آخر ما تضمنته القصة من أحداث، صورها القرآن الكريم تصويرًا محكمًا، نلحظ ـ ونحن نقرؤه ـ كأنه ماثل أمام أبصارنا في مشاهد واضحة بينة، تدل على عظمة القرآن الكريم في عرضه القصصي الفريد.

ورابع ما يلفت النظر في هذه القصة: أنها كانت مظهرًا واقعيًّا لصورة من صور التحدي القرآني لأعداء سيدنا محمد ﷺ؛ فقد كان النبي ﷺ يقصُّ على العرب ما يُنزل الله ﷻ عليه من غير اقتراح ولا طلب من أحد، ثم حدث أن طلب المشركون ـ بإغراء من اليهود ـ أن يقص عليهم الرسول نبأ أهل الكهف وما انتهى إليه أمرهم، وكذلك نبأ رجل طاف العالم وأظهر فيه بعض العجائب في قومه ومظهره وهدايته، فكان هذا الطلب من المشركين بمثابة امتحان للنبي ﷺ نجح فيه النبي نجاحًا باهرًا، وكان برهانًا صادقًا على أنه نبي صادق لا يقص عليهم إلا ما يُوْحَى إليه من الله ﷻ.

فقد قصَّ عليهم ما طلبوا بأدق تفاصيل وأصدق بيان، ودل على تمام صدقه أنه كان قد وعدهم بأنه سيجيبهم غدًا؛ ثقةً منه بأن الله الذي يُعَلِّمه كل شيء سيُوْحِي إليه سريعًا، لكن الوحي أبطأ عليه حتى شق ذلك على النبي ﷺ وكذبته قريش، ثم نزل الوحي بقصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين، وفي ثنايا القصة الأولى قول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ

---
[1]. تزاور: تطلع على كهفهم ذات اليمين والشمال فلا تصيبهم.

﴿أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ (الكهف)، وقبل القصة الثانية جاء ذكر قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح في تصوير قرآني محكم دقيق.

وخامس ما يلفت النظر في قصة أصحاب الكهف: أن القرآن الكريم قد اتبع في عرضها طريقة التلخيص الإجمالي أوَّلًا، ثم العرض التفصيلي أخيرًا، فهي تبدأ هكذا: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ (الكهف).

فهذه الآيات الكريمة تلخيص يجمل القصة، ويرسم خطوطها الرئيسة العريضة، ويشير إلى أنها آية عجيبة من آيات الله، لكنها ـ مع غرابتها ـ ليست بأعجب آيات الله، ففي صفحات كونه الممتد من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف.

وبعد هذا التلخيص المشوِّق للقصة، يجيء التفصيل مبتدئًا ببيان أن ما سيقصُّه الله منها هو فصل الخطاب في الروايات المتضاربة في عددهم ومدة نومهم، وغير ذلك من الحق اليقين في أحداثهم، ثم يعقب القرآن الكريم على القصة بإعلان الوحدانية ظاهرة الأثر في سير القصة وأحداثها: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ (الكهف)، وبتوجيه النبي ﷺ إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه، وفيه فصل الخطاب ـ وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل ـ والاتجاه إلى الله تعالى وحده، فليس من حمى إلا حماه، وقد فرَّ إليه أصحاب الكهف؛ فشملهم برحمته وهدايته: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ (الكهف)[1].

وهكذا تنتهي القصة، تسبقها وتتخللها وتعقبها أمور عديدة تشهد بأنها قصة واقعية لا صلة للأساطير بها، فكيف يدعي المستشرقون ومن نحا نحوهم من العرب المستغربين أنها قصة أسطورية؟

وقد أشار د. عبد الله العمراني في مقال له بعنوان "النيام السبعة وأهل الكهف" إلى أن دائرة الآثار الأردنية قد اكتشف في عام ١٩٦٢ موقع كهف أهل الرقيم في قرية أردنية تسمى الرميم على بعد سبع كيلو مترات جنوب العاصمة الأردنية عمان؛ إذ تم العثور داخل الكهف على نقوش وحلي ونقود بيزنطية تعود للقرن الثالث الميلادي، مصداقًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ (الكهف: ١٩).

كما تم العثور على سبع جماجم بشرية في سبعة قبور بداخل الكهف، وعلى جمجمة كلب، وتم العثور أيضًا على أعمدة المسجد الذي أقيم فوق الكهف، وكذلك على الفجوة التي بداخل الكهف، وتبلغ مساحتها على وجه التقريب نحو أربعة أمتار في ثلاث، بل ثبت أن الشمس تمر فعلًا عند طلوعها أمام الكهف، وتنحرف عنه عند غروبها، فأشعتها لا تنفذ داخل الكهف، كما أخبر القرآن الكريم قبل هذا الاكتشاف العصري.

ويقول د. عبد العليم خضر في شأن قول الله ﷻ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ (الكهف)، هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما

---

١. المُلْتَحَد: المَلْجَأ؛ لأن اللاجِئ يميل إليه.

لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أن أرقدهم الله إلى أن بعثهم الله، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاثمائة ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾.

هكذا أخبرنا محمد ﷺ عن الفرق بين التقويم الشمسي والتقويم القمري، فالشمسي ما كان يسير عليه الناس زمن حكم الرومان، وهو زمن وقوع القصة، والقمري ما سار عليه العرب، وكانت الهجرة فيما بعد عليه دليلًا، وكأن الله ﷻ يقول: أيها الناس، هذا النبي الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب، ولم يدرس علم الحساب ولا الهندسة ولا الفلك من أين جاء له أن كل مائة سنة شمسية تُزاد ثلاث سنين قمرية، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يومًا؟ ليس لذلك أي معنى سوى الإعجاز القرآني، وحسبنا في الرد على المستشرقين ود. خلف الله هذا القدر من الردود الداحضة لمزاعمهم الباطلة[1].

ولأن من يثيرون مثل هذه الشبهة التي نحن بصددها ـ أسطورية القصص القرآني ـ لا دليل لديهم سوى التمسح بالعلم، وادعاء أن الاعتقاد بواقعية مثل هذا القصص والإيمان به تتنافى مع روح العلم الحديث وتنكُّب طريقه، ولا تساير مقتضياته، نقول لأن هذا هو دليلهم التعميمي اليتيم المبهم، فإننا نورد هنا تحليلًا علميًّا إعجازيًّا للقصة نفسها من قبل أحد المختصين يدحض كلام هؤلاء المتفلسفين المتحذلقين بغير علم ولا يقين، يقول د. عبد الحافظ سلامة: وفي قصة أهل الكهف ـ على سبيل المثال ـ أوحى اليهود لمشركي قريش أن يسألوا محمدًا ﷺ عن أهل الكهف لمعرفة إن كان صادقًا أم كاذبًا، والقصة ملخصة أن مجموعة من الفتية المؤمنين بالله هربوا بدينهم من ملك كافر طاغية ومتسلط، خوفًا من القتل، فأنامهم الله في الكهف لمدة ثلاثمائة سنة، ثم أيقظهم بقدرته وجعلهم آية للناس على مرِّ العصور، تشهد بقدرة الله تعالى، وفي القرآن لا تسرد هذه الحكاية فقط، لكنها احتوت العديد من الآيات العلمية التي لا يمكن أن يصوغها بشر بهذه الكيفية.

فقد ذكر في القصة العوامل التي تؤثر على الإنسان النائم الحي وليس الميت، وهذه العوامل هي أثر الصوت ـ وليس الضوء ـ على النائم، والتهوية الجيدة، والتعقيم وقتل الميكروبات التي تحلل الجسم وتقليب جسم الإنسان، وأخيرًا الفرق بين السنة الشمسية والقمرية حسابيًّا، وهذه الآيات هي:

١. تأثير الصوت على الإنسان النائم، يقول الله ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾ (الكهف) أول أثر على النائم لإيقاظه هو الصوت وليس الضوء، ولذلك أول آية في هذه القصة ذكر فيها أنه ضرب على آذانهم بمعنى جعلهم صمًّا لا يحسون بأية أصوات خارج الكهف، كصوت الريح والرعد وخلافه، حتى لا يستيقظوا من نومهم.

١. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد المحص، الدار المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص١٤٦: ١٥٢.

فالإنسان لا يستيقظ عند إنارة النور وهو نائم، ولكن يستيقظ عند حدوث صوت كجرس الساعة مثلًا، أو النداء عليه بصوت مرتفع، أو أية ضوضاء خارجية، ولذلك قال الله ﷻ في آية علمية: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ (الكهف).

٢. أثر التهوية وأشعة الشمس على تنظيف الكهف من الميكروبات: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الكهف).

سبحان الله، لإثبات أن الضوء لا يؤثر على النائم ذكر الله ﷻ أن الشمس تدخل الكهف في الشروق: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾، وتمر عليهم عند الغروب ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ أي: تمر عليهم مبينًا عدم تأثير الضوء على النائم، وكما نعلم في علم الميكروبولوجيا أن أشعة الشمس في الشروق وفي الغروب تحتوي على الأشعة فوق البنفسجية التي تؤدي إلى قتل الميكروبات، ليس هذا فحسب؛ فقد فتح الله ﷻ طاقة أو فجوة في الكهف للآتي:

- إحداث تيار هوائي لتجديد الهواء الملاصق لهم وهم نائمون.
- دخول أشعة الشمس في الشروق والغروب لقتلها الميكروبات وتعقيم المكان ومن فيه، ومما يدعونا إلى تهوية المساكن وتعريض الفرش لأشعة الشمس، علاوة على أثر أشعة الشمس على الإنسان، حيث إنها مفيدة في تكوين فيتامين (د) للجلد، وكذلك حتى يتقي الإنسان كثيرًا من الأمراض، وأشد الأمراض اتصالًا بعدم التهوية وعدم وجود الشمس هو مرض السل مثلًا: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الكهف) سبحان الله! ذكر التهوية ودخول أشعة الشمس من آيات الله فعلًا، فهي من آيات الله العلمية في القرآن الدالة على صدق رسوله، وأنه مبلغ هذا الكتاب، وليس مؤلفًا، فكيف عرف أثر أشعة الشمس عند الشروق وعند الغروب في التعقيم وقتل الميكروبات، وكذلك أثر التهوية على صحة الإنسان، إذ إنهم نيام وليسوا أمواتًا.

٣. تقليب أجسادهم حتى لا يصابوا بقرحة الفراش: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الكهف). لاحظ ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ مع الآية رقم ١٧، حيث ذكر أن الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وهم في فجوة منه؛ حتى يتعرض الجانب من الجسم الملاصق للأرض أثناء الليل ذات اليمين إلى أشعة الشمس التي تزاور عن كهفهم ذات اليمين، فيحدث تهوية وتعقيم لهذا الجانب، ثم يقلبهم الله ﷻ بقدرته إلى الشمال عند الغروب، حتى يتعرض جانب الجسم الملاصق للأرض أثناء النهار إلى أشعة الشمس التي تقرضهم ذات الشمال عند الغروب، وكذلك للتهوية حتى لا يحدث لهم التقرحات في أجسامهم، نتيجة نمو الميكروبات اللاهوائية عند عدم

تقليب الجسد، وهو ما عُرف حديثًا بقرحة الفراش، والتي لم تعرف من قبل، وحتى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين.

فكيف عرف هذه المعلومات من أثر التهوية وأشعة الشمس وقرحة الفراش على الإنسان النائم منذ هذا الزمن - أربعة عشر قرنًا - وفي بيئة صحراوية، وحتى لو كان أعلم علماء عصره، وقرأ العهد القديم والجديد، وجمع جميع المعلومات الموجودة في عصره، وكلها آيات علمية في قصة واحدة؟

٤. الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية: ﴿ وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾ (الكهف) عندما نكتب مثلًا ٣٠٩ سنة بالحروف العربية تكون ثلاثمائة وتسع سنين، ولكن أن يكتب ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا شيء آخر؛ لأنه ربط السنين الشمسية بالسنين القمرية، فإذا أردت أن تحسب زمن نومهم بالسنين الشمسية فهي ثلاثمائة سنة شمسية، وعند حساب نفس المدة بالسنين القمرية تكون ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعًا؛ لأن الفرق بين السنة الشمسية والقمرية أحد عشر يومًا تقريبًا، فعندما نضربها في عدد ٣٠٠ سنة، نجد الفرق هو تسع سنوات بالضبط، ومن ثَمَّ يصبح محمد ﷺ عالمًا في الصوتيات والطب وفي الفلك، ويضع هذه العوامل جميعها أثناء كتابة قصة مجموعة من الفتيان نامت مدة ثلاثمائة سنة ثم أيقظهم الله تعالى.

٥. اختلاف عدد الفتية: قال ﷻ: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ (الكهف)، فإذا عرفت أن السائلين هم اليهود وهم أهل جدال، وقد عرف الله ﷻ أنهم سيكذبون رسوله مهما قال لهم الحقيقة، ولقد أبلغهم الله تعالى بما كانوا متفقين عليه، ولذلك قال - ﷻ: (سيقولون) ويختلفون في أعدادهم؛ لأنهم لا يعرفون الحقيقة، فقالوا: إن قال محمد: ثلاثة ورابعهم كلبهم، نقول: لا ليس صحيحًا هم خمسة وسادسهم كلبهم، وهكذا... ولذلك أمر الله رسوله أن لا يجادلهم إلا فيما قالوا هم، ولا يدخل في التفاصيل، ولا يناقش، ولا يسأل أحدًا منهم[1].

ثانيًا. قصة أصحاب الفيل واقعة تاريخية حقيقية:

أما بخصوص قصة أصحاب الفيل، فالبرغم من تواترها في المصادر التاريخية وإثبات المحدثين المنصفين من الغربيين لها، فإن بعض المشككين - ومنهم المستشرق البرنس "ليون كانياتي" - قد أنكروها؛ لأن الرواية اليونانية المعاصرة لحادثة الفيل لم تشر إليها، وفي نظره أن حملة أبرهة كانت موجهة إلى بلاد فارس لا إلى البيت الحرام بمكة؛ ولأن مصادر المسيحية - أيضًا - لم تشر إطلاقًا إلى أن أبرهة بنى كنيسة في صنعاء حتى يذهب إلى هدم الكعبة التي تنافس كنيسته؛ ولأن المسيحيين في صنعاء كانوا قليلين بحيث لا يحتاجون إلى كنيسة يشيدها أبرهة الحبشي، لمعارضة البيت الحرام بمكة لصرف العرب عن الحج إليه وتحويل القبلة إلى صنعاء.

---

١. يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م، ص٥٢: ٥٦.

وفي تفنيد هذا الزعم الاستشراقي يقول الدكتور عبد الجواد المحص: أما إنكار المستشرق البرنس ليون كانياتي لقصة أصحاب الفيل - فمن أشد أباطيل المستشرقين غرابة، وهو لا يهدف من وراء هذا الإنكار إلا شيئًا خبيثًا واحدًا، هو إيهام قراء مادة أصحاب الفيل في الحوليات الإسلامية بأن في القرآن الكريم أخطاء من أخطاء التاريخ، حيث أورد قصةلم تحدث - في زعم هذا المستشرق - تاريخيًّا! وقد نسي هذا المستشرق - أو بتعبير أدق تناسى - أن حادث الفيل قد وقع في السنة التي ولد فيها النبي ﷺ.

ومعنى هذا أن سورة الفيل التي عَرَضَتْ - في إيجاز بليغ معجز - قصة هذا الحادث، قد نزلت على النبي في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم، أو على الأقل سمعوا عنه وبعضهم من أعداء النبي، فلو لم تكن هذه القصة حقيقية، لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رءوس الأشهاد، وينتهزها فرصة في الكيد للنبي والطعن عليه، ولا سيما أنهم كانوا وقتئذ يتمنون أن يروا له سقطة أو عثرة أو كذبة، فلولا أنه ذكرهم أمرًا لا يتدافعونه، ولا يستطيع العدو إنكاره، للذي يرى في إطباق الجميع عليه، لوجدوا أكبر المقال في تكذيبه والتشنيع عليه، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وإنما نزلت سورة الفيل على النبي ﷺ في مكة المكرمة، فتلقاها الجميع بالقبول؛ لأنها تقص عليهم حقيقة معروفة عندهم لا شك فيها، ولا يستطيع أحد إنكارها.

يقول د. محمد رجب البيومي: "سجل القرآن الكريم حديث أصحاب الفيل في سورة مستقلة، وقد أجمع مؤرِّخو العرب والمنصفون من كُتَّاب أوربا على وقوع حادث الفيل بين حُكَّام اليمن ومكة، على نحو تؤيده الرواية الصحيحة، ويُمْلِيه منطق الأحداث، وفيهم من سلسل الأدوار التاريخية لهذا الحادث مرتبة على نسق مقنع يرضي الباحث المحايد، ولا يجد ذرة من الشك لديه، ومؤرخو العرب في هذا النطاق أولى من سواهم؛ لأن هذا الحادث الكبير بمغزاه وفُجاءاته قد وقع في أرض عربية، ذاع ذكره على ألسنة، صناعتها البيان والإفصاح، فسجلته الرواية المسندة، وصوره الشعر العربي في أكثر من قصيدة.

وهذا حق، فنحن إذ نستقرئ قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، نجد أن حادثة الفيل حادثة لها خطرها في تاريخ الحجازيين خاصة والعرب عامة، وقد هزت الكيان القوي لا للمكِّيِّين وحدهم بل للعرب أجمع؛ فإن البيت الحرام يعتبر رمزًا للوحدة العربية وشعارًا لحرية العرب، وما غزو أبرهة له إلا محاولة للقضاء على هذه الحرية وتلك الوحدة، ولا غرو إذا ما هتف شعراء الحجاز بالقصيد يصبون جام غضبهم على المعتدي الأثيم، ويهزجون بأهازيج النصر، وهذا هو الوجه السياسى الذي حمل أبرهة على التفكير في هدم الكعبة.

أما الوجه الديني لتلك المحاولة التي باءت بالفشل فمعروف لنا أنه كان يرغب في تحويل أنظار الناس عن الكعبة - بيت الله - إلى الكنيسة التي شيدها في صنعاء، والتي لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، فقد كان ينقل إليها العدد من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وكان من موضع الكنيسة على فراسخ، ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة، ومنابر من العاج

والأبنوس، لكن الحق ﷻ جعل كيد أصحاب الفيل في تضليل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (الفيل)، وكان من ثمار ذلك أن أعظمت العرب قريشًا وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مئونة عدوهم، فقالوا في ذلك أشعارًا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة، وما رد عن قريش من كيدهم.

ومن الشعراء الجاهليين الذين نظموا شعرًا في هذه الحادثة يؤيِّد صدق ما جاء به القرآن: عبد الله بن الزِّبَعْرَي، وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وكذلك طالب بن أبي طالب بن عبد المطلب، وأبو الصَّلْت بن أبي ربيعة الثَّقفي، ونُفَيل بن حبيب الخَثْعمي وعبد المطلب جَدّ الرسول ﷺ، ومن هذا الشعر نختار قول عبد الله بن الزبعري:

تَنَكَّلُوا[1] عن بَطْنِ مَكَّةَ إنَّها
كانت قديمًا لا يُرامُ حَرِيمُها

لم تُخْلَقِ الشِّعْرَى[2] لَيالِي حُرِّمَتْ
إذْ لا عَزِيزَ من الأنامِ يَرُومُها

سائِلْ أَمِيرَ الجَيْشِ عَنْها ما رَأَى
فَلَسَوْفَ يُنْبِي الجاهِلِيْنَ عَلِيْمُها

سِتُّونَ أَلْفًا لم يَئُوبُوا[3] أرضهم
بَلْ لم يَعِشْ بَعْدَ الإيابِ سَقِيْمُها

كانَتْ بِها عادٌ وجُرْهُمُ[4] قَبْلَهُم
واللهُ مِنْ فَوْقَ العِبادِ يُقِيْمُها

وقول أبي الصلت بن ربيعة الثقفي:

إنَّ آياتِ رَبِّنا باقِياتٌ
ما يُمارِي فيهنَّ إلَّا الكَفُوْرُ

خَلَقَ اللَّيْلَ والنَّهارَ فَكُلٌّ
مُسْتَبِينٌ حِسَابُه مَقْدُوْرُ

ثُمَّ يَجْلُو النَّهارَ رَبٌّ رَحِيْمٌ
بِمَهاةٍ[5] شُعاعُها مَنْشُوْرُ

حَبَسَ الفِيْلَ بِالمُغَمَّسِ[6] حتَّى
صار يَحْبُو كأنَّه مَعْقُورُ

لازمًا حَلْقَةَ الجِرانِ كما
قُطِّرَ مِن صَخرٍ كَبْكَبٍ مَحْذوْرُ

حَوْلَه مِن مُلُوكِ كِنْدَةَ أَبْطا
لٌ مَلاوِيثُ[7] في الحُرُوْبِ صُقُوْرُ

خَلَّفُوه ثُمَّ ابْذَعَرُّوا[8] جميعًا
كُلُّهُم عَظْمُ ساقِه مَكْسُوْرُ

وقول أبي قيس بن الأسلت من شعراء يثرب:

---

١. نَكَل عن العدوِّ: جَبُنَ، ونَكَّله عن الشيء: صرفه عنه، والمعنى: وصرفهم الله عن مكة؛ لأنها محرَّمة منذ خلقها الله.

٢. الشِّعْرَى: نجم نَيِّرٌ كان الكفار في الجاهلية يعبدونه من دون الله تعالى.

٣. يئوبوا: يرجعوا.

٤. عاد وجُرْهُم: قبيلتان من قبائل العرب القديمة.

٥. مهاة: يقصد الشمس.

٦. المُغَمَّس: موضع واقع بين الجِعْرانة والشرايع في طريق السيل إلى الطائف؛ على ثلثي فَرْسَخ من مكة.

٧. ملاويث القوم: جمع ملْوَث، وهو السيد الشريف؛ لأن الأمر يُلاثُ به ويُعْصَب.

٨. ابذَعَرُّوا: تفرّقوا، يقال: ابْذَعَرَّتِ الخيلُ: إذا رَكَضتْ تُبادر شيئًا تطلبه.

وَمِـن صُـنعِهِ يَـومَ فِيْـلِ الحَبُـو
شِ إِذْ كُلَّـمَا بَعَثُـوه رَزَمْ[1]
مَحَـاجِنُهم[2] تَحْـتَ أَقرابِـهِ
وقَـدْ كَلَمُـوا[3] أَنْفَـه فَـانْخَرَمْ
وقَـدْ جَعَلُـوا سَـوْطَهُ مِعْـوَلًا
إِذا يَمَّمُـوهُ قفـاهُ كَلَـمْ
فَـوَلَّى وأَدْبَـر أَدْراجَـهُ
وقَـدْ بـاءَ بـالظُّلمِ مَـن كـانَ ثَـمْ
فَأَرْسَـلَ مِـن فَـوقِهُم حاصِـبًا
فَلَفَّهُـمُ مِثْـلَ لَـفِّ القَـزَمْ
يَحُـثُّ عـلى الطَّـيرِ أَجْنـادَهم
وقَـدْ ثَـأَجُوا كثُـؤاجِ الغَـنَمْ[4]

وقد روى المؤرخون والمفسرون أن أبرهة الحبشي حينما حلَّ بأرض خَثْعَم وهو في طريقه إلى مكة المكرمة، اعترض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه شهراق و ناهس، فقاتلوه ليصرفوه عن هدم الكعبة، فقد رأى نفيل أن جهاده هذا الطاغية حق مقدس في عنقه، إلا أن أبرهة هزمهم وأسر نفيل بن حبيب، فلما هَمَّ أبرهة بقتله قال له نفيل: لا تقتلني أيها الملك، فإني دليلك بأرض العرب. فعفا عنه أبرهة واستصحبه معه ليدله على الطريق في بلاد الحجاز.

وروى المؤرخون والمفسرون ـ أيضًا ـ عن نفيل هذا شيئًا عجيبًا، هو أن الأحباش لما وجهوا الفيل نحو مكة، أقبل نفيل حتى قام إلى جنبه، ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمود ـ وهذا اسم الفيل ـ وارجع راشدًا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، وخرج ابن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، وكان ما كان من أمر هلاكهم.

ولما فاجأتهم تلك الغارات الجوية الإلهية أخذوا ـ من شدة الهول والفزع ـ يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن، ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله تبارك وتعالى بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أَيْـنَ المَفَـرُّ والإلـهُ الطَّالِـبْ
والأَشْرَمُ المَغْلُـوبُ لـيسَ الغالِـبْ

وفي ذلك قال نفيل بن حبيب أيضًا:

أَلا حُيِّيْـتِ عنَّـا يـا رُدَيْنَـا
نَعِمْنَـاكُم مـع الإصباحِ عَيْنَـا
رُدَيْنَـةُ لـو رَأَيْـتِ فَـلَا تُرِيْـهِ
لَـدَى جَنْـبِ المحصَّبِ مـا رَأَيْنَا
إِذَنْ لَعَـذَرْتِني وَحَمَـدْتِ أَمْـرِي
وَلَمْ تَـأْسَي عـلى مـا فـاتَ بَيْنَـا
حَمَـدْتُ اللهَ إِذْ أَبْـصَرْتُ طَـيْرًا
وخِفْـتُ حِجـارَةً تُلْقَـى عَلَيْنـا
وَكُـلُّ القَـوْمِ يَـسْأَلُ عـن نُفَيْـلٍ
كَـأَنَّ عَـليَّ للحُبْـشَانِ دَيْنَـا

---

١. رَزَمَ البعير والرجل: إذا كان لا يقدر على النهوض هُزالا، والرَّازم: الذي قد سقط فلا يقدر أن يتحرك من مكانه.

٢. المحاجن: جمع مِحْجَن، وهي العصا المعوجَّة.

٣. الكَلْم: الجراحة، والجمع كُلُوم.

٤. الثُّؤاج: صوت الغَنَم.

كذلك روى المؤرخون والمفسرون شعرًا قاله عبد المطلب جد الرسول في هذه الحادثة، فقد راح يقول وهو آخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرون على أبرهة وجنده:

لاهُمَّ إنَّ المَرْءَ يَمْـ
ـنَعُ رَحْلَه فامْنَعْ رِحَالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُم
وَمِحالُهم أَبَدًا مِحالَكْ
إنْ كُنْتَ تارِكَهُم وَكَعْـ
ـبَتَنَا فَأَمْرٌ ما بَدَا لَكْ
فَلَئِنْ فَعَلْتَ فإنَّه
أَمْرٌ يَتِمُّ به فَعالَكْ
اسْمَعْ بِأَرْجَسِ ما أرا
دُوا العَدْوَ وانتَهَكُوا حَلالَكْ
جَرُّوا جَمِيعَ بلادَهُم
والفِيلَ كَي يَسْبُوا عِيالَكْ
عَمَدُوا حِمَاكَ بِكَيْدِهِم
جَهْلًا وَمَا رَقَبُوا جَلالَكْ

ولما أهلك الله أبرهة وجيشه وحمى بيته من غدر الأحباش، أدرك أبو قيس ابن الأسلت القيمة الكبرى لهذه النعمة التي أنعم الله بها عليهم، فقام يدعو العرب لشكر الله على هذه النعمة:

فَقُومُوا فَصَلُّوا رَبَّكم وتَعَوَّذُوا
بأَرْكانِ هذا البَيْتِ بَيْنَ الأَخاشِبِ
فَعِنْدَكُم مِنْهُ بَلاءٌ مُصَدَّقٌ
غَدَاةَ أَبِي يَكْسُومَ هادِي الكَتَائِبِ
فَلَمَّا أَجازُوا بَطْنَ نُعْمانَ رَدَّهُم
جُنُودُ الإلهِ بَيْنَ سَافٍ وحاصِبِ
فَوَلَّوا سِراعًا نادِمِينَ وَلَمْ يَؤُبْ
إلى أَهْلِهِم بالجَيْشِ غَيْرُ عِصائِبِ

فكل هذه النماذج التي اخترناها من الشعر الجاهلي الذي قيل في حادثة الفيل تؤكد وقوع هذه الحادثة، وصدق ما جاء في القرآن الكريم عنها، فضلًا عن أنها تنفي ما ذهب إليه أحد النقاد القدامى من قلة الشعر الحجازي في العصر الجاهلي، لعدم الحروب والملاحم.

وإذا كان الشعر الجاهلي قد سجل حادثة الفيل؛ فمن السهل جدًّا الرمي بالانتحال لدى هؤلاء الذين يتشككون حيث يحلو لهم التشكك؛ إذ يجدونه سهل المؤنة يسير التسطير، وقد قالوا فيما يأفكون به: إن الأشعار التي قيلت في حادثة الفيل نظمت تأييدًا للإسلام، وهنا موضع العجب حقًّا؛ لأن الإسلام لم يعتمد في انتشاره على حادث الفيل، وقد كان الوثنيون يرونه مدعاة فخر لأصنامهم؛ إذ يزعمون لها من القدرة ما أحبطت به كيد أبرهة، فهو - إذن - أحد مفاخر الجاهلية التي جاء الإسلام ليعفي على خوارق أصنامها الموهومة، فكيف ينظم المسلمون بعد الإسلام شعرًا يؤيدون به حادثة الفيل ليكون تقوية لدينهم الجديد؟! وقد كان الحادث قبل البعثة النبوية، وفي العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، إذ ذكر المؤرخون أن أصحاب الفيل جاءوا إلى مكة في المحرم، ثم ولد النبي بعد ذلك بخمسين يومًا®.

® في **"قصة أصحاب الفيل"** طالع: الشبهة الثانية، من الجزء الثالث (التاريخ الإسلامي١).

لقد قالوا: إن حملة الحبشة كانت موجهة إلى بلاد فارس لا إلى البيت بمكة، والادعاء بأن المسيحيين في صنعاء كانوا قليلين بحيث لا يحتاجون إلى كنيسة يشيدها أبرهة الحبشي، ويحاول أن يعارض بها البيت الحرام بمكة، ليصرف العرب عن الحج إليه.

وفاتهم أن في القرآن الكريم دليلًا من أقوى الدلائل على أن الحملة الحبشية كانت موجهة إلى الكعبة في مكة، فقد جاء في المصحف الشريف بعد سورة الفيل مباشرة سورة قريش، التي يقول الحق تبارك وتعالى فيها: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ (قريش)، وهذه السورة تبدو امتدادًا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وَجَوِّها، وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور، ولكن ترتيبهما في المصحف على التوالي يتفق مع موضوعيهما القريبين بعضهما من بعض، ويوضح في الوقت نفسه أنهما ما تكونان بالسورة الواحدة، لا سيما أن سورة قريش تبدأ بقوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ (قريش)، وهو جار ومجرور لا بد له من فعل يسبقه ويتعلق به.

فإذا ما نظرنا إلى آخر سورة الفيل نجد الحق ﷻ، يقول عن أصحاب الفيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ (الفيل)، وهذا يفيد أن الله فعل ما فعل بأصحاب الفيل لإيلاف قريش، فإن الحق ﷻ لو ترك بيته الذي في مكة لما كان يريده الأحباش من هدم هذا البيت لسقطت مهابة قريش في الجزيرة العربية، فإن وجودهم بجوار هذا البيت وخدمتهم لحجاجه من العرب هو الذي ربى لهم هذه المهابة، وجعل القبائل لا تجترئ على تجارة قريش ورحلتها الشتوية إلى اليمن والصيفية إلى الشام، ومن هنا أرشد الحق تعالى قريشًا إلى شكر نعمته عليهم حين حبس عن مكة الفيل، وأهلك أهله؛ فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ (قريش).

على أن هناك مظهرًا إعجازيًّا آخر يلفت النظر في هاتين السورتين، فقد فصل بين نزولهما تسع سور - كما سبقت الإشارة، وفي الوقت نفسه نجد سورة الفيل مكونة من خمس آيات وسورة قريش من أربع آيات، أي تتكون السورتان معًا من تسع آيات، فهل أدرك المستشرقون مثل هذه التوافق العددي المعجز؟!

وقد أشار د. محمد رجب البيومي إلى أن الحق لا يعدم أنصاره أبدًا، فقد نهض من ذوي الاستشراق أنفسهم من أجهد نفسه مخلصًا في البحث والتمحيص، حتى عثر على نص ذكره المؤرخ اليوناني الكبير "بركوب" عن تعرض الأحباش للبلاد الحجازية بتأثير الروم، وكان في العثور على هذا النص ما يجب أن يقضي على لجاجة المرجفين، بحيث يخفون رءوسهم من حلبة هذا النقاش؛ لأنهم بنوا أفكارهم على خلو المصادر اليونانية من ذكر الحادث، وها هو ذا (بركوب) مؤرخ اليونان الأشهر قد سجل الحادث المشتهر! وتسجيل المؤرخ اليوناني الكبير لحادث الفيل يدحض ادعاء المستشرق كانياتي بأن رحلة أبرهة إلى الحجاز لم تكن تهدف إلى هدم الكعبة، بل كان الهدف منها أن تقطع صحراء الجزيرة الممتدة، حتى تصل إلى فارس عن

طريق العراق لتعاون الدولة الرومانية في حرب الدولة الفارسية!

ومهما استمر أعداء الإسلام من المستشرقين ونحوهم في تكذيب الحقائق الواردة في القصص القرآني، فلن ينالوا منه شيئًا أبدًا؛ لأن القصص القرآني كلام الله الحق الصادق، ومصدر رئيس للتاريخ القديم، تصدقه الحفريات التي أجراها علماء الآثار، وما يكتشفه العلم الحديث في كل يوم من آفاق جديدة تضيء الطريق إلى الله ﷻ، وتؤكد حقائق القرآن الكريم، وتكشف زيف ما يدعيه هؤلاء الأعداء الذين يخالفون التحقيق العلمي في صميمه، وهم يزعمون أنهم يستندون إلى العلم لتمحيص تلك الأخبار وذلك القصص الديني، فأخطأوا بإنكارهم لذلك في حق العلم وحق الدين معًا.

والخلاصة التي نخرج بها أن القصص القرآني يخلو تمام الخلو من سائر ما زعمه المستشرقون، فليس فيه إطلاقًا مثقال ذرة من أخطاء التاريخ[1].

لعله تأكد لدينا الآن بعد هذه المناقشة أن القصص القرآني تاريخي واقعي لا يمسه الخيال، ولا تمازجه الأسطورة كما زعم المبطلون بغرض التشكيك، وزعزعة الثقة في كتاب المولى الذي يحفظه، فلن ينالوا إربهم ولو رغمت أنوفهم.

ثم يتدرج هؤلاء المبطلون من القول بأسطورية القصص القرآني ـ حيث لا يتورعون ولا يرعوون ـ إلى إنكاره هو ومعجزات النبوة جميعًا، بحجة عدم تمشيها مع مقتضيات العلم الحديث، ومن ذلك ما ادعوه من أن قصة آدم وإبليس في القرآن الكريم تتناقض تناقضًا صريحًا مع سائر المعارف العلمية، وهم بذلك يقصدون تناقضها مع نظرية النشوء والارتقاء التي اخترعها داروين، ومن هنا فنحن نقول: إن الحق هو ما قصه علينا الحق ﷻ في كتابه المبين، ولو تناقض مع الفرضية الداروينية، إذ ليس فيما قصه القرآن الكريم تَنَاقُض بين الدين والعلم، بل هو تناقض بين الحق الديني القرآني، وبين ما نسب إلى العلم، وهو ليس من العلم الصحيح في شيء.

وهذا لا يؤثر مطلقًا في جوهر الموضوع ولا حقيقة القصة؛ لأن نظرية داروين ليست ـ في واقع الأمر وحقيقته ـ حقيقة علمية باعتراف العلماء أنفسهم، فهي لا تملك أدلة إثبات يقينية فيما يتصل بتاريخ الإنسان ونشأته الأولى؛ ولأن العلم نفسه لا يملك ـ مهما ارتقى ـ أدلة يستطيع عن طريقها نفي ما هو ثابت بنص القرآن الكريم من وجود جن وملائكة، وباستطاعتنا أن نعكس السؤال على هؤلاء المنكرين، فنقول لهم: هل يملك العلم المادي الحديث أن يقدم لنا دلائل يقينية قاطعة تثبت ما يدَّعيه عن نشأة الإنسان الأولى وتاريخه؛ إن ما يزعمونه هو مجرد احتمال افتراضي لو لم يدَّعوه لما وجدوا أمامهم إلا ما قرره القصص القرآني المعجز عن مسألة الخلق الرباني.

يقول وحيد الدين خان ـ نقلًا عن سير آرثر كيث ـ في هذا الصدد ما نصه: "إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميًّا، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق الخاص المباشر، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه".

---

1. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد المحص، مرجع سابق، ص ٨٤: ٩٣.

إن هؤلاء لو تحققوا في الأمر، لوجد أن الخرافة والأسطورة إنما تتمثل فيما قاله داروين وأمثاله، فهي أقوال مزعومة وأباطيل منسوجة تتناقض تناقضًا صريحًا مع ما جاء في القرآن الكريم عن خلق آدم وقصته مع إبليس؛ لأن افتراضات داروين ومن نحا نحوه لا تملك -في هذه المواقف - أي دليل أو برهان سوى مجرد الاحتمالات الافتراضية البعيدة كل البعد عن الحقائق القرآنية من ناحية، والحقائق العلمية السائدة من ناحية أخرى، فادعاء التناقض بين الدين والحقائق العلمية في هذه القصة العظيمة - قصة خلق آدم عليه السلام - إنما هو ادعاء يخالف سائر الأسس العلمية والقواعد المنطقية، على أنه يخالف من قبل ومن بعد حقائق الإعجاز في قصص القرآن الكريم.

أما دعواهم الكاذبة عن يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت، فيبدو من كلامهم عنها أنهم لا يفقهون أغلب هذه الأسماء التي يعدونها من الكائنات الأسطورية في القرآن الكريم، والظاهر أنهم أخذوها عن مكتوبات الماركسيين، ولو رجعوا إلى المصادر الإسلامية لعرفوا دلالاتها الحقيقية.

إن في إيرادهم لهاروت وماروت، ويأجوج ومأجوج على أنها كائنات غير مرئية كالجن والملائكة وإبليس جهل فاضح جدًّا، فمن هذا الذي قال: إن هاروت وماروت، ويأجوج ومأجوج مخلوقات غير مرئية كالجن والملائكة؟ وإن كانوا اليوم غير مرئيين، فقد كانوا ذات يوم مرئيين كما نعرف، ولو أنهم قرأوا ما قصته سورة البقرة عن هاروت وماروت، وما قصته سورة الكهف عن يأجوج ومأجوج، لو كانوا قد فعلوا هذا، ما صدر عنهم هذا التخبط الفكري.

وبعد، فإن الذي نقره أنه ينبغي ألا يقال بأن القرآن الكريم يشتمل على قصص أدبي أسطوري - رضي هؤلاء الباحثون أو غضبوا - لأن القرآن الكريم كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ولا يعيب القصص القرآني أن يخالف القصص الفني البشري في هذه الناحية؛ لأن لكل بيان خصائصه التي تسري من خلاله، وسماته التي تتراءى بين ثناياه، بحيث يتميز كل بيان عن غيره؛ ومِنْ ثَمَّ فلا يصح أبدًا أن نُخْضِعَ القصص القرآني للمقاييس النقدية والظواهر القصصية المتعارف عليها؛ لأنه نسيج وحده في الشكل والمضمون على حد سواء، ولا صلة للأساطير والخرافات به[1].

ثالثًا. الفرق الكبير بين القصص القرآني والقصص الفني الأدبي في الطبيعة والأهداف:

ومما يؤكد زيف ادعاء أن القصص القرآني نمط من أنماط القصة الفنية التي تحتوي الخيال القصصي، وعدم التزام الصدق والواقعية - أن القصة في القرآن - كما عرفها العلماء - تعني: الأمر والشأن والحال، فالقصص القرآني إذن هو: إخباره عز وجل عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة، وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم والبلاد والديار، وتتبع آثار الأقوام؛ إذ حكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه[2].

ولا يستخدم القرآن في القصص لفظ الحكاية بدلًا

---

١. المرجع السابق، ص ١٥٢: ١٥٨ بتصرف.

٢. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيمي، مرجع سابق، ص١٨٤.

من القصة؛ لأن الحكاية تقليد وليست واقعًا، وقصص القرآن واقع، وتتناول أحد آثار التاريخ وأنبائه، وتصحح قصصًا أخرى مثلها من التوراة، وتأتي بما لم تأت به التوراة، وجميعها من الماضي[1]، **ويأتي القصص القرآني في أنواع ثلاثة:**

فهو إما قصص أنبياء، متضمن دعواتهم أقوامهم مؤيدين بالمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها، وعاقبة المؤمنين والمكذبين، كقصص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم الصلوات والسلام.

وإما قصص يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة طالوت وجالوت، وأصحاب الكهف، وغيرها.

وأما الضرب الثالث، فهو قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ، كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة... وغير ذلك.

أما إذا أمعنا النظر في أغراض القصص القرآني وفوائده، فإنها عديدة يمكن جمعها في دروس عدة، منها:

- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بُعِثَ بها كل نبي، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأنبياء).
- تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله، قال ﷻ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (هود).
- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكرهم وتخليد آثارهم، وإظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر عن أحوال الماضي عبر القرون، ومنها مقارعة أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله ﷻ: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (آل عمران).
- ترسيخ العبرة والعظة في النفس، قال تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)[2].

وقد أجمل هذه الأهداف والمغزى من القصص القرآني د. إبراهيم خليفة فقال: "ومن ميزاته أيضًا أنه - أي القصص القرآني - مثبت بأسلوب بديع.. مع المحافظة على الغرض الأصلي من تشريع، فتوافرت في ذلك عشر فوائد:

الأولى: كانت غاية علم أهل الكتاب نقل أخبار الأولين، فلما جاء القرآن بقصصه متحديًا ومعجزًا لهم؛ لأن هذه الأخبار كان لا يعلمها إلا الراسخون في العلم منهم، فقال ﷻ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا

---

١. موسوعة القرآن العظيم، عبد المنعم الحفني، مرجع سابق، ج١، ص٨٣١.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٣٠١، ٣٠٢.

﴿كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (هود: ٤٩)، فنفى عن المسلمين صفة الأمية التي ادعتها اليهود، وصفة الجهل التي ادعتها النصارى.

الثانية: تعليل أهمية التشريع الإسلامي بذكر تاريخ المتشرعين وذلك من أدب الشريعة؛ لأنه لا يتعرض لقصص السابقين إلا لذكر ثبات إيمانهم وصبرهم، كما ذكر في قصة أهل الكهف، ولا يذكر نسبهم ولا حسبهم.

الثالثة: فائدة ظهور المثل العليا في الفضيلة وذكاء النفوس كفائدة من التاريخ، وترتيب الأحداث، والعلاقة بين التعمير والتخريب والشر والخير.

الرابعة: عظة المشركين بإعلامهم ما حدث لأسلافهم ليعودوا لربهم: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ (الأعراف).

الخامسة: استخدام القصص القرآني لأسلوب التوصيف والمحاورة الذي لم يعتده العرب؛ فهم يعترفون بأنه أسلوب بديع، ولكنهم لا يستطيعون الإتيان بمثله.

السادسة: توسيع علم العرب الذين كانوا يتصفون بالجهل والأمية، بإطلاعهم على أحوال الأمم السابقة؛ ليساعدهم ذلك في تطهير أخلاقهم وتهذيبها.

السابعة: تعويد المسلمين على سعة العالم وعظمة الأمم، والاعتراف لكل ذي حق بحقه، فإذا علمت الأمة ذلك جمعت ميزات هذه الأمم وما يلائم حياتها.

الثامنة: إنشاء همة السعي إلى سيادة العالم في نفوس المسلمين كما سعت إلى ذلك أمم سابقة.

التاسعة: معرفة أن قوة الله فوق كل قوة، فيساعد ذلك المسلمين على التمسك بوسيلتي البقاء والاستعداد والاعتياد، وهما وَسِيلَتَا السلامة.

العاشرة: تحصيل الفوائد التبعية، مثل معرفة تاريخ التشريعات والحضارات الذي يفيد في الإلمام بفوائد المدنية، كعلمنا بأن الشريعة القبطية، كان يُسْتَرَقّ فيها السارق من قصة يوسف في قوله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (يوسف: ٧٦)[1].

هذه هي طبيعة القصص في القرآن، وتلك هي الأغراض التي سيق من أجلها، فهل يُعْقَل بعد هذا أن يقال: إن قصص القرآن قصص فني، يقوم على الخيال القصصي والأسطورة في سرد أحداثه، ولا يلتزم الواقعية والصدق، ومن ثم فإنه يقع في أخطاء تاريخية.

إن من يزعم أن القرآن الكريم يسوق بعض قصصه حبًّا في الإثارة الفنية التي من ورائها العبرة والعظة؛ لأن القرآن فن، والفن في صميمه حرية، ولا حرية مع إلزام والتزام، أو أن القرآن أحيانًا يعرض الشخصيات التاريخية وقصص المرسلين عرضًا فنيًّا يقوم على ما كان يعتقده المخاطبون حين نزول هذا القصص في صدر الإسلام؛ إن من يدعي ذلك - فقد زل وأخطأ، وتجاهل - أيضًا - أن محاولة فرض مقاييس القصة الفنية على القصص القرآني - محاولة غير سديدة وغير جائزة؛ لأن القصص القرآني شيء، والقصص الفني شيء آخر، فالثانية لا تتقيد بالحقائق التاريخية؛ فلكاتب القصة الفنية مطلق الحرية في استلهام الأساطير والخيال، وله أن يثير اهتمام قارئه بما يشاء، وما يملكه من قدراته

١. الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٨١.

الأدبية على التحليق في الخيال، واستدعاء الحوادث الأسطورية، أو غير ذلك فلا بأس عليه إذا لم يتقيد فيما يكتبه بالحقائق والوقائع الثابتة، ولا بأس عليه إذا أسند إلى الشخصيات التاريخية ما لم تقله ولم تفعله، بل لكاتب القصة الفنية أن يتخيل بطلًا خياليًّا يسند إليه أحداثًا تاريخية لم تحدث منه ولم تصدر عنه، كل ذلك وغيره من ظواهر الحرية الفنية الجائزة في القصص الفنية.

أما القصة في القرآن الكريم، فإنها حقيقة ليس الخيال والأساطير منها في شيء، فكل ما ورد في القرآن الكريم من قصص إنما هو حقائق لا شك فيها، وصدق لا يستطيع الناس جميعًا أن يجدوا فيها مطعنًا؛ لأن القرآن الكريم كتاب أنزله الله بالحق، وبالحق نزل[1].

لذلك تميز قصصه بخصائص فريدة عن غيره من القصص من: الواقعية الصادقة، وجاذبية في العرض والبيان، وشمولية في الموضوع، وعلوٍّ في الهدف، وتنويع في المقصد والغرض، ووضوح في الإعجاز.

الخيال في القصص القرآني خيال تعبيري، وأما الخيال في القصص الأدبي فخيال فني[2]:

إن أصحاب هذا الادعاء قد التبس عليهم أمر الخيال وحديث البلاغيين القدامى عنه، ونسوا أو تجاهلوا أن الخيال ضربان: خيال قصصي، وخيال تعبيري، وهي مسألة مهمة لا بد من الفطنة إليها حين نحاول درس القصص القرآني على منهاج أدبي مستقيم؛ ففي القرآن الكريم ألوان من الخيال التعبيري، وليس فيه مثقال ذرة من الخيال القصصي.

ويوضح د. إبراهيم عوضين هذه التفرقة بقوله: "الخيال القصصي إضافة شريط بين الأحداث الواقعية، حتى يتم النسج القصصي، ويلتحم على الوجه الذي يعتقد الكاتب أنه المناسب، ويرى أن أحداث القصة لا تكون مقنعة للقارئ إلا بذلك، أما الخيال التعبيري، فهو ذلك التصوير لأثر الحقائق الواقعة، حتى يحس القارئ بما يحس به الكاتب، أو بما يحس به من يقع في دائرة الحس، فالخيال التعبيري لا يضيف شيئًا إلى الحقائق ولا يغير من طبيعتها، إنما يقدمها بحالها مكْسُوَّة بلباس يكشف عما قد يخفى من مكنونها".

وانطلاقًا مما قرره د. إبراهيم في الكلام السابق يمكننا القول: إن مخاطبة القرآن الكريم للعرب، ببعض ما كان يجري على سننهم، لا يلزم منه مخالفة الحقيقة والواقع؛ لأن ذلك لون من التمثيل البياني التعبيري، الذي يُضْفِي لونًا من الجمال التصويري على الحقائق فَيُجَمِّلُهَا ويُزَيِّنُهَا، وليس من التمثيل الخيالي القصصي، الذي ينتحل للحقائق والوقائع أسماء لا تنطبق عليها بحال.

وعلى هذا الأساس نفهم قول النيسابوري: "إذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح، وجب ذكره في الكتاب الذي أُنْزِلَ تبيانًا لكل شيء"، وهو بذلك يشير إلى تشبيه التمثيل، والاستعارة التمثيلية ونحوهما من ألوان الخيال التعبيري، الذي لا ينكر وجوده في القرآن من نحو قوله ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ (النور: ٣٩)، وقوله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (يونس: ٢٤).

1. المرجع السابق، ص١٨١: ١٩٠ بتصرف.
2. أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، عبد الجواد المحص، مرجع سابق، ص١٨٠ وما بعدها.

وغير ذلك من الشواهد الماثلة، التي تحدث عنها البلاغيون القدامى على أنها تمثيلات من ميدان الخيال التعبيري، الذي يقرب المعقول من المحسوس، وأحد المحسوسين من الآخر، وما شابه ذلك من فوائد التشبيه التمثيلي والاستعارة التمثيلية.

لا يوجد دليل لا من العقل ولا من القرآن يؤكد هذا الزعم:

إن حجة هؤلاء الزاعمين أن قصص القرآن الكريم أو بعضه، إنما هو نمط من أنماط القصة الفنية، التي تعتمد كثيرًا على الخيال، ولا تتحرى الصدق والواقعية، حجة واهية لا تقوم على ساق، ولا تستند إلى دليل من العقل، أو تركن إلى برهان من منطق، ولا يدعمها دليل واحد من القرآن الكريم، بل العكس هو المنصوص عليه في آيات الذكر الحكيم؛ إذ يؤكد القرآن الكريم - في أكثر من موضع - أن هذا القصص ليس ضربًا من الخيال، للتسلية والمتعة، أو للعبرة والعظة فقط، وإنما هو حق من عند الله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ (يوسف)، وقال ﷻ: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء: ١٠٥)، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ (آل عمران: ٦٢)، بل إن القرآن الكريم يرد على المشركين في أكثر من موضع قولهم: إنه أساطير الأولين، ومنها قوله ﷻ: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٦) ﴾ (الفرقان).

ومن العجيب حقًّا أن هؤلاء لم يضعوا بين أيدينا نحن قصة واحدة ليشرحوها الشرح الأدبي الذي يؤكد ادعاءهم، بأن القرآن الكريم يشتمل على قصص أدبي يعتمد على الخيال في سرد أحاديثه وأحداثه، ولا يلتزم الصدق والواقعية، ولقد كان اليهود - هم أعدى أعداء الإسلام - بالمدينة والوحي ينزل على رسول الله ﷺ وفيه القصص القرآني، ولم يدعوا أنه ضرب من الخيال القصصي لا يلتزم الصدق والواقعية في تناوله للأحداث، رغم أنهم كانوا متربصين للإسلام ورسوله؛ كي يتصيدوا أي سانحة تلوح لهم؛ لينتهزوها فرصة للنيل من الإسلام والكيد له، وللمسلمين ورسول الإسلام.

الخلاصة:

- القصص القرآني يتميز بالواقعية التاريخية؛ فهو يتناول ما هو ثابت تاريخيًّا، ولا دور للخيال أو الأسطورة فيه؛ إذ إنه سرد واع موجه للتاريخ الإنساني، ليس الغرض منه الإلهاء والتشويق، بل الغرض منه التربية والتوعية، وتجديد المعاني بعد انتهاء أهلها لتكون عظة دائمة.
- لقد اشتملت قصة أهل الكهف على أمور تدل دلالة قوية على عدم صلتها بالأسطورة، وتنص نصًّا صريحًا على أن القصة من واقع التاريخ الحق، هذه الأمور هي:
  - التقديم القرآني الرائع للقصة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) ﴾ (الكهف).

- إن الحق ﷻ لم يذكر أن أصحابها قد بعثوا من موت، وإنما الذي أوضحته القصة أنهم بعثوا من نوم عميق طويل غشي عيونهم، بعد أن سلبوا أسباب التنبه والاستيقاظ، وضرب الله على آذانهم في الكهف سنين عددًا.
- إننا نرى هذه القصة في كل جزئية من جزئياتها تُصور الأمر وكأنه مرئي بالحس، لا مذكورًا بالخبر وحده.
- إنها كانت مظهرًا واقعيًّا لصورة من صور التحدي القرآني لأعداء سيدنا محمد ﷺ، إذ قد طلب المشركون من النبي ﷺ أن يقص عليهم نبأ أهل الكهف وما انتهى إليه أمرهم.
- اتبع القرآن الكريم في عرضها طريقة التلخيص الإجمالي أوَّلًا، ثم العرض التفصيلي أخيرًا.

• قصة أصحاب الفيل واقعة تاريخيَّة حقيقية، فقد أجمع مؤرخو العرب والمنصفون من الكتاب الغربيين على وقوع حادثة الفيل بين حكام اليمن ومكة، على نحو تؤيده الرواية الصحيحة، ويمليه منطق الأحداث. ونحن إذ نستقرئ قصة الأدب في العصر الجاهلي، نجد أن حادثة الفيل حادثة لها خطرها في تاريخ الحجازيين خاصة والعرب عامة، ولا غرو إذا ما هتف شعراء الحجاز بالقصيد يصبون جام غضبهم على المعتدي الأثيم.

• ثمة فارق كبير بين القصص القرآني والقصص الفني في الطبيعة والأهداف؛ فقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم والبلاد والديار وتتبع آثار الأقوام؛ إذ حكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه، ويأتي القصص القرآني في أنواع ثلاثة، فهو إما قصص أنبياء، وإما قصص يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، وإما قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ.

• وللقصة في القرآن فوائد عديدة، منها:

- إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي.
- تثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب أمته على دين الله.
- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكرهم.
- ترسيخ العبرة والعظة في النفس.

أما القصة الفنية فهي شيء آخر؛ إذ لا تتقيد بالحقائق التاريخية، فلكاتب القصة الفنية مطلق الحرية في استلهام الأساطير والخيال، ولا بأس عليه إذا أسند إلى الشخصيات التاريخية ما لم تقله وما لم تفعله.

الشبهة الثلاثون

ادعاء أن الآيات التي تحكي مجيء إبراهيم عليه السلام إلى مكة مفتعلة(*) ®

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المغالطين أن الآيات التي تحكي مجيء إبراهيم عليه السلام إلى مكة واستيطان ذريته بجوار البيت بعدما بناه هو وابنه إسماعيل - عليهما السلام - مفتعلة، افتعلها النبي محمد ﷺ ليتألف اليهود وليتقرب إليهم،

(*) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.

® في **"ثبوت ذهاب إبراهيم إلى مكة وبنائه الكعبة"** طالع: الشبهة العشرين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

وليثبت الصلة بينهم وبين العرب، ويمثلون لذلك بما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ (البقرة: ١٢٦). وذلك بغية اتهام القرآن بحكاية ما لم يقع، ومن ثم الطعن في سلامته.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن الكريم نزل بعقيدة واضحة، لا مداهنة فيها لأحد من أول يوم، وهي تخالف العقائد المحرفة لدى اليهود والنصارى وغيرهم.

٢) الحديث عن إبراهيم عليه السلام وزيارته مكة واتصاله بالعرب لم يبدأ في المدينة، وإنما في مكة حيث لا يهود هناك.

٣) العهد القديم الذي يؤمنون به أثبت قدوم إبراهيم عليه السلام فَلِمَ يُقرُّونها فيه وينكرونها في القرآن ؟!

٤) القرآن يؤكد أن إبراهيم عليه السلام ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، بل كان حنيفًا مسلمًا، وهكذا كانت وصيَّته لبَنيه، فهل يعقل أن يتودد النبي لليهود بإبراهيم وهو على الحالة تلك؟ ألم يكن من الأولى أن يخفي النبي ﷺ حقيقة أنه كان حنيفًا مسلمًا؟!

التفصيل:

أولا. نزل القرآن الكريم بعقيدة واضحة تخالف العقائد المحرفة لدى اليهود والنصارى وغيرهم:

نزل القرآن الكريم بعقيدة التوحيد الخالص، ونفي الشرك، وقصد الله تبارك وتعالى وحده بالعبادة والعمل، وهذا يخالف عقائد التثليث عند النصارى، والشرك عند اليهود، وعبادة ما دون الله عند غيرهم، ولو كان النبي ﷺ يود تأليف قلوب أقوام كاليود، لما صرح من أول الأمر بما يخالف عقيدتهم، وإنما كان من الممكن أن ينتظر حتى يرى هل ينصره هؤلاء أم يخذلونه؟ وإلا كيف يعلن أن التوحيد الذي يخالف عقائد اليهود والنصارى ـ المحرفة ـ جوهر رسالته، ثم بعد ذلك يمالئهم ويداهنهم، أو يتألف قلوبهم بافتعال قصة إبراهيم كي يستميلهم إليه، أو يرضوا عنه، وهذا شيء ثانوي في رسالته، وأيضًا رسائلهم، وليس من صلب العقيدة لا عنده ولا عندهم. أفيخالفهم في الأصل والجوهر، ويتألفهم في الفرع والعرض؟! أي عقل يقول بهذا إلا عقل لا يعتمد منطقًا سليمًا أو منهجًا رشيدًا ؟!

ثانيًا. الحديث عن إبراهيم عليه السلام وزيارته مكة، واتصاله بالعرب لم يبدأ في المدينة، بل كان ذلك في مكة:

ففي سورة إبراهيم وهي من القرآن المكي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥)﴾ (إبراهيم)، والبلد المقصود في الآية وأيضًا في سورة البقرة هي مكة، فكيف يقال: إن هذه الآية التي استدل بها هؤلاء المدعون ـ مدنية؟! أو لا يعلمون أن هذا الكلام نزل في مكة قبل ذلك في سياق آخر؟ وكيف يقال: إن النبي ﷺ افتعلها بالمدينة ليمالئ بها اليهود أو يتألفهم بها؟ ألا يدل ذلك على اضطراب في الفهم وعشوائية في التفكير، وجهل بالقرآن وآياته.

ثالثًا. العهد القديم ـ الذي يؤمنون به ـ أثبت قدوم إبراهيم إلى مكة، فَلِمَ يُكذِّبون القرآن؟

إن أمر قدوم إبراهيم إلى مكة ليست أماراتِ ثبوته

الآياتُ القرآنية فحسب، وإن كان هذا وحده كافيًا للإيمان به عندنا نحن المسلمين، بل هو أمر قد جاء ذكره في كتب غير المسلمين التي يعظمونها كالعهد القديم، أفلا يؤمن هؤلاء بما ورد عندهم؟ وإذا كانوا يؤمنون أيرتضي أن تكذب حادثة لأنها جاءت في كتاب يريدون أن يكذبوه؟

وثابت أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم، سواء تنازع هؤلاء في كونه هو أو إسحاق الذبيح، فنسبته لإبراهيم ثابتة عندنا وعندهم، وإذا كان هذا ثابتًا، أفلا يجيبون كيف ذهب إلى هناك؟ وهل كان إبراهيم هو الذي ذهب به كما يحكي القرآن الكريم؟ أم أن إبراهيم كان يكره له هذا؟

رابعًا. القرآن يؤكد أن إبراهيم ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا:

لقد أكد القرآن على كون إبراهيم عليه السلام حنيفًا مسلمًا؛ وذلك حين حاور القرآن الكريم أهل الكتاب وجادلهم عقليًّا في موضوع إبراهيم وديانته، فنفى أن يكون يهوديًّا أو نصرانيًّا؛ لأن كتابي الديانتين نزلا بعده، ولو كان القرآن حريصًا على تألُّفهم لسكت عن ذلك، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٦٧) ﴾ (آل عمران)، وفيه: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) ﴾ (آل عمران)، وفيه أيضًا: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ (البقرة)، وغير ذلك من الآيات الكريمة التي أثبتت أن ملة إبراهيم عليه السلام الإسلام وأثبتت مكافأته به، ففي القرآن الكريم: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٣١) ﴾ (البقرة)، وفيه: ﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) ﴾ (البقرة). وفيه: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٣٥) ﴾ (البقرة).

فهل يُعقل أن يتودَّد النبي ﷺ لليهود بإثبات أنه زار مكة، وثابت في القرآن أنه لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، ألم يكن من الأولى - إن كان النبي ﷺ يداهنهم كما يقولون - أن يخفي حقيقة أنه حنيفي مسلم؟! وكيف يذكر القرآن أنه لا علاقة بين إبراهيم واليهود، ثم يدَّعون في الوقت نفسه أنه يؤلِّف قلوبهم بذكره®؟!

الخلاصة:

- القرآن الكريم نزل من أول يوم بعقيدة واضحة لا مداهنة فيها لأحد، وهي تخالف العقائد الفاسدة والمحرفة، عند اليهود وغيرهم، فكيف يمالئ اليهود ويتألفهم بشيء فرعي وهو يخالفهم ويناقضهم في جوهر عقيدتهم وأساسها.
- الحديث عن إبراهيم وزيارته لمكة واتصاله بالعرب لم يبدأ في المدينة، حتى يقال: إنه أراد أن يتألفهم ويداهنهم، وإنما بدأ في مكة حيث لا يهود هناك.
- العهد القديم أثبت قدوم إبراهيم إلى مكة وهم

® في "**حنيفية إبراهيم**" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١). و في "**ردّ القرآن الكريم على ادعاء أن إبراهيم كان يهوديًّا أو نصرانيًّا**" طالع: الشبهة الثامنة والخمسين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

يؤمنون به، فلماذا ينكرونها في القرآن، أم إنهم ـ لمجرد رفضهم للقرآن باعتباره رسالة ـ راحوا يطعنون في قصصه التي احتواها حتى لو كانت حقائق ثابتة عندهم.

- القرآن أكد أن إبراهيم ما كان يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن كان حنيفًا مسلمًا، وهكذا كانت وصيته لبنيه من بعده، فكيف يتألفهم بذكر زيارته مكة واتصاله بالعرب وهو ينفي علاقته بهم ويبرئه منهم؟!

الشبهة الحادية والثلاثون

دعوى خطأ القرآن في قصة موسى عليه السلام والخضر(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن القرآن أخطأ عندما ذكر التقاء موسى بالخضر، معتمدين على قول بعض المفسرين: إن الخضر هو "إيليا" النبي، وأن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر، وأن الكنز الذي كان أسفل الجدار هو صحيفةٌ مكتوبٌ عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ويتساءلون: كيف يلتقي موسى الذي عاش في مصر (١٥٠٠ ق. م) بالنبي إيليا الذي عاش في فلسطين زمن الإسكندر الأكبر (٣٣٢ ق.م)، وأين هؤلاء من الشهادة لمحمد الذي ظهر في بلاد العرب في القرن السابع بعد الميلاد؟ وهم يرمون من وراء ذلك إلى اتهام القصص القرآني بالخرافة، والطعن في حقائق هذا القصص ووصمه باللامنطقية.

(*) أسئلة بلا أجوبة، صموئيل عبد المسيح، موقع الكلمة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الحُجَّة عندنا في القرآن والسنة، وهما لم يذكرا أسماء، ولم يحدِّدا تاريخًا، أما أقوال المفسرين التي ذُكِرَت في هذه القصة فهي مَحْضُ اجتهاد يؤخذ منها ويُرَد.

٢) ليس ثمة ما يدل على أن موسى والخضر أدركا ذا القرنين.

٣) لو افترضنا صحة أن الكنز كان صحيفةً مكتوبًا عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، فليس ذلك مما يرفضه العقل أو يستغربه؛ فقد بشرت الكتب السابقة بالرسالة المحمدية، وهذا يقبل على أساس أنه من المبشرات.

التفصيل:

أولا. الحجة في القرآن والسنة:

لم يذكر القرآن عن الخضر إلا أنه عبد من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه علمًا، وذكرت السنة أنه العبد الصالح، أما ما يُذْكَر خلاف ذلك فهو أقوال للمفسرين، وقد اختلفت كتب التفسير في اسم الخضر، وفي كونه نبيًّا أم وليًّا، وهل هو حي أم ميتٌ؟ فمنهم من قال: اسمه بليان بن ملكان، ومنهم من قال: هو اليسع، ومنهم من قال: هو ملك من الملائكة، وقيل: عامر، وقيل: أحمد، والجمهور أنه بليان بن ملكان، وهو ميت لقوله عز وجل: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأنبياء). وقد ذكر الطبري أنه قد عمر طويلًا حتى أدرك موسى، ومات بعد ذلك[1].

أما عن ذي القرنين، فلم يذكر القرآن عنه سوى هذا

١. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مرجع سابق، ص٣٥٧.

اللقب: "ذي القرنين" وإن كان المفسرون ذكروا له أسماءً على اختلاف بينهم، فمنهم من قال:

- هو ملك من ملوك تُبَّع باليمن، وهو أبو بكر بن إفريقش؛ لأن الأذواء - أي مَن يُقال عنهم: ذو كذا - في بلاد حمير، دون بلاد اليونان.
- هو إسكندر بن فيلبس "الإسكندر الأكبر".
- هو ملك من ملوك الفرس وهو أفريدون بن أفيان بن حشيد.

وقد رجح د. محمد بكر القول الأول؛ لأن العرب كانوا يلقبون ملوكهم بذي كذا، وكانوا يعرفون شيئًا عن أخبار ذي القرنين عن طريق أحبار اليهود ورهبان النصارى وغيرهم من المهتمين بأنساب العرب.

وكل هذه أقوال غير معصومة تصيب وتخطئ؛ لأنها أقوال مفسرين، وهم بشر، أما نصوص القرآن، وكذلك السنة - فلم يذكرا لنا أن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر أو غيره، كما لم يذكرا لنا أن الخضر هو النبي "إيليا"، فكيف يُحكم بخطأ القرآن ويقال: إن القرآن أخطأ حينما جعل موسى عليه السلام يلتقي بالنبي "إيليا" وبينهما كذا وكذا من السنين الطويلة؟ وإن كان لا بد من خطأ أحد الاثنين - القرآن أو التاريخ - فلماذا يكون القرآن؟ هذا فضلًا عن أن القرآن لم يشر إطلاقًا إلى أن موسى عليه السلام التقى ذا القرنين، سواء كان هو الإسكندر أو غيره، كذلك لم يشر إلى أي لقاء تم بين الخضر وذي القرنين، حتى يقولوا: كيف يلتقي موسى أو الخضر ذا القرنين وبينهما كذا وكذا من السنين®؟

كثرة الأخطاء التاريخية في كتب التاريخ:

لو افترضنا - جدلًا - أن الخضر هو النبي "إيليا"، وأن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر، وذكر القرآن التقاء الثلاثة وعيَّن أسماءهم، فلا مانع من ذلك، بل يكون ذلك هو الصحيح ولا يكون صحيحًا غير ذلك؛ لأن القرآن كتاب مُنَزَّل من عند الله وموثوق به، وثبت أنه لم يحرف، وثبت إعجازه في كل مجال.

أما غيره من الكتب سواء كانت كتبًا دينية وذكرت فيها هذه التواريخ لتلك الأحداث، أو كانت كتبًا غير دينية، فالأمر سيان من حيث إنها لا يوثق بكل ما جاء فيها من تأريخ للوقائع والأحداث لما شابها من التحريف، وبسبب ما وقع فيها من الخلط والاضطراب، فنحن لا نأمن ولا نطمئن لصحة هذه التواريخ؛ لأن مصادرها غير معصومة، وغير موثوق بها، وليست هذه الكتب هي الفيصل الذي يُتحاكم إليه عند الاختلاف في تأريخ الحوادث والوقائع.

ثانيًا. ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل على أن موسى عليه السلام أو الخضر قد أدرك ذا القرنين:

لا يوجد دليل حاسم على أن المراد بذي القرنين شخص بعينه كالإسكندر الأكبر أو غيره، ولا يوجد دليل معين يحدد ميلاد ووفاة ذي القرنين، وفي أي القرون كان، كذلك لا يوجد دليل من القرآن أو السنة يذكر أن موسى أو حتى الخضر قد التقى ذا القرنين، حتى يزعم هؤلاء المدعون خطأ القرآن التاريخي في لقاء موسى والخضر بذي القرنين بسبب طول الفترة الزمنية التي تفصل بينهم جميعًا؛ وبسبب اختلاف بلدانهم ومواطنهم، فكيف يتقول هؤلاء على القرآن وينسبون

® في "حقيقة الخَضِر" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة والخمسين. وفي "حقيقة ذي القرنين" طالع: الشبهة الثالثة والستين، من الجزء التاسع (الأنبياء والرسل١).

إليه ما لم يذكره، ثم يحكمون عليه بالخطأ التأريخي؟

ثالثًا. الكنز الذي كان تحت الجدار:

لو افترضنا صحة الرواية التي تذكر أن الكنز الذي وجد تحت الجدار هو صحيفة مكتوب عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، فليس هذا بغريب بشرط صحته؛ لأن الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل قد بشرت بخاتم الأنبياء محمد ﷺ.

الخلاصة:

- الحجة فيما ورد في القرآن والسنة، لا في روايات المفسرين وكتب التاريخ، وهما ـ أي القرآن والسنة ـ لم يذكرا أسماءً ولم يحددا تواريخ، ومعلوم أن كتب التاريخ مليئة بالأخطاء؛ إذ لا يوثق بكل ما جاء فيها من تأريخ للوقائع والأحداث لما شابها من التحريف وما وقع فيها من الخلط والاضطراب.
- لم يرد في القرآن أو السنة ما يدل على التقاء موسى أو الخضر ذا القرنين.
- سبقت الرسالة المحمدية مجموعة من البشارات منها ما ورد في الكتاب المقدس، ومن الثابت أن ذكرها سبق ظهورها؛ بدليل أن اليهود ـ خاصة ـ كانوا يحدثون الناس عن نبي آخر الزمان ويصفونه لهم، وعلى فرض صحة أن الكنز كان صحيفة مكتوبًا عليها " لا إله إلا الله محمد رسول الله"، فإن ذلك مقبول على أساس أنه من المبشرات.

الشبهة الثانية والثلاثون

دعوى اشتمال القرآن على آيات تمدح "الغرانيق"(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المغالطين أن سورة النجم كانت تحتوي آيتين تمدحان "الغرانيق"، أضافهما محمد ﷺ بوحي من الشيطان؛ لكسب ودِّ قريش والتقرب إليهم، فعندما كان النبي ﷺ يقرأ قوله ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ (النجم)، ألقى الشيطان في أمنيته: "تلك الغرانيق العُلَى، وإن شفاعتهن لتُرْتَجَى"، فلما ختم السورة سجد، ففرح المشركون لذلك وسجدوا معه. ويرمون من وراء ذلك إلى التشكيك في سلامة القرآن والطعن في عقيدة التوحيد.

وجوه إبطال الشبهة:

١) سياق الآيات في سورة النجم فيه ذم وتسفيه لعبادة الأصنام، مما لا يستقيم معه المدح، أما الآيات التي يدّعونها فلا أساس لها من الصحة، ولا سند لها من القرآن.

٢) إن الرسول ﷺ كسائر البشر يُمَنِّيه الشيطان، ولكن الله ﷻ يعصمه منه، كما أن الآية مناط الاستدلال من قبيل تلمس الدليل فيما لا يعدُّ دليلًا.

(*) الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م. الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر، مرجع سابق. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق. قرآن أمريكي ملفق: "الفرقان الحق"، د. إبراهيم عوض، زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٣) لقد جاءت رسالة النبي محمد ﷺ من أجل التوحيد الخالص ونبذ عبادة الأصنام، وأمانته وإخلاصه في أداء هذه الرسالة يبطلان هذه الدعوى وغيرها.

التفصيل:

أولا. بعض آيات السورة ذم صريح للمشركين وتسفيه لعبادتهم:

سورة النجم سورة مكية نزلت على النبي ﷺ قبل الهجرة، والسورة بدأت بالقسم بالنجم أن النبي ﷺ ما ضل وما غوى، وما نطق عن هوى، بل ما جاء به وحي من الله ﷻ علمه إياه ﷺ، والآيات في السورة حملت ذمًّا على المشركين والأصنام، وما كان يفعله هؤلاء المشركون.

ثم كان ختام السورة بأن بيَّنت أن الإنسان مسئول عن عمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وكل إنسان عليه سعيه، فغير معقول أن تُمدح آلهة المشركين في معرض هذه الآيات، وبخاصة وأن الآيتين المزعومتين لا تتشابهان بحال مع سائر آيات القرآن الكريم، لا من حيث المعنى، ولا المبنى، ولا السياق.

ولذلك فإن هذا الزعم باطل من وجهين:

الأول: وجه السند، حيث إنها لم تثبت مطلقًا، فلم ترد إلا في بعض كتب التاريخ والتفسير، ولم يخرجها من رجال الحديث أحد كما يقرر البيهقي، وحتى ابن إسحاق نفسه الذي نسبت إليه، فإنه قد أنكرها وقال: إنها من وضع الزنادقة، والروايات التي نقلها المؤرخون والمفسرون في شأنها مختلفة ومتناقضة، والروايات إذا تناقضت تساقطت، ولم تعد لها قيمة في البحوث الجادة والنصوص الموثقة[1].

والثاني: وجه العقل؛ حيث إنها تناقض معنى ومبنى وسياق ومضمون السورة والقرآن والرسالة المحمدية في أساسها.

إن سورة النجم من بدايتها حتى نهايتها تلفظ هذه القصة وترفضها، فإن الذي يقرأ هذه السورة الكريمة يرى أنها تنعي على المشركين شركهم، وتفند أفكارهم وحججهم، وتكذبهم تكذيبًا قاطعًا فيما يقولونه في آلهتهم عند ادعائهم أنها بنات الله تقول لهم: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) ﴾ (النجم) أي جائرة، وإن آلهتكم التي تتحدثون عنها ليست إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان، إنكم تهيمون في ظنونكم بعدما جاءكم الهدى من ربكم على لسان نبيكم المرسل إليكم، وتقر الآيات التي بعد هاتين الآيتين النعي على المشركين، وبيان حقيقة آلهتهم المزعومة، فيقول الله ﷻ: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦) ﴾ (النجم).

أَيُعدُّ هذا الكلام مدحًا للات والعزى ومناة؟ وهل يتفق هذا وما ألقاه الشيطان - كما يدعون - على لسان نبينا محمد ﷺ، وهو قوله: "تلك الغرانيق العلى، وإن

١. الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٥ بتصرف.

شفاعتهن لترتجى"؟ وأين كان الحضور من قريش حتى يسجدوا لسجود محمد ﷺ لأنهم سمعوا منه ما يرضيهم في آلهتهم؟ أليسوا يفهمون ما يقرع آذانهم من مدح أو ذم؟ أليسوا هم الذين ألحُّوا عليه ﷺ أن يعبد آلهتهم شهرًا، ويعبدوا إلهه شهرًا، فجاء الرد يقطع آمالهم، ويدحض رجاءهم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون)؟[1]

وإذا كان الأمر كما يدَّعون، فكيف يصدِّق العقل - أي عقل - أن ينطق رسول الله ﷺ بهذه الكلمات "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لتُرتجى" ومن حوله جمهرة من أصحابه، وقد طرق هذا الكلام أسماعهم، ثم لا يضجون بالسؤال والاستيضاح، بل لا يوجد فيهم من يعلِّق عليه متعجبًا أو مستنكرًا أو راويًا؟!

إن نطق رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه بهذا الكلام، من شأنه ألا يروى إلا متواترًا؛ إذ هو من النوع الذي إذا وقع شاع، وإذا شاع تناقله جميع السامعين، فهو كالخبر الذي ذكره جميع الذين رووا هذا الذي قيل: إن رسول الله ﷺ نطق به؟ بل أين صحابي واحد سمع من رسول الله هذا الذي قالوا: إنه نطق به؟ وقد جاءت هذه القصة من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وهي - عند علماء الحديث - سلسلة الكذب بالإجماع!

ثم لنتجاهل إنكار العقل لهذا الافتراض، ولنفترض أن رسول الله ﷺ قد نطق بتلك الكلمات ليجامل بها المشركين - كما قيل -، إن من الثابت المعلوم للجميع أن النبي ﷺ لم يستمر في مجاملتهم، بل عاد عنها فيما قالوا، وأكَّد أن الشيطان ألقى بهذه الكلمات على لسانه، فأين ردة الفعل لديهم؟ وأين هجومهم عليه باتهامهم له بالمراوغة والتقلُّب؟ وهلا راحوا يستدلون على تهافت رأيه بكلامه؟ بل هلا دعموا عقائدهم الشركية وأيدوها بكلامه الذي أثنى فيه على آلهتهم.

إن هذا الافتراض يستلزم هذه النتائج بدون أدنى ريب، بل بحكم البداهة لكل ذي عقل، فأين هذه النتائج؟

أما الذي حدث فعلًا، فهو ما ذكره البخاري في صحيحه، بسنده من حديث عبد الله بن عباس قال: "سجد النبي ﷺ بالنجم، أي لما وصل في تلاوته لها إلى آخر آية منها، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس".

وقد جاء عن عبد الله بن مسعود أنه قال: "أول سورة أُنزِلت فيها سجدة ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ (النجم:١)، فسجد رسول اله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلًا رأيته أخذ كفًّا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتل كافرًا، وهو أمية بن خلف"[2].

وليس في هذا الذي ذكره من كلام ابن عباس أو كلام ابن مسعود - رضي الله عنهم - أي ذكر للغرانيق

---

١. المرجع السابق، ص٣٧.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة النجم (٤٥٨٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب سجود التلاوة (١٣٢٥).

وثناء رسول الله عليها[1] ®.

ثانيًا. الرسول بشر لكنه معصوم من كيد الشيطان:

الرسول محمد ﷺ كبشر يُمَنِّيه الشيطان كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الحج)، ولقد احتج بعض مثيري هذا الزعم بهذه الآية الكريمة، وهو احتجاج باطلٌ وتأويلٌ خاطئ لمعنى لطيف؛ لأن معنى الآية الكريمة بعيد كل البعد عن هذا الأمر.

فهي ـ أولًا ـ تتحدث عن الرسل والأنبياء الذين كانوا قد بعثوا قبل محمد ﷺ في قوله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الحج: ٥٢)، وهي ـ ثانيًا ـ لا تخبر عن قول كان يلقيه الشيطان على ألسنة الرسل والأنبياء، أو على ألسنة بعضهم في بعض الحالات، وإنما تخبر عن تمنيات ربما جالت في خواطرهم، والتمني هو حديث النفس، أي خواطر الشخص مع نفسه، ومعنى الآية: ما كان شأن الرسل والأنبياء من قبلك إذا حدث أحدهم نفسه أن لو جارى قومه وجاملهم في بعض ما يحبون أملًا في استجلابهم عن الباطل الذي يتقلبون فيه إلى الحق الذي يدعوهم إليه، ولكن الله ﷻ يقطع وسواس الشيطان إلى نفوسهم، ويلغي الأمنية التي جالت في خواطرهم، ويحميهم من عواقب الخواطر التائهة ودسيسة الشياطين.

فالرسل بوصفهم بشرًا يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من أحكام البشرية، حاشا الوقوع في مُحَرَّم، ولما كانت خواطر النفس خارجة عن نطاق التكليف لا توصف بحرمة ولا بحل، فقد كانت جائزة عليهم، وكانوا كغيرهم من البشر معرضين لها، وربما جعلها الشيطان في نفوسهم لينقلوها من حديث الخاطر إلى صعيد التنفيذ، ولكن العناية الإلهية لا بد أن تدركهم هنا فتحميهم من عواقب تلك الخواطر، وتنسخها من أذهانهم

فما علاقة المعنى الذي تتضمنه هذه الآية التي تتحدث عن الرسل والأنبياء الذين خلوا قبل رسول الله، بأكذوبة مفادها أن الشيطان ألقى على لسان محمد ﷺ ـ وليس في خاطره ـ ثناءً على أصنام المشركين وإقرارًا لما يعتقدونه من أنها ستكون شفيعًا عند الله؟! وبأي وجه من وجوه العربية، حقيقتها أو مجازها، تكون هذه الآية دليلًا على ذلك[2] ®؟!

ثالثًا. رسالة النبي ﷺ ـ التي بلغها بإخلاص وإيمان ـ هي الدعوة إلى توحيد الله وترك عبادة غيره:

أتى النبي ﷺ برسالة التوحيد الخاتمة، ودعا الناس إلى نَبْذ عبادة الأصنام، وقد صوَّر القرآن الكريم اعتراض المشركين على هذه الدعوة من بدايتها في قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ

---

١. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص١٤٢: ١٤٤.

® في "**عصمة النبي وبطلان قصة الغرانيق**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

٢. لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص١٤٦،١٤٥.

® في "**عصمة النبي في تبليغ الوحي**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين). والوجه الثاني، من الشبهة السادسة والثمانين، من الجزء العاشر (الأنبياء والرسل٢). وفي "**عصمة النبي وبطلان قصة الغرانيق**" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

ﭐلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ (ص).

ثم إن القرآن يؤكد أن المشركين حاولوا جاهدين أن يجذبوا رسول الله ﷺ إليهم بأية وسيلة، وأن يحملوه على مجاملتهم والركون إليهم ولو شيئًا قليلًا، ولكنهم لم يجدوا سبيلًا إلى ذلك، ولم يجدوا من رسول الله ﷺ أي التفات إليهم أو مجاملة لهم. قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ (الإسراء).

إذن فالرسول ﷺ أدى أمانته في إبلاغ رسالته على أكمل وجه، وذلك بشهادة القرآن له بأنه لم يلتفت إلى المشركين بأية مجاملة أو ثناء على آلهتهم، فلو حصل شيء مما نفى القرآن حصوله لضجَّ بذلك المشركون، من أجل ذلك قرر جميع علماء التفسير والحديث أنه لم يصح أي دليل على أن رسول الله ﷺ نطق بهذه الكلمات المدسوسة أثناء تلاوته لسورة النجم، وكل ماورد مما يدل على ذلك أخبار مرسلة ومقطوعة، ومنكرة من وضع الزنادقة وتلفيقهم.

كما أن العرب لم يعرفوا الغرانيق إلا على أنها طيور مائية بيضاء أو سوداء، ولم ترد على أنها ضمن آلهتهم لا في شعر ولا في نثر، فكيف يلقيها الشيطان على لسان النبي ﷺ على أنها هي اللات والعزى ومناة ويجعل لها شفاعة عند الله.

إن محمدًا ﷺ قد ناضل وجاهد من أجل التوحيد وتبليغ هذه الرسالة إلى الناس أجمعين، وأخلص لها إخلاصًا لم يُعرف له مثيل من قبل، اتهمه بعد ذلك أنه تخلَّى عن رسالته هذه وخالفها، ومدح ما كان ينقضه من عبادة الأصنام والأوثان، كل هذا لمجرد روايات غير ثابتة أصلًا، وغير صحيحة سندًا، أهذه طريقة حضارية، أم منهج علمي سليم؟ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾﴾ (الكهف).

الخلاصة:

- إن سورة "النجم" في مجملها ذمٌّ للمشركين في أقوالهم واعتقادهم، وتسفيةٌ لأفعالهم وعبادتهم للأصنام، وختمت بأن الإنسان مسئول عن عمله، فغير معقول أن تمدح آلهة المشركين في معرض هذه الآيات.
- إن الرسل والأنبياء ليسوا إلا بشرًا من الناس، يجوز عليهم مايجوز على غيرهم من أحكام البشرية، حاشا الوقوع في محرم، ولما كانت خواطر النفس خارجة عن نطاق التكليف، لا توصف بحرمة ولا بحل، فقد كانت جائزة عليهم، ولكن العناية الإلهية لا بد أن تدركهم هنا فتحميهم من عواقب تلك الخواطر، وتنسخها من أذهانهم.
- إن رسالة النبي ﷺ هي التوحيد ونبذ عبادة الأصنام، وقد شهد القرآن له بأداء رسالته بأمانة، ولو حصل شيء يخالف ذلك منه لضج بذلك المشركون وقتها، ولهذا قرر جميع العلماء والمفسرين أنه لم يصح أي دليل على أن الرسول ﷺ نطق بهذه الكلمات المدسوسة التي وضعها ولفقها الزنادقة.
- إن العرب لم يعرفوا الغرانيق إلا على أنها طيور مائية بيضاء أو سوداء، فكيف يلقيها الشيطان على لسان النبي ﷺ على أنها اللات والعزى ومناة؟ ولو افترضنا وجود ما ادعوه من مدح الأصنام، فالعقل حاكم بأن

ثمة تعليقًا من الصحابة على هذا المدح، بالتفسير والاستيضاح أو بالتساؤل والاستفهام والتعجب، فأين ذلك؟ كما أنه سيقابل بحملة على رسول الله ﷺ لتقلُّبه ومراوغته، فأين هذه النتيجة من المشركين؟

المحور الرابع

شبهات حول القرآن المكي والمدني

الشبهة الثالثة والثلاثون

استنكار وجود بعض الآيات المكية في السور المدنية والعكس(*)

مضمون الشبهة:

يستنكر بعض المشككين وجود سور مكية تحوي عددًا من الآيات المدنية، وأخرى مدنية تشتمل على آيات مكية، زاعمين أن هذا دليل على تحريف القرآن وعدم وحدته. وذلك بقصد وصمه بالتداخل والاضطراب غير المنطقي، منطلقين من هذا إلى القول بتأليفه.

وجوه إبطال الشبهة:

١) وجود بعض الآيات المدنية في السور المكية، والعكس، لا ينال من وحدة القرآن؛ إذ إنه متسقةٌ أجزاؤه، متناسبٌ ترتيبه.

٢) ترتيب الآيات والسور على هذا النحو أمر "توقيفي" إلهي، فعله المسلمون كما أمرهم الرسول ﷺ.

٣) تصنيف الآيات إلى مكية ومدنية تصنيف تاريخي، اهتم به العلماء من أجل خدمة القرآن وعلومه.

التفصيل:

أولا. القرآن مرتب متناسق، ولا يوجد ما ينافي وحدته:

لقد أقر بإعجاز القرآن وبلاغته العَجَم قبل العرب، فلا يملك المنصفون العقلاء وأصحاب الذوق الرفيع إلا أن يقرُّوا بدقة القرآن واتساقه وإعجازه؛ لأن الناظر في القرآن إذا قرأه وهو لا يعلم أنه قد نزل منجمًا، ولا يعلم أن بعض سوره المكية تحوي آيات مدنية والعكس، لا يمكن أن يتوصل إلى أن القرآن نزل مفرقًا منجمًا؛ لدقته وإحكامه فلا يجد فرقًا بين السور التي نزلت جملة، والسور التي نزلت منجمة، من حيث إحكام الربط في كل منهما، ومن حيث نظام المبنى ودقة المعنى، وتمام الوحدة، وكذلك الأمر بالنسبة للآيات، بل إن من العلوم القرآنية الجليلة علمًا يُسَمَّى علم المناسبة، يوضح أن السور والآيات في القرآن بديعة في نظامها، متناسبة في ترتيبها، يأخذ بعضها برقاب بعض، مما لا يصح معه التقديم أو التأخير أو الإبدال.

القرآن الكريم كلام الله ﷻ نزل خطابًا للناس كلهم في سائر العصور والقرون، لذا فإن الحكمة الإلهية تقتضي أن يكون متعاليًا في نظامه ومنهجه وأسلوبه عن التقليد والاتباع، وأن لا يأتي مصبوغًا في ذلك بصبغة عصر دون غيره، إذ هو خطاب لهم جميعًا، جيلًا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وبناءً على ما سبق كانت الطريقة المثلى التي تقود الناس إلى أن يكونوا عبيدًا لله بسلوكهم الاختياري، كما قد خُلقوا عبيدًا له بواقعهم الاضطراري - هي التي سلكها القرآن إلى عقول الناس ونفوسهم، وهي جذبهم إلى هذا المحور الكلي الذي تنزَّل القرآن من أجله، من خلال جميع ما يعرضه من البحوث والموضوعات المختلفة من تشريع وقصة وأمثلة ووعد ووعيد وغيرها، بحيث تكون هذه الموضوعات مذكِّرة للقارئ بالمحور الكلي جاذبة إليه، لا حاجزًا يشغل عنه، وملهاة

(*) موقع إذاعة صوت الغفران.
www.arabic.radio.org

تصرف فكره عنه.

إن هذا الكتاب الرباني ليس كتابًا في علم التشريع والقانون، ولا كتابًا في علم التاريخ والقصص، ولا كتاب يعرِّف السماوات والأرض والأفلاك، وإنما هو تعريف للإنسان بهويته وذاته، وسموّ به إلى النهوض بالوظيفة التي خُلِق من أجلها.

إن كل ما فيه من مسائل وموضوعات، إنما يدور على هذا المحور الكلي، لذا فهو عندما يذكر قصة لا يدعك تنسى، بل يمزجها بما ليس منها من نصح ووعظ، ووعد أو وعيد وتهديد، تحقيقًا للغرض الذي من أجله تساق القصة. وهو عندما يبيِّن لك أحكامًا في العبادات والمعاملات ونحوها يسلك المنهج نفسه، فهو يمزج البيان الإلهي الخاص بالأحكام الشرعية بآيات أخرى تتضمن حديثًا عن الآخرة أو دليلًا عن قيومية الله ورقابته وما يتبع ذلك من وعد ووعيد؛ لينتبه الفكر إلى المحور الكلي الجامع، وليظل مستيقظًا للحقيقة الكبرى التي تدور عليها سائر المعاني والموضوعات.

ولو أن القرآن اتَّبع في عَرْض موضوعاته هذا الذي يسلكه الناس اليوم في تأليفهم، فأفرد فصولًا خاصة لعرض أحكام التشريع من عبادات ومعاملات، ثم أفرد فصولًا خاصة للقصص، وأخرى للمُغَيَّبات وأحداث يوم القيامة، وهكذا... إذن لَفَاتَ السبيل إلى تحقيق هذا الذي نزل القرآن من أجله، ولما أمكن أن تكون هذه الفصول المتناثرة جامعًا مشتركًا للمحور الكلي الذي شاء الله أن تكون سائر موضوعات القرآن خادمة له، دائرة على تحقيقه[1].

1. لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٢٧: ٢٩ بتصرف.

وإذا كان الأمر كذلك فإن الآيات وضعت جنبًا إلى جنب لخدمة الهدف الذي أراده الله، وجاءت الآيات في إحكام بديع وتناسق بليغ دون اضطراب أو اختلال، ولذا جاءت بعض الآيات المكية بجوار المدنية والعكس، كلٌّ لخدمة الهدف مع تحقق الدقة والنظم والتناسق®.

ثانيًا. ترتيب الآيات والسور توقيفي:

لقد رُتِّبَتْ آيات القرآن وسوره ترتيبًا توقيفيًّا بأمر إلهي، قام المسلمون بعد موت الرسول ﷺ بهذا العمل كما وجههم إليه، فقد اتفق العلماء على أن ترتيب آيات القرآن كان بتوقيف من النبي ﷺ تلقاه من ربه ﷻ عن طريق الوحي، وقد حكى الإجماع في ذلك غير واحد من المحققين، كما ذكره الزركشي في "البرهان"، والسيوطي في "الإتقان" وغيرهما، ومن النصوص الدالة على ذلك:

- ما جاء عن ابن الزبير أنه قال: "قلت لعثمان ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ ﴾ (البقرة) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يا ابن أخي، لا أغيِّر شيئًا منه من مكانه"[2].
- ومن النصوص الدالة على ذلك إجمالًا ما ثبت

® في "نفي القرآن للتناقض بين أحكامه ومعانيه" طالع: الشبهة التاسعة عشرة، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها). وفي "حفظ الله لوحيه الأخير" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

2. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة البقرة (٤٢٥٦).

من قراءته ﷺ لسور عديدة، كسورة البقرة وآل عمران في الصلاة وغيرها بمسمع من الصحابة، وما كانوا ليرتبوا ترتيبًا سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فتواتر هذا الترتيب، وهذا هو الصحيح، فالله تعالى حافظ لكتابه كما وعد، وهو القادر على معاقبة العابثين®.

ثالثًا. فائدة هذا التصنيف والعلم به:

أما فيما يخص الآيات المكية والمدنية، فقد قام علماء المسلمين بتصنيف الآيات القرآنية تصنيفًا علميًّا إلى آيات مكية ومدنية، حتى يتمكنوا من فهم القرآن وتفسيره على الوجه الصحيح؛ لأن معرفة مواضع النزول وأسبابه توضح المراد من الآيات بصورة جلية، ولكي يعرفوا الطرق التي سلكها القرآن في تنشئة الأمة، والخطوات التي خطاها في إقامة دولة الإسلام، ليكون في ذلك عبرة للقادة والدعاة، ومرجعًا يرجعون إليه، ومنهاجًا يسلكونه، ويسيرون على هديه، فهذا التصنيف إذن عمل بشري لا إلهي.

ومن هنا اختلف العلماء في المقياس المناسب لتصنيف الآيات، هل يكون مقياسًا مكانيًّا بمعنى أن ما نزل في مكة فهو مكي، وما نزل بالمدينة فهو مدني؟ أم يكون مقياسًا خطابيًّا، فما خاطب الناس يكون مكيًّا، وما خاطب المؤمنين يكون مدنيًّا؟ أم يكون مقياسًا زمانيًّا، فما نزل قبل الهجرة مكي وإن نزل بالمدينة، وما نزل بعد الهجرة مدني وإن نزل بمكة، والمقياس الأخير هو الراجح لأسباب عديدة[1]، منها أنه طردي حاصر، لا يقع فيه الاستثناء كالمقاييس الأخرى، فهذا التقسيم يعود على الباحثين بالعديد من الفوائد مثل:

- تمييز الناسخ من المنسوخ، فيما لو وردت آيتان أو أكثر مختلفتان في الحكم، وعلمنا أن إحداهما مكية والأخرى مدنية، فإننا نحكم حينئذ بأن المدنية ناسخة للمكية لتأخرها عنها.
- معرفة تاريخ التشريع، والوقوف على سنة الله في التدرج بالأمة من الأصول إلى الفروع، ومن الأخف إلى الأثقل، وهذا يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الفرد والجماعة.

تفيد هذه الدراسة في الوقوف على الخصائص البلاغية لكل من المكي والمدني، والكشف عن ظواهرها المختلفة، ومقارنة بعض هذه الظواهر ببعض، والبحث عن مواضع الجمال في كل منهما من غير تفضيل ولا موازنة؛ لأن القرآن كله متساوٍ في الفصاحة والبلاغة.

لهذا عني المسلمون عناية فائقة بتتبع ما نزل بمكة، وما نزل بالمدينة، بل عني بعضهم بتتبع جهات النزول في أماكنها وأوقاتها المختلفة، وبذلوا في ذلك جهودًا مضنية، وفي ذلك دليل على سلامة القرآن الكريم من أي تحريف؛ فقد تلقاه الجمع الغفير من التابعين من الجمع الغفير من الصحابة ﷺ عن طريق المشافهة والتلقين، وقد قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر).

الخلاصة:

- إن وجود بعض الآيات المدنية في السور المكية ـ والعكس ـ لا ينال من وحدة القرآن؛ إذ إنه متسقة أجزاؤه، متناسب ترتيبه، محكمة صياغته، فالسور

® في "ترتيب آيات القرآن الكريم" طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من هذا الجزء.

١. انظر: دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص٤٨: ٥٧.

والآيات في القرآن بديعة في نظامها، يأخذ بعضها برقاب بعض مما لا يصح معه التقديم أو التأخير أو الإبدال.

- انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم في المصاحف، كان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله تعالى، وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه، بل كان جبريل ينزل بالآيات على الرسول ﷺ ويرشده إلى موضع كل آية من سورتها، ثم يقرؤها النبي ﷺ على أصحابه، ويأمر كتاب الوحي بكتابتها، معينًا لهم السورة التي تكون فيها الآية، وموضع الآية من هذه السورة.
- تقسيم القرآن إلى مكي ومدني تصنيف تاريخي قام به علماء المسلمين؛ وذلك للاستعانة به في تفسير القرآن، وتذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله، والوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية.

الشبهة الرابعة والثلاثون

دعوى اختلاف القرآن المكي عن المدني(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن القَسَم بالأشياء الحِسيَّة في القرآن يدل على تأثره بالبيئة في مكة؛ إذ إن القوم فيها كانوا أميين لا تعدو مداركهم حدود الحِسيَّات، أما بعد الهجرة واتصال محمد ﷺ بأهل المدينة، وتأثره بهذا الوسط الراقي، فقد اختلف أسلوب القرآن واتسم بطابع الرقة في القسم المدني. كما يزعمون أن القرآن المكي مخالف للقرآن المدني في الأسلوب، حيث يتسم أسلوب القرآن المكي بالوعيد والتهديد والقسوة والسباب؛ لمناسبة الأوساط البدائية المنحطة هناك، في حين تجد القرآن المدني يتسم أسلوبه باللين، والموعظة الهادئة؛ بما يناسب الأوساط المتحضرة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) دعوى أن البيئة المكية ساذجة جاهلة لا ترقى إلى ما وراء الحس، دعوى لا يقوم عليها دليل؛ حيث يكذبها الواقع، والتاريخ الصحيح، فقد كان أهل مكة أذكى عقولًا من غيرهم، وفيما قصَّه القرآن عنهم من مجادلات وخصومات، وما اشتمل عليه القسم المكي خصوصًا من إيجاز وبراهين ما ينقض هذا الاتهام.

٢) ليس المراد من ضرب هذه الأمثلة الحسية ذكر النعم فقط، وإنما غايات أخرى بعيدة.

٣) إن ما ادعوه من لين الأسلوب المدني وقسوة المكي في القرآن لا يستند إلى دليل، فمعلوم أن الشدة واللين موجودان في مكي القرآن ومَدَنِيِّه على حد سواء؛ بل إن وجود تشريع القتال في القسم المدني فقط ينفي هذا الادعاء.

التفصيل:

أولا. مخاطبة أهل مكة بالحسيات تُثْبت لهم التفوق والذكاء:

هناك خصائص تميز بها القِسْم المكي نود أن نعرضها - قبلُ - على أعداء الإسلام، حتى يكون الرد وافيًا

(*) المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق.

شافيًا؛ فالبلاغة مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وهذا ما نزل به القرآن الكريم، فقد راعى أحوال المخاطبين، ومن الأمثلة على ذلك ما يأتي:

- أنه حَمَل حملة شعواء على الشرك والوثنية، وعلى الشبهات التي تذرَّع بها أهل مكة، ودخل عليهم من كل باب، وآتاهم كل دليل وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال، لبيان أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تخلق ـ مجتمعة ـ أقل نوع من الذباب قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ (الحج:٧٣).

ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم، نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان أمام هذه الحجارة الصماء، وسفَّه عقولهم، وعقول آبائهم، وذم جمودهم وتقليدهم الأعمى للآباء والأجداد: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ (البقرة).

- أنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الحق، وعلى ما في الكون من أعلام الرشد، ونوَّع لهم الأدلة وتفنن في الأساليب، وقادهم إلى الأوليات والمشاهدات، بحيث يقودهم من وراء ذلك إلى الاعتراف بتوحيد الله في ألوهيته وربوبيته، والإيمان بالبعث والجزاء والوحي والنبوة.

- أنه تحدث عن عاداتهم القبيحة: كالقتل، وسفك الدماء، ووأْد البنات واستباحة الأعراض، وأكل مال اليتيم، فلفت أنظارهم إلى ما في ذلك من أخطار، وما زال بهم حتى طهَّرهم منها.

- أنه شرح لهم أصول الأخلاق، وحقوق الاجتماع، بحيث كرَّه إليهم الكفر، والفسوق، والعصيان، وفوضى الجهل، وجفاء الطبع، وأحقاد القلب، وحبب إليهم الإيمان والطاعة، والنظام، والعلم، والمحبة، والرحمة، والإخلاص، واحترام الغير، وبر الوالدين، وإكرام الجار، وطهارة القلوب، وحفظ الألسنة... وما إلى ذلك.

- أنه قصَّ عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة ما فيه أبلغ المواعظ، وعرَّفهم أن انتصار الإيمان على الكفر سنة الله في خلقه مهما طالت الأيام وامتد الزمان.

- أنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه، حتى جاءت السور المكية قصيرة الآيات، قليلًا عدد الآيات فيها؛ لأنهم كانوا أهل الفصاحة وصناعتهم الكلام، فيناسبهم الإيجاز دون الإسهاب[1].

إن دعوى أن البيئة المكية ساذجة جاهلة لا ترقى إلى ما وراء الحس، دعوى لا يقوم عليها دليل؛ حيث يكذبها الواقع، والتاريخ الصحيح؛ فقد كان أهل مكة أوفى ذوقًا، وأرهف شعورًا، وأذكى عقولًا، وفيما قصه القرآن عنهم من مجادلات وخصومات، وما اشتمل عليه القسم المكي بخاصة من إيجاز وبراهين ما ينقض هذا الاتهام، وكيف يفهم هذه البراهين من لا يسمو نظره عن المحسوسات، والتاريخ الصحيح أعدل حاكم وخير شاهد على امتياز قريش عن سائر القبائل في عهد نزول القرآن.

ولكي تكونَ على بيِّنة من ذلك ـ أيها القارئ ـ نذكر لك قصة؛ ذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء: ٩٨)[2].

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص١٧١، ١٧٢ بتصرف.
٢. الحَصَب: كل ما ألقيته في النار من حَطَب وغيره.

قال ابن الزبعري: والله لو وجدت محمدًا لخصمته، قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء في النار مع آلهتنا؟ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال له: إنهم إنما يعبدون الشيطان، ومن أمرهم بعبادته، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (الأنبياء).

وتأمل كلمة "خَصِمُون" في قوله ﷻ: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الزخرف). وهل يجيد الجدل الجاهل الساذج؟! فهل يعقل أن من يلقي هذه التهم ولو كانت باطلة لا يسمو تفكيره إلى المعقولات؟!

فقد أقسم الله ﷻ في القرآن المكي بالمعقولات أيضًا، إلى جانب المحسوسات، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ (يس)، وأقسم بالملائكة في قوله تبارك وتعالى أيضًا: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ ﴾ (النازعات)، وأقسم بالنفس الناطقة في قوله: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (الشمس)، وأقسم بحياة الرسول ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الحجر)، وقال أيضًا: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الحجر)، وقال أيضًا: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (المعارج)، وأقسم بما لا يقع تحت الحس والمشاهدة، فقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (الحاقة)، وأقسم تعالى بالزمن: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ ﴾ (العصر)[1].

وبذلك يتبين لنا أن مخاطبة القرآن الكريم أهل مكة ما كانت في الأشياء المحسوسة فقط، بل أثار عقولهم بالأشياء المعنوية التي تعتمد على العقل، وسوف نوضح أن القَسَم بالحسيات أيضًا كان لأغراض بلاغية، ومعان بعيدة غاية في الكمال والإحكام، وليس مجرد الذكر فحسب، فكل موضع في القرآن، بل كل حرف في مكانه، وإذا ما نقل فهو الخلل بعينه فسبحان من أبدع.

فقد قضى قانون الحكمة الإلهي بأن يسلك معهم سبيل التدرج في التربية، فقدم العقائد والأخلاق والعادات على ضروب العبادات والمعاملات الدقيقة، ولا شك أنه قدم الأهم ثم تلاها بالمهم®. أبعد هذا يزال هناك شك أو ريبة في نضج العقلية العربية في مكة آنذاك؟

ثانيًا. الغاية من ذكر الأمثلة الحسية:

إن القَسَم بالأمور الحسية في القرآن كالضحى والليل، ليس منشؤه انحطاط القوم كما يزعمون، إنما منشؤه رعاية مقتضى الحال فيما سيق القسم لأجله، وذلك أن القرآن كان بصدد علاج أفحش العقائد فيهم، وهي عقيدة الشرك، ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة، وإقامة صرح التوحيد على أنقاضها إلا بلفت عقولهم إلى ما في الكون من شئون الله وخلق الله، وبلفْت أنظارهم إلى طائفة كبيرة من نعم الخلق المحيطة بهم، ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يؤمنوا بالله وحده، ما دام هو الخالق وحده؛ لأنه لا يستحق العبادة فعلًا إلا من كان له أثر الخلق في العالم فعلًا ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا

---

1. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ٢٤٤، ٢٤٥ بتصرف.

® في "**خصائص القرآن المكي**" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة عشرة، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

﴿يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النحل).

إن في مضامين تلك الأقسام بالحسيات أسرارًا تَنْأَى بها عن السذاجة، وتشهد ببراعة المُخاطَبين بها وتفوقهم في الفهم والذكاء والفصاحة والبيان؛ ذلك أن القسم بها إشارة إلى الأسرار العظيمة التي وضعها الله في تلك الأمور التي أقسم بها، حتى صحَّ أن تكون مُقْسَمًا بها، وتلك الأسرار لا يدركها إلا اللبيب؛ لأنها غير مشروحة، ولا مفسرة في القرآن الكريم، فلا يفهمها إلا من كمل عقله وسلم ذوقه، ولنشرح لك بعض الأسرار، ومنها.

- أقسم الله ﷻ بالضحى والليل في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ (الضحى)، وسبب نزول هذه الآيات أن النبي ﷺ انقطع عنه الوحي مرة لا ينزل بقرآن، فرماه أعداؤه بأن ربه قد قلاه، أي تركه وأبغضه، فنزلت هذه الآيات موضحة أن سطوع الوحي على قلب النبي ﷺ بمنزلة الضحى تقوى به الحياة، والفترة التي لم ينزل بها الوحي إنما هي كمثل الليل إذا سجى، لتستريح فيه القوى، وتستعد فيه النفوس لما يستقبلها من العمل، فالمعروف أن الرسول ﷺ ارتجف بادئ الأمر؛ إذ كان الوحي أمرًا لم يعهده، فكانت هذه الفترة تثبيتًا له، فالقسم هنا بالليل والضحى ليس من قبيل ذكر المحسوسات للتذكير بالنعم فقط، وإنما لحكمة ضرب الأمثال لعلهم يتذكرون، فإذا كانوا يتقبلون الضحى والليل بالرضا والتسليم، لما فيهما من نفع الإنسان بالسعي والحركة والحياة بالنهار، والنوم والاستجمام بالليل، يجب أن يتقبلوا أيضًا ما يجري على محمد ﷺ من هدأة الوحي للمعنى السالف الذكر.

- كما أقسم الله ﷻ بالتين والزيتون: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾﴾ (التين)، ونقل صاحب "مناهل العرفان" عن الشيخ محمد عبده في تفسيره لهذه السورة ما نصه: "وقد يرجح أنهما ـ أي التين والزيتون ـ النوعان من الشجر، ولكن لا لفوائدهما كما ذكروا، بل لما يذكران به من الحوادث العظيمة التي لها الآثار الباقية في أحوال البشر، فالله تعالى يذكرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل، فإنه كان يستظل في تلك الجنة التي كان فيها بورق التين، وعندما بدت له ولزوجته سوأتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين، أما الزيتون فإشارة إلى عهد نوح عليه السلام في سفينته عندما أراد سيدنا نوح استطلاع الأمر، هل سكنت المياه أم لا، فأرسل أحد الطيور فرجع بورقة من شجر الزيتون، فاستبشر وسر، وعرف أنه قد أذن بتعمير الأرض ثانية، وهذه من الحوادث الكبرى التي وجب الإشارة إليها.

وطور سينين: إشارة إلى عهد الشريعة الموسوية، وظهور نور التوحيد في العالم بعدما تدنست جوانب الأرض بالوثنية، وقد استمر الأنبياء بعد موسى عليه السلام يدعون أقوامهم للتمسك بتلك الشريعة، وكان آخرهم عيسى عليه السلام، ثم أصاب القوم من بعده مثل ما أصابهم قبل نزولها ـ عليهما السلام ـ فكان نور الهداية المحمدية، فكان ذكر البلد الأمين، وبذلك ناسب القسم المقسم عليه"[1].

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص١٨٥ : ١٨٨ بتصرف.

ثالثًا. اشتمال القرآن المكي والمدني كليهما على الشدة واللين، لا السب والشتم:

إن مما رُوِّج له أن القرآن المكي تفرَّد بالعنف، والثابت أن القرآن بقِسْمَيْه ـ المكي والمدني ـ اشتمل على ذلك أحيانًا لضرورة رشيدة هي: تربية الأفراد والشعوب وإصلاحهم، والسياسة تقتضي الوعد والوعيد، والشدة واللين، والترغيب والترهيب.

ففي القسم المدني من القرآن مثلًا سورة البقرة وهي مدنية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ (البقرة)، وقوله أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة).

وقال الله ﷻ في سورة آل عمران وهي مدنية أيضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)﴾ (آل عمران). وفي القرآن المكي ما نفهم منه معنى اللين والصفح، ففي سورة فصلت وهي مكية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ (فصلت).

وقال ﷻ في سورة الشورى المكية: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾ (الشورى).

ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجر المكية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾ (الحجر)، ومثله في سورة الزمر المكية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ (الزمر).

كما أننا نلاحظ في السور المكية ظاهرة باهرة تُسْكِت كل معاند، وهي أن القسم المكي خلا من تشريع القتال والجهاد والمخاشنة، كما خلت أيامه في مكة المكرمة من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل، فقد أُمروا بالصبر والعفو والمجاملة برغم ذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة.

خلو القرآن الكريم من السب والشتم:

وأما زعمهم اشتمال القرآن الكريم على السباب، فإن قصدوا به البذاءة والفحش، فهم متخرصون مبطلون، فما يليق هذا بكلام أديب محتشم، فضلًا عن أن يليق بكلام المولى ﷻ يقول الشيخ الزرقاني في الرد على هذه الفرية: "وأما زعمهم أن في القسم المكي سبابًا، ويريدون من السباب معناه المعروف عندهم من القبح والبذاءة والخروج عن حدود الأدب واللياقة، فقال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾ (الكهف).

ونحن بدورنا نتحداهم أن يأتوا بمثال واحد في القرآن كله (المكي والمدني) يكون من هذا اللون القذر الرخيص، وهل يُعقل أن القرآن الذي جاء ليعلِّم الناس

أصول الآداب، يخرج هو عن أصول الآداب إلى السِّباب؟ كيف وقد حرَّم على أتباعه المسلمين أن يسبوا أعداءه المشركين؟ فقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنعام).

نعم، إن في القرآن كله - لا في القسم المكي وحده - تسفيهًا لأحلام الذين يصمون آذانهم، ويغمضون أعينهم عن الحق، ويهملون الحجج والبراهين، وهو في ذلك شديد عنيف، بيد أنه في شدته وعنفه لم يخرج عن جادة الأدب، ولم يعدل عن سنن الحق، ولم يصدف عن سبيل الحكمة، بل الحكمة تتقاضاه أن يشتد مع هؤلاء، لأنهم يستحقون الشدة، ومن مصلحتهم - هم - ومن الرحمة بهم والخير لهم أن يشتد عليهم ليرجعوا عن باطلهم، وينصتوا إلى صوت الحق والرشد، ويسيروا على هدي الدليل والحجة على حد قول القائل:

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حازِمًا

فَلْيَقْسُ أَحْيانًا على مَنْ يَرْحَمُ

أضف إلى ذلك أن هذا التقريع الحكيم تجده في السور المدنية، كما تجده في السور المكية، وإن كان في المكي أكثر من المدني؛ لأن أهل مكة كانوا أشداء العارضة، صعاب المراس، مسرفين في العناد والإباء، لم يتركوا بابًا من الشر إلا دخلوه على الرسول ﷺ وأصحابه، ولم يَكْفِهم أن يُخْرَج من بلده وأهله بليل، بل وجهوا إليه الأذى مجاهرة.

والشاهد على أن في السور المدنية تنويعًا عنيفًا أيضًا عند المناسبات، قوله ﷻ في سورة البقرة المدنية في شأن المشركين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ (البقرة)، وقوله تبارك وتعالى في سورة البقرة - أيضًا - في شأن المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ (البقرة)، إلى تمام ثلاث عشرة آية مليئة بالتوبيخ والتعنيف لهؤلاء الموسوسين الذين ينفثون سمومهم، ويفسدون المجتمع بسلاح خطير ذي حدين، هو سلاح النفاق والذبذبة.

وكذلك تقرأ في هذه السورة المدنية الكريمة نفسها في شأن اليهود آيات كثيرة من هذا الطراز، تنقدهم وتنعي جرائمهم وتحمل عليهم حملة شعواء، تقبيحًا لجناياتهم وجنايات آبائهم من قبلهم، مثل قوله وتعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (آل عمران)، ومثل قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ (البقرة).

ومثل قوله تبارك وتعالى في شأن النصارى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (آل عمران)،

وقوله فيهم أيضًا في هذه السورة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (آل عمران).

أما السور والآيات التي اعتمدت عليها الشبهة، فلا تدل على ذلك السباب الذي زعموه ووصموا به القرآن الكريم؛ لأن سورة: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾ (المسد) غاية ما اشتملت عليه أنها إنذار ووعيد لأبي لهب وامرأته جزاء ما أساءَا إلى الرسول ﷺ وصحبه، كما يدل على ذلك سبب نزولها.

فعن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء)، صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: "يا بني فِهْر، يا بني عَدِي...". لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا، لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ: "أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغِيْرَ عليكم، أكنتم مُصَدِّقِي"؟ قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك إلا صدقًا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد"، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴾[1].

وقد أخبرنا ابن عباس - رضي الله عنهما - أن امرأة أبي لهب كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق الرسول ﷺ[2]، وجاء عن مجاهد أنها كانت تمشي بالنميمة، فهذه الأسباب مجتمعة تفيد أن السورة نزلت لمقابلة أبي لهب بما يستحق من إنذاره بالهلاك والقطيعة، وأن حاله لا ينفعه ولا كسبه، وأنه خاسر هو وامرأته، وأن مصيرهما إلى النار وبئس القرار، ولا ريب أن في هذا الوعيد العنيف ردعًا له ولأمثاله، وتسلية لمن أصيب بأذاهم من الرسول ﷺ وأصحابه، وذلك هو اللائق بالعدالة الإلهية والتربية الحكيمة الربانية:

ووضع النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيفِ بِالعُلَا
مُضِرٌّ كوضع السَّيفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

وأما سورة العصر الكريمة فكل ما عرضت له أنها جعلت الناس قسمين: قسمًا غريقًا في الخسران، وقسمًا نجا من هذا الخسران، وهم الذين جمعوا عناصر السعادة الأربعة، اقرأ قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ (العصر). فهل ترى فيها ظلًّا للسباب والإقذاع؟ ولكن القوم لا يستحيون.

وأما سورة ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ (التكاثر)، فظاهر ما تشير إليه أن المخاطبين شغلتهم الدنيا عن الدين، وألهتهم الأموال عن رب الأموال حتى انتهت أعمارهم، وهم على هذه الحال، وغدًا يسألون عن هذا النعيم، ويعاقبون على إهمال شكره بعذاب الجحيم.

وأما قوله ﷻ: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (الفجر)، فهو حكاية لما حلَّ بالأمم السابقة كثمود وعاد

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الشعراء (٤٤٩٢)، وفي موضع آخر، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (٥٢٩) بلفظ: خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: "يا صباحاه".

٢. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب ما رد أبو لهب على النبي ﷺ وامرأته حمالة الحطب، قال: كانت تحمل الشوك فتطرحه (٤٨٨).

حين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد؛ ليكون من هذا القصص والخبر عبرة لأولئك الكفار، فلا يقعوا فيما وقع فيه أسلافهم؛ لأن سنة الله واحدة في الأمم، وميزان الله عدل قائم في كل جيل: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (القمر)[1].

الخلاصة:

- أهل مكة مشهود لهم ـ على مر التاريخ ـ بالتفوق والذكاء والفصاحة والبيان، فكان تحدِّي ربهم ﷻ لهم في غاية الإحكام؛ من أجل إعمال العقول والوصول إلى نتيجة مؤداها أنه لا خالق غير الله ﷻ.
- إن الأمثلة الحسية التي ذكرها القرآن ـ خاصة المكي منه ـ تحمل العديد من المعاني والغايات البعيدة، بهدف العبرة والعظة وليس المراد منها ذكر هذه النعم وفوائدها فقط.
- إن القرآن كله قام على رعاية حال المخاطبين، فتارة يشتد وتارة يلين، تبعًا لما يقتضيه حالهم ـ في مكة أو المدينة ـ بدليل أننا نجد بين آيات السور المكية والمدنية ما هو وعد ووعيد، وتسامح وتشديد، وجذب وشد، وإذا لوحظ أن أهل مكة كثر خطابهم بالشدة والعنف، فذلك لما مردوا عليه من أذى الرسول ﷺ وأصحابه، والكيد لهم، حتى أخرجوهم من أوطانهم، بل أرسلوا إليهم الأذى في مهاجرهم.
- كان القرآن في حملته عليهم وعلى أمثالهم بالقول، بعيدًا عن كل معاني السباب والإقذاع، متذرِّعًا بالحكمة والأدب الكامل في الإرشاد والإقناع، حاثًّا على الصبر والعفو والإحسان.
- الآيات المكية والمدنية جميعها تشتمل على الشدة والعنف، بل إن الإذن بالقتال كان في القسم المدني، فلم يتفرد القسم المكي فقط بالشدة ـ كما زعموا ـ ولم يتأثر محمد ﷺ بالبيئة، بل كان الوحي ينزل بما يناسب أحوال المخاطبين.

---

1. مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص١٧٤، ١٧٨ بتصرف.

الشبهة الخامسة والثلاثون

الزعم أن القرآن المكي يخلو من التشريعات على عكس القرآن المدني(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن خلو القسم المكي من التشريع، مع كثرة التشريعات في القسم المدني، دليلٌ على تأثر القرآن بعلوم أهل المدينة ومعارفهم؛ إذ لما كان محمد بمكة أميًّا يقيم بين أميين ضاق أفق التشريع، ولما صار بين المثقفين وأهل المدينة كثرت الأحكام والفروع. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في مصدر القرآن بكونه مقتبسًا من الكتب السابقة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) القرآن المكي لم يَخْلُ جُمْلَةً من التشريعات، وإن جاءت التشريعات فيه قليلة لعنايته بترسيخ الأصول والعقائد، ومنها إلى بناء المجتمع وتنظيمه.

(*) المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق. مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق.

٢) إن الانتقال من الأصول والعقائد إلى الفروع والأحكام الكثيرة ترتيب منطقي يتفق مع طبيعة الأشياء.

٣) لم يتأثر القرآن في أحكامه بمعارف أهل الكتاب في المدينة، بل إن العكس هو الواضح؛ فقد خالف أحكامهم الباطلة المحرفة.

التفصيل:

أولا. القسم المكي لم يخلُ جملةً من التشريعات، بل جاءت فيه قليلة:

القسم المكي من القرآن لم يخل جملة من التشريع والأحكام، بل عرض لها بطريقة إجمالية، فمقاصد الدين خمسة: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وقد تحدث القسم المكي من القرآن الكريم عنها إجمالًا، كما في قوله ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾ (الأنعام) إلى تمام ثلاث آيات بعدها، جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة[١]، ومثال ذلك أيضًا قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ (النجم: ٣٢).

قال الإمام السيوطي: فإن الفواحش كل ذنب فيه حد، والكبائر كل ذنب عاقبته النار، واللمم ما بين الحدين من الذنوب، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه[٢]. ولا يخفى أن آيات العقائد في القسم المكي ظاهرة واضحة، وكثيرة شائعة، ليست من موضع الاشتباه، ولا يختلف اثنان في أنها أكثر من مثيلاتها في السور المدنية بأضعاف الأضعاف[٣] ®.

ثانيًا. إن الانتقال من الأصول والعقائد إلى الفروع والأحكام ترتيب منطقي، يتفق مع طبيعة الأشياء:

إن كثرة التفاصيل في التشريع والأحكام بالمدينة، ليس نتيجة لما زعموه، إنما هو أمر لا بدَّ منه في سياسة الأمم، وتربية الشعوب، وهداية الخلق، ذلك أن الطفرة حليفة الخيبة والفشل، والتدرج حليف التوفيق والنجاح، وتقديم الأهم على المهم واجب في نظر الحكمة، فما بالك بأحكم الحاكمين، وقد صدق شوقي حين قال مادحًا رسول الله ﷺ لتدرجه وحكمته في علاج مشاكل مجتمعه وأمته:

داوَيْـتَ مُتَّئِـدًا وَداوَوا طَفـرَةً
وَأَخَـفُّ مِـن بَعـضِ الـدَّواءِ الـدَّاءُ

وهكذا بدأ الله عباده في مكة بإصلاح القلوب، وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بعقائد الإيمان الصحيح، والتوحيد الواضح، حتى إذا استقاموا على هذا المبدأ القويم، وشعروا بمسئولية البعث

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق،ج١، ص١٨٣ بتصرف.

٢. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مرجع سابق، ص٥٢ بتصرف يسير.

٣. مناهل العرفان في علوم القرآن، الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص١٨٣.

® في **"خصائص التشريع المكي"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الأولى، من الجزء السادس عشر (أصالة التشريع الإسلامي).

والجزاء، وتقررت فيهم العقائد الراشدة، فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق، وقادهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات، ثم كلفهم ما لا بُدَّ منه من أمهات العبادات، وهذا ما كان في مكة، ولما مرنوا على ذلك وتهيأت نفوسهم للترقي والكمال بتطاول الأيام والسنين، وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة، جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام، وأتم عليهم نعمته ببيان دقائق الدين وقوانين الإسلام[1].

فقد كان مدار الآيات في القسم المكي على إثبات العقائد، على عكس المدني الذي تميز بالتشريعات التفصيلية التي تتعلق بصيانة الدماء والأعراض والأموال وصيانة العقول، والمحافظة على الأنساب في الأسرة، أو في المجتمع ككل (الأمة)، والأحكام العملية كأحكام النكاح والطلاق والرجعة والعدة والحضانة والنفقة والحدود، وتفصيل ما أجمل قبل ذلك من الآداب والفضائل.

وقد أشارت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي تربت في منزل الوحي إلى هذه الحكمة، فقالت: "إنما نزل من القرآن أول ما نزل منه سورة من المُفَصَّل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا"[2].

ولا شك أن من طبيعة التدرج نزول آيات القرآن وسوره، بعضها في إثر بعض، وقد دلَّ القرآن بهذه السياسة الرشيدة في إصلاح الشعوب وتهذيبها على أنه معجز، وأنه من عند الله، وما كان لبشر ـ مهما كانت قدراته ـ أن يتوصل إلى هذه الطرق الحكيمة في ذلك الوقت الذي بعث فيه النبي ﷺ، وإنما ذلك من صنع الحكيم العليم.

فإذا كان القرآن الكريم هو الكتاب الذي يحوي المنهج الرباني لإصلاح الحياة البشرية وإقامتها بالقسط يخصص هذا الحيز الواسع للحديث عن العقيدة، فلا بدَّ أن تكون العقيدة هي محور ذلك الإصلاح كله، وأن يكون اهتمام القرآن الكريم بها آتيًا من أنها هي الوسيلة للغاية المطلوبة، ولو كانت هناك وسيلة مطلوبة أخرى غيرها أو مثلها تؤدي إلى الإصلاح، كالتنظيم الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي؛ لأولاها القرآن هذه العناية، وإنما أعطى الله الأولوية العظمى لموضوع العقيدة قبل كل شيء آخر؛ لأن الله ﷻ يعلم أن هذا وحده هو السبيل الحقيقي لإصلاح البشرية، وكل ابتداء بغيره، أو مضى بدونه، عمل باطل لا يؤدي إلى شيء.

فالعقيدة التي هي تصوُّر شامل للكون والإنسان، وعلاقاتها بالخالق، وعلاقاتها بعضها ببعض، هي الأساس الذي تبنى عليها الصورة التي يكون عليها وجود الإنسان في الأرض، سواء وجوده المعنوي، أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي[3].

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مرجع سابق، ص١٨٤ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (٤٧٠٧).

٣. دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٧، ١٤١٤هـ/ ١٩٩١م، ص٢٣: ٢٥ بتصرف.

ثالثًا. لم يتأثر القرآن في أحكامه بمعارف أهل الكتاب في المدينة:

أما ما زعموه من أن ذلك كان نتيجة لاختلاط محمد ﷺ بأهل المدينة المستنيرين، فينقضه أن القرآن جاء ليصلح عقائد أهل الكتاب وأخطاءهم في التشريع، وفي التحليل والتحريم، وفي الأخبار والتواريخ، فكيف يأخذ المصيب من المخطئ؟ اقرأ قوله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ﴾(آل عمران: ٦٤)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (آل عمران:٦٥)، وقوله ﷻ: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (آل عمران) وقوله الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة: ٤٥). وغير ذلك كثير، وقد عرضنا لها في دعوى تودُّد القرآن لليهود والنصارى، وأوضحنا أنه أدانهم في كثير من المواضع، فكيف يتأثر بهم؟!

لو كان هذا صحيحًا، لظهر أثر أهل الكتاب المدنيين فيمن معهم من عرب أهل المدينة، وفيمن حولهم من أهل مكة والجزيرة، ولكانوا هم الأحرياء بهذه النبوة والرسالة، ولسبق النبي محمدًا ﷺ إليها كثيرٌ من غيره من فصحاء العرب، وتجار قريش الذين كانوا يختلطون بأهل الكتاب في المدينة والشام، أيما اختلاط.

والقرآن تحدى الكافة من مكيين ومدنيين، بل من جن وإنس، فهلّا كان أساتذته أولئك يستطيعون أن يجاروه ولو في مقدار سورة قصيرة واحدة[1] ®.

الخلاصة:

- القرآن المكي لم يخل من التشريعات جملة، بل جاءت التشريعات فيه قليلة، لعنايته بترسيخ الأصول والعقائد أولًا، ومنها إلى بناء المجتمع، وتنظيمه على تلك الأصول.
- الأسلوب الأمثل في بناء الحضارات هو التدرج، والانتقال من الأصول والعقائد إلى الفروع والأحكام الكثيرة شيء منطقي يتفق مع طبيعة الأشياء، فكان القرآن المكي يتحدث عن عقيدة التوحيد ونبذ الوثنية، ثم انتقل المكيون إلى المدينة بعد الهجرة متزامنًا هذا الحدث مع نزول التشريعات والأحكام والتفصيلات والمعاملات وغيرها، لبناء مجتمع أخلاقي سليم، فكان هذا للمكيين والمدنيين على السواء، إذ في النهاية هم المؤمنون المخاطبون، فما نزل القرآن لأناس دون غيرهم، ولكن للناس كافة، وعلى ذلك فالقرآن لم يتأثر ببداوة أهل مكة، أو حضارة أهل المدينة.
- الثابت أن القرآن في أحكامه لم يتأثر بمعارف أهل الكتاب لا في المدينة ولا في غيرها، بل جاء القرآن مُصوِّبًا ما في عقائدهم من فساد، وما في أخبارهم وقصصهم عن السابقين من أخطاء وتزييف للحقائق، فكيف يأخذ المصيب من المخطئ؟!

---

١. مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني، مرجع سابق، ج١، ص١٨٤، ١٨٥ بتصرف.

® في **"عدم دلالة التشابه بين قصص القرآن والتوراة على اقتباس القرآن عنها"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثالثة والعشرين، من الجزء الثامن (مقارنة الأديان).

الشبهة السادسة والثلاثون

دعوى خلو القرآن المكي من الأدلة والبراهين (*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المتوهمين أن القرآن المكي يخلو من الأدلة والبراهين، مستدلين على ذلك بحواره مع مشركي مكة، ممثلين لذلك بقوله ﷻ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الكافرون)، فهذه عبارات تقريرية وجمل خبرية خالية من البرهان الساطع والدليل القاطع، وهذا بخلاف القِسْم المدني الذي يناقش المشركين ويناظرهم بالحجة الهادئة والبرهان القوي كما في قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

ويدعون أن الفرق بين الأسلوبين (المكي والمدني) دليل على تأثر القرآن بالبيئتين آنذاك؛ مما يؤكد صحة التشكيك في أن القرآن ليس من عند الله كما زعم هؤلاء.

وجها إبطال الشبهة:

١) الآيات والسور المكية حافلة بالأدلة والبراهين، في إثبات وجود الله وإمكان البعث وصدق النبوة، وكلها تحتاج إلى تلك البراهين، وهذا ما كان من الله في قرآنه.

٢) تميُّز السور المكية بالتركيز البالغ والقوة ـ رغم قصرها ـ كان لغاياتٍ حكيمة.

التفصيل:

أولا. الآيات والسور المكية حافلة بالأدلة والبراهين:

إن الناظر إلى السور المكية نظرة سريعة ليدرك ـ بما لا يدع مجالًا للريبة أو الشك ـ أنها استفاضت بالأدلة والبراهين القطعية؛ والأمثلة على ذلك كثيرة، اقرأ ـ على سبيل المثال ـ في إثبات وجود الإله الخالق قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية)، وقوله ﷻ: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الواقعة).

وقوله ﷻ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الطور)، وفي إثبات الوحدانية: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الأنبياء).

ومهما أسهب الفلاسفة وعلماء الكلام في إقامة الأدلة والبراهين على الوحدانية، فلن يخرجوا عن فلك

(*) مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، كتاب يصدر عن شركة " المقاولون العرب "، العدد الأول، ط٣. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق.

هذه الآية على وجازتها وقصرها، وهي مكية على عكس ما ذكره من احتجوا بكونها مدنية على أن القرآن المدني حافل بالحجج والبراهين والمناقشات والمجادلات، وفي سورة المؤمنون المكية قوله تبارك وتعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ (المؤمنون). ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (النمل: ٦٠) وقوله ﷻ: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾ (النمل)، وقوله ﷻ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ (٢٦) ﴾ (الروم).

وفي التدليل على إمكان البعث في سورة يس المكية: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ (يس). وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) ﴾ (الأحقاف)، وفي إثبات صدق النبوة بالمنطق السليم، يقول الله سبحانه وتعالى في جواب المشركين لما قالوا: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان: ٢٠)، ولما قالوا: ﴿ هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٣)، قال في جوابهم: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾ (الأنبياء).

ومن الدليل العقلي كذلك على البعث والجزاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ (١٨) ﴾ (السجدة)، وقال أيضا: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ (المؤمنون)، وفي مناقشة ونقض حجج وأوهام المشركين في احتجاجهم لأباطيلهم بالمشيئة الإلهية يقول في سورة الأنعام المكية: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) ﴾ (الأنعام).

إلى غير ذلك من أدلة ساطعة وبراهين بارعة، لا تكاد تخلو منها سورة من السور المكية، ولكن القوم استحبوا العمى على الهدى، فاستمرأوا هذا الكذب والافتراء.

لقد كان على القرآن الكريم أن يحمل حملة

قوية للدفاع عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ونقض ما سواها من العقائد الفاسدة التي كان عليها مشركو مكة، وما دام أغلب القرآن المكي يتحدث عن عقيدة الإسلام في الإلهيات والنبوات والسمعيات، ويرفع قواعد التوحيد ويزلزل بنيان الشرك، ما دام كذلك، فإنه إن لم يستخدم الأدلة والبراهين الساطعة والقاطعة في العقائد، فأين يستخدمها إذن؟ ولما كان أول أهداف القرآن الكريم إصلاح القلوب وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقديمها بعقائد الإيمان الصحيح والتوحيد الواضح، وإشعارهم بمسئولية البعث والجزاء، كان لا بد في ذلك كله من الأدلة والبراهين الساطعة القاطعة، التي لا يماري فيها إلا من كان جاحدًا كفورًا معاندًا، ومن أضل ممن اتبع هواه، أما غير هؤلاء فإنهم يستخدمون عقولهم فيدركون ما يريده الله، ويقتنعون بما أورده الله من العقائد الصحيحة والطريقة القويمة.

أما ما ذكره الطاعنون من سورة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① ﴾ (الكافرون)، فلا يصلح أن يكون دليلًا؛ لأن السورة لم تُسَقْ مساق الدليل، وإنما سيقت للرد على كفار قريش لما رغبوا إلى النبي ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأنزل الله على نبيه هذه السورة قاطعًا لأطماعهم، ولبيان أنهم قوم مخادعون، ولن تكون فيهم عبادة لله الواحد القهار، فنفى الله ﷻ أن تحقق أطماعهم.

وأما بخصوص آية الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)، فقد اعتبرها المدَّعون الجاهلون من السور المدنية، مع أن السورة كلها من أولها إلى آخرها مكية، إلا آية: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ (الأنبياء: ٤٤) فإنها مدنيَّة عند بعض علماء المسلمين، ومهما يكن من شيء، فالآية الكريمة التي استدلوا بها: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ مكيَّة بالإجماع، وهذا يجعل الحجة عليهم، فضلًا عن أن هذه سقطة لا تكون من مبتدِئ، فما بالك بمن زعموا لأنفسهم البحث والعلم والنقد، ولو أجهد المدَّعون أنفسهم قليلًا ـ وإن كان هذا لا يكلفهم عناءً ـ ففتحوا المصحف الشريف وقرءوا ما كُتب قبل مفتتح سورة الأنبياء، لوجدوا سورة الأنبياء مكية وآياتها ١١٢، ولما وقعوا في هذا الخلط، ولكن الأمر كما قال الشاعر:

فَلَـرُبَّما انتَفَـعَ الفَتَـى بعَـدُوِّهِ
كالسُّمِّ أحيانًا يكونُ دَواءَ[1]

ثانيًا. تتميز السور المكية بالتركيز البالغ والقوة على الرغم من قصرها:

لقد قطعت سورة "الكافرون" أطماع المشركين على أبلغ وجه، ومثلها سورة "الإخلاص" فقد أجمل الله فيها العقيدة الخالصة من غير استدلال؛ لأنها نزلت جوابًا للمشركين أو اليهود، لما قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، أي: بيِّن لنا ذاته وصفته، فأنزل الله السورة، ولا يخفى أن السورتين بمنزلة النتيجة لمئات الأدلة والبراهين التي أقامها الله على إثبات وجود الصانع ﷻ ووحدانيته وصفاته، واستحقاقه التفرد بالعبادة، ولعل من اللطائف وقوعها في الترتيب الكتابي في آخر القرآن الكريم، كما تقع النتيجة من مقدماتها، فلا عجب أن

١. المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ص٢٤٠، ٢٤١ بتصرف.

جاءتا على هذا الوضع.

هذا الملمح - الذي نحن بصدده - من ملامح القِسْم المكي - قِصَر الآيات والسور وتركيزها - كان لغايات حكيمة، فنزول القرآن المكي بمكة، وأكثر أهلها يومئذ يمتازون بالفصاحة والبيان، وتملُّكهم لناصية القول والخطابة والشعر، وبلوغهم الغاية في لطف الحس وذكاء العقل وسرعة الخاطر، فكان المناسب لهم النُّذْر بالقارعة، والعبارات الموجَزة، والفِقْرات القصيرة ذات اللفظ الجَزْل والجَرْس القوي والمعنى الفَحْل، فتصخُّ الآذان، وتستولي على المشاعر، وتعقل ألسنتهم عن المعارضة، وتدعهم في حيرة ودهشة مما يستمعون؛ فلا يلبث البليغ منهم بعد سماعها أن يُقرَّ بسموِّه، ويرسلها قولة صريحة تشهد بالإعجاز، كما قال الوليد بن المغيرة القرشي لما سمع القرآن: "والله لقد سمعت كلامًا ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثمِر، وإن أسفله لَمُغْدِق، وما هو بقول بَشَر، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى، وإنه ليُحَطِّم ما تحته".

ولما أحزنت المشركين مقالته، وأكرهوه على أن يقول في القرآن قولًا ينقض قولته الأولى، لم يسعه - بعد الصراع النفسي العنيف، وتكلف الخروج عن فطرته العربية وملكته الأدبية - إلا أن يقول كما أخبر القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ (المدثر)، ولكي تتأكد أن الرجل لم يقل ذلك إلا مكرهًا اقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ (المدثر).

فانظر كيف صور القرآن حالته النفسية هذا التصوير المعجز الذي يصور لك الوليد، وقد بدت عليه آثار الصراع النفسي العنيف ما بين فطرته اللغوية التي تأبى عليه أن يقول في القرآن غير ما قال، وبين رغبته في إرضاء قومه التي تُمْلي عليه أن يقول في القرآن ما يرضيهم، فلم يستطع إلا أن يقول: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ (المدثر) وآثر أن يناقض نفسه على أن يغضب قومه!!

ولقد كان البليغ منهم - على كفره - يسمع القرآن فيُخَيَّل إليه أن العذاب كأنه واقع به، فلا يجد مندوحة عن أن يُناشد النبي ﷺ الله والرحم أن يكف عن قراءته، وكان القرشيون يتواصون فيما بينهم ألا يستمعوا إليه، وأن يضعوا أصابعهم في آذانهم، ويستغشوا ثيابهم، حذرًا من أن يَنْفُذ إلى قلوبهم، ثم بعد قليل تغلب عليهم فطرتهم اللغوية، فيتناسون الوصية ويلقون إليه بآذانهم وقلوبهم لما يجدون في الاستماع إليه من لذة، وإرضاء لملكاتهم الأدبية[1].

الخلاصة:

- حفلت الآيات المكية بالبراهين، وهذا يدل على عقلية قادرة على استيعاب ذلك بالمناقشة والحجج، فكانت البراهين من جنس الاعتراضات، وبرهان ذلك الأسئلة التي ساقوها إلى الرسول ﷺ، وإن لم يكونوا على صواب، فمثلًا أدلى القرآن بالعديد من الأدلة في إثبات وجود الله وإثبات الوحدانية، وإمكانية البعث، وإثبات الرسالة والجزاء، وإبطال حجج المشركين.

1. المرجع السابق، ص٢٢٩، ٢٣٠.

• إذا كان غالب السور المكية يرسخ العقائد الصحيحة ويزلزل براثن الشرك ويهدمها، فهي أولى باستخدام الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة وهذا ما كان.

• تميزت السور المكية بالتركيز والقوة رغم قصرها، وهذا يناسب بلاغتهم وفصاحتهم، فالآيات قصيرة محكمة شديدة التأثير، قوية الجرس، ولا يقال: إن هذا دليل على سذاجة البيئة وسطحية العقول، فهذا فهم خاطئ وقلب للحقائق.

• إن قوله تعالى في الآية: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢) التي استدلوا على أنها عقلية وأنها مدنية - هي آية مكية بالإجماع، كما أن سورة الكافرون التي هي مكية، لا تصلح دليلًا على زعمهم، فقد سِيْقَت مساق الرد على كفار قريش لما أرادوا ترغيب النبي ﷺ في أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا هم إلهه سنة.

المحور الخامس

شبهات حول القرآن والكتب السماوية وأهل الكتاب

الشبهة السابعة والثلاثون

دعوى تشابه مضامين القرآن مع التوراة والإنجيل(*)

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن القرآن الكريم يتشابه مع الكتب السابقة: التوراة والإنجيل، ويستدلون على ذلك ببعض الآيات التي تذكر كلمات ورد ذكرها في هذه الكتب، وأكثر هذه الآيات من سور: الرحمن والنحل والنور وإبراهيم والجاثية... وغيرها من السور.

كما يستدلون ببعض الكلمات التي ذُكرت في القرآن، ويزعمون أنها من الكتب المقدسة عندهم، ومن هذه الكلمات: فُرْقان، أَمَرَّ، أمانة، بركة، تَبارك، بَهِيْمة، مَثانِي، خَلاق، سكينة، قَيُّوم، كَفَّارة، ماعُون، مِنْهاج، جَبَّار، سُورة، قُدُّوس... إلخ. فمثل هذه الآيات والكلمات دليل في زعمهم على أن القرآن ليس من عند الله، بل هو مأخوذ أو منحول من الكتب السابقة عليه.

ويزعمون أن القرآن تُرجم عن التوراة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (هود: ١٧). ويتساءلون: ما الجديد الذي أتى به محمد ﷺ ما دام قد أخذ القرآن وأصول دينه وأخبار الأنبياء عن "بَحِيْرا الراهب" عندما لقيه بالشام، وعن ورقة بن نوفل، وعن الغلام الرومي الأعجمي الذي كان يعمل حدادًا في مكة المكرمة. هادفين من وراء ذلك إلى الطعن في مصدر القرآن الكريم.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الآيات والكلمات التي ادعوا أنها منقولة من التوراة والإنجيل لا تدل على ذلك، إذ إنه لا يوجد أدنى شبه بين معناها في القرآن الكريم ومعناها في نصوص التوراة والإنجيل، أو اللغات التي ترجمت هذه الكتب، أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب باعترافهم، فكيف يترجم هذه الآيات وتلك الكلمات؟!

٢) لقد تكفل الله ﷻ بحفظ القرآن الكريم من الضياع أو التحريف؛ حيث قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر)، في حين أن الكتب السابقة تعرضت للتحريف والتغيير على أيدى أتباعها، قال ﷻ: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾ (النساء: ٤٦).

٣) إذا سلَّمنا جدلًا أن القرآن تُرْجِم عن التوراة، فعن أي توراة تُرجم، الصحيحة أم المحرفة؟ وإذا كان ذلك كذلك، فلماذا لم يؤمنوا به؟! ولماذا لم يترجمه أحد أحبارهم أو رهبانهم، بل ترجمه رجل أُمِّي كمحمد ﷺ.

٤) الآية التي يستدلون بها ليست دليلًا على أن القرآن مترجم عن التوراة، ولكنها تثبت أن الإمامة والرحمة انتقلت إلى القرآن بعد نزوله لشموله كل ما سبقه من كتب وعموم رسالته.

٥) الثابت تاريخيًّا أن النبي ﷺ لم يسافر إلى الشام إلا مرتين في حياته: مرة بصحبة عمه أبي طالب، والأخرى بصحبة ميسرة غلام خديجة، وهذا يؤكد أنه يستحيل عقلًا أن ينتج عن هذين اللقاءين العابرين بين النبي ﷺ

(*) الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

وبحيرا كل هذا الفيض المعجز البليغ في هذا الوقت المحدود، وإذا كان بحيرا هو مصدر القرآن فلماذا لم ينسبه لنفسه، وترك هذا الفضل العظيم لغيره؟!

٦) لقد سلمنا يقينًا بأن القرآن بليغ معجز، فهل يُعْقَل أن يكون مصدره هذا الحدَّاد الرومي الذي كان مُنْهَكًا بين مِطْرَقته وسِنْدانه طوال يومه؟!

٧) لم يثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتردد على ورقة بن نوفل، إذ الثابت تاريخيًّا أنه لم يقابله إلا مرة واحدة، وذلك عندما نزل عليه الوحي أول مرة، وتمنى أن يكون فتيًّا يدافع عن الإسلام والنبي ﷺ، فكيف يتهمونه ﷺ بالأخذ عنه؟!!

التفصيل:

أولا. اختلاف معنى الآيات والكلمات في القرآن عن معناها في الكتاب المقدس واللغات التي ترجمت هذا الكتاب:

اختلاف معنى الآيات في القرآن الكريم عن معناها في الكتاب المقدس:

إذا كان النبي ﷺ قد نقل نصوص القرآن الكريم من الكتب السابقة عليه، فهذا يستدعي معرفته ﷺ بالعديد من اللغات الأخرى غير اللغة العربية، مثل: العبرية والسريانية واليونانية، ويستدعي أيضًا وجود مكتبة ضخمة من الكتب بهذه اللغات تحت يديه ﷺ، ولكن هذا لم يقع في الحقيقة، فالرسول ﷺ أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فأنّى له أن ينقل بعض هذه الآيات من الكتب السابقة عليه، وأمية النبي محمد ﷺ أمر مسلم به بين أعداء الإسلام، فضلًا عن المسلمين، فهذا يؤكد كذب هذا الادعاء وبطلانه. والآيات الكريمة التي يُتوهَم أن بينها وبين نصوص الإنجيل تشابهًا كما أوردوها هي:

سورة الرحمن	سفر المزمور ١٣٦
﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ (الرحمن)	الشمس لحكم النهار (٨)
﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ (الرحمن)	القمر والكواكب لحكم الليل (٩)
﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ (الرحمن: ٧)	الصانع السماوات بفهم (٥)
﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠﴾ (الرحمن).	الباسط الأرض على المياه (٦)

ويمكن الرد على التشابه بما يأتي:

- يتحدث القرآن عن الطابع الدوري لحركة الشمس والقمر، ولا يذكر العهد القديم شيئًا عن هذا.
- النبات والشجر في القرآن يسجد لله، ولا يوجد لهذا مثيل في العهد القديم.
- يتحدث القرآن عن رفع السماء فحسب، بينما العهد القديم يتحدث عن الحكمة من هذا الرفع.
- يتحدث القرآن الكريم عن بسط الأرض لصالح الإنسانية جمعاء، بينما يذكر العهد القديم حالة جغرافية من حالات الأرض، فأين هذا التشابه المزعوم بين القرآن الكريم والكتاب المقدس المحرف؟!

سورة النحل	المزمور ١٠٤
﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾ (النحل).	الصانع ملائكته رياحًا، وخدامه نارًا ملتهبة (٤)

تتحدث آية القرآن الكريم عن مطلق إرادة الله تبارك وتعالى في اختيار من يشاء من عباده، ويضع على عاتقه عبء تبليغ الرسالة والنبوة، وينزل على هذا النبي جبريل عليه السلام بالرسالة من عنده - تعالى ذكره - بينما يتحدث نص المزمور عن مجرد ظواهر طبيعية، فأين هذا التشابه المزعوم بين آية القرآن الكريم وبين نص الإنجيل.

سورة النحل	المزمور ١٠٤
﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (النحل).	**اللابس النور كثوب، الباسط السماوات كشقة (٢) المؤسس الأرض على قواعدها (٥)**

أين هذا التشابه المزعوم بين نص الآية الكريمة ونص الإنجيل، فالآية الكريمة تتحدث عن حكمة الله عز وجل في خلق السماوات والأرض، وعن مدى الانسجام التام بينهما دون أي خلل في نظامهما، وكل هذا دليل على مدى عظمة الله وقدرته في خلقه.

أما المزمور فيتحدث عن تشبيه السماء بالستار ،والتأكيد على أن الأرض مثبتة على قواعد راسخة، فمن أين لاحظ هؤلاء المتوهمون تشابهًا بين القرآن والإنجيل؟!

سورة النحل	المزمور
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (النحل).	**المسقف علاليه بالمياه. الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح (٣)**
﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (النحل).	**المنبت عشبًا للبهائم، وخضرة لخدمة الإنسان، لإخراج خبز من الأرض، وخمر تفرح قلب الإنسان، لإلماع وجهه أكثر من الزيت، وخبز يسند قلب الإنسان (١٤، ١٥)**

وهناك فرق كبير بين حديث القرآن الكريم وحديث الإنجيل، ففي حين يتحدث القرآن عن المنفعة التي نزلت بالناس المتمثلة في الماء، فهو الذي يخرج به الزرع والزيتون، والنخيل والأعناب وجميع ثمرات الأرض، وجعل هذا كله آية؛ لكي يتفكر فيها الخلق لمعرفة مدى قدرة الله تعالى، وفي مقابل هذا يتحدث نص الإنجيل عن الرياح التي يمتطيها الله تعالى، ويتحدث عن صفات الله، وكأنها مثل صفات البشر المادية، وكذلك لم يذكر نص الإنجيل إلا العشب، ولم يتطرق إلى الثمار والأشجار التي في القرآن، والخمر التي في المزمور لا وجود لها في نص القرآن، فأي تشابه بين النصين إذًا؟!

مثل هذا الكلام يقال عن آيات كثيرة في سورة النحل، توهم هؤلاء المدعون أن بينها وبين نصوص من الإنجيل تشابهًا كبيرًا، ولكن هذا الادعاء غير صحيح، وقد اتضح مما سبق بطلان هذا الزعم[1].

---

١. لمتابعة هذه الآيات انظر كلام هؤلاء المتوهمين عن التشابه بين الآيات (١٤، ٣٢، ٣٨، ٤٩، ٥٠، ٦١، ٦٥، ٦٨، ٧٠، ٧٩) من سورة النحل، وما يقابلها من نصوص الإنجيل في المزمور (١٠٤) تحت الأرقام الآتية (١٢، ١٧، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٢٧، ٣٣، ٣٤، ٣٥)، فسوف ترى عجبًا، وهذا كله في كتاب: الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص٢٨: ٣١.

يرى أصحاب هذا الادعاء الباطل أن هناك تشابهًا بين قوله تعالى في سورة النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ (النور)، وبين الإنجيل، ويدَّعون أنها مأخوذة منه ويفسرون هذا النور عدة تفسيرات منها:

- النور الذي في القرآن مأخوذ من الأنوار التي في الكنائس والأديرة التي تضاء للخدمة.
- هذا النور له علاقة بـ "نور الكون" في الإنجيل، و "نور النور" في الإعلان العقائدي لمجمع نيقيا.

ولكن هذا الزعم ليس صحيحًا؛ لأن النور في الآية نور واحد، وهو في الكنيسة أنوار متعددة، وهو كذلك في القرآن "نور على نور" ولكنه في الإعلان العقائدي نور يأتي من نور، ويحاول بعضهم - عبثًا - الربط بين الآية الكريمة، وبين فقرة من كتاب زكريا من العهد القديم الإصحاح الرابع الآيات ١ : ٣، ولكن هذا زعم مُفْتَرى مثل سابقه[١].

وبهذا، فلا يوجد أدنى تشابه بين الآيات القرآنية المشار إليها، وبين آيات الإنجيل، فضلًا عن أن يكون هذا التشابه واضحًا، فضلًا عن أن تكون آيات القرآن مأخوذة منها، فدعواهم تلك لا تستند إلى دليل، وها هي قد سقطت بالمقارنة اليسيرة والتحليل الصحيح والأدلة المقنعة.

ومثلما حاول المخالفون للإسلام وللقرآن وللنبي محمد ﷺ أن يثبتوا أن القرآن الكريم مأخوذ من الإنجيل، حاولوا كذلك الربط بين بعض الألفاظ القرآنية وبين ألفاظ أخرى تقابلها في العبرية؛ لا لشيء إلا لكي يصفوا القرآن بالنقص والنقل من الكتب السابقة، ويمكن الرد على هذا الادعاء بما يأتي:

- اللغة العربية واللغة العبرية لغتان تنتميان إلى أصل واحد، وهذا الأصل هو الأصل السامي، فهناك كلمات عربية موجودة في اللغة العبرية والعكس صحيح، وكل منهما فرع عن أصل، وهذا الفرع يأخذ من الأصل بعض الصفات المشتركة.
- ادعاء أن الرسول ﷺ أخذ هذه الكلمات من اللغة العبرية أو الآرامية يستدعي معرفة النبي ﷺ بهذه اللغات معرفة جيدة قراءة وكتابة، وهذا ما تتوافر المصادر على نفيه عن الرسول ﷺ؛ فهو رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة باللغة العربية، ومن الثابت أنه لم يتعلم أية لغة أخرى، فهل أُلْهِمَ العلم بتلك اللغات؟! وهل يصل الإلهام بالشخص إلى أن يتعلم لغة قراءة وكتابة؟! ولماذا لم يحدث مثل هذا الإلهام لغيره؟!
- الكلمات التي يستشهد بها أصحاب هذا الادعاء نجدها موجودة في المعاجم العربية القديمة، وفي نصوص الشعر العربي الجاهلي، ومعنى هذا أنها معروفة قبل بعثة النبي ﷺ وليس هو الذي أدخلها في القرآن الكريم، كما يدعي هؤلاء.

من هذه الكلمات كلمة "خَلاق" التي قيل: إن أصلها اليهودي هو "حيليق" أو أصلها آرامي وهو "حولاق"، وهي تعني في هذه اللغات "جزء" أما

١. المرجع سابق، ص٣٧، ٣٨ بتصرف.

معناها في اللغة العربية فهو "نصيب" كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (البقرة). فأين التشابه بين المعنيين؟ ونجدها في شعر حسان بن ثابت الجاهلي الذي كتبه قبل بعثة النبي ﷺ.

وكذلك كلمة "بَعِيْر" التي قيل: إن أصلها العبري هو "بيعير **Beir**" وتعني الماشية، ولكن معنى هذه الكلمة في المعاجم العربية القديمة هو: الجمل القوي أو الحمار، وعليه الآية التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ (يوسف: ٧٢). وهذه الكلمة مستخدمة في المعاجم القديمة بمعنى الحمار، وكذلك استخدم أحد الشعراء الجاهليين الجمع من هذه الكلمة "أباعير".

ومن هذه الكلمات التي ادعى هؤلاء أنها ذات أصل عبري كلمة "بهيمة" ويدعون أن أصلها هو الكلمة العبرية "**Berema**"، وهذه الكلمة في القرآن تعني: الحيوان ذا اللون الخالص الذي لا تتخلله ألوان مثل الأبيض، أو الأسود، وعليه ما جاء في معاجم اللغة القديمة، فهذه الكلمة في العربية تستعمل صفة دائمة للأنعام، ولكنها في العبرية تستعمل اسمًا لا صفة، فأين التشابه بينهما؟!

وكذلك كلمة "سورة" التي قيل: إن أصلها عبري وهو "**Shura**" بمعنى الخط أو الطابور، وقيل: إن أصلها آرامي هو "**Sidra**"، وكلا المعنيين لا يتفق مع المعنى القرآني لهذه الكلمة، وقد ورد لهذه الكلمات تفسيرات عدة في كتب المفسرين، فقيل: هي المنزلة، وبقية الشيء، والمَرْتَبة العُلْيا وغير ذلك، فهي من الكلمات غير واضحة الدلالة.

ومنها كلمة "مثاني" التي قيل: إن أصلها عبري، وقيل: أصلها آرامي **Mathnitha** بمعنى التقليد أو العرف، ولكن هذا يخالف كل المعاني التي ذكرها المفسرون لهذه الكلمة التي جاءت في كتاب الله ﷻ في مواضع عدة، منها قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الحجر). فقيل: هي الفاتحة، وقيل: ما ثني مرة بعد مرة، وقيل: لأنها يثنى بها في كل ركعة.

ولم تسلم كلمة "خاتم" من هذه الشبهة، فقد قيل: هي مأخوذة من سفر حجى الإصحاح الثاني الآية ٢٣ التي تقول: "وأجعلُكَ كخاتمٍ، لأنِّي قد اخترتُك"، وكذلك في سفر الملوك الأول الإصحاح ٢١ الآية التي تقول: " ثُمَّ كَتَبَتْ رسائل باسمِ أَخْآبَ، وخَتَمَتْها بخاتمه". وهي عندهم تعني الختم الذي يوضع على الأوراق، أو الختم المعلق في الصدر، أو الختم الذي يُحمل في اليد لشدة الحرص عليه، وكل هذه المعاني لا تتفق مع المعنى الذي جاء في القرآن لهذه الكلمة التي جاءت في قوله ﷻ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الأحزاب)، فهي في القرآن تعني الأخير الذي ختمت به الرسالات والنبوات، وكلمة "خاتم" من ألقاب النبي ﷺ ولم لا والإسلام هو آخر الديانات السماوية المنزلة من قبل الله تعالى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وهناك العديد من الآيات التي تؤكد أن معنى كلمة خاتم هو الأخير، ومن هذه الأحاديث قول النبي ﷺ: "أنا خاتم النبيين".[1] فأين هذا التشابه المزعوم بين معنى كلمة "خاتم" في الإسلام ومعناها في العبرية؟ أو غيرها من اللغات الأخرى؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة)[2].

ومن الكلمات التي تعرضت لظلم كبير من قبل أعداء الإسلام كلمة "فرقان" التي جاءت في العديد من سور القرآن الكريم، فمن هؤلاء من ينسبها إلى الكلمة العبرية "بيركي **Pirke**" أو مأخوذة من "بريكي أبوت **Pirke Abot**" وتعني الأحكام الدينية التي نص عليها حكماء ورجال الدين اليهودي، ومنهم من ينسبها إلى الكلمة السريانية "فرقانا **Furqana**"، أو الكلمة اليهودية الآرامية "فرقان **Furqan**" التي تعني الإنقاذ.

وعلى هذا قيل: إن النبي ﷺ قد أخذ هذه الكلمة من هذه اللغات وأدخلها إلى القرآن الكريم بعد أن خلطها باللفظ العربي "فرق"، وللرد على هذا الزعم نورد ما يأتي:

١. الأحكام الدينية التي تشير إليها كلمة "**Pirke Abot** بيركي أبوت"، من وضع حكماء المعبد اليهودي، وليست من وضع موسى أو هارون، فهي إذن ليست من النصوص المقدسة الصحيحة.

٢. هل كان النبي ﷺ على علم باللغة العبرية أو السريانية أو الآرامية حتى يأخذ هذه الكلمة من هذه اللغات ويدخلها إلى القرآن الكريم؟

٣. الأصل السرياني للكلمة "فرقانا" يعني الإنقاذ، وهذا المعنى لا يوجد له أية صلة بالمعاني التي جاءت لهذه الكلمة في المعاجم العربية، إذ في هذه المعاجم أن هذه الكلمة تعني التفريق بين أمرين: الحق والباطل، الخير والشر... فأين التشابه؟! وكذلك جاء معناها في كتب المفسرين للقرآن على عكس المعنى الذي توهمه هؤلاء لهذه الكلمة، فهي في كتب المفسرين تعني شيئًا مما يأتي:

- مصدر للفعل "فرق"، وكل ما يدل على التفريق بين أمرين متناقضين، مثل الخير والشر، والمشروع واللامشروع... إلخ.
- أي كتاب من الكتب المقدسة، مثل التوراة، والإنجيل، والقرآن، وعلى المعنى الأول جاء قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال:٤١)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ (البقرة)، ومن المعنى الثاني قوله ﷻ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ (آل عمران)، وقوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان)[3].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٣٤٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠١).

٢. الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، ص٤٣: ٥٤ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص٦١، ٦٢ بتصرف.

ثانيًا. القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله له، بيد أن الكتاب المقدس محرف بشهادة الله ﷻ بذلك:

لقد تكفل الله تبارك وتعالى بحفظ هذا القرآن الكريم من أي تحريف أو ضياع أو نقص، ولم يترك هذه المهمة لأحد من البشر حتى ولو كان هذا البشر رجلًا في مكانة النبي ﷺ، ولم يترك هذه المهمة لملك ولو كان في مكانة جبريل عليه السلام، فقال ﷻ في محكم تنزيله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ (الحجر)، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ (النساء)، فمن أين يأتي القرآن مثل هذا التشابه المزعوم بالكتب المقدسة المحرفة من قبل أتباع اليهودية والنصرانية®؟!

فقبل أن ينظر أصحاب هذا الادعاء في القرآن الكريم، وقبل أن يفتشوا فيه عن تشابه بينه، وبين الكتب السابقة، عليهم أولًا أن ينظروا في كتابهم المحرف بنص القرآن الكريم، واعتراف بعض أحبارهم بهذا التحريف، فكلما جاء حبر، أو راهب كتب له كتابًا مقدسًا ليشتري به ثمنًا قليلًا، فقال ﷻ: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ (المائدة: ٤١) ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ (البقرة)، فقد توعد الله الذين يفترون على الله كذبًا، ويكتبون الكتاب بأيديهم، ويقولون: هذا ما أنزل الله لكي يجمعوا مال الدنيا، ولكنهم في الآخرة يَصْلَوْنَ جهنم، ويقعون في وادي الويل المخصص لهم فيها، جزاء وفاقًا على ما كسبت أيديهم.

ثالثًا. إذا كان القرآن تُرجم عن التوراة، فعن أي توراة تُرجم، التوراة الحقَّة أم المحرفة:

لقد ثبت تاريخيًّا أن التوراة لم تسلم من التبديل والتغيير، ومن حيثيات ذلك[1]:

- أن نسخة التوراة التي بأيدي السامريين تزيد في عمر الدنيا نحوًا من ألف عام على ما جاء في نسخة العنانيين، وأن نسخة النصارى تزيد ألفًا وثلاثمائة سنة.
- أن نسخ التوراة التي بأيديهم تحكي عن الله وعن أنبيائه وملائكته أمورًا ينكرها العقل ويمجها الطبع، ويتأذى بها السمع، مما يستحيل معها أن يكون هذا الكتاب صادرًا عن نفس بشرية مؤمنة طاهرة، فضلًا عن أن يُنْسَب إلى ولي، فضلًا عن أن يُنْسَبَ إلى نبي، فضلًا عن أن يُنْسَبَ إلى الله رب العالمين.

ومن هذه الأباطيل أن الله ندم على إرسال الطوفان إلى العالم، وأنه بكى حتى رمدت عيناه، وأن يعقوب صارعه - جل الله عن ذلك - فصرعه، ومن ذلك أيضًا أن لوطًا ﷺ شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه.

- ما جاء في بعض نسخ التوراة يفيد أن نوحًا أدرك جميع آبائه إلى آدم، وأنه أدرك من عهد آدم نحوًا من مائتي سنة، وجاء في نسخ أخرى ما يفيد أنه أدرك من عمر إبراهيم ثماني وخمسين سنة، وكل هذا باطل تاريخيًّا.
- ما ثبت بالتواتر عند المؤرخين، بل عند اليهود

® في "تكفُّل الله بحفظ القرآن الكريم" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة السابعة والعشرين، من هذا الجزء. والوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء السابع (الإيمان والتدين).

١. نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٤، ٣٥.

أنفسهم من أن بني إسرائيل، وهم حملة التوراة وحفاظها ـ قد ارتدوا عن الدين مرات كثيرة، وعبدوا الأصنام، وقتلوا أنبياءهم شر تقتيل.

وإذا ثبت وقوع التحريف في التوراة الحقيقية ـ نَعَمْ الحقيقية، فنحن المسلمين نؤمن بأن هناك كتابًا مقدسًا، هو التوراة نزل على نبي الله موسى ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، إذا ثبت ذلك فعن أي التوراتين ترجم القرآن؟

وهب أن القرآن ترجم عن التوراة، فلماذا لم يؤمنوا به؟

إن كلمة ترجم الكلام: أي بينه ووضحه، تعني أيضًا نقله من لغة إلى لغة أخرى.

فإذا كان القرآن ـ كما يزعمون ـ منقولًا عن التوراة، فلماذا لم يؤمنوا به، أَوَمَا يشتمل المُتَرْجَم على ما يشتمل عليه المترجم عنه من أوامر ونواه وحقائق ومعارف، ومعانٍ وكلمات مترجمة عن اللغة الأصل؟!

ليس الأمر كما يرون، فالبون شاسع بين القرآن والتوراة، فأسلوب القرآن فصيح بليغ، أما أسلوب التوراة فضعيف ركيك، وأوامر التوراة تختلف عن أوامر القرآن.

فتوراتهم المحرفة تأمرهم بقتل الأبرياء وتشريد الضعفاء، وبخاصة إذا كانوا مسلمين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥) وما يحدث في فلسطين والعراق، وشتى بقاع العالم الإسلامي خير شاهد على ذلك.

توراتهم تقول لهم: إنهم شعب الله المختار، وكل الشعوب سواهم عبيد لهم، وهم أسياد عليهم، بئست العنصرية هي.

أما إسلامنا وقرآننا فالأمر فيه مختلف، فما عُرِفَت مساواة كمساواة الإسلام بين الناس، هذا نبيه ﷺ يطلقها في الآذان مُدَوِّية: "ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى"[1].

فهذا القاضي شريح يحكم بين علي بن أبي طالب وأحد اليهود في درع، فينادي القاضي شريح على أمير المؤمنين بكنيته، وعلى اليهودي باسمه، فيأبى أمير المؤمنين ذلك، وينكر على القاضي ما فعل، ثم لضعف حجة أمير المؤمنين يحكم القاضي لليهودي بالدرع.

وهذا الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ يشتكي إليه القبطي من صفع ابن عمرو بن العاص له؛ لأنه سبقه قائلًا له: خذها وأنا ابن الأكرمين، فيرسل على الفور إلى عمرو بن العاص وولده آمرًا إياه بالحضور، ويطلب من الرجل القبطي أن يقتص ممن ضربه، ثم قال كلمته المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا".

هذا قرآننا، وهذا فعله في أتباعه، وها هي توراتهم وفعلها في أتباعها، ثم يقولون: إن القرآن تُرْجِمَ عن التوراة، هيهات هيهات!!

إذا كان القرآن ترجمة عن التوراة، فلماذا لم يترجمه أحد من أحبار اليهود، أو رهبان النصارى، أو فطاحل اللغة من العرب، وتقدم لذلك النبي الأمي؟

لقد ثبت تاريخيًّا أن النبي ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ (٢٣٥٣٦)، والطبراني في الأوسط، باب العين، من اسمه عبد الرحمن (٤٧٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

يكتب، ودليل ذلك كتبة الوحي أمثال حسان بن ثابت وغيره، فلم يكتب النبي ﷺ القرآن بنفسه.

ثم إننا نتساءل: كيف يقرأ النبي ﷺ التوراة ويترجم عنها، ولم يكن له حظ حتى من قراءة "أشعار العرب"؟ فقد روت كتب التاريخ أن النبي ﷺ كان يتمثل قول أحد الشعراء "كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا" بزيادة باء على كلمة الشيب، فكان يقول: "كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهيًا" فيصوبها له أبو بكر الصديق ﷺ معقبًا: صدق من قال فيك: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ (يس:٦٩)، ثم أين أحبار اليهود؟ وأين رهبان النصارى، وأين أرباب اللسان من العرب؟ ما الذي عدل بهم عن أن يكسبوا هذه الشهرة الواسعة بترجمة التوراة، وجعلها كتابًا يُدَوَّن عليه اسمُهم؟ فهل يقبل العقل أن يتحرك النبي الأمي ﷺ في هذا الصدد ويكسل الفطاحل وكبار القوم؟

الآية ليست دليلًا على ترجمة القرآن عن التوراة، فلكي أقول: إن كتاب كذا مترجم عن كتاب كذا، ومجالها العلمي واحد، فيجب أن يكون مضمونًا الكتابين واحد، والمعاني التي أورداها واحدة، فكلمة ترجمة تعني نقل كلام من لغة إلى أخرى.

فبالله عليكم هل معاني القرآن الكريم كمعاني التوراة؟ هل أسلوب القرآن البليغ كأسلوب التوراة الركيك؟ هل حقائق القرآن الثابتة علميًّا كأباطيل التوراة التي تناقض العلم؟ فهذا موريس بوكاي ينظر ويتأمل الكتب السماوية الثلاث - القرآن والتوراة والإنجيل - فيقول شهادته للتاريخ، وللأجيال القادمة على ألا تنخدع.

يقول: لقد نظرت في التوراة والإنجيل والقرآن، فوجدت أن الحقائق العلمية الواردة في الكتابين المتقدمين - يعني التوراة والإنجيل - كمًّا متهافتًا فيه، أما في القرآن الكريم فوجدت كمًّا هائلًا من الحقائق العملية، وهي متطابقة تمامًا مع حقائق العلم الحديث.

رابعًا. الآية التي استدلوا بها على إمامة التوراة:

الآية التي استدلوا بها حينما نحللها نجد أنها تذكر أن التوراة كانت قبل القرآن إمامًا ورحمة، ولكن لمن؟ هل للقرآن؟ والله ما سمعنا أبدًا أن كتابًا يرحم كتابًا، قد يكون له إمامًا، لكن عطف الكلمتين - إمامًا ورحمة، تعني أن حكمهما واحد، وفقهاء اللغة العربية يقولون: إن في الآية محذوفًا معلومًا من السياق، هو من تقع عليهم إمامة الكتاب ورحمته وهم الناس، فيكون المعنى بعد رد المحذوف، إن التوراة كانت قبل القرآن إمامًا ورحمة للناس.

وهنا تتجلى الحقيقة الناصعة، هي أن الإمامة والرحمة قد انتقلتا إلى القرآن، وبقية الآية تدلل على صدق هذا المعنى، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ يعني أن القرآن يثبت هذه الإمامة والرحمة للتوراة قبل نزوله، ويعني أيضًا أن القرآن قد اشتمل على هذه الإمامة والرحمة بعد نزوله، فقد انتقلت إليه الإمامة والرحمة، وذلك لأن الإسلام دين عام شامل لكل الأديان السابقة.

فجميع رسل الله ﷻ وأنبيائه جاءوا بالإسلام العام، فلا دين عند الله إلا الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩)، والإسلام العام بالمعنى اللغوي الذي فعله أسلم: أي انقاد، وأذعن وخضع،

وسلم أمره لله، فهل جاء تشريع سماوي بغير ذلك؟ إئتونا بدليل، أما دليلنا فأقوال أنبياء الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأقوامهم:

فهذا نبي الله نوح عليه السلام يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (يونس)، وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام يقول: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾(البقرة). ويرد أبناؤه: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ (البقرة)، والحواريون يقولون: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ (آل عمران)، وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ (يونس).

خامسًا. أَخْذُ النبي ﷺ القرآن عن بحيرا زَعْمٌ لا يؤيده عقل ولا منطق:

إن التاريخ لا يعرف أكثر من أنه ﷺ سافر إلى الشام في تجارة مرتين: مرة في طفولته، ومرة في شبابه، ولم يسافر غير هاتين المرتين، ولم يجاوز سوق البصرة فيهما، ولم يسمع من بحيرا ولا من غيره شيئًا من الدين، ولم يكن أمره سرًّا هناك، بل كان معه شاهد في المرة الأولى هو عمه أبو طالب، وشاهد في المرة الثانية، هو ميسرة غلام خديجة التي خرج الرسول ﷺ بتجارتها يومئذ، وكل ما هنالك أن بحيرا رأى سحابة تظلله ﷺ من الشمس، فذكر لعمه أن سيكون لهذا الغلام شأن، ثم حذره من اليهود، وقد رجع به عمه خوفًا عليه، ولم تتم رحلته، كذلك روي هذا الحديث من طرق في بعض أسانيدها ضعف، ورواية الترمذي ليس فيها اسم بحيرا، وليس في شيء من الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرا الراهب أو تلقى منه درسًا واحدًا، أو كلمة واحدة لا في العقائد ولا في العبادات ولا في المعاملات ولا في الأخلاق، فأنى يؤفكون؟

إن تلك الروايات التاريخية نفسها تنفي أن يقف هذا الراهب موقف المعلم لمحمد ﷺ؛ لأنه بشَّره أو بشَّر عمه بنبوته، وليس بمعقول أن يؤمن رجل بهذه البشارة التي يزفها، ثم يُنَصِّبُ نفسه أستاذًا لصاحبها الذي سيأخذ عن الله ويتلقى من جبريل، ويكون هو أستاذ الأساتذة وهادي الهداة والمرشدين، وإلا كان هذا الراهب متناقضًا مع نفسه.

لو كان بحيرا الراهب مصدر هذا الفيض القرآني المعجز لكان هو الأحرى بالنبوة والرسالة.

إنه من المستحيل ـ في مجرى العادة ـ أن يُتِمَّ إنسان على وجه الأرض تعليمه وثقافته، ثم ينضج النضج الخارق للمعهود فيما تعلم وتثقف، بحيث يصبح أستاذ العالم كله؛ لمجرد أنه لقي ـ مصادفة أو اتفاقًا ـ راهبًا من الرهبان مرتين، على حين أن هذا التلميذ كان في كلتا المرتين مشتغلًا عن التعليم بالتجارة، وكان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وكان صغيرًا تابعًا لعمه في المرة الأولى، وكان حاملًا لأمانة ثقيلة في عنقه لا بد أن يؤديها في المرة الثانية، وهي أمانة الإخلاص في مال خديجة وتجارتها.

إن طبيعة الدين الذي ينتمي إليه الراهب بحيرا، تأبى أن تكون مصدرًا للقرآن الكريم وهدايته، خصوصًا بعدما أصاب ذلك الدين ما أصابه من

تغيير وتحريف، وحسبك دليلًا على ذلك أن القرآن الكريم قد صور علوم أهل الكتاب في زمانه بأنها الجهالات ثم تصدَّى لتصحيحها، وصور عقائدهم بأنها الضلالات ثم عمل على تقويمها، وصور أعمالهم بأنها المخازي والمنكرات ثم حض على تركها، ثم تذكر أن فاقد الشيء لا يعطيه، وأن الخطأ لا يمكن أن يكون مصدرًا للصواب، وأن الظلام لا يمكن أن يكون منبعًا للنور.

إن أصحاب هذه الشبهة يقولون: إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذي يمثل روح عصره أصدق تمثيل، فإذا كانوا صادقين في هذه الكلمة فإننا نحاكمهم في هذه الشبهة إلى القرآن نفسه، وندعوهم ليقرءوه ولو مرة واحدة بتعقل وإنصاف، ليعرفوا منه كيف كانت الأديان وعلماؤها وكتبها في عصره؟ وليعلموا أنها ما كانت لتصلح لأستاذية رشيدة، بل كانت هي في أشد الحاجة إلى أستاذية رشيدة، إنهم إن فعلوا ذلك فسيستريحوا ويريحوا الناس من هذا الضلال والزيغ، ومن ذلك الخبط والخلط: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ (النور) ®.

سادسًا. استحالة أن يكون الغلام الرومي الحداد هو مصدر القرآن:

فهذه التهمة لو كان لها نصيب من الصحة لفرح بها قومه، وقاموا لها ولم يقعدوا؛ لأنهم كانوا أعرف الناس برسول الله ﷺ، وكانوا أحرص الناس على تبهيته وتكذيبه، وإحباط دعوته بأية وسيلة، ولكنهم كانوا أكرم على أنفسهم من هؤلاء المدَّعين، فحين أرادوا طعنه بأنه تعلم القرآن من غيره، لم يفكروا في أن يقولوا: إنه تعلم من بحيرا الراهب كما قال هؤلاء؛ لأن العقل لا يصدق ذلك، والهزل لا يسعه، بل لجئوا إلى رجل في نسبة الأستاذية إليه شيء من الطرافة والهزل، حتى إذا مجت العقول نسبة الأستاذية إليه لاستحالتها، قبلتها النفوس لهزلها وطرافتها، فقالوا: إنما يعلمه بشر، وأرادوا بالبشر حدادًا روميًّا منهمكًا بين مطرقته وسندانه، يظل طول يومه في خبث الحديد وناره ودخانه، غير أنه اجتمع فيه أمران حسبوهما مناط ترويج تهمتهم:

أحدهما: أنه مقيم بمكة إقامة تيسر لمحمد ﷺ الاتصال الدائم الوثيق به والتلقي عنه.

والآخر: أنه غريب عنهم وليس منهم؛ ليخيلوا إلى قومهم أن عند هذا الرجل علم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم، فيكون ذلك أدنى إلى التصديق بأستاذيته لمحمد ﷺ، وغاب عنهم أن الحق لا يزال نوره ساطعًا يدل عليه؛ لأن هذا الحداد الرومي أعجمي لا يحسن العربية، فليس بمعقول أن يكون مصدرًا لهذا القرآن الذي هو أبلغ نصوص العربية، بل هو معجزة المعجزات ومفخرة العرب واللغة العربية ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل)[1] ®.

® في "لقاء النبي بحيرا الراهب" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة التاسعة، من الجزء السادس (العقيدة الإسلامية وقضايا التوحيد).

1. مناهل العرفان، عبد العظيم الزرقاني،مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٨: ٣٤٠ بتصرف.

® في "إبطال القرآن ادعاء تعلُّم النبي من غلام أعجمي" طالع: الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الأول (الشبهات التي تولى القرآن الرد عليها).

سابعًا. لا يمكن أن يكون ورقة بن نوفل هو مصدر القرآن الكريم:

إذا كان هؤلاء يدَّعون أن محمدًا ﷺ كان يلقى ورقة بن نوفل، فيأخذ عنه ويسمع منه، وورقة لا يبخل عليه؛ لأنه قريب لخديجة ـ زوج محمد ـ ويريدون بهذا أن يوهموا قارئيهم وسامعيهم بأن هذا القرآن استمد علومه من هذا النصراني الكبير، الذي يجيد اللغة العبرية ويقرأ بها.

فإذا كان هؤلاء يدَّعون ذلك فإننا نقول لهم: ما الدليل على تلك الدعوى الباطلة؟ وما الذي تعلمه محمد ﷺ من ورقة بن نوفل؟ كما أنهم لم يذكروا لنا: كم لقاء التقى فيه محمد ﷺ بورقة بن نوفل، بل إنهم لم يذكروا كم عاش ورقة بعد لقائه الأول مع رسول الله محمد ﷺ، ونحن نقرر هنا: أنه لا دليل عندهم على هذا الذي يتوهمونه، وأن خديجة ذهبت بالنبي ﷺ حين بدأه الوحي إلى ورقة، ولما قص رسول الله ﷺ قصصه قال: هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى.

ثم تمنى أن يكون شابًّا فيه حياة وقوة ينصر بها الرسول ويؤازره حين يخرجه قومه، ثم لم يلبث أن مات ورقة، وفتر الوحي مدة ستة أشهر ـ على خلاف بين العلماء ـ ولم تذكر الروايات الصحيحة أنه ألقى إلى الرسول عظة، أو درَّس له درسًا في العقائد أو التشريع، ولا ذكر أن الرسول ﷺ كان يتردد عليه حتى يتلقى منه، بل تؤكد الروايات أن ورقة لم يعش بعد هذا اللقاء إلا بضعة أشهر، ثم مات وهذه مدة قصيرة لا تكفي لأخذ كل هذا الفيض الإسلامي العظيم[1].

وإذا كان ما يدَّعيه هؤلاء حقًّا، وأن النبي أخذ عن ورقة عقائد النصارى، فهل ما جاء به النبي ﷺ هو ما عند النصارى من عقائد وتشريعات، أم أنه يخالف عقائدهم وينكرها عليهم، وينقضهم فيما حرَّفوه من الكلم وما كتموه من الحق؟!

إن كل الذي كان من أمر ورقة بن نوفل أنه بشَّر النبي ﷺ وتمنى أن يعيش حتى يكون جنديًّا مخلصًا في الدفاع عن الإسلام.

الخلاصة:

- الزعم القائل بأن النبي ﷺ نقل الكثير من الكلمات والآيات من كتب السابقين زعم باطل؛ لأن هذا يستدعي معرفة النبي ﷺ باللغات السابقة كتابة وقراءة، وهذا ما تجمع المصادر على نفيه؛ لأن النبي ﷺ كان أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة.
- الآيات التي يعتقد أصحاب هذا الادعاء أن بينها وبين آيات الإنجيل والتوراة تشابهًا ـ تختلف في معناها عن معاني تلك التي جاءت في كتبهم، فلا يوجد أدنى تشابه بينهما.
- الكلمات التي قيل: إن أصلها عبري أو آرامي أو سرياني، كلمات عربية أصيلة، فهي موجودة في نصوص شعرية قبل بعثة النبي ﷺ، وكذلك في معاجم اللغة القديمة، وتحمل معاني تخالف المعاني التي جاءت في اللغات العبرية الآرامية والسريانية.
- الله ﷻ تكفل بحفظ القرآن الكريم من الضياع والتحريف، وغير ذلك من أعمال البشر، ولم يترك هذه المهمة لبشر، ولو كان في مقام النبي ﷺ أو جبريل ؊ ولهذا جاء القرآن صحيحًا متناسقًا لا يعارض بعضه

---

١. مناهل العرفان، الزرقاني، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٣.

بعضًا - كما يدعي هؤلاء المتوهِّمون.

- قبل أن يطعن هؤلاء في القرآن الكريم، عليهم أولًا أن ينظروا في كتابهم الذي يظنون أنه مقدس؛ ليلمسوا ما فيه من مخالفات فاضحة وواضحة، وتناقضات بينة، فكلما جاء حبر من أحبارهم أو راهب من رهبانهم كتب لهم كتابًا جديدًا ليشتري به ثمنًا قليلًا، أما القرآن الكريم فهو عكس ذلك، فقد جاء من عند الله ﷻ ولم يتغير منذ نزوله إلى أن تقوم الساعة.
- النبي ﷺ لم يسافر إلى الشام إلا مرتين، وكان مشغولًا فيهما بالتجارة، وكان لقاؤه بالراهب "بحيرا" عابرًا، إذ كان طفلًا صغيرًا في الأولى، وكان مؤتمنًا على تجارة خديجة في الثانية، ويستحيل أن ينتج هذا الفيض القرآني المعجز عن لقاء خاطف بين رجلٍ أُمِّي وراهب نصراني.
- لو كان بحيرا هو مصدر القرآن لنسبه لنفسه، ونال ذلك الأمر العظيم بالأحرى! ولماذا لم يقدح قومه في القرآن بهذا، وهم كانوا أحرص الناس على تكذيبه؟
- أما عن الغلام الرومي، فهل يُعْقَل أن يكون مصدر القرآن البليغ المعجز ذلك الحداد الرومي الأعجمي، الذي لا يعرف شيئًا عن لغة العرب، والذي كان يقضي يومه منهكًا بين مطرقته وسندانه في خبث الحديد.
- أما عن ورقة فلم يرد أن النبي ﷺ كان يتردد عليه، كما أن ورقة لم يعش إلا قليلًا بعد البعثة، كما أن ما جاء به النبي ﷺ يخالف عقائد النصارى وأصولهم التي كان ورقة يدين بها كما يزعمون.
- إن غاية ما ورد في هذا الصدد أن ورقة بشَّر رسول الله ﷺ، وتمنَّى أن يكون حيًّا وفيه قوة حتى يدافع عن الإسلام ونبيه.

قالوا عن القرآن (*)

(١)

"يرتبط هذا النبي ﷺ بإعجاز أبد الدهر بما يخبرنا به المسيح عليه السلام في قوله عنه: (ويخبركم بأمور آتية)، هذا الإعجاز هو القرآن الكريم معجزة الرسول الباقية ما بقي الزمان؛ فالقرآن الكريم يسبق العلم الحديث في كل مناحيه من: طب، وفلك، وجغرافيا، وجيولوجيا، وقانون، واجتماع، وتاريخ.. ففي أيامنا هذه استطاع العلم أن يرى ما سبق إليه القرآن بالبيان والتعريف...".

"أعتقد يقينًا أنّي لو كنت إنسانًا وجوديًّا... لا يؤمن برسالة من الرسالات السماوية، وجاءني نفر من الناس، وحدثني بما سبق به القرآن العلم الحديث ـ في كل مناحيه ـ لآمنتُ برب العزة والجبروت، خالق السماوات والأرض، ولن أُشرك به أحدًا...".

إبراهيم خليل أحمد: قَسٌّ مُبَشِّرٌ، يحمل شهادات عالية في علم اللاهوت من كلية اللاهوت المصرية، ومن جامعة برنستون الأمريكية، كانت مهمته الحقيقية التنصير والعمل ضد الإسلام، لكن تعمُّقه في دراسة الإسلام قاده إلى الإيمان بهذا الدين، وأشهر إسلامه رسميًّا عام ١٩٥٩.

(٢)

"كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه، حتى إذا ظهر المسيح عليه السلام اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلَّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولًا وتفصيلًا من الكتابَيْن السابقين، كما صحح القرآن ما قد أُدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل... حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين؛ إذ إنه خاتم الكتب السماوية..".

واشنجتون إيرفنج: مستشرق أمريكي، أولى اهتمامًا كبيرًا لتاريخ المسلمين في الأندلس. من آثاره: (سيرة النبي العربي)، مُذيَّلة بخاتمة لقواعد الإسلام ومصادرها الدينية (١٨٤٩)، و (فتح غرناطة) (١٨٥٩) وغيرها.

(٣)

"إنه ليس هناك شيء لاديني في تزايد سيطرة الإنسان على القوى الطبيعية، هناك آية في القرآن الكريم يمكن أن يستنتج منها أنه لعل من أهداف خلق المجموعة الشمسية: لفت نظر الإنسان؛ لكي يدرس علم الفلك ويستخدمه في حياته: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس: ٥).

وكثيرًا ما يشير القرآن إلى إخضاع الطبيعة للإنسان؛ باعتبارها إحدى الآيات التي تبعث على الشكر والإيمان: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الزخرف). والقرآن لا يذكر تسخير الحيوان واستخدامه فحسب، ولكن يذكر السفن أيضًا.. فإذا كان الجَمَل والسفينة من نِعَم الله العظيمة، أفلا يصدق هذا أكثر على سِكَّة الحديد والسيارة والطائرة؟

د. ميلر بروز *Mllar Burrows*: رئيس قسم لغات الشرق الأدنى وآدابه، وأستاذ الفقه الديني الإنجيلي في جامعة بيل، وعمل أستاذًا بجامعة براون، وأستاذًا زائرًا بالجامعة الأمريكية في بيروت، ومديرًا للمدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية بالقدس.

(*) مُقتَبسات من كتاب "قالوا عن القرآن"، د. عماد الدين خليل، الكتاب يعرض أقوال علماء وأدباء ومفكري الغرب في القرآن، مَن أسلم منهم، ومن لم يُسلم.

(٤)

"... إن الفضل ـ بعد الله ـ يعود إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ لإسهامه قبل سنة ٦٥٥م في إبعاد المخاطر الناشئة عن وجود نُسَخ عديدة من القرآن، وإليه وحده يدين المسلمون بفضل تثبيت نصِّ كتابهم المنزَّل على مدى الأجيال القادمة".

"لا جرم في أنه إذا كان ثَمَّة شيء تعجز الترجمة عن أدائه، فإنما هو الإعجاز البياني واللفظي والجرس الإيقاعي في الآيات المنزَّلة في ذلك العهد.. إن خصوم محمد ﷺ قد أخطأوا عندما لم يشاءوا أن يروا في هذا إلاّ أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم ـ استقرائيًّا فقط ـ بتنبؤات الكُهَّان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطأ هذا الحُكْم وتهافته؛ فإن للآيات التي أعاد الرسول ﷺ ذكرها في هذه السور اندفاعًا وجلالةً تخلّف وراءها بعيدًا أقوال فصحاء البشر، كما يمكن استحضارها من خلال النصوص الموضوعة التي وصلتنا".

"... إن القرآن ليس معجزة بمحتواه وتعاليمه فقط، إنه أيضًا ـ ويمكنه أن يكون قبل أي شيء آخر ـ تُحفة أدبية رائعة تسمو على جميع ما أقرَّته الإنسانية وبجَّلته من التحف.. إن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ المعارض الفظَّ في البداية للدين الجديد قد غدا من أشدِّ المتحمسين لنصرة الدين عقب سماعه لمقطع من القرآن.

"... في جميع المجالات التي أطللنا عليها من علم قواعد اللغة والمعجم وعلم البيان، أثارت الواقعة القرآنية وغذَّت نشاطات علمية هي أقرب إلى حالة حضارية منها إلى المتطلبات التي فرضها إخراج الشريعة الإسلامية. وهناك مجالات أخرى تدخل فيها الواقعة القرآنية كعامل أساسي.. ولا تكون فاعليتها هنا فاعلية عنصر منبه فقط، بل فاعلية عنصر مبدع تتوطَّد قوته بنوعيَّته الذاتية...".

بلاشير *r.l.Blachere*: تخرج بالعربية في كلية الآداب بالجزائر (١٩٢٢)، وعُين أستاذًا لها في معهد مولاي يوسف بالرباط، واستدعته مدرسة اللغات الشرقية بباريس أستاذًا لكرسي الأدب العربي (١٩٣٥: ١٩٥١)، وعُين أستاذًا محاضرًا في السوربون (١٩٣٨)، ومن آثاره: دراسات عديدة عن تاريخ الأدب العربي في أشهر المجلات الاستشراقية، وكتاب (تاريخ الأدب العربي) (باريس ١٩٥٢)، و (ترجمة جديدة للقرآن الكريم) في ثلاثة أجزاء (باريس ١٩٤٧: ١٩٥٢)، وغيرها.

(٥)

"لا بدَّ عند تعريف النصِّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين؛ الأول: أنه كتاب مُنزَّل أزلي غير مخلوق. والثاني: أنه قرآن، أي: كلام حَي في قلب الجماعة... وهو بين الله والإنسانية الوسيط الذي يجعل أي تنظيم كَهَنُوتي غير ذي جدوى؛ لأنه مرضى به مرجعًا أصليًّا، وينبوع إلهامٍ أساسي... ومازال حتى أيامنا هذه نموذجًا رفيعًا للأدب العربي تستحيل محاكاته، إنه لا يُمثِّل النموذج المُحتذَى للعمل الأدبي الأمثل وحسب، بل يمثل كذلك مصدر الأدب العربي والإسلامي الذي أبدعه؛ لأن الدين الذي أُوحِي به هو ـ في الأساس ـ عدد كبير من المناهج الفكرية التي سوف يشتهر بها الكتاب..."

"... إن القرآن الكريم لم يقدَّر لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية فقط، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة... إن الأدوات التي يوفرها التنزيل القرآني قادرة ـ ولا ريب ـ على بناء

مجتمع حديث...".

مارسيل بوازار: مفكر وقانوني فرنسي معاصر، يعتبر كتابه (إنسانية الإسلام) ـ الذي انبثق عن الاهتمام نفسه ـ علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية المنصفة عن الإسلام.

(٦)

"... عندما أكملتُ القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخَلْق وغيرها، وأنه يقدِّم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية؛ أما القرآن فيتحدث عنها في نَسَق رائع وأسلوب قاطع، لا يدع مجالًا للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة".

"... إن المضمون الإلهي للقرآن الكريم هو المسئول عن النهوض بالإنسان وهدايته إلى معرفة الخلق، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر...".

"... كيف استطاع محمد ﷺ الرجل الأُمِّي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث ـ حتى يومنا هذا ـ يسعى لاكتشافها؟ لا بدَّ إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله ﷻ".

ديبورا بوتر *D. Potter*: تخرجت من فرع الصحافة بجامعة متشيغان، اعتنقت الإسلام عام ١٩٨٠ بعد زواجها من أحد الدعاة الإسلاميين العاملين في أمريكا، بعد اقتناع عميق بأنه ليس ثمة دين غير الإسلام يمكن أن يستجيب لمطالب الإنسان ذكرًا كان أو أنثى.

(٧)

"لقد قمتُ أولًا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مُسَبق، وبموضوعية تامة؛ باحثًا عن درجة اتفاق نصِّ القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنتُ أعرف ـ قبل هذه الدراسة عن طريق الترجمات ـ أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنصِّ العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمتُ بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل، أما بالنسبة للعهد القديم، فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول، أي: سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا، وأما بالنسبة للأناجيل... فإننا نجد نصَّ إنجيل مَتَّى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض".

"لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحدِّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، ذلك في نصٍّ كُتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام، وقد طرقتُ دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حُكْم مُسبَق وبموضوعية تامة... تناولت القرآن منتبهًا ـ بشكل خاص ـ إلى الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية، لقد أذهلتني دِقَّة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظواهر، وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي، أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن هذه الظواهر، والتي لم

يكن ممكنًا لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يُكَوِّن عنها أدنى فكرة...".

"... كيف يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أُمِّيًّا - أن يُصرِّح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يُكَوِّنها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة"؟

د. موريس بوكاي *Maurice Bucaille*: الطبيب والعالم الفرنسي المعروف.

(٨)

"... ابتعتُ نسخة من ترجمة سافاري الفرنسية لمعاني القرآن، وهي أغلى ما أملكُ، فلقيتُ من مطالعتها أعظم متعة وابتهجت بها كثيرًا، حتى غَدَوْت وكأن شُعاع الحقيقة الخالد قد أشرق علي بنوره المبارك".

وليم بيرشل بشير بيكارد *W. B. Beckard*: إنجليزي، تخرج من كانتربوري، مؤلف وكاتب مشهور، أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م.

(٩)

"إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يُقلَّد، وهذا - في أساسه - هو إعجاز القرآن.. فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى".

"... إن إعجاز القرآن لم يَحُلْ دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربي، أما إذا نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل، وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنجليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية، إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق للهجات".

د. فيليب حتى: *P. Hitti*: ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٠٨م)، عُيِّنَ رئيسًا لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩: ١٩٥٤م).

(١٠)

"إنه لا بدَّ من الإقرار بأن القرآن فضلًا عن كونه كتاب دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى، وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين، وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابيَّة لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكَوْن القرآن مُنزَّلًا ولا تحتمل التخطئة؛ فالمسيحيون يعترفون أيضًا بهذه الصوابيَّة، بقطع النظر عن كونه منزَّلًا أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة، كلما استعصى عليهم أمر من أمور اللغة".

د. جورج حنَّا *G. Hanna John*: مسيحي من لبنان، ينطلق في تفكيره من رؤية ماديَّة طبيعية صِرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الإنسان).

(١١)

"... تناولتُ نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية؛ لأنني عرفتُ أن هذا هو الكتاب المقدس عند المسلمين، فشرعتُ في قراءته وتدبُّر معانيه، لقد استقطب جُلَّ اهتمامي، وكم كانت دهشتي عظيمة حين وجدتُ الإجابة المقنعة عن سؤالي المحيِّر: ما الهدف من الخلق؟! في الصفحات الأولى من القرآن الكريم.. لقد قرأت الآيات (٣٠: ٣٩) من سورة البقرة، وهي آيات توضح الحقيقة بجلاء لكل دارس منصف، إن هذه الآيات تخبرنا بكل وضوح وجلاء وبطريقة مقنعة عن قصة الخلق...".

"... إن دراستي للقرآن الكريم وضَّحَتْ أمام ناظري العديد من الإشكالات الفكرية، وصحَّحت الكثير من التناقضات التي طالعتها في الكتب السماوية السابقة".

عامر علي داود *A.Ali David*: ينحدر من أسرة هندية بَرْهَمية، تنصَّرت على أيدي المبشرين الذين قدموا مع طلائع الاستعمار، كان كثير القراءة للكتب الدينية، ولما أُتيح له أن يطلع على القرآن الكريم كان الجواب هو انتماؤه للإسلام.

(١٢)

"للمسيح عليه السلام في القرآن مقام عالٍ، فولادته لم تكن عادية كولادة بقية الناس، وهو رسول الله الذي خاطب الله جهرًا عن مقاصده، وحدَّث عن ذلك أول شخص كلمه، وهو كلمة الله الناطقة من غير اقتصار على الوحي وحده... والقرآن يقصد النصرانية الصحيحة حينما يقول: إن عيسى عليه السلام كلمة الله، أو روح الله ألقاها إلى مريم، وأنه من البشر.. وهو يذمُّ مذهب القائلين بألوهية المسيح، ومذهب تقديم الخبز إلى مريم عبادةً ثم أكله وما إلى ذلك من مذاهب الإلحاد النصرانية، لا النصرانية الصحيحة، ولا يسع النصراني إلا أن يرضى بمهاجمة القرآن للثالوث المؤلف من: الله وعيسى ومريم".

"كان محمد ﷺ يعدُّ نفسه وسيلة لتبليغ الوحي، وكان مَبْلَغ حرصه أن يكون أمينًا مصغيًا أو سجلًّا صادقًا أو حاكيًا معصومًا لما يسمعه من كلام الظل الساطع والصوت الصامت للكلام القديم على شكل دنيوي، لكلام الله الذي هو أمّ الكتاب، للكلام الذي تحفظه ملائكة كرام في السماء السابعة، ولا بد لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بد له من معجزة يتحدى بها.. والقرآن هو معجزة محمد ﷺ الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال - إلى يومنا - يثيران ساكن من يَتْلُونَه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد ﷺ يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته.. ولا ريب أن في كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة في حياته الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرِّ نفوذه وعظيم نجاحه".

"كان لمحمد ﷺ بالوحي آلام كبيرة... وحالات مؤثرة، كره أن يطلع الناس عليها، ولاحظ أبو بكر رضي الله عنه ذات يوم - والحزن ملء قلبه - بدء الشيب في لحية النبي ﷺ، فقال له النبي: شيَّبتني هود وأخواتها (الواقعة والحاقة والقارعة)، وكان النبي ﷺ يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه فيُطبِّبه بالمراهم، وكان يُدَثَّر حين الوحي فيُسْمَع له غطيط وأنين، وكان إذا نزل الوحي عليه يتحدَّر جبينه عرقًا في البرد".

إميل درمنغم *E.Dremenghem*: مستشرق فرنسي، عمل مديرًا لمكتبة الجزائر. من آثاره: (حياة محمد)، وهو من أدق ما صنَّفه مستشرق عن النبي ﷺ، و(محمد والسنة الإسلامية).

(١٣)

"... إن العقل يحار كيف يتأتَّى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أُمِّي؟ وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظًا ومعنى، آيات لما سمعها عتبة بن ربيعة حار في جُماها - في بلاغتها وروعة إعجازها -، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فآمن برب قائلها، وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع لما تلى عليه

جعفر بن أبي طالب سورة مريم وما جاء في ولادة يحيى، وصاح القُسُس: إن هذا الكلام واردٌ من موارد كلام عيسى عليه السلام... لكن نحن ـ معشر الغربيين ـ لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي؛ لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما رُبِّيَت عليه الأمم عندنا، غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في معارضة تأثيره في عقول العرب، ولقد أصاب "جان جاك روسو" حيث يقول: "من الناس من يتعلم قليلًا من العربية، ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه سمع محمدًا ﷺ يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المُشْبع المُقْنِع الذي يُطْرِب الآذان ويؤثر في القلوب؛ لخرَّ ساجدًا على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله، خُذْ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نودُّ الموت أو الانتصار". ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب...".

"أتى محمد ﷺ بالقرآن دليلًا على صدق رسالته، وهو لا يزال ـ إلى يومنا هذا ـ سرًّا من الأسرار التي تعذَّر فكُّ طلاسمها، ولن يُسْبَرَ غَوْر هذا السر المكنون إلَّا لمن يُصَدِّق بأنه مُنَزَّل من الله...".

"... قد نرى تشابهًا بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتمِّمها، كما أن النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين".

الكونت هنري دي كاستري *Castries Cte.H.de*: (١٨٥٠ : ١٩٢٧): مقدم في الجيش الفرنسي، قضى في الشمال الأفريقي رَدَحًا من الزمن. من آثاره: (مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب) (١٩٠٥)، (الأشراف السعديون) (١٩٢١)، (رحلة هولندي إلى المغرب) (١٩٢٦)، وغيرها.

(١٤)

"لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكَّن للغة العربية في الأرض، بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلينا اليوم، لكان ميسورًا له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد، وذلك عكس ما يجده مثلًا أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر ـ الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيّي اليوم".

"... أحسّ المشركون ـ في دخيلة نفوسهم ـ أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم ﷺ، وكلهم كثيرًا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأخَّاذة التي ألهمها إيمان سماوي، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبِّهم لأعراض الدنيا...".

"إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمدًا كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرَّضة للنسيان السريع، بينما نستطيع أن نُسمِّي معجزة الآيات القرآنية: "المعجزة الخالدة"؛ وذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة في كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوربيون؛ لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة، فضلًا

عن أنها غير دقيقة".

"إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه، يحدث مثل هذا التأثير في نفوس علماء لا يمتُّون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماسة التي تستهوي عرب الحجاز وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الجميلة؟... لقد كانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم كأنهم قد سمَّروا فيه. أهذه الآيات الخارقة تأتي من محمد ﷺ ذلك الأُمِّي الذي لم ينل حظًّا من المعرفة؟ كلا إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وإنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات...".

أيتين دينيه *Et.Dinet* (١٨٦١: ١٩٢٩): تعلم في فرنسا، وقصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بو سعادة نصف السنة من كل عام، وأشهر إسلامه وتَسَمَّى بناصر الدين (١٩٢٧)، وحجَّ إلى بيت الله الحرام (١٩٢٨).

(١٥)

"... ظل القرآن أربعة عشر قرنًا من الزمان محفوظًا في ذاكرة المسلمين؛ يستثير خيالهم، ويشكِّل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال، والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد وأقلها غموضًا، وأبعدها عن التقيُّد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرُّرًا من الوثنية والكهنوتية، وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرَّضهم على اتباع القواعد الصحيحة، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسَّن أحوال الأرِقَّاء، وبعث في نفوس الأذِلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات، لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض...".

وول ديورانت *W.Durant*: مؤلف أمريكي معاصر، يعدُّ كتابه (قصة الحضارة) واحدًا من أشهر الكتب التي تؤرخ للحضارة البشرية عبر مساراتها المعقدة المتشابكة.

(١٦)

"من الدوافع العملية لدراسة التاريخ: توافر المادة التاريخية في القرآن، مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه، وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية ـ على مرِّ الزمن ـ أحد فروع المعرفة التي تَمُتُّ بالارتباط للقرآن، وإذا كان الرسول ﷺ قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية، كالتوراة في ترجماتها العربية، لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة، وقد ذكر الرسول ﷺ أن اليهود والنصارى حَرَّفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن.. لقد أشار القرآن إلى كثير من الأحداث التي أحاطت بالرسول ﷺ، وكان لذلك أهمية في التاريخ الإسلامي؛ لأن الأحداث التي أشارت إليها الآيات صارت لها أهمية تاريخية كبرى للمسلمين، واستثارت البحوث التاريخية...".

فرانز روزنثال *F.rsenthal*: من أساتذة جامعة ييل، من آثاره: العديد من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة مثل (الثقافة الإسلامية)، و (الشرقيات)، و (صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية)، كما ألَّف عددًا من الكتب من أشهرها: (مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي)، (علم التاريخ عند المسلمين).

(١٧)

"... لما كانت روعة القرآن في أسلوبه، فقد أُنزل ليُقرأ ويُتلى بصوت عالٍ، ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية، ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها؛ لتتمكن من تذوق أسلوبه وقوته وسمو صياغته... ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحرًا مؤثرًا في النفس؛ حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمدًا ﷺ كان ملهمًا بجلال الله وعظمته".

"كان في القرآن ـ فوق أنه كتاب ديني ـ خلاصة جميع المعارف، وظل زمنًا طويلًا أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذي شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية، ولا يزال ـ حتى اليوم ـ النص الذي تقوم عليه أسس التعليم في الجامعات الإسلامية، ولا تستطيع الترجمات، أن تنقل ثروته اللغوية؛ إذ يذبل جمال اللغة في الترجمات كأنها زهرة قُطفت من جذورها، ولذلك يجب أن يُقرأ القرآن في نصِّه الأصلي".

"إن القرآن يجد الحلول لجميع القضايا، ويربط ما بين القانون الديني والقانون الأخلاقي، ويسعى إلى خلق النظام والوحدة الاجتماعية، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات، إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين، ويوصي بالبر، ويأمر بالرحمة.. وفي مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومي، ونظم العقود والمواريث، وفي ميدان الأسرة حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرِقَّاء والحيوانات والصحة والملبس، إلخ...".

"... حقًّا، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم، ولم يتعرض ما جاء في القرآن ـ من: نَظَر وأخلاق ونظام ـ لأية تغييرات ولا لتبديلات بعيدة الغور".

"يظل القرآن طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية، فهو يضم بين أطرافه الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر".

جاك. س. ريسلر *J.S.restler*: باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس.

(١٨)

"إن لغة القرآن على اعتبار أنها اللغة التي اختارها الله ﷻ للوحي كانت ـ بهذا التحديد ـ كاملة... وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد، وجعل منها وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة".

جورج سارتون *G.Sarton*: (١٨٨٤: ١٩٥٦): ولد في بلجيكا، وحصل على الدكتوراه في العلوم الطبيعية والرياضية (١٩١١)، فلما نشبت الحرب رحل إلى إنجلترا، ثم تحول عنها إلى الولايات المتحدة، وتجنَّس بجنسيَّتها، فعين محاضرًا في تاريخ العلم بجامعة واشنطن (١٩١٦)، ثم في جامعة هارفارد (١٩١٧: ١٩٤٩)؛ وقد انكبَّ على دراسة اللغة العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت (١٩٣١، ١٩٣٢)، وألقى فيها وفي كلية المقاصد الإسلامية محاضرات ممتعة لتبيان فضل العرب على التفكير الإنساني، زار عددًا من البلدان العربية، وتمرَّس بالعديد من اللغات، ومُنِحَ عدة شهادات دكتوراه، كما انتُخب عضوًا في عشرة مجامع علمية وفي العديد من الجمعيات العالمية، وأشرف على عدد من المجلات العلمية.

(١٩)

"إن القرآن الكريم مع أنه أُنزل على رجل عربي أُمِّي نشأ في أمَّة أُمِّيَّة، فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها

الإنسان إلاّ في أرقى الجامعات، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة".

يوجينا غيانة ستشيجفسكا *Bozena - Gajane stryzewska*: باحثة بولونية معاصرة، درست الإسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين أخصائيين زهاء خمس سنوات (١٩٦١: ١٩٦٥)، تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك، وكانت قد أنهت دراساتها العليا في كلية الحقوق، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا.

(٢٠)

"في تلك الفترة من حياتي بدا لي وكأنني فعلتُ كل شيء وحققتُ لنفسي النجاح والشهرة والمال والنساء.. كل شيء، ولكن كنتُ مثل القرْد أقفز من شجرة إلى أخرى، ولم أكن قانعًا أبدًا، ولكن كانت قراءة القرآن بمثابة توكيد لكل شيء بداخلي كنت أراه حقًّا، وكان الوضع مثل مواجهة شخصيتي الحقيقية".

كات ستيفنز *C.Stephens*: المُغنّي البريطاني، نمساوي الأصل، بيع من أسطواناته ما يقدر بالمليون في الستينات وأوائل السبعينات، اعتنق الإسلام عام ١٩٧٦ بعد أن تعرف القرآن الكريم بواسطة شقيقه، يقضي الآن معظم وقته في المسجد، ويلعب دورًا فعَّالا في شئون الجالية الإسلامية في لندن.

(٢١)

"إن الآية التي أستطيبُ ذكرها هي التي تنبع سماحًا؛ إذ تقول: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (العنكبوت)، ذلك ما يقوله المسلمون للمسيحيين وما يؤمنون به؛ لأنه كلام الله إليهم، إنها لعبارات يجدر بنا ـ مسيحيين ومسلمين ـ أن نرددها كل يوم، فهي حجارة الأساس في بناءٍ نريده أن يتعالى حتى السماء؛ لأنه البناء الذي فيه نلتقي والذي فيه نلقى الله.

"... إن محمدًا ﷺ كان أُمّيًّا ـ لا يقرأ ولا يكتب ـ، فإذا بهذا الأمّي يُهْدي الإنسانية أبلغ أثر مكتوب حلمت به الإنسانية منذ كانت الإنسانية، ذاك كان القرآن الكريم، الكتاب الذي أنزله الله على رسوله هدى للمتقين...".

"... الإسلام ليس بحاجة إلى قلمنا، مهما بلغ قلمنا من البلاغة، ولكن قلمنا بحاجة إلى الإسلام، إلى ما ينطوي عليه من ثروة روحية وأخلاقية، إلى قرآنه الرائع الذي بوسعنا أن نتعلم منه الكثير".

"لم يُقدَّر لأي سِفْرٍ قبل الطباعة ـ أيًّا كان نوعه وأهميته ـ أن يحظى بما حظي به القرآن من عناية واهتمام، وأن يتوفَّر له ما توفَّر للقرآن من وسائل حفظته من الضياع والتحريف، وصانته عما يمكن أن يشوب الأسفار عادة من شوائب".

"تلك اللغة التي أرادها الله قمة اللغات، كان القرآن قمتها، فهو قمة القمم، ذلك بأنه كلام الله..".

نصري سلهب *N.Salhab*: مسيحي من لبنان، يتميز بنظرته الموضوعية وتحريه الحقيقة المجردة، كما عرف بنشاطه الدءوب لتحقيق التعايش السلمي بين الإسلام والمسيحية في لبنان.

(٢٢)

"... الواقع أن تحوير وتبديل مصاحف اليهود أمر أجمع عليه العلماء في عصرنا الحالي نتيجة الدرس والتنقيب، وقد جاء ذلك تأييدًا علميًّا للأقوال الربانية التي أُوحِيَتْ قبل نَيِّف وثلاثة عشر قرنًا على لسان النبي العربي الكريم ﷺ. أما الفرقان المجيد، فقد حافظ المسلمون عليه بحرص شديد وأمانة صادقة؛ فهو حقًّا الكتاب المقدس الفريد الذي أجمع الكل على سلامته وطهارته من التحوير.

"ورد في القرآن أنه جاء مهيمنًا على ما بين يديه من الكتاب، ويستدل من ذلك على أن التعاليم الإلهية المقدسة الأصلية قد ضمن القرآن المحافظة عليها، بما أوضحه من الحقيقة بإظهار الصحيح والدخيل في الكتب الرائجة في زمان نزوله، وعليه، فيكون بهذا البيان والإيضاح قد جاء خير مهيمن على كتب الله الحقيقية، وخير حافظ إياها من التلاعب".

"الواقع أنه يتعذر على المرء الذي لم يتقن اللغة العربية ولم يضطلع بآدابها، أن يدرك مكانة هذا الفرقان الإلهي وسموه، وما يتضمنه من المعجزات المبهرة، ولما كان القرآن الكريم قد تناول كل أنواع التفكير والتشريع؛ فقد يكون من العسير على إنسان واحد أن يحكم في هذه المواضيع كلها، وهل من مناص للمرء من الانجذاب إلى معجزة القرآن بعد تمعنه في أميّة نبي الإسلام، ووقوفه على أسرار حياة الرسول ﷺ... فقد جعل الله تعالى معجزة القرآن وأمِّيَّة محمد ﷺ برهانًا على صدق النبوة وصحة انتساب القرآن له... إن معجزة القرآن الكريم هي أكثر بروزًا في عصرنا الحالي، عصر النور والعلم، مما كانت عليه في الأزمنة التي سادها الجهل والخمول...".

د. حمد نسيم سوسه *Dr. A. N. Sousa*: باحث مهندس من العراق، وعضو في المجمع العلمي العراقي، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الري في العراق، كان يهوديًا فاعتنق الإسلام متأثرًا بالقرآن الكريم، وتوفي قبل سنوات قلائل.

(٢٣)

"لا تجد في القرآن آية إلا توحي بمحبة شديدة لله، وفيه حثٌّ كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي، وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حضٌّ على الوفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم، ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدًا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن...

"... صلح القرآن ليكون نموذجًا للأسلوب وقواعد النحو، فأوجب ذلك نشوء علم اللغة، فظهور علم البيان الذي درس فيه تركيب الكلام ومقتضى الحال والبديع وأوجه البلاغة، وأضحى لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مائة فرع، فأدى هذا إلى ما لا حصر له من التأليف في كل منها، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة من الفساد بمخالطة اللغات الأخرى...".

"مما يجدر ذكره: أن يكون القرآن ـ بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية في آسيا حتى الهند، وفي إفريقية حتى السودان ـ كتابًا يفهمه الجميع، وأن يربط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع برابط اللغة والمشاعر...".

لويس سيديو (١٨٠٨: ١٨٧٦) *l. Sedillot*: مستشرق فرنسي، عكف على نشر مؤلفات أبيه جان جاك سيديو، وصنف كتابًا بعنوان (خلاصة تاريخ العرب)، فضلا عن (تاريخ العرب العام)، وكتب العديد من الأبحاث والدراسات في المجلات المعروفة.

(٢٤)

"... القرآن وحي من الله، لا يدانيه أسلوب البشر، وهو ـ في الوقت عينه ـ ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف بالبابا ولا أي مَجْمَع لعلماء الكهنوت

والقساوسة، حيث لم يشعر الإسلام يومًا بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي الفلسفي؛ فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية، نجد بعض الخطوط المميزة، التي لا تبدو مطابقة تمامًا وبخاصة مع المسيحية.. فالنظام المسيحي اليهودي يخالف الإسلام، حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشري، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين ملئ بالواسطة... ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام، فمحمد ﷺ - مع كونه مبعوثًا ورسولًا من لدن الله - لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كل مجهوده انحصر في تنقيتها على ما جاء في القرآن، الذي وضع في العام الأول مهاجمة مبدأ الثلاثية، منبهًا إلى أن عيسى ليس سوى رجل، هو ابن مريم وليس بابن الله، والقول بأن الله له ولد هذا شرك كبير تنشق له السماء وتنفتح له الأرض وتنسحق له الجبال، أما روح القدس، فما هو إلا بمثابة ملاك، دوره هو أن ينقل إلى عيسى ومحمد ﷺ الدعوة المقدسة، أما مريم فهي مريم العذراء وليست بأم إله...".

هنري سيرويا *H. Serouya*: مستشرق فرنسي.

(٢٥)

"... عندما آمنت بالتوحيد بدأت أبحث عن الحجج والبراهين التي تثبت أن القرآن هو كتاب الله تعالى وأنه آخر الكتب السماوية وخاتمها، وإنني أحمد الله إذ مكنني من حل هذه المسألة، فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يعترف بكافة الكتب السماوية الأخرى، بينما نجد أنها جميعًا يرفض بعضها بعضًا.. وهذه في الحقيقة هي إحدى خصائص ومميزات القرآن الكريم، آخر الكتب السماوية وخاتمها".

"... إن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي يحفظه - عن ظهر قلب - ألوف مؤلفة من البشر في مختلف بقاع الأرض، بينما نجد أنَّ الكتب المقدسة الأخرى محفوظة بالخط المطبوع فقط، ومن هنا، لو حدث لسبب أو لآخر أن اختفت الكتب المطبوعة يظل القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ في الصدور. وهكذا يحق له أن يتباهى بأنه ظل في مَأْمَن من التحريف، لم ينقص منه حرف واحد ولم يزد فيه حرف واحد منذ أن نزل به الوحي على رسول الله ﷺ، فليست هناك أية تناقضات ولا أخطاء من أي نوع في القرآن الكريم، هذا في الوقت الذي تعاني فيه الكتب السماوية الأخرى في نسخها الحالية من الكثير من التغيير والتبديل. وهذا سبب آخر جعلني أؤمن بالإسلام".

بشير أحمد شاد *Basheer A. Shad*: ولد عام ١٩٢٨ لأسرة نصرانية هندية بقرية ديان جالو الهندية، كان أبوه ماتياس مُبَشِّرًا نصرانيًا، ولذا حرص على تنشئة ابنه على ذات الطريق، في عام ١٩٤٧ أكمل دراسته وبدأ يعمل مبشِّرًا في لاهور، لكنه - مِثْل كثيرين غيره - ما لبث أن فقد قناعاته - كليًّة - بالنصرانية، وانتهى به الأمر بعد عشرين سنة من البحث والمعاناة إلى إعلان إسلامه (حزيران عام ١٩٦٨).

(٢٦)

"إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي نقل إلينا أنباء تتصف بيقين مطلق، إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلًّا من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه، فأصيل فريد، وليس ثمة نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدَّر إلينا من العصور التي سبقته، والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي، إن آياته كلها على مستوى

واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لا بدَّ أن تؤثر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها، إنه يكرر قصص الأنبياء - عليهم السلام - وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته، إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معًا، وهما صفتان لا تجتمعان عادة، حيث تطبَّق كل صورة بلاغية تطبيقًا كاملًا، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ﷺ، وهو العربي الأمي الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أي منها عن أدنى موهبة شعرية"؟

"لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصَّه ظل صافيًا غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم الناس هذا، وأن نصَّه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف - بإذن الله - ما دام الكون".

"إن هذا الكتاب الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيَّما حسَّ بالملل، على العكس، إنه من طريق التلاوة المكرورة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يومًا بعد يوم، إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسًّا عميقًا من المهابة والخشية، إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم - على الرغم من انحسار موجة الإيمان - آلافًا من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب، وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل في أوربا كلها".

"إن انتشار الإسلام السريع لم يتم لا عن طريق القوة ولا بجهود المبشرين الموصولة، إن الذي أدى إلى ذلك الانتشار كون الكتاب الذي قدمه المسلمون للشعوب المغلوبة - مع تخييرها بين قبوله ورفضه - كتاب الله، وكلمة الحق، وأعظم معجزة كان في ميسور محمد ﷺ أن يقدمها إلى المترددين في هذه الأرض".

"فيما يتصل بخَلْق الكون، فإن القرآن - على الرغم من إشارته إلى الحالة الأصلية وإلى أصل العالم - لا يقيم أيما حدّ - مهما يكن - في وجه قوى العقل البشري، ولكنه يتركها طليقة تتخذ السبيل الذي تريد...".

لورا فيشيا فاغليري *l.Veccica Vaglier*: باحثة إيطالية معاصرة، انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديمًا وحديثًا، وإلى فقه العربية وآدابها. من آثارها: (قواعد العربية) في جزئين (١٩٣٧: ١٩٤١)، و (الإسلام) (١٩٤٦)، و (دفاع عن الإسلام) (١٩٥٢)، والعديد من الدراسات في المجلات الاستشراقية المعروفة.

(٢٧)

"أصبحت إلسا زوجتي - شأني أنا - أكثر تأثرًا مع الوقت بذلك الالتئام الباطني بين تعاليم القرآن الأخلاقية وتوجيهاته العملية، إن الله بمقتضى القرآن، لم يطلب خضوعًا أعمى من جانب الإنسان، بل خاطب عقله أنه لا يقف بعيدًا عن مصير الإنسان، بل إنه أقرب إليك من حبل الوريد، إنه لم يرسم أي خط فاصل بين الإيمان والسلوك الاجتماعي".

"لقد عرفتُ الآن - بصورة لا تقبل الجدل - أن الكتاب الذي كنت ممسكًا به في يدي كان كتابًا موحى به من الله، فبالرغم من أنه وضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، فإنه توقع بوضوح شيئًا لم يكن بالإمكان أن يصبح حقيقة إلا في عصرنا هذا، لقد عرف الناس التكاثر في جميع العصور والأزمنة، ولكن هذا

التكاثر لم ينته قط من قبل إلى أن يكون مجرد اشتياق إلى امتلاك الأشياء، وإلى أن يصبح ملهاة حجبت رؤية شيء آخر.. اليوم أكثر من أمس، وغدًا أكثر من اليوم.. لقد عرفت أن هذا لم يكن مجرد حكمة إنسانية من إنسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب، فمهما كان هذا الإنسان على مثل هذا القدر من الحكمة، فإنه لم يكن يستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرون، لقد كان ينطق لي من القرآن صوت أعظم من صوت محمد".

ليوبولد فايس (محمد أسد) *l. Weiss*: مفكر وصحفي نمساوي، أشهر إسلامه، وتسمى بمحمد أسد، وحكى في كتابه القيم (الطريق إلى مكة) تفاصيل رحلته إلى الإسلام، وقد أنشأ بمعاونة وليم بكتول، الذي أسلم هو الآخر، مجلة (الثقافة الإسلامية) في حيدر آباد (١٩٢٧)، وكتب فيها دراسات وفيرة معظمها في تصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام.

(٢٨)

"إن القرآن كلام الله يشد فؤاد المسلم، وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه إلى الاعتراف ببلاغة القرآن، اعتمادًا على أثره البليغ في قلوب قرّائه وسامعيه، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع".

"...إن القرآن كتاب تربية وتثقيف، وليس كل ما فيه كلامًا عن الفرائض والشعائر، وإن الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الأخلاق، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره...".

د. سيدني فيشر *Sydney Fisher*: أستاذ التاريخ في جامعة أوهايو الأمريكية، وصاحب الدراسات المتعددة في شئون البلاد الشرقية التي يدين أكثر أبنائها بالإسلام.

(٢٩)

"إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير، أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه، وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك الآية العظيمة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة)، فالبر - إذن - تاج الإيمان الحق، حين يدرك المؤمن أخيرًا أن الله شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده في كل أفكاره وأعماله".

"هذه - إذن - هي الرسالة التي بلّغها القرآن إلى الجيل الأول من المسلمين، وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ عهدئذ، فالقرآن سجل لتجربة حية مباشرة في ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحد مطلق، وآخر متصل بشئون الحياة العامة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته؛ ليتمكن من الأخذ بنصيب في تلك التجربة. وحين يتبع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه لا بفكره فحسب، بل بقلبه وروحه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسول الحبيب. ويعظم في عينيه مغزى كل آية فيه؛ لإيمانه بأنه كلام الله، ولو لم يكن هذا الإيمان شعبة من عقيدته لما تناقصت قيمته لديه من حيث هو منبع حي للإلهام والاستبصار الديني".

"مهما يكن أمر استمداد الإسلام من الأديان التي سبقته، فذلك لا يغير هذه الحقيقة أيضًا وهي: أن المواقف الدينية التي عبر عنها القرآن ونقلها إلى الناس تشمل بناء دينيًّا جديدًا متميزًا".

"... على الرغم مما قام به العلماء المتأخرون من تطوير لعلم كلام إسلامي منهجي، يبقى صحيحًا: أن جمهور الجماعة الإسلامية كان يتألف من شعوب أحدثت لديها ممارسة حقائق الدين ممارسة حدسية أثرًا أقوى وأسرع من كل أثر خلفه أي قدر من الجدل العقلي".

"إننا نخطئ خطأً فاحشًا إذا اقتصرنا على النظر إلى هذه العقيدة نظرتنا لمذهب لاهوتي أتقن بشكل وراثي من جيل إلى جيل منذ ألف وثلاثمائة سنة، إنها على العكس من ذلك يقين وإيمان حي يتجدد ويتأكد باستمرار في قلوب المسلمين وأرواحهم وأفكارهم، ولدى العربي بشكل خاص حين يدرس النصّ المقدس، لقد عارض المذهب السُّني المتمسك - بشكل عام - ترجمة القرآن إلى اللغات الإسلامية الأخرى، على الرغم من أن النص العربي يظهر في بعض الأحيان مقترنًا بترجمة تركية أو فارسية أو أورديَّة وغيرها من اللغات، إن هذا الموقف يستند إلى محاكمة شرعية متماسكة تصوغ حُججها - إلى حد ما - بشكل عقلاني، مستندة في ذلك إلى اعتبارات بعيدة عن هذا الشكل العقلاني.

والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي كما هي الحال بالنسبة للشعر الرفيع؛ إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله؛ لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تُدرس طويلًا قبل أن ينبثق المعنى للقارئ، والقرآن كذلك له حلاوة وطلاوة ونظم بديع مرتب لا يمكن تحديده؛ لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغى إلى القرآن لتلقي تعاليمه، ولا شك أن تأويل كلمات القرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلَّا أن يشوهها، ويحوِّل الذهب النقي إلى فخار...".

ير هاملتون إلكساندر روسكين جب (١٨٩٥: ١٩٦٧) *A. l. Gibb Prof.SilHamirton*: يعدُّ إمام المستشرقين الإنجليز المعاصرين، أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠، وأستاذ في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٩٣٧، وعضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي، وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن.

(٣٠)

"... وذكرتُ أيضًا ما جاء في القرآن عن خلق العالم، وكيف أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من كل نوع زوجين، وكيف أن العلم الحديث قد ذهب يؤيد هذه النظرية بعد بحوث مستطيلة ودراسات امتدت أجيالًا عديدة".

"إن أثر القرآن في كل هذا التقدم الحضاري الإسلامي لا يُنكر؛ فالقرآن هو الذي دفع العرب إلى فتح العالم، ومكّنهم من إنشاء إمبراطورية فاقت إمبراطورية الإسكندر الكبير والإمبراطورية الرومانية سعةً وقوةً وعمرانًا وحضارةً...".

"الواقع أن جُمَل القرآن وبديع أسلوبه أمْرٌ لا يستطيع له القلم وصفًا ولا تعريفًا، ومن المقرر أن تذهب الترجمة بجماله وروعته، وما ينعم به من موسيقى لفظية لست تجدها في غيره من الكتب، ولعل ما كتبه المستشرق جوهونسن بهذا الشأن يعبر كل التعبير عن رأي مثقفي الفرنجة وكبار مفكريهم قال: إذا لم يكن

شعرًا، وهو أمرٌ مشكوك به، ومن الصعب أن يقول المرء بأنه من الشعر أو غيره، فإنه في الواقع أعظم من الشعر، وهو إلى ذلك ليس تاريخًا ولا وصفًا، ثم هو ليس موعظة كموعظة الجبل، ولا هو يشابه كتاب البوذيين في شيء قليل أو كثير، ولا خُطَبًا فلسفية كمحاورات أفلاطون، ولكنه صوت النبوة يخرج من القلوب السامية، وإن كان عالميًّا في جملته، بعيد المعنى في مختلف سوره وآياته، حتى إنه يُردَّد في كل الأصقاع، ويُرتَّل في كل بلد تشرق عليه الشمس".

"أشار د. ماردريل المستشرق الفرنسي الذي كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن، إلى ما للقرآن الكريم من مزايا ليست توجد في كتاب غيره وسواه فقال: أما أسلوب القرآن، فإنه أسلوب الخالق ﷻ، ذلك أن الأسلوب الذي ينطوي عليه كُنْه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهيًّا. والحق والواقع أن أكثر الكُتَّاب ارتيابًا وشكًّا قد خضعوا لتأثير سلطانه وسحره، وأن سلطانه على ملايين المسلمين المنتشرين على سطح المعمورة جعل ذلك أن هذا الأسلوب الذي يفيض جزالة في اتساق مُنسَّق متجانس، كان لفعله الأثر العميق في نفس كل سامع يفقه اللغة العربية، لذلك كان من الجهد الضائع الذي لا يثمر أن يحاول المرء نقل تأثير هذا النثر البديع الذي لم يسمع بمثله بلغة أخرى...".

"الواقع أن للقرآن أسلوبًا عجيبًا يخالف ما كانت تنتهجه العرب من نظم ونثر، فحُسنُ تأليفه، والتئامُ كلماته، ووجوه إيجازه، وجودة مقاطعه، وحُسن تدليله، وانسجام قصصه، وبديع أمثاله، كل هذا وغيره جعله في أعلى درجات البلاغة، وجعل لأسلوبه من القوة ما يملأ القلب روعة، لا يملُّ قارئه ولا يَخْلَق بترديده... قد امتاز بسهولة ألفاظه حتى قلَّ أن تجد فيها غريبًا، وهي مع سهولتها جزلة عذبة، وألفاظه بعضها مع بعض متشاكلة منسجمة لا تحسُّ فيها لفظًا نابيًا عن أخيه، فإذا أضفتَ إلى ذلك سموَّ معانيه أدركت بلاغته وإعجازه".

اللادي إيفلين كوبولد *ady E. Cobold*: نبيلة إنجليزية، اعتنقت الإسلام وزارت الحجاز، وحجَّت إلى بيت الله، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في كتاب لها بعنوان (الحج إلى مكة) (لندن ١٩٣٤)، والذي ترجم إلى العربية بعنوان (البحث عن الله).

(٣١)

"من الوجه العلمي ـ بصرف النظر عن أنه كتاب مُوحَى به ـ فالقرآن أبلغ كتاب في الشرق... وهو حافل بالمجازات السامية ملىء بالاستعارات الباهرة...".

"أحكام القرآن ليست مقتصرة على الفرائض الأدبية والدينية... إنه القانون العام للعالم الإسلامي، وهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجزائية، ثم هو قانون ديني يُدار على محوره كل أمر من الأمور الدينية إلى أمور الحياة الدنيوية، ومن حفظ النفس إلى صحة الأبدان، ومن حقوق الرعية إلى حقوق كل فرد، ومن منفعة الإنسان الذاتية إلى منفعة الهيئة الاجتماعية، ومن الفضيلة إلى الخطيئة، ومن القصاص في هذه الدنيا إلى القصاص في الآخرة... وعلى ذلك؛ فالقران يختلف ماديًّا عن الكتب المسيحية المقدسة التي ليس فيها شيء من الأصول الدينية، بل هي في الغالب مركبة من قصص وخرافات في الأمور التعبدية، وهي غير معقولة وعديمة التأثير".

"لقد عثرتُ في دائرة المعارف العامة ***Popural Encycropedia*** على نبذة نصّها كما يأتي: إن لغة القرآن معتبرة بأنها من أفصح ما جاء في اللغة العربية، فإن ما فيه من محاسن الإنشاء وجمال البراعة جعله باقيًا بلا تقليد ودون مثيل، أما أحكامه العقلية، فإنها نقية زكية، إذا تأملها الإنسان بعين البصيرة لعاش عيشة هنية...".

"هذا القرآن الذي هو كتاب حكمة، فمن أجَالَ طرف اعتباره فيه، وأمعن النظر في بدائع أساليبه وما فيها من الإعجاز، رآه وقد مر عليه من الزمان ألف وثلاثمائة وعشرون سنة كأنه مقول في هذا العصر؛ إذ هو مع سهولته بليغ ممتنع، ومع إيجازه مفيد للمرام بالتمام. وكما أنه كان يُرَى مطابقًا للكلام في زمن ظهوره لهجة وأسلوبًا، كذلك يُرى موافقًا لأسلوب الكلام في كل زمن ولهجة، وكلما ترقّت صناعة الكتابة قدرت بلاغته وظهرت للعقول مزاياه، وبالجملة، فإن فصاحته وبلاغته قد أعجزت البلغاء وحيَّرت فصحاء الأولين والآخرين.

وإذا عطفنا النظر إلى ما فيه من الأحكام وما اشتمل عليه من الحِكَم الجليلة، نجده جامعًا لجميع ما يحتاجه البشر في حياته وكماله وتهذيب أخلاقه... وكذا نراه ناهيًا عما ثبت بالتجارب العديدة خسرانه وقبحه من الأفعال ومساوئ الأخلاق... وكم فيه - ما عدا ذلك أيضًا - ما يتعلق بسياسة المدن وعمارة الملك، وما يضمن للرعية الأمن والدَّعة من الأحكام الجليلة التي ظهرت منافعها العظيمة بالفعل والتجربة، فضلًا عن القول...".

"إن من ضمن محاسن القرآن العديدة أمرين واضحين جدًّا: أحدهما: علامة الخشوع والوقار التي تُشاهد دائمًا على المسلمين عندما يتكلمون عن المولى ويشيرون إليه... والثاني: خلوّه من القصص والخرافات وذِكْر العيوب والسيئات وإلى آخره، الأمر الذي يُؤسف عليه كثيرًا لوقوعه بكثرة فيما يسميه المسيحيون (العهد القديم)...".

عبد الله كويليام *Kwerem*: مفكر إنجليزي، ولد سنة ١٨٥٦، وأسلم سنة ١٨٨٧، وتلقّب باسم: "الشيخ عبد الله كويليام". من آثاره: (العقيدة الإسلامية) (١٨٨٩)، و (أحسن الأجوبة).

(٣٢)

"بسبب من أن مهمة ترجمة القرآن بكامل طاقته الإيقاعية إلى لغة أخرى، تتطلب عناية رجل يجمع الشاعرية إلى العلم، فإننا لم نعرف - حتى وقت قريب - ترجمة جيدة استطاعت أن تتلقف شيئًا من روح الوحي المحمدي، والواقع أن كثيرًا من المترجمين الأوائل لم يعجزوا عن الاحتفاظ بجمال الأصل فحسب، بل كانوا إلى ذلك مفعمين بالحقد على الإسلام إلى درجة جعلت ترجماتهم تنوء بالتحامل والغرض، ولكن حتى أفضل ترجمة ممكنة للقرآن في شكل مكتوب لا تستطيع أن تحتفظ بإيقاع السور الموسيقى الآسر، على الوجه الذي يُرتِّلها به المسلم، وليس يستطيع الغربي أن يدرك شيئًا من روعة كلمات القرآن وقوّتها إلا عندما يسمع مقاطع منه مُرتَّلة بلغته الأصلية".

"... إن بين آيات قِصار السور ترابطًا باهرًا له تأثيره الوجداني، وفي الحق أن سماع السور تُتلَى بالأصل العربي كثيرًا ما يُخلِّف في نفس المرء تأثيرًا بليغًا، لقد أُريد

بالقرآن أن يُتلى في صوت جهير، ويتعيَّن على المرء أن يسمعه مُرتلًا؛ لكي يحكم عليه حكمًا عادلًا ويقدره حق قدره... وبوصفه كلمة الله الحقيقية، كان معجزًا لا سبيل إلى محاكاته".

روم لاندو ***randaul***.: نحّات وناقد فني إنجليزي، زار زعماء الدين في الشرق الأدنى (١٩٣٧)، وحاضر في عدد من جامعات الولايات المتحدة (١٩٥٢: ١٩٥٧)، أستاذ الدراسات الإسلامية وشمالي إفريقيا في المجمع الأمريكي للدراسات الآسيوية في سان فرنسيسكو (١٩٥٣).

(٣٣)

"... إن أصول الأخلاق في القرآن عالية علوّ ما جاء في كتب الديانات الأخرى جميعها، وإن أخلاق الأمم التي دانت له تحوَّلت بتحوُّل الأزمان والعروق مثل تحول الأمم الخاضعة لدين عيسى عليه السلام... إن أهم نتيجة يمكن استنباطها هي تأثير القرآن العظيم في الأمم التي أذعنت لأحكامه، فالديانات التي لها ما للإسلام من السلطان على النفوس قليلة جدًّا، وقد لا تجد دينًا اتفق له ما اتفق للإسلام من الأثر الدائم، والقرآن هو قطب الحياة في الشرق وهو ما نرى أثره في أدق شئون الحياة....إن هذا الكتاب ـ القرآن ـ تشريع ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون...".

كوستاف لوبون ***Dr. G. lebon***: ولد عام ١٨١١م، وهو طبيب ومؤرخ فرنسي، عُني بالحضارة الشرقية. من آثاره: (حضارة العرب) (باريس ١٨٨٤)، و (الحضارة المصرية)، و(حضارة العرب في الأندلس).

(٣٤)

"... إن المسلم العصري يعتقد أن كتابه المُنْزل يسمح له، بل يوجب عليه أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت إليها علوم زمنه... وأن مزية القرآن ـ في عقيدة المسلم ـ أنه مُتمِّم للكتب السماوية ويوافقها في أصول الإيمان، ولكنه يختلف عنها في صفته العامة؛ فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضي عهدها، ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها، وكل ما يُراد به الدوام ينبغي أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان".

"إنه من الضروري لإدراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي، أن تُدرك صدق المسلم حين يؤكد أن القرآن يمكن أن يظل أساسًا لإدراك الحكم المعقدة التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث، فإن النبي ﷺ يرى أن القرآن هو حلقة الاتصال بين الإله في كماله الإلهي، وبين خليقته التي يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الإنسان، وأن واجب الإنسان أن يعمل بمشيئة الله للتنسيق بين العالم الإلهي، وبين عالم الخلق والشهادة، وخير ما يُدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة إنسانية تتحرى أعمق الأوامر الإلهية وألزمها، وهي أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والإحسان، وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الإنسان لتحقيق نجاته، فهو ثم مسئول عن أعماله ومسئول كذلك عن مصيره".

د. إلس ليختنستادتر ***Ilse lictenstadter***: سيدة ألمانية، درست العلوم العربية والإسلامية في جامعة فرانكفورت، ثم في جامعة لندن، وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرقَيْنِ الأدنى والأوسط، وعنيت عناية خاصة بدعوات الاجتهاد والتجديد والمقابلة بين المذاهب. من مؤلفاتها: (الإسلام والعصر الحديث).

(٣٥)

"إنني لا أشك لحظة في رسالة محمد ﷺ، وأعتقد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه بُعث للناس كافة، وأن

رسالته جاءت لختم الوحي الذي نزل في التوراة والإنجيل، وأحسن دليل على ذلك هو القرآن المعجزة، فأنا أرفض خواطر "بسكال" العالم الأوربي الحاقد على الإسلام والمسلمين إلّا خاطرة واحدة، وهي قوله: ليس القرآن من تأليف محمد ﷺ، كما أن الإنجيل ليس من تأليف مَتّى".

فنساي مونتاي: المنصور بالله الشافعي *F. Montague*: فرنسي، رجل بحث وترحال، اختص بدراسة القضايا الإسلامية والعربية عن كثب، قضى سنوات عديدة في المغرب والمشرق وإفريقيا وآسيا، ونشر عشرات الأبحاث والكتب عن الإسلام والحضارة الإسلامية، وانتهى الأمر به إلى إعلان إسلامه في صيف عام ١٩٧٧.

(٣٦)

"... لن أستطيع ـ مهما حاولت ـ أن أصف الأثر الذي تركه القرآن في قلبي، فلم أكد انتهى من قراءة السورة الثالثة من القرآن حتى وجدتني ساجدة لخالق هذا الكون، فكانت هذه أول صلاة لي في الإسلام...".

عائشة برجت هوني *Ayesha Bridget Honey*: نشأت في أسرة إنجليزية مسيحية، وشغفت بالفلسفة، ثم سافرت إلى كندا لإكمال دراستها، وهناك في الجامعة أُتيح لها أن تتعرف الإسلام وأن تنتهي إليه، وقد عملت مدرسة في مدرسة عليا في نيجيريا.

(٣٧)

"يعتبر القرآن قلاقلَ العصر نتيجة أسباب دينية على الرغم من الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وأنه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثل كل شيء، وأنه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن؛ نظرًا لنجاح محمد ﷺ في تبليغ الرسالة التي أمره الله بتبليغها...".

"يجب علينا ـ مهما كان موقفنا الديني ـ أن نعتبر رسالة القرآن انبثاقًا خلاقًا في الوضع المكي، ولا شك أنه كانت توجد مشاكل تتطلب الحلّ، وأزمات حاول البعض تخفيفها، ولكن كان يستحيل الانتقال من هذه المشاكل وتلك الأزمات إلى رسالة القرآن بواسطة التفكير المنطقي.. ولا شك أن رسالة القرآن تحل مشاكل اجتماعية وأخلاقية وفكرية، ولكن لا تحلّها جميعًا دفعة واحدة وليس بصورة بديهية، وربَّما قال مؤرخ دنيوي: إن محمدًا وقع صدفة على أفكار كانت بمثابة المفتاح لحل المشاكل الأساسية في زمانه، وليس هذا ممكنًا، ولا يمكن للمحاولات التجريبية ولا للفكر النافذ أن يفسّر لنا كما يجب رسالة القرآن".

مونتجمري وات *Montgomery Watt*: عميد قسم الدراسات العربية في جامعة أدنبرا سابقًا.

المصادر والمراجع

- أباطيل الخصوم حول القصص القرآني، د. عبد الجواد المحص، الدار المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، د. ت.
- الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، القرافي، تحقيق: د. بكر زكي عوض، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- أخلاق المسلم وعلاقته بالنفس والكون، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ٢٠٠٥م.
- الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- آراء يهدمها الإسلام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- أسئلة العصر المحيرة، محمد فتح الله كولن، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- الاستشراق والقرآن العظيم، د. محمد خليفة، نقله: مروان عبد الصبور شاهين، دار الاعتصام، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، د. عبد المتعال محمد الجبري، د.ن، د. م، ١٩٩٥م.
- الإسلام بين الحقيقة والادعاء، مجموعة علماء، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٦م.
- الإسلام دين الهداية والصلاح، محمد فريد وجدي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- الإسلام في تصورات الغرب، د. محمود حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٧م.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الإسلام والأديان الأخرى: نقاط الاتفاق والاختلاف، أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- الإسلام، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٦، ١٩٨٢م.
- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، إدوارد جيبون، ترجمة: محمد سليم سالم، مراجعة: محمد أبو ريدة، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ت.
- أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، تحقيق: قاسم الصالحي، دار المحراب للطباعة، بيروت، د. ت.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
- أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة، رسول جعفريان، تقديم: د. محمد عمارة، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.
- بحوث في علوم القرآن، د. محمد نبيل غنايم، دار الهداية، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

- بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيمي، دار عمار، عمان، ط٢، ١٩٩٦م.
- البرهان على سلامة القرآن من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان، د. أحمد بن منصور آل سبالك. مركز البحث العلمي للدراسات وإحياء التراث الإسلامي، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، د. ت.
- بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارت، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، القاهرة، د. ت.
- البيان في درء التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. عاطف المليجي، مكتبة اقرأ، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- البيان في دفع التعارض المتوهم بين آيات القرآن، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر، ١٩٨١م.
- بين الإسلام والمسيحية، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق: د. محمد شامة، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٥م.
- تاريخ الشعوب العربية، د. ألبرت حوراني، ترجمة: نبيل صلاح الدين، مراجعة: د. عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن، مصطفى إبراهيم الزلمي، جامعة صدام، العراق.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، الشيخ محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، د. ت.
- تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م.
- تنزيه القرآن عن المطاعن، القاضي عبد الجبار، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- جمع القرآن في مراحله التاريخية من العصر النبوي إلى العصر الحديث، د. محمد شرعي أبو زيد، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، الكويت، د. ت.
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ابن قيم الجوزية، مكتبة نزار الباز، الرياض، ط١، ١٩٩٦م.
- حرية الاعتقاد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الله ناصح علوان، دار السلام، مصر، ط٤، ٢٠٠٤م.
- حضارة الإسلام، جوستاف فون جرونباوم، ترجمة: عبد العزيز جاويد، وعبد الحميد العبادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
- حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- حلول لمشكلة الربا، د. محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط١، ١٩٩٦م.
- الحوار الإسلامي المسيحي ضرورة المغامرة، د. سعود المولى، دار المنهل، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
- الحوار الخفي: الدين الإسلامي في كليات اللاهوت، محمد الحسيني إسماعيل، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
- الدر المنقوش في الرد على جورج بوش، عبد البديع كفافي، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- دراسات حول القرآن والسنة، د. شعبان محمد إسماعيل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- دراسات في القرآن الكريم، د. محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧م.
- دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
- دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٧، ١٩٩١م.
- الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمن بدوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي الموريتاني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- رد افتراءات المنصرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، د. ت.
- ردُّ القرآن والكتاب المقدس على أكاذيب القمص زكريا بطرس، إيهاب حسن عبده، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد الشربيني، دار الصحيفة، المنصورة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى، ابن حزم، دار العروبة، د. م، ١٩٦٠م.
- الرد على كتاب "أخطاء إلهية في القرآن الكريم"، مجمع البحوث الإسلامية، مصر، ٢٠٠٣م.
- الرد على كتاب جورج بوش "حياة محمد"، السيد حامد السيد، مطابع الولاء الحديثة، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.
- رد مفتريات على الإسلام، عبد الجليل شلبي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، مكتبة الأزهر، القاهرة، ط١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي، دار الكتاب المصري، القاهرة، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- السلام والحرب في الشريعة الإسلامية: دراسة مقارنة، محمود محمد الطنطاوي، د. ن، د. م ، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
- شبهات المعترضين ومفترياتهم حول صدق نبوة محمد ورسالته، ماهر عبد الوهاب محمد حجاج، د. ت.
- شبهات في كتاب "القرآن وعلومه في مصر" والرد عليها، محمد عطا أحمد يوسف، مطبعة النيل، القاهرة، د. ت.
- شرح الإعلان بتكميل مورد الظمآن، إبراهيم المارغني التونسي، د. ت.
- الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، د. محمد عمارة، نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٤م.
- عصمة القرآن من الزيادة والنقصان، السيد مرتضى الرضوي، مؤسسة دار الهجرة، طهران، ط١، ١٤٢٢هـ.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد فؤد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- قالوا عن القرآن، د. عماد الدين خليل، د. ت.
- قرآن أمريكي ملفق "الفرقان الحق"، د. إبراهيم عوض، زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- القرآن والرسول ومقالات ظالمة، د. عبد الصبور مرزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- القرآن واليهود، منصور الرفاعي عبيد، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٨م.
- قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
- قصص القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- قضايا معاصرة، د. محمد نبيل غنايم، دار الهداية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- الكنز المرصود في فضائح التلمود، د. محمد عبد الله الشرقاوي، دار عمران، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
- لا نسخ في القرآن، لماذا؟ عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤م.

- لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد البوطي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
- مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، نهضة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٣، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- محمد ﷺ أعظم البشر، حمزة النشرتي، وعبد الحفيظ فرغلي، دار النشرتي، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٥م.
- مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، مراجعة وتقديم: د. السيد محمد بدوي، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد بن محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- المستشرقون والقرآن، د. إسماعيل سالم عبد العال، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، المقاولون العرب، القاهرة، ط٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م.
- المعجزة الكبرى: القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.
- المفترون: خطاب التطرف العلماني في الميزان، فهمي هويدي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م.
- مفتريات على الإسلام، د. عبد الجليل شلبي، دار القلم، القاهرة، ١٩٨٢م.
- المقاصد الشرعية للعقوبات في الإسلام، د. حسن الجندي، دار النهضة العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، مكتبة مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م
- منهج عمر بن الخطاب في التشريع، د. محمد بلتاجي، مكتبة دار السلام، القاهرة،ط١، ٢٠٠٤م.
- الموافقات، الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.
- موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- موسوعة القرآن العظيم، د. عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
- الموسوعة القرآنية المتخصصة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- موقف ابن تيمية من النصرانية، د. مريم عبد الرحمن زامل، معهد البحوث، جامعة أم القرى، السعودية، ط١، ١٩٩٧م.

- الناسخ والمنسوخ في الكتاب المقدس، علاء أبو بكر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٩٧٧م.
- النبوة المحمدية: دلائلها وخصائصها، د. محمد سيد أحمد المسير، دار الاعتصام، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- النبوة والأنبياء، محمد على الصابوني، دار الصابوني، مكة، ١٣٩٠هـ.
- نظرات شرعية في فكر منحرف، سليمان بن صالح الخراشي، مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م.
- نظرية النسخ في الشرائع السماوية، شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- نقض الاشتباه بتعلم الرسول من ورقة، حسني يوسف الأطير، مكتبة النافذة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر، ترجمة: سمير عبد الحميد، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- هذه مشكلاتهم، د. محمد سعيد البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ.
- الوحي والقرآن الكريم، د. محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- يقولون عن الإسلام، د. عبد الحافظ سلامة، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.



موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الأول : القرآن

المجلد السابع

ج ١١، ج ١٢



العنوان:

موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الأول: القرآن
المجلد السابع (ج١١، ج١٢)

إشراف عام:

داليـا محمـد إبراهيـم

الترقيم الدولي: 3-4281-14-977
رقم الإيداع: 2010/19041
الطبعة الأولى: يناير 2011



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة